SS

الدكتور علي الوردي

استاذ متمرس

بجامعة بغداد

لمحات اجتماعية

من

تاريخ العراق الحديث

الجزء الثالث

SS

الدكتور علي الوردي

استاذ متمرس
بجامعة بغداد

لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث

الجزء الثالث

من عام ١٨٧٦ الى عام ١٩١٤

مقدمة

ان هذا الجزء يستوعب فترة أمدها ثمانية وثلاثون عاماً تبدأ من عـام ١٨٧٦ حين تسنم السلطان عبدالحميد عرش آل عثمان وتنتهي في عـام ١٩١٤ حين أعلنت الحرب العالمية الاولى • وهي فترة مهمـة جـداً من الناحيـة الاجتماعية حيث تعرض العراق فيها لتيار الافكـار والمخترعات والنظـم الاوربية الحديثة مما أدى الى حدوث تغير ملحوظ في حيـاة السـكان المعنوية والمادية •

ان السنوات القليلة التي سبقت تلك الفترة شهدت بداية دخول بعض المخترعات الى العراق كالبواخر النهرية ومحطات التلغراف ومراكز البريد، وهذه كانت بمثابة رفع الحواجز التي كانت تحجب المجتمع العراقي عن تيار الحضارة الحديثة واخراجه من العزلة الاجتماعية التي كان يعيش فيهمـا • وفي عام ١٨٦٩ حدث أمران كان لهما كل الاثر في هذا الاتجاه : أولهمـا مجيء مدحت باشا والياً الى العراق والمعروف عن هذا الوالي أنه أدخل الكثير من معالم الحضارة الحديثة الى العـراق ، كالمدرسة والمستشفى والمطبعـة والجريدة والمصنع وسكة الترام والحديقة العامة والشارع المبلط وغيرهـا. والأمر الثاني هو فتح قناة السويس ، والواقع ان هذه القنـاة كان لها تأثير عظيم في العراق من الناحيتين الاقتصادية والفكرية •

يقول يوسف غنيمة في كتابه « تجارة العراق » عن تأثير قناة السويس في العراق ما نصه : «ان هذا المشروع وحده أحيا تجارتنا وربطها بأوربـة لا بل بعالم الحضارة بأجمعه ، أو بعبارة أخرى أنقلها عن بسمارك وهو قوله ان قناة السويس هي النخاع الشوكي فـي المملكة البريطانيـة ، ويحق لي

القول هنا انها النخاع الشوكي في تجارة العراق أيضاً »[1] . ويقول الأب انستانس ماري الكرملي في حديثه عن البصرة : « ... وكانت تجارتها شيئاً زهيداً لا يستحق الذكر ولما خرقت الترعة وبدأ عبورها سنة ١٨٦٩ تغيرت الاحوال تغيراً عظيماً وأخذت تجارتها ترتفع ارتفاعاً عجيباً اذ ما كانت تمضي السنة الواحدة الا وقد تضاعفت المقادير عما كانت في السنة المنصرمة . وكان الانكليز أسبق الامم الى نقل البضائع منها واليها وهم الذين نشطوا البصريين لترويج التجارة وغرس النخيل لاجتناء التمر . نعم ان النخيل كان موجوداً في البصرة ونواحيها لكن لم يكن بالألوف المؤلفة على ما نشاهد عدده اليوم . فقد أكد لي العارفون أن النخيل زاد مائة ضعف عدداً من بعد عشر سنوات من فتح قناة السويس ... » [2] .

كان من أهم نتائج فتح القناة ــ بالاضافة الى انشاء خطوط البواخر والتلغراف والبريد ــ زيادة الصادرات العراقية كالحبوب والتمور والصوف والمصارين والجلود والعفص وعرق السوس والكثيراء والحنظل والصمغ والافيون . فقد أخذت هذه السلع تلقى رواجاً في أوربا والهند وغيرهما ، وصارت المقادير التي تنقلها البواخر منها تنمو باطراد . يكفي لتوضيح ذلك أن نقول ان كمية الصادرات العراقية كانت قبل فتح القناة تناهز ما قيمته مائة وخمسون ألف دينار ، ثم صارت تزداد تدريجياً حتى وصلت في عام ١٩١٣ قريباً من ثلاثة ملايين دينار ، ومعنى هذا أنها خلال تلك المدة تضاعفت عشرين مرة[3] .

والواقع ان هذا الانتاج الاقتصادي انتج تحولاً لا يستهان به في طبيعة الانتاج الزراعي . فقد كانت الزراعة العراقية قبلئذ قائمة على أساس الاقتصاد القبلي ، أي أن القبيلة كانت تنتج ما تحتاج اليه ، ولكنها أصبحت

---

(١) يوسف رزق الله غنيمة (تجارة العراق قديماً وحديثاً) ــ بغداد ١٩٢٢ ــ ص ٨٩ .

(٢) انستانس ماري الكرملي (خلاصة تاريخ العراق) ــ البصرة ١٩١٩ ــ ص ١٨٦ ــ ١٨٧ .

(٣) محمد سلمان حسن (التطور الاقتصادي في العراق) ــ بيروت ١٩٦٥ ــ ج١ ص ٩٤ .

SS

فيما بعد تنتج من أجل البيع والربح • ومن هنا قام بعض المزارعين خاصة في المناطق الجنوبية ، بتحويل أراضيهم الى انتاج زراعي كبير من أجل بيعها في الاسواق الخارجية تدفعهم الى ذلك الارباح الكبيرة •

يمكن القول ان زيادة الصادرات أدت بدورها الى زيادة الواردات يقول يعقوب سركيس : ان العراقيين أصبحوا يجلبون من أوربا عوضاً عن أثمان صادراتهم بضائع كثيرة من منتجاتها الصناعية التي لم يكونوا من قبل قادرين على شرائها لقلة ما في أيديهم من نقود[٥] • ويجب أن لا ننسى أن أكثر السلع التي استوردت من أوربا هي استهلاكية ، والقليل منها انتاجية •

من أهم المواد الانتاجية التي استوردت الى العراق في تلك الايام هي المضخات التي تستعمل لرفع مياه السقي من الأنهر • وبدأ الناس في بعض المناطق يسمعون لأول مرة في حياتهم أصوات المضخات وهي تعمل في هدوء الليل • وقد بلغ مجموع ما استورد من تلك المضخات في بداية القرن العشرين اثنى عشر ، ثم أخذ عددها يزداد عاماً بعد عام [٦] • وكذلك استوردت مكائن لصنع الثلج وأخرى لطحن الحبوب وتقشير الارز وغير ذلك • وقد ظهرت من جراء ذلك حرفتان شعبيتان احداهما لمن يعمل في تشغيل الماكنة ويسمى « مكينجي » ، والاخرى لمن يعمل في اصلاح المكائن ويسمى « فيترچي » •

ان هذا التطور الاقتصادي كان من العوامل الفعالة في ظهور تطور اجتماعي مواز له • فسكان العراق ارتفع عددهم من مليون وربع في منتصف القرن التاسع عشر الى ما يقارب ضعف ذلك العدد في عام ١٩١٤ ، وكذلك تحول الكثير من البدو الرعاة الى زراع مستقرين في الارض ، فقد دلت الاحصاءات أن البدو كانوا في عام ١٨٦٧ يؤلفون نسبة ٣٥ بالمائة من سكان العراق

---

(٤) عبدالله الفياض (الثورة العراقية الكبرى) ـ بغداد ١٩٦٣ ـ ص ٣٩ •
(٥) يعقوب سركيس (مباحث عراقية) ـ بغداد ١٩٥٥ ـ ج٢ ص٢٧٥ ـ ٢٧٦ •
(6) Stephen Hemsley Longrigg (Iraq1900 To 1950) Oxford 1956 — P . 64 .

فيما كان أهل المدن يؤلفون نسبة ١٧ بالمائة [٧] . وظهرت خلال تلك الفترة منها قرى لم يكن لها وجود من قبل أو كانت قرى صغيرة فنمت ، وفيما يلي أسماء القرى والمدن مرتبة حسب سنوات تأسيسها أو بداية نموها :

العمارة ١٨٦١ ـ علي الغربي ١٨٦٤ ـ العزيزية ١٨٦٥ ـ قلعة صالح ١٨٦٨ ـ المحمودية ١٨٦٨ ـ الكوت ١٨٦٩ ـ الهندية ١٨٧٠ ـ الرمادي ١٨٧٠ ـ الناصرية ١٨٧٠ ـ شيخ سعد ١٨٧١ ـ الصويرة ١٨٧٢ ـ قلعة سكر ١٨٧٣ ـ الشطرة ١٨٧٣ ـ أبو صخير ١٨٧٥ ـ المجر الكبير ١٨٧٦ الكميت ١٨٧٨ ـ البغيلة ١٨٨٢ ـ الرفاعي ١٨٩٣ ـ الشامية ١٨٩٧ ...

والواقع أن ظهور هذا العدد الكبير من المدن في تلك المدة المحدودة له دلالته الاجتماعية ، فهو يشير الى ازدياد السيطرة الحكومية من جهة كما يشير الى نمو الحضارة من الجهة الاخرى . والملاحظ أن اكثر تلك المدن تقع على ضفاف دجلة فيما بين بغداد والقرنة ، وهذا كان من نتائج انشاء خط البواخر النهرية هناك لأن تلك المدن بدأت في الغالب كمحطات لتزويد البواخر بالوقود أو تزويد المسافرين بالطعام ثم نمت بعدئذ من جراء عوامل اقتصادية وحضارية أخرى .

طبقة الافندية :

ظهرت في العراق آنذاك طبقة اجتماعية جديدة يطلق عليها اسم « الافندية » ، وهم عادة من متخرجي المدارس الحديثة ، وصاروا يحلون محل الموظفين القدماء في الدوائر الحكومية تدريجياً ، وكان لهم أثر لا يستهان به في ادخال معالم الحضارة الحديثة الى المجتمع العراقي .

وصف لونكريك طبقة الافندية بقوله : انهم كانوا يعرفون القراءة والكتابة من غير أن يكون لهم علم فوق ذلك ، وكانوا يحاولون تقليد الاوربيين بملابسهم تقليداً مضحكاً ، ويصرون على التكلم بالتركية بين العرب ، ويحتقرون العشائر والفلاحين ، ويكثرون من ذكر المصطلحات العلمية والفنية ، ولكنهم في الوقت نفسه مرتشون قادرون على تأجيل أية معاملة

---

(٧) محمد سلمان حسن (المصدر السابق) ـ ج١ ص ٥٣ .

الى أجل غير مسمى[٨] .

ان هذا الوصف الذي جاء به لونكريك قد يصدق على الكثير من الافندية فعلاً ، ولكننا يجب أن نعترف في الوقت نفسه انهم كانوا نتاج ظروفهم الثقافية والاجتماعية . انهم وجدوا انفسهم قد تعلموا شيئاً من المبادىء والمصطلحات العلمية الحديثة وهم يعيشون في مجتمع تغلب عليه الأمية والخرافة ، فاذا تحدثوا فتح الناس افواههم اعجاباً بحديثهم ، فخيل اليهم أنهم من طينة تختلف عن طينة الناس حولهم . ولهذا وجدناهم يتعالون على الناس ويجعلون لأنفسهم نوادي خاصة بهم ، ولا يكلمون الناس الا من وراء أنوفهم ، غير أنهم كانوا على الرغم من ذلك من عوامل التجديد في العراق من حيث ارادوا أو لم يريدوا .

كان تحدثهم في المصطلحات الحديثة مثل «الاوكسجين» و «المقروب» و «الجاذبية» و «كروية الأرض» يثير في أذهان الناس تطلعاً نحو آفاق جديدة ويحفزهم الى الجدل في قضايا لم يكونوا يألفونها من قبل . أضف الى ذلك أن الافندية في كل بلدة يحلون فيها كانت لهم حاشية من وجهاء تلك البلدة هم الذين يطلق العامة عليهم لقب « أهل الجبب » ، فكان هؤلاء الوجهاء يفتخرون بكونهم يجالسون الأفندية ويحادثونهم ، وكثيرا ما كانوا يقلدونهم في بعض « حذلقاتهم » العلمية ، فينقلونها الى العامة . وقد يظهر بين العامة من يُعجب بتلك « الحذلقات » فيحاول تقليدها بدوره . وقد يؤدى ذلك في بعض الاحيان الى نشوء صراع فيأوساط العامة يشبه من بعض الوجوه صراع المجددين والمحافظين . شهد كاتب هذه السطور في صباه جماعة من العامة يثلبون أحدهم ويسخرون منه لأنه امتنع عن شرب الماء من طاسة المقهى بحجة احتوائه على « مقروب » ، وكان تهكمهم عليه شديداً ، ثم مرت الايام واذا ببعض اولئك المتهكمين أصبحوا يتقززون من « المقروب » على منوال ما تقزز منه الذي تهكموا عليه سابقاً . ان من عادة البشر أنهم يستنكرون الشيء الجديد في البداية ثم يألفونه أخيراً !

---

(8) Stephen Hemsley Longrigg (Four Centuries Of Modern Iraq) - Oxford 1925 — P . 281 — 282 .

وكان للافندية أثر اجتماعي آخـر هو من حيث ميلهم الى التجـديد في الملبس والمسكن وما أشبه . فهم أول من استعمل الملابس الافرنجيـة والطربوش ، كما أنهم أول من استعمل الاثاث الحديث كالكرسي والمنضدة ، واتخذوا الملعقة والسكين والشوكة في تنـاول الطعـام ، وقرأوا الجرائد والمجلات ، وحلقوا لحاهم . ان هذه الامور كانت مصدر فخار وزهو لهم باعتبارها من علامات التمدن التي تميزهم عن سواد الناس . وقد تابعهـم في ذلك بعض الوجهاء من « أهل الجبب » . أما العامة واكثر رجال الدين فكانوا ينظرون الى تلك الامور نظرة ازدراء وتحريم اذ هي تؤدي الى التشبه بالكافر وهذا محرم في نظرهم حسب المبدأ القائل : « من تشبه بعمل قوم عُـدَّ منهم » . حدثني ثقة عن شاب من أهل بغداد عاش في أواخر القرن الماضي أنه ترك لبس الحذاء القديم المعروف باسـم « اليمني » واتخـذ «القندرة» بدلاً منه اقتداءاً بالافندية، فثارت عليه من جراء ذلك ضجة بين أقربائه وأهل محلته ، وذهب اخوه الى عمته يشكو اليها منـه ويقول انـه سوَّد وجه الأسرة امام الناس وطلب منها أن تنصحه وتردعه ، وقد حاولت العمة نصح ابن أخيها دون جدوى اذ هو بقي مصراً على لبس « القندرة » ورفض « اليمني » !

تأثير المطبوعات المصرية :

شهدت مصر منذ منتصفه القرن التاسع عشر نهضة طباعية وصحافيـة زاهرة ، وقد ساهم فيها المسيحيون الذين هاجروا الى مصر من بلاد الشـام فراراً من الاستبداد الحميدي كيعقوب صروف وفارس نمر وشبلي شـميل وجرجي زيدان وفرح انطون وغيرهم . وصار نتاج تلك النهضة يأتي الـى العراق بكثرة فأحدث فيه أثراً فكرياً لا يستهان به .

أصبحت مصر كأنها الواسطة الفكرية ودار التعريب بين أوربا والبـلاد العربية ، فكانت الافكار الحضارية الجديدة تأتي اليها من أوربا ، فيترجمها الكتاب والمؤلفون المصريون بعد أن يضيفوا اليها طعماً عربياً ، ثم ترسل بعدئذ بشكل صحف ومجلات وكتب الى العراق والبلاد العربية الاخرى عن طريق البواخر . وكان سير البواخر يومذاك منتظماً يحمل رزم المطبوعات الآتيـة

من مصر كما يحمل المنتوجات الصناعية الآتية من أوربا .

أهم المجلات التي كانت ترد الى العراق في تلك الآونة هي المقتطف والهلال ، وكانت النزعة الغالبة على كلتا المجلتين هي الدعوة نحو تبني الحضارة والعلوم الحديثة ، ونحو بناء المجتمع على أساسها ، ولكن مجلة المقتطف كانت تنزع نحو الفلسفة والعلوم الطبيعية بينما كانت مجلة الهلال تنزع نحو العلوم الاجتماعية واللغوية والتاريخية . يقول الاستاذ ألبرت حوراني : « ... عندما وصلت الاعداد الاولى من المقتطف الى بغداد في ١٨٧٦ ، لم يرحب بالمجلة الا بعض الشباب ، بينما قاومها المحافظون من مختلف المذاهب السنية والشيعيةوالمسيحية واليهودية ، لأنها كانت فينظرهم تنشر عقائد جديدة وخطرة . حتى أن نعمان الآلوسي نفسه ، الذي كان زعيم حركة اصلاح اسلامية لا تختلف عن حركة محمد عبدة ، قاومها هو أيضاً . وقد انقضى بعض الوقت قبل أن أخذت عقائدها في الانتشار»[٩].

كانت مجلة المقتطف تنشر مقالات متسلسلة في شرح نظرية داروين بقلم شبلي شميل ، وحين وصلت المجلة الى العراق انبرى لها بعض علماء الدين في النجف يردون عليها ويفندونها ، وكان أنشطهم في ذلك الشيخ أغا رضا الاصفهاني والشيخ جواد البلاغي ، والفوا في ذلك كتباً ضخمة باسلوبهم الجدلي . وقد أرسل أحدهم كتابه في نقد النظرية الى شبلي شميل ظناً منه أن هذا الرجل سيقتنع بسقم النظرية بعد قراءته للكتاب وسيعلن تركه لها ، ولكن شبلي شميل أرسل اليه جواباً مقتضباً هذا هو : « عذرك جهلك والسلام » .

رائدان فكريان :

من أوائل الذين أولعوا بالمطبوعات المصرية وتأثروا بها اثنان ، أحدهما في بغداد والآخر في النجف هما جميل صدقي الزهاوي وهبة الدين الشهرستاني .

---

(٩) البرت حوراني (الفكر العربي في عصر النهضة) – ترجمة كريم عزقول – بيروت ١٩٦٨ – ص ٢٩٥ – ٢٩٦ .

كان الزهاوي من قراء المقتطف وأول من اعتنق نظرية داروين في العراق ومن اكبر دعاة الحضارة الحديثة فيه ، وقد صار في نظر المعممين زنديقاً وفي نظر الافندية فيلسوفاً • انه لم يكتف بالدعوة الى الافكار الحديثة بل أخذ ينتقد بعضها ليدل بذلك أنه صار فيلسوفاً حقاً !

أنتقد الزهاوي نظرية نيوتن في الجاذبية باسلوب لا يختلف في أساسه المنطقي عن أسلوب آغا رضا الاصفهاني في انتقاد نظرية داروين ، ولـكن الافندية اعتبروه عبقريا لأنه استطاع أن ينتقد نظرية كبرى من نظريات العلم الحديث دون أن يكون له المام بها سوى ما قرأه عنها فـي مجلـة المقتطف وأمثالها • ان هذا أمر غير مقبول في ايامنا هذه ولكنه كان في تلك الايـام يُعد من علامات الذكاء الخارق والعبقرية •

أما الشهرستاني فكان يشبه الزهاوي من بعض الوجوه ويختلف عنـه من وجوه أخرى • كان الشهرستاني في أوائل القرن العشرين من اكثر الناس ولعاً بالمطبوعات المصرية بحيث صار مرجعاً لها عند الراغبين فيها من شـبان الملائية ومتجدديهم ، وقد اتخذ له حلقة دراسية في جامع الطوسي كان يدرس فيها بعض مبادىء العلوم الحديثة التي استمدها من المجلات والكتب المصرية، فأثار بذلك شيئاً من الضجة واعتبره المتزمتون متفرنجاً زنديقاً •

نشأ كل من الزهاوي والشهرستاني نشأة دينية اذ كانت أسرتاهما مـن الأسر الدينية المعروفة ، غير أن الشهرستاني ظل محافظاً على عمامته وزيـه الديني حتى آخر يوم من حياته ، بينما خلع الزهاوي عمامتـه في كهولتـه ودخل في سلك « الافندية » ، وهذا الفرق الظاهري يشير الى ما بينهمـا من اختلاف ذهني عميق •

قد يصح أن نقول ان الفرق بين الرجلين هو كالفرق بين النجف وبغداد من الناحية الاجتماعية ، فالنجف تُعد بيئة اجتماعية مغلقة بالمقارنة الى بغداد اذ يسودها التزمت والتقليد ولا يأتيها الغريب الا لكي يتأثر بها أو يذوب فيها، أما بغداد فهي على النقيض من ذلك مفتوحة يلتقي فيهـا الغرباء والأجـانب من كل صوب فيؤثرون فيها أكثر مما يتأثرون منها •

كان كل من الزهاوي والشهرستاني يسير في تجـديده الفكري علـى

طريقة تلائم البيئة الاجتماعية التي عاش فيها ، فالزهاوي كان شديد الاعجاب بالعلوم الحديثة ويريد من الدين أن يلحق بها ويتفق معها . أما الشهرستاني فكان على النقيض من ذلك شديد التمسك بالدين ويريد من العلوم الحديثة أن تلحق به وتواكبه وتتفق معه ، ولهذا رأيناه في جميع كتبه ومقالاته يحاول أن يبرهن للقراء أن الدين الاسلامي قد سبق العلوم الحديثة بنظرياته وأن تلك العلوم لم تأت بما يناقض الاسلام أبداً ، أما اذا ظهر بينهما شيء من التناقض فمرد ذلك الى سوء الفهم وقلة الاطلاع .

في عام ١٩١٠ نادى الزهاوي بتحرير المرأة ورفع الحجاب عنها ، فقامت عليه في بغداد ضجة كادت تودي بحياته . وفي العام التالي نادى الشهرستاني بتحريم نقل الجنائز فقامت عليه في النجف ضجة مماثلة . ان كل واحد من هذين الرجلين كان ينظر الى الدنيا من خلال اطاره الفكري الخاص به ، فالزهاوي يريد أن يقفز بالمجتمع العراقي الى الحياة الحديثة دون مبالاة بالدين والتقاليد ، بينما كان الشهرستاني يريد عودة المجتمع الى حظيرة الدين بعد تنقيته من الادران التي لحقت به في العهود المتأخرة .

نجحت دعوة الزهاوي أخيراً بينما أخفقت دعوة الشهرستاني ، ذلك لأن التيار الحضاري جبار ساحق لا يقبل بأنصاف الحلول . وهذا هو ما نلاحظه واضحاً في أبناء الجيل الجديد اذ هم تركوا الدين وراء ظهورهم وانغمسوا في الحضارة الحديثة ينهلون منها بلا حدود . ولا ندري أين سينتهي المطاف بالناس أخيراً !

الفصل الاول

السلطان عبد الحميد

لكي نفهم الأحداث التي وقعت في عهد السلطان عبدالحميد ـــ وهـــو العهد الذي دام اثنين وثلاثين عاماً ـــ يجب علينا دراسة شخصية هذا الرجل وبعض سيرته على شيء من التفصيل .

ولد عبدالحميد في ٢٢ ايلول ١٨٤٢ من جارية شركسية اسمها «حاجي» يقال انها كانت أرمنية فأسلمت ، وقد أحيط الطفل منذ يومه الاول باشاعات غير حسنة ويذكر ان أباه السلطان عبدالمجيد لـــم يعترف بأبوته الا بعـــد مرور اسبوع على مولده ، وصارت نساء الحريم يتهامسن ـــ كما هي عادتهن في مثل هذه الامور ـــ عن نسبة الطفل الى أب أرمني يدعى بدروس كان يعمل طباخاً في القصر ثم اختفى ولم يظهر لـــه بعـــد ذلك أي أثر . ويرى بعض المؤرخين أن هذه الاقاويل التي أحاطت بمولد عبدالحميد كان لها أثر غيـــر قليل على سلوكه وتفكيره عندما أصبح سلطاناً .

لم يكن عبدالحميد في أول أمره يأمل أن يكون سلطاناً لوجود أخ له اكبر منه سناً هو مراد ، وحين بلغ عبدالحميد طور الشباب كان الصـــراع شديداً بين دعاة الدستور ودعاة الاستبداد في عهد عمه السلطان عبدالعزيز، وكان دعاة الدستور تحت زعامة مدحت باشا وقـــد اســـتطاعوا أخيراً أن يخلعوا السلطان عبدالعزيز وينصبوا مكانه ابن أخيه مراد .

المظنون أن مراد كان يحمل في جهازه العصبي استعداداً للجنون ، فلما أزفت ساعة تنصيبه على العرش كان كأنه فوجيء بذلك مفاجأة هزت عقلـــه وأثارت فيه كوامن الخبل . وخلاصة القصة أن وزير الحربية جـــاء اليـــه في منتصف الليل ليخبره بخلع عمه ونصبه اياه سلطاناً ، وكان مراد آنذاك نائماً فلما أوقظ من النوم وجد نفسه بغتة أمام وزير الحربية وهو بملابسه

العسكرية فتصور أن عمه السلطان قد أرسل اليه الوزير لقتله ، وعندما تكلم الوزير ليذكر الغرض من مجيئه لم يفهم مراد من كلامه شيئاً بل ظل يحملق فيه مرتجفاً ثم شرع لشدة خوفه يتوسل الى الوزير ان يبقي على حياته • وقد اضطر الوزير ازاء هذه الحالة أن يخرج مسدسيه فوضعهما بين يدي مراد قائلا له : « يا صاحب الجلالة •• اذا كان عندك أي شك في سلامتك فباستطاعتك أن ترميني بالرصاص فوراً » • ثم قاده الوزير وهو لا يزال مرتجفاً الى مركب كان واقفاً في الانتظار[1] •

ولم يكد مراد يجلس على العرش حتى بدأت امارات الجنون تظهر واضحة عليه • وفي اليوم السادس من جلوسه انتحر السلطان المخلوع بأن قطع شريان ذراعه بمقص ، فزاد هذا الحادث في وطأة الجنون عليه • وقد استدعت الحكومة أمهر الاطباء من أوربا لعلاجه بلا جدوى ، فان الجنون أخذ يشتد عليه يوماً بعد يوم • ومضى عليه شهران دون أن يكون في حالة تسمح بمقابلة السفراء الاجانب لتقديم أوراق اعتمادهم ، او بتقليد سيف آل عثمان كما تقتضي به التقاليد •

وفي الوقت الذي كان الجنون يستفحل على السلطان مراد ، كان مدحت باشا يتصل سراً بعبدالحميد ليفاوضه في أمر احتمال نصبه سلطاناً مكان أخيه ، وكان مدحت باشا أثناء المفاوضة يحاول التعرف على رأي عبدالحميد في الدستور وهل هو موال له أو معاد ، ويقال ان عبدالحميد ابدى أمام مدحت باشا حماسا شديدا للدستور وأعلن انه عند تسلمه الحكم سيمنح الشعب حرية واسعة ، ويدعو مجلس الامة ، ويسن القوانين الملائمة لروح العصر ، ثم كتب صكاً بذلك وحلفه يميناً عليه[2] •

وبعد أن استوثق مدحت باشا وأعوانه من ميول عبدالحميد الدستورية أصدر شيخ الاسلام فتوى أجاز فيها خلع السلطان مراد كان هذا نصها : « اذا جن امام المسلمين جنوناً مطبقاً ، ففات المقصود من الامامة ، فهل يصح

---

(١) آلما وتلن (عبد الحميد ظل الله في الارض) ـ ترجمة راسم رشدي ـ القاهرة ١٩٥٠ ـ ص ٦١ ـ ٦٢ •

(٢) صديق الدملوجي (مدحت باشا) ـ بغداد ١٩٥٣ ـ ص ١٠٥ •

حق الامامة من عهدته ؟ الجواب : يصح والله أعلم »[٣] .

عبد الحميد سلطاناً :

في ٣٠ آب ١٨٧٦ جرى الاحتفال بتنصيب عبدالحميد سلطاناً ، وفي ١٩ تشرين الاول أسند عبدالحميد الصدارة العظمى أي رئاسة الوزارة الى مدحت باشا ، وفي ٢٣ كانون الاول أعلن الدستور فاطلقت المدافع بتلك المناسبة ورفعت اعلام الزينة على بنايات الحكومة .

فرح مدحت باشا وأعوانه بما تم غاية الفرح . فقد خيل لهم أن الدنيا ارتمت كلها في أحضانهم ، وان الدعوة الدستورية التي كافحوا من أجلها طويلا بدأت تعطي ثمارها ، وان السلطان عبدالحميد سيكون آلة طيعة في ايديهم يحركونه كما يشاؤون . ولكنهم سرعان ما شعروا بخيبة الامل وأدركوا أنهم بنصبهم عبدالحميد كانوا كأنهم يحفرون قبورهم بأيديهم .

كان مدحت باشا منذ بداية توليه الصدارة حريصا على تدعيم أواصر الاخاء بين المسلمين والمسيحيين ، فقد زار بطريق الروم وبطريق الأرمن وحدثهما عن الحرية التي يمنحها الدستور لجميع المواطنين من غير تفريق بينهم ، وكان هذا أمراً فريدا من نوعه اذ لم تعهد الدولة العثمانية في تاريخها أن زار الصدر الاعظم رؤساء الطوائف المسيحية ، وقد قابل المسيحيون هذه البادرة بحماس وابتهاج . ولم يكتف مدحت باشا بذلك بل رفع الى السلطان كتاباً يقترح فيه قبول الطلاب المسيحيين في المدارس العسكرية ، ثم أتبعه بكتاب آخر يقترح فيه تعيين ولاة مسيحيين في بعض الولايات العثمانية ، غير أن السلطان أهمل الجواب على هذين الكتابين مما جعل مدحت باشا يقدم له احتجاجاً شديد اللهجة يتهمه فيه بأنه يعمل على هدم كيان الدولة .

وكان مدحت باشا علاوة على ذلك قد أطلق الحرية للصحافة ، فأخذت الصحف تكتب ما تشاء وتنتقد من تشاء من غير قيد ، وتجرأت بعض الصحف فصارت تنتقد السلطان والاسرة المالكة بصورة مباشرة أو غير مباشرة . وقد امتعض السلطان من ذلك كل الامتعاض وأرسل الى مدحت باشا مذكرة

---

(٣) قدري قلعجي (مدحت باشا) — بيروت ١٩٥١ — ص ٥٠ .

بما نشرته الصحف من أمور لا يرضى عنها طالباً منه معاقبتها ، لكن مدحت باشا وقف الى جانب الصحف يدافع عنها وأجاب السلطان بأن الدستور يخول الصحافة حق الكتابة في شؤون الدولة بحرية تامة .

نفد صبر السلطان أخيراً ، فدبر بالتعاون مع بعض أنصاره ورجال حاشيته مؤامرة لعزل مدحت باشا وابعاده . وفي ليلة ٢٤ كانون الثاني ١٨٧٧ نفذ السلطان مؤامرته ببراعة ، وسيق مدحت باشا الى باخرة كانت راسية في الميناء فأبحرت به نحو ايطاليا . وفي صباح اليوم التالي صدرت جرائد اسطنبول وهي تتهم مدحت باشا بالخيانة وبأنه كان يحوك مؤامرة لابادة الأسرة المالكة وقلب الدولة الى جمهورية وتنصيب نفسه رئيسا لها .

لم يشأ السلطان أن يتنكر للدستور في ذلك الحين ، بل أمر باجراء الانتخابات النيابية . وفي ٤ آذار من عام ١٨٧٧ افتتح مجلس « المبعوثين » أي مجلس النواب . وفي اليوم التالي احتشد جمهور كبير من الطلاب والمتعلمين وساروا في مظاهرة نحو قصر السلطان وهم يهتفون بسقوط الحكومة وباعادة مدحت باشا من المنفى ...

الحرب الروسية العثمانية :

في شهر أيار من عام ١٨٧٧ — أي بعد مرور عشرة أشهر على تسلم عبدالحميد زمام الحكم — نشبت حرب شعواء بين روسيا والدولة العثمانية، وكانت هنالك أسباب مختلفة أدت الى نشوبها منها الاضطرابات والمذابح التي كانت تزخر بها بلاد البلقان في تلك الايام ، ومنها ايضاً خوف روسيا من اعلان الدستور في الدولة العثمانية وما قد يجر وراءه من تدعيم للنفوذ البريطاني والفرنسي فيها .

وقد ارتج العالم الاسلامي والاوربي لتلك الحرب ، وأصدر شيخ الاسلام في ٢١ أيار فتويين : احداهما بوجوب القتال على كل مسلم ، والثانية باضافة لقب « غازي » على اسم السلطان في الاوامر وعلى المنابر اشارة الى ما جاء في الحديث النبوي : « من جهز غازيا في سبيل الله فقد غزا »(٤) .

(٤) محمد فريد (تاريخ الدولة العلية العثمانية) — القاهرة ١٩١٢ — ص ٣٥٤ .

SS

واستمرت الحرب بضعة أشهر منيت الجيوش العثمانية فيها بهزائم منكرة في الجبهتين البلقانية والقفقاسية ، وهلك فيها الالوف من الشبان الذين سيقوا الى ساحات القتال من مختلف الولايات العثمانية .

وقد أبدى السلطان عبدالحميد أثناء الحرب همة ودأبا لا يستهان بهما فكانت آلة التلغراف منصوبة في ديوانه الخاص ليكون بها على اتصال دائم مع قواد الجبهتين ويتعرف الى اخبار المعارك ساعة بعد ساعة ، وكانت تشجيعاته الشخصية للقواد حافزا قويا لهم على الصمود . وقد اتخذ خصوم السلطان تلك مثلبة له اذ اعتبروها تدخلا منه في الامور العسكرية وجعلوها سبباً في نزول الهزائم بالجيوش العثمانية .

واشتهر في تلك الحرب أحد قواد الجبهة البلقانية هو عثمان باشا ، فقد استطاع هذا الرجل ان يصمد بقواته في بلدة « بلافنا » زهاء خمسة أشهر تجاه قوات روسية ضخمة ، ولم يستسلم الا بعد أن كبد الروس خسائر جسيمة وصار صمود عثمان باشا في « بلافنا » مضرب المثل في التاريخ العسكري الحديث .

وبعد سقوط « بلافنا » انحدرت القوات الروسية نحو اسطنبول بزخم شديد ، فاحتلت مدينة « أدرنة » في ٢٨ كانون الثاني ١٨٧٨ ، وسرعان ما وصلت الى سواحل مرمرة حيث أصبح في مقدور الناظر من هناك أن يلمح منائر اسطنبول وهي تتراءى له في الافق . وكان ذلك أقرب موضع وصلت اليه الجيوش الروسية في جميع حروبها السابقة التي خاضتها ضد الدولة العثمانية(٥) .

ان وصول القوات الروسية الى مقربة من اسطنبول أشاع الذعر في لندن ، فصدرت الاوامر الى الاسطول البريطاني بالتوجه نحو الدردنيل ، وكاد دزرائيلي رئيس الوزارة البريطانية يجر بلاده الى محاربة روسيا على نمط ما جرى قبلئذ في حرب القرم ...(٦) .

---

(5) Ferdinand Schevill (The History Of The Balkan Peninsula) — New York 1922 — P . 400 .

(6) G . J . S . Eversley (The Turkish Empire) — London 1922 — P . 329

وجرت على عجل مفاوضات بين روسيا والدولة العثمانية ، ثم عقدت في ٣ آذار معاهدة موقتة بينهما عرفت باسم « معاهــدة سان ستيفانو » • وقد حصلت روسيا بهذه المعاهدة على قلعة قارص في أرمينيا وعلى ميناء باطوم ، ووافقت الدولة العثمانية على استقلال بلغاريا • وفي مؤتمر برلين الذي عقد في شهر حزيران لم تصادق بريطانيا على اتفاق سان ستيفانو الا بعد أن حصلت من الدولة العثمانية على جزيرة قبرص ، وكأنها أرادت بذلك أن تأخذ تعويضا عن مساعدتها للدولة العثمانية في ساعة المحنة[٧] •

تغير عبدالحميد :

كانت الحرب الروسية العثمانية شديدة التأثير على نفســية السـلطان عبدالحميد وعلى تفكيره ، انه فقد بهذه الحرب جزءا كبيرا مــن مملكته وأدرك أنه كان يقاتل فيها وحيدا فلم تسرع الى نجدته الدول الغربية التي كانت تتظاهر بالصداقة له ، ولو لم يسرع هــو الى المصالحة مـع الروس لسقطت اسطنبول في أيديهم غنيمة باردة ولربما ذهبت الدولة العثمانية كلها نهباً بأيدي الطامعين فيها •

شعر عبدالحميد بخيبة أمل تجاه بريطانيا بوجه خاص فهي بعــد أن استحوذت على جزيرة قبرص عمدت على احتلال مصر في عام ١٨٨٢ ، وايقن عبدالحميد ان بريطانيا لا تختلف عن روسيا من حيث طمعها باقتسام تراث « الرجل المريض » على الرغم من تظاهرها بخلاف ذلك • تبين له أخيراً أنه يجب أن يحذر من الدول الاوربية كلها على حد سواء عملا بالمبدأ الاسلامي القائل : « الكفر ملة واحدة » ، وكان هذا هو المبدأ الذي سيطر على عقله فيما بعد حتى آخر يوم من حياته •

ويمكن القول ان هذا التحول الذهني لدى السلطان عبدالحميد جعله يزداد نفوراً من الحركة الدستورية ودعاتها ، وكأنه أدرك ان هــذه الحركة ليست سوى دسيسة من الدول الغربية يراد بها هدم الدولة العثمانية ونهبها ،

---

(7) Carl Brockelmann (History Of The Islamic Peoples) — Translated By Carmichael And Perlmann — New York 1947 — P . 378 .

وان دعاة تلك الحركة ليسوا سوى صنائع لتلك الدول او عملاء لها .

ومما يجدر ذكره أن عبدالحميد كان قد اغتنم فرصة انشغال الناس بالحرب فأصدر في ١٣ شباط ١٨٧٨ فرماناً بحل المجلس والغاء الدستور . وفي اليوم التالي أمر باخراج النواب البارزين من استنبول واعادتهم الى ولاياتهم . ومنذ ذلك الحين أخذ عبدالحميد يحكم الدولة على طريقته الاستبدادية التي اشتهر بها واشتهرت به .

مصير مدحت باشا :

كان مدحت باشا على أثر نفيه من اسطنبول في اوائل ١٨٧٧ قد صار يتجول في اوربا ويتصل بساستها ويكتب في صحفها ، ولقي في الاقطار الاوربية التى حل فيها — ولا سيما في بريطانيا — الشيء الكثير من التكريم والتقدير . والظاهر ان السلطان عبدالحميد وجد من المناسب أن يسترضي مدحت باشا لفترة محدودة من الزمن فأصدر أمره بالعفو عنه وبتعيينه والياً في بلاد الشام .

ظل مدحت باشا والياً في الشام زهاء سنة ونصف سنة ، ثم صدر الامر بنقله الى أزمير . وفي ٤ أيار من عام ١٨٨١ بينما كان مدحت باشا راقداً في داره في أزمير فوجيء بعدد كبير من الجنود يحاصرونه فأسرع يغادر الدار تحت جنح الظلام وأخذ عربة من الشارع فتوجه بها نحو حي الافرنج ، وهنالك التجأ الى القنصلية الفرنسية وبقي فيها حتى الصباح ، ثم سلم نفسه .

سيق مدحت باشا الى اسطنبول ، ومن ثم قدم هو ونفر من أعوانه الى المحاكمة في قصر يلدز بتهمة الاشتراك في قتل السلطان عبدالعزيز . وقد اهتمت الصحافة الاوربية بأنباء المحاكمة اهتماماً شديداً ، وعندما صدر الحكم عليه بالاعدام هاج الرأي العام في أوربا ، وقدم البرلمان البريطاني الى السلطان احتجاجاً شديد اللهجة على هذا العمل « المخالف للمبادىء الانسانية » . وقابل السفير البريطاني في اسطنبول السلطان لينصحه بتبديل الحكم أو الغائه .

واجتمع السفراء الاجانب في اسطنبول وكتبوا الى السلطان رسالة

أشاروا فيها الى عدم كفاية الادلة التي أدين بها مدحت باشا وأصحابه ، والتمسوا من السلطان اصدار عفوه عنهم . ومن طريف ما يروى في هذا الصدد أن السفير الايراني محسن خان هو الذي قدم بنفسه الرسالة الى السلطان باعتباره عميد السفراء في اسطنبول ، فكان جواب السلطان على الرسالة : أن العفو وعدمه هما من حقوقه وأنه يعجب من تقديم مثل هذه الرسالة بوساطة سفير الدولة الايرانية التي تشنق الناس من غير محاكمة. فرد السفير الايراني على السلطان قائلاً : ان المحاكمة التي جرت في قصر يلدز ليس لها مثيل في بلاد العالم كلها واذا ذكر له جلالة السلطان حادثة تشابهها في بلاد العجم كان له من الشاكرين[٨] .

اضطر السلطان أخيراً الى تبديل حكم الاعدام بالنفي المؤبد ، وسيق مدحت باشا وأصحابه الى بلدة الطائف في الحجاز حيث حجروا في أحد السجون هنالك . وفي نيسان من عام ١٨٨٣ تم خنق مدحت باشا بايعاز من السلطان كما أشيع ، وقيل ان السلطان لم يهدأ باله الا بعد أن وصلت اليه من الحجاز علبة مكتوب عليها : « علاج ياباني ــ قطعة من الفن النادر لجلالته » . ولم يكن في العلبة سوى رأس مدحت باشا .

شخصية عبدالحميد :

اختلفت الآراء في تقييم هذا الرجل فالمبغضون له جعلوه أظلم السلاطين واكثرهم لؤماً وسفكا للدماء بينما المحبون وضعوه في مرتبة القديسين . وما زال الخلاف بين مبغضيه ومحبيه باقياً حتى الآن .

قد يصح أن نقول ان عبدالحميد كان كغيره من رجال التاريخ الكبار له محاسنه ومساوئه ، فالمبغضون يركزون نظرهم على مساوئه ويبالغون فيها بينما المحبون يركزون على محاسنه. وهذا هو ما يفعله اكثرالناس فيجميع العصور وقد ضاع من جراء ذلك الكثير من أسرار التاريخ .

ان الشخصية البشرية بوجه عام ليست كما يتصورها العاطفيون من الناس ، فهي لا يمكن أن تكون ذات جانب واحد ــ كلها محاسن أو كلها

---

(٨) قدري قلعجي (المصدر السابق) ــ ص ١٢٠ .

مساوىء . ان الشخصية في الواقع مزيج عجيب قد تختلط فيها لمعات العبقرية بوساوس الجنون ، وقد تصطرع فيها دوافع الخير والشر معا . وهذا هو ما كانت عليه شخصية عبدالحميد فعلاً .

يمتاز عبدالحميد عن الكثيرين من أسلافه السلاطين بحبه للعمل والتدقيق في ادارة شؤون الدولة حتى الصغيرة منها ، فكان يستيقظ مبكراً كل يوم فيعكف على مطالعة اكوام التقارير التي تصله من اطراف المملكة، ويظل يعمل عليها حتى المساء . ولم يكن يأنف من الجلوس الى الضباط والموظفين الكبار على منضدة واحدة لكي يناقشهم في شؤون الدولة — الامر الذي لم يفعله سلطان عثماني قبله . وكان كثيراً ما يستدعي موظفيه بعد تناول طعام العشاء ويستأنف معهم العمل المرهق . وكان عبدالحميد فوق ذلك ذكياً ذا نظر بعيد ، وقد استطاع بدهائه أن يوقع الخصومة أحيانا بين الدول الاوربية ، لا سيما بين بريطانيا وروسيا ، لكي يلهيهم عن التطلع الى التهام دولته(٩) .

ولكن هذا الرجل على الرغم من مزاياه التي لا تنكر كان مصاباً ببعض العقد النفسية الطاحنة التي أقضت مضجعه وجعلته لا يعرف الطمأنينة والراحة النفسية طيلة المدة التي كان حاكماً مطلقاً فيها ، فقد جعل له جيشاً كبيراً من الجواسيس حتى قيل ان عددهم في العاصمة وحدها بلغ العشرين ألفاً . وكان لا يأمن من أحد حتى من جواسيسه مما دفعه الى أن يجعل بعضهم رقيباً على بعض ، أو كما وصفه هو نفسه ذات مرة : « جاسوس على جاسوس على جاسوس » ! وكان من أشد ما يخشاه أمران : الاغتيال والحركة الدستورية . فكان جواسيسه يتغلغلون بين الناس ، في القصور والمقاهي والملاهي والاسواق ، ليبحثوا عن من يتآمر لقتل السلطان ، أو يدعو الى الدستور . والويل لمن كان يؤتى به متهماً باحدى هاتين التهمتين أو كليهما .

منع السلطان عبدالحميد من تداول المطبوعات التي تتجرأ على نقد حكمه بأية صورة ، وكان الرقباء على الصحافة والطباعة يدققون في عملهم

---

(٩) آلما وتلن (المصدر السابق) — ص ١٠٥ .

الى درجة الوسواس لأنهم يخشون أن يكونوا هم أنفسهم متهمين ، واضطر بعض أهالي اسطنبول أن يمتنعوا عن ارتياد الملاهي أو استعمال البريد لئلا يكونوا موضع ريبة في نظر الجواسيس ، واذا انتقلت عائلة من دار الى أخرى أسرع الجنود يفتشون الاثاث المنقول بحثاً عن المتفجرات والمنشورات. واذا اجتمع ثلاثة في مقهى شك كل واحد منهم في أن يكون أحد صاحبيه من الجواسيس[10] .

يروي الدكتور رامزور قصة تدل على مبلغ ما كان يعانيه الناس من شدة الرقابة في ذلك الزمان ، وخلاصة القصة أن مراسلاً فرنسياً في اسطنبول وجد مقالاته كثيراً ما كانت تمزق من قبل الرقابة ، فذهب الى رفعت بك مدير الرقابة يسأله عن الحدود التي يستطيع أن يكتب فيها دون أن تمزق مقالاته ، فأجابه رفعت بك قائلاً : « تستطيع أن تتكلم عن أي شيء » ، ولما ابدى المراسل دهشته من هذا الجواب أخذ رفعت بك يوضح له المقصود من عبارة « كل شيء » وقال له : « طبعاً ! عن أي شيء سوى ، وأنت تفهم طبعاً ، عن أصحاب التيجان والحكومات الاجنبية والفوضوية والاشتراكية والثورة والاضطرابات والفوضى والحرية وحقوق الشعب والسياسة الخارجية والسياسة الداخلية والدين والكنائس والمساجد ومحمد والمسيح وموسى والانبياء والالحاد والتفكير الحر والسلطات والانوثة والحريم والوطن والامة والقومية والعالمية والجمهورية والنواب والشيوخ والدستور والمؤامرات والقنابل ومدحت باشا وكمال بك والسلطان مراد والهلال والصليب ومكدونية وأرمينية والاصلاحات والجراد وشهر آب (اغسطس) وبعض المواضيع الاخرى المتصلة الى حد ما بهذه المواضيع » .

وهنا هب المراسل الفرنسي متسائلاً : « سبحان الله فماذا بقي ؟ » ، فأجابه رفعت بك : « ماذا بقي ؟ كل شيء : المطر والطقس الحسن على أن لا تذكر المطر في آب (أغسطس) أو ضوء القمر . وتستطيع أن تتكلم عن الكلاب في الشوارع ، على أن لا تطلب ابادتها ، وتستطيع أن تتكلم عن السلطات ما دمت لا تشير الى الفساد . وتستطيع أن تتكلم عن صاحب الجلالة

---

(١٠) المصدر السابق — ص ١٦٥ .

الامبراطورية وتتغنى في مدحه ، وبالاختصار لك الحرية التامة الكاملة في التكلم بما يروق لك »[11] .

يمكن القول باختصار ان عبدالحميد كان رجل دولة من الطراز الاول، ولولا عقدة الوسواس المسيطرة عليه لكان في مقدوره أن يتفوق على ساسة العالم بالدهاء وبعد النظر !

المذابح الارمنية :

تميز عهد السلطان عبدالحميد بما وقع على الارمن من مذابح جماعية، والواقع أن تلك المذابح كانت فظيعة جداً اهتز لها الرأي العام في أوربا كما تألم منها الكثير من العثمانيين . وقد أطلق الاوربيون على عبدالحميد من جرائها لقب « السلطان الاحمر » و « السفاك الكبير » .

وقعت المذابح في أرمينيا وهي المنطقة الواقعة في شرقي الاناضول قرب الحدود الروسية ، وقد بدأت أولى المذابح في شهر تشرين الاول من عام ١٨٩٤ ، واستمرت ثلاث سنوات ، تخمد تارة وتفور تارة أخرى . وبلغ عدد الهالكين فيها من الارمن مائة ألف ، وبالغ بعض المؤرخين فأوصل الرقم الى نصف مليون .

وفي ٢٦ آب من عام ١٨٩٦ استولت عصابة من الارهابيين الارمن على البنك العثماني في اسطنبول فكان ذلك سبباً في اثارة مذبحة جديدة في حي الارمن فيها ، وقد قام بالمذبحة هناك جمهور من الغوغاء مسلحين بالهراوات الثقيلة فكانوا يشدخون بهراواتهم كل شخص أرمني يلاقونه ، واستمرت المذبحة ثلاثة ايام هلك فيها ما بين الخمسة والستة آلاف أرمني .

يتهم المؤرخون الاوربيون عبدالحميد بأنه كان الموعز بتلك المذابح والمدبر لها ، ويذهب بعضهم الى تعليل ذلك بدافع لا شعوري لما دار حول أمه ومولده من اشاعات غير حسنة ، فكان عبدالحميد على زعم هؤلاء المؤرخين يكره الارمن ويريد الانتقام منهم بسبب ذلك . تقول المؤرخة

---

(١١) ارنست رامزور (تركيا الفتاة) ـ ترجمة صالح احمد العلي ـ بيروت ١٩٦٠ ـ ص ١٢٤ ـ ١٢٥ .

الالمانية الدكتورة وتلن فيهذا الشأن: « ان عبدالحميد الذي كان في العادة يفضل سياسة التدرج والتراضي ذهب الى أقصى العكس فيما يتعلق بأرمينيا . كان كرهه الفائق لتلك البلاد يتغلب على حكمته السياسية كلما سمع باسمها ينطق أمامه . فقد كانت حياته كلها مظللة بالشك في أنه من صلب والد أرمني . وقد كاد ذلك الشك أن يدمره بعد ولادته مباشرة ، كما عجل في موت والدته . فكان يقصد من وراء كل عمل من أعمال القسوة الموجهة ضد الارمن أن يثبت أنه ليس واحداً منهم . كان ذلك هو الدليل الوحيد الذي يستطيع تقديمه . وسواء أكان ذلك صحيحاً ، أم أن بغضه للارمن كان وليد التعصب الديني والعنصري ، فان أحداً لن يستطيع أن يحزم بذلك ... »[١٢] .

مهما يكن الحال فليس من الانصافه أن نضع اللوم كله في المذابح الارمنية على السلطان عبدالحميد. يجب أن لا ننسى أن أرمينيا بلاد يسكنها المسيحيون والمسلمون في قرى متجاورة . وكان العداء مستحكماً بين الفريقين منذ زمن بعيد . وقد حدث في العهد الحميدي ما زاد في الطين بلة حيث ذهب بعض شباب الارمن الى أوربا للدراسة فلقنوا هناك المبادىء القومية الحديثة والمطالبة بالاستقلال ، وحين عاد هوءلاء الى بلادهم أخذوا يثيرون قومهم بالخطب الحماسية مما أحنق عليهم جيرانهم المسلمين. وصارت الاشاعات المغرضة تنتشر في أوساط الفريقين فتشعل نار البغضاء بينهم. يقال ان مواعظ التحريض والتهييج صارت تلقى من على منابر المساجد والكنائس معاً . وانتشرت بين المسلمين منشورات باللغتين العربية والتركية عنوانها : « رؤيا شيخ يخدم قبر النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة » جاء فيها : أن النبي ظهر لهذا الشيخ في المنام وأخبره باقتراب يوم القيامة وأن الله غاضب على أمة الاسلام لأنهم يسهون عن صلاتهم ويرتدون ملابس الكفار ويستعملون اختراعاتهم . فكانت هذه المنشورات تثير عواطف العامة وتزيد من عدائهم نحو « الكفار » وتحفزهم على مهاجمتهم وقتلهم ، وحين بدأت المذابح صار بعض الدراويش المتعصبين يتجولون بين الغوغاء وهم

---

(١٢) ألما وتلن (المصدر السابق) — ص ١٣٥

يصرخون بأعلى اصواتهم : « أنهبوا ، واقتلوا ، وأحرقوا حتى تشبع قلوبكم . فان الله يتهلل بدم الكفار ، ورائحة البيوت المحترقة تسره كما يسره الدخان المتصاعد من المحراب . اياكم أن تبقوا على الرجل المسن ، فان ايمانه صلب كصلابة عظامه » [١٣] .

ان هذه الامور ليست غريبة عن الطبيعة البشرية ، فهي في الواقع تصاحب كل تجمع غوغائي يسوده التعصب ، وقد شهدنا نماذج منها في مختلف بلاد العالم . ولكن الذي يلام عبدالحميد عليه أنه لم يتشدد في مراقبتها ولم يقم بما يجب عليه من اتخاذ الوسائل الواقية منها ، وربما صح بعض ما نسبه اليه خصومه من أنه كان مشجعاً لها من وراء ستار على وجه من الوجوه .

الجامعة الاسلامية :

أهم فكرة سيطرت على ذهن السلطان عبدالحميد هي فكرة الجامعة الاسلامية تحت شعار « يا مسلمي العالم اتحدوا » . انه كان يرى ملايين المسلمين خاضعين لحكم « الكفار » في أفريقيا والهند وجاوه وغيرها ، فكان ذلك يحنقه ويثيره اذ هو يعتبر نفسه خليفة الله على هؤلاء المسلمين ومسؤولا عنهم ، وكان يحلم بيوم يعلن فيه المسلمون «الجهاد» ضد أسيادهم «الكفار».

وكان عبدالحميد شديد الاهتمام بعلماء الدين ومشايخ الطرق الصوفية، يقربهم ويبذل لهم الاموال . يقول السيد اسماعيل الواعظ في مذكراته عنه وكان معاصراً له في العراق : « ... كان يحترم اهل العلم والطرائق ويعلي قدرهم ، ومن أجل ذلك جعل مجلس المشايخ ورتب رواتب للاعضاء الذين هم فيه ، وكانت نيته حسنة مع مرشديهم غير أن المرشدين كانوا يحتالون لجر المغنم منه ، وكان أرباب العلم ذوي رتب عالية ، كل ذلك لاجل اعلاء العلم وأهله ، وأضرب هنا مثالا لتمسك عبدالحميد بالدين ، وهو أنه اذا طرق سمعه أن في بلدة من البلاد العثمانية ، او قرية ، او ناحية ، لم يكن فيها مسجد أو جامع تقام فيه الجمعة يصدر ارادته ببناء جامع أو مسجد

---

(١٣) المصدر السابق — ص ١٣٨

فيها ، ومن ذلك أنه أصدر ارادته السنية ببناء جامع في قصبة الديوانية وذلك بناء على ما طرق سمع السلطان أن أهل الديوانية يتكبدون المشاق في صلاة الجمعة بناء على عدم وجود جامع فيها ، فأمر ببناء جامع الا أن الادارة لم تقم ببنائه ، حتى أني أتذكر ان الحكومة عملت (قروكي) أي تصميم لبناء الجامع تجاه محل الحكومة ودارها والثكنة العسكرية المخصوصة للمشاة وأهمل »[١٤] .

وطبع السلطان عبدالحميد آلاف النسخ من القرآن الكريم وأمر بتوزيعها في انحاء البلاد العثمانية ، واكثر من فتح المدارس الدينية حتى بلغ عدد طلابها في مدينة اسطنبول وحدها أربعين ألف . وأضاف الى ذلك أنه استثنى علماء الدين وطلابه من الجندية ، فكان ذلك سبباً لتهافت الناس على علم الدين هربا من التجنيد ، وقد سجل أحد الشعراء العراقيين هذه المنقبة للسلطان ، وهو حسن البزاز الموصلي ، حيث نظم قصيدة قال فيها ما معناه : ان أهل العلم وان كانوا لا يقدرون على القتال غير أنهم في المحاريب شجعان[١٥] .

وفي عام ١٨٨٦ أهدى السلطان شعرات النبي الى عدد من الجوامع المشهورة في العالم الاسلامي ، فأصاب كل جامع منها شعرة واحدة . وكان يوم وصول الشعرات يوماً مشهوداً في كل مكان وصلت اليه حيث خرج المسلمون جميعاً يستقبلونها بالتهليل والتكبير وبالدعاء للسلطان . وكان نصيب العراق من تلك الشعرات خمسة خصصت لجوامع أبي حنيفة والكيلاني والكاظمية وكربلاء والنجف . ويحدثنا الرواة عن وصول الشعرة الى الاعظمية وكانت موضوعة في زجاجة ثمينة داخل صندوق صغير من الذهب، فجرى لها احتفال رسمي عظيم اذ جيء بهودج مزين بأنواع الحرير وهو محمول على بعير مزين كذلك ، وامتدت صفوف العساكر من باب المعظم ببغداد حتى باب الجامع بالاعظمية ، وجاء الوالي ماشياً وبيده زمام

---

(١٤) مصطفى الواعظ (الروض الأزهر) ـ الموصل ١٩٤٨ ـ ص ٢٨٠ـ٢٨١ .
(١٥) ابراهيم الوائلي (الشعر السياسي العراقي) ـ بغداد ١٩٦١ ـ ص ٢١٣ ـ ٢١٤ .

البعير يحف به الاعيان وكبار الموظفين ، وسار في الموكب أهل بغداد وهم يحملون المباخر ويرشون ماء الورد على الجموع ، فكان يوماً عظيماً في بغداد • وقد خصص للشعرة وقت معين ، هو آخر جمعة من كل رمضان ، حيث تخرج فيه للمصلين باحتفال مهيب ، فيستقبلونها بالتهليل والتكبير • وكان الوالي الحاج حسن باشا يخرجها بنفسه تبركاً بها(١٦) •

وقد بلغت سمعة عبدالحميد الى قمتها عندما شرع بانشاء سكة الحديد بين دمشق والمدينة • فقد بلغ طول السكة تسعمائة ميل وبلغ مجموع نفقاتها ثلاثة ملايين ليرة ، وكان اكثر من ثلثي هذا المبلغ قد جمع من تبرعات المسلمين في شتى أقطارهم ، فقد كانت التبرعات تنهال الى صندوق المشروع من أغنياء المسلمين وفقرائهم ، حتى قيل ان بعض الفقراء في جاوه أرسلوا اليه مبالغ كانوا قد اقتطعوها من مخصصات غذائهم اليومي •

وبعد سبع سنوات من العمل المضني تم اكمال السكة فيعام ١٩٠٨ • وكان يوم افتتاحها يوماً مشهوداً في جميع الولايات العثمانية ، وأخذت آلاف الخطابات والوثائق تنهال على السلطان من كل بلد يسكن فيه المسلمون وفيه يعلن مرسلوها باسم مئات الملايين ولاءهم للسلطان وتعلقهم بدعوة الجامعة الاسلامية التي يتبناها •

كتب السفير البريطاني في اسطنبول في تقريره السنوي الى حكومته عام ١٨٠٧ يقول : « ومهما يكن من أمر ، فليس هناك غير عاملين اثنين يظهران بوضوح من بين عوامل الحالة السياسية العامة خلال السنوات العشر الاخيرة • أما الاول فهو تلك السياسة الماهرة التي حدت بالسلطان الى أن يظهر أمام ثلاثمائة مليون من المسلمين بمظهر الخليفة والزعيم الروحي للاسلام ، ويبث في نفوس رعاياه الحماسة والاستجابة لشعوره الديني حين مد سكة الحجاز التي ستيسر لكل مسلم في المستقبل القريب الحج الى الاماكن المقدسة في مكة والمدينة فتتيح لهم التمتع في الآخرة بمسرة الجنة ومباهجها ، وكان من نتيجة ذلك أن أصبح رعاياه يدينون له بالطاعة

---

(١٦) هاشم الاعظمي (تاريخ جامع الامام الاعظم) ـ بغداد ١٩٦٤ ـ ج١ ص ٧٢ ـ ٧٥ •

العمياء الى حد لم يسبق له مثيل ، وأصبحوا يقبلون عن رضى باستبداده المطلق الذي لم يشهد التاريخ له شبيهاً من قبل . وصارت ارادة (البادیشاه) هي الشريعة المطبقة على الارض ، فاذا دعا سوء الحظ مسلماً الى أن يحس بارهاب الحكومة العنيف وطغيانها فانه يعزو هـذه المظالم الى الموظفين ، ولا يعزو الى الخليفة عملا فيه سوء ...(١٧) .

علاقته مع المانيا :

كان عبدالحميد يبغض الحضارة الاوربية بغضاً شديدا ويصفها بأنهـا « مسمومة »(١٨) . وكان يركز بغضه بصفة خاصة على بريطانيا ويحـذر المسلمين منها قائلاً : انهم يجب أن يخشوها أشد مما يخشون أية دولـة أخرى . وكان معتقدا كل الاعتقداد بأن أوربا المسيحية تريد ابتلاع الاسلام والخلافة الاسلامية ويجب على المسلمين ان يتحدوا لمجابهة هـذا الخطر الماحق . وكان يحذر المسلمين من أن ينخدعوا بالمظاهر المادية الخلابة التي تميزت بها الحضارة الاوربية ، فهي في نظره حضارة دنيوية زائفة ومن واجب المسلمين أن يهتموا بالآخرة اكثر من اهتمامهم بالدنيا الفانية التي لا قيمـة لها والتي تؤدي في كثير من الاحيان الى نار جهنم .

تقول الدكتورة وتلن : ان عبدالحميد بلغ من الشهرة وذيوع الصيت ما لم يبلغه سوى العدد القليل ممن سبقه من السلاطين ، فقـد أصبح رمزاً للاسلام والشرق ، ووعد المسلمين بقيادتهم الى مستقبل أفضل ، وكان أول من تجرأ بعد مائتي عام من الهزيمة والتقهقر تجاه الغرب أن يتحداه فكـان يقول : « يجب أن لا ندع الغرب يبهرنا فان الخلاص ليس في المدنية الغربية وحدهـا » ، وقد ادى تعلقه بهذه الآراء التي كان يرددها باستمرار الى أن يؤمن الناس بها وبه (١٩) .

يبدو أن عبدالحميد كان يستثني المانيا من الدول الاوربية ، فكان يثق

---

(١٧) جورج انطونيوس (يقظة العرب) ــ ترجمة ناصر الدين الاسد واحسـان عباس ــ بيروت ١٩٦٢ ــ ص ١٤٣ ــ ١٤٤ .

(18) William Yale (The Near East) — Ann Arbor 1958 — P . 100 .

(١٩) آلما وتلن (المصدر السابق) ــ ١٧٦ .

بالضباط الألمان وعهد الى بعثة منهم بتدريب جيشه على النظم العسكرية الحديثة . وفي عام ١٨٨٩ حين تولى عرش المانيا القيصر غليوم الثاني ازدادت العلاقة بين البلدين متانة . فقد أعلن غليوم أنه صديق للدولة العثمانية وهو لا يبتغي سوى معاونتها على بناء مستقبل زاهر لها لكي تكون هي بدورها منقذة العالم .

وفي عام ١٨٩٨ قام غليوم مع زوجته القيصرة أوغستا بزيارة عبدالحميد في اسطنبول وطبع قبلة على خده فكانت تلك أول قبلة فعلها ملك مسيحي على خد سلطان عثماني . ثم ذهب القيصر من بعد ذلك مع زوجته الى فلسطين لزيارة الاماكن المقدسة فيها ، وحين وصل الى القدس كان يرتدي عقالاً عربياً فوق بذلة فارس صليبي ولعله كان يقصد من ذلك أن يجمع في نفسه شخصية فارس مسيحي وشخصية صديق للاسلام . ثم توجه الى دمشق حيث ألقى خطبة قال فيها : « فليطمئن صاحب الجلالة السلطان، وليطمئن معه الثلاثمائة مليون من المسلمين الذين يجلونه لأنه الخليفة — الى انهم سيجدون في امبراطور المانية الصديق الدائم لهم » .. ثم ذهب الى قبر صلاح الدين الأيوبي . فوضع عليه اكليلاً من الزهور ، وأمر بصنع مصباح من الفضة للقبر هدية شخصية منه بوصفه أحد المعجبين اعجاباً بالغاً ببطل الاسلام اثناء الحروب الصليبية[٢٠] ، واستنزل في خطابه الرحمة على روح هرون الرشيد الذي كان صديقاً لشارلمان[٢١] .

واخذت صحافة العالم الاسلامي تنشر أخبار الزيارة مع الاطناب في تمجيد القيصر ، وتناول العوام القصة بطريقتهم الخاصة فصاروا يبالغون فيها ويزوقون ، حتى وصل الحال ببعضهم الى حد الادعاء بان القيصر اعتنق الاسلام وأطلقوا عليه اسم « الحاج عبدالله غليوم » ! .

أثارت زيارة القيصر الخوف في روسيا وبريطانيا وفرلسا ، فأخذت هذه الدول تتقارب بعد ما كانت متباعدة متعادية من أجل الدولة العثمانية. وكانت بريطانيا أشد الدول انزعاجاً من تلك الزيارة ، وقد أشارت احدى

---

(٢٠) جورج انطونيوس (المصدر السابق) — ص ١٤٧ .
(٢١) آلا وتلن (المصدر السابق) — ص ١٥٧ .

الصحف البريطانية الى الزيارة بلهجة لا تخلو من تهـديد حيث قالت : اذا حاربت الامم سنوات من أجل مدينة واحـدة فانها تكون اكثـر استعدادا للحرب من أجـل تجارة تسـاوي مائتين وخمسين مليونا • وخطب اللورد سالزبري في ٩ تشرين الثاني ١٨٩٨ يقول : « انه في الحالة الراهنة لا يمكـن للامة أن تتخلى عن سياسة التسلح ، فان شـبح الحـرب يلوح في الافق ، ولا سيما أن الوقت قد حان للدخول في ميراث الامم المنحلة • على انجلترا أن تتسلح باسـم السـلام ••• لـكي تكون على اسـتعداد تام لـكل طـارىء ••• »[٢٢] •

وصارت بريطانيا تؤيد كل حركة في البلاد العثمانية من شـأنها احراج السلطان عبدالحميد ومناوأته ، ولهذا أخذت تشجع الحركة الدسـتورية في تركيا ، والحركة العلمانية في مصر ، والحركة القومية في الشام والعراق ـ على نحو ما سنأتي اليه في فصول قادمة •

الدعاية الحميدية في العراق :

أصبح السلطان عبدالحميد في نظر اكثر العراقيين بمثابة رمز للاسـلام وعنوان مجده، فهو حامي حمى المسلمين والذائد عن تخومهم تجاه الكفار• وصار الناس يلهجون بالدعاء له في كل مناسبة ، وقد اعتادوا على ذلك بحيث صارت العجائز يفتتحن به قصصهن للاطفال، فلا تبدأ احداهن بقصة حتى تقول: « كان ما كان ، الله ينصر السلطان » • وكذلك صار الرجل العامي يلهج بين كل حين وآخر بالدعاء المألوف «اللهم انصر الدين والدولة » ، ومعنى هذا ان الدين والدولة صارا في نظره كأنهما صنوان لا يفترقان أو هما وجهان لشيء واحد •

ويروى عبدالعزيز القصاب في مذكراته ما كان تلاميذ الكتاتيب فـي العهد الحميدي يتعلمونه في الدعاء للدولة والسلطان ، فهو يصف « زفـة الختمة » التي يقوم بها التلاميذ في دروب المحلة احتفاءاً بختم أحدهـم للقرآن ، فكان يتقدم الموكب ثلاثة منهم يتلون الدعاء ، ويجيب عليهـم

---

(٢٢) المصدر السابق ـ ص ١٥٦ ـ ١٥٧ •

الآخرون بعد كل عبارة منه بلفظة « آمين » . وهذا نص الدعاء : « الله ينصر السلطان ، سيد الأكوان ، يارب الدين والايمان ، أدم دولة بني عثمان ، الهي بالنبي جرجيس ، أجرنا من جنود ابليس ، بأهل الذكر والتقديس ، أدم دولة بني عثمان ، الهي انصر أفندينا ، الحاكم بالعدل فينا ، أدمه ياعظيم الشان ... »[٢٣] .

وفي أوائل عام ١٨٩٣ وردت الاوامر السلطانية الى والي بغداد الحاج حسن باشا توعز اليه باختيار نفر من علماء بغداد ليكونوا مدرسين سيارين يتجولون في انحاء العراق من أجل وعظ الجمهور العراقي وتثقيفه دينياً ، وقد اختير لهذه المهمة خمسة أشخاص هم: الشيخ طه الشواف لقضاء الدليم، والملا قاسم الملا أحمد لقضاء الجزيرة ، والملا عمر الجبوري لقضاء الكوت، والشيخ أحمد الشيخ داود لقضاء بعقوبة ، والمولوي غلام رسول الهندي لقضاء مندلي . وقد كتب السيد مصطفى الواعظ مذكرة في هذا الخصوص تحتوي على أحد عشر مادة لتكون منهاجاً يسير عليها هؤلاء العلماء في مواعظهم وارشاداتهم . وكان أهم ما جاء في تلك المذكرة وجوب الدعاء للسلطان عبدالحميد وحث الناس على السمع والطاعة له ، فهذا « هو من أهم المهمات وأوجب الواجبات بحكم منطوق آية : واطيعوا الله والرسول وأولى الامر منكم »[٢٤] .

وقد ساهم شعراء العراق مع رجال الدين في تمجيد السلطان عبدالحميد ويجب أن لا ننسى ان الشعراء اعتادوا منذ قديم الزمان على مدح السلاطين والحكام ، غير ان السلطان عبدالحميد نال من شعرهم نصيباً أوفر ، يقول ابراهيم الوائلي في هذا الصدد : « لقد كان نصيب السلطان عبدالحميد من الشعر العراقي أوفر من غيره مع أن الفترة التي حكم فيها سماها المؤرخون فترة الاستبداد ، غير أن الاستبداد لم يعرف عنه شعراء العراق ما كان يعرفه سواهم من الاتراك أو أنهم لم يدرسوا المفهوم الذي أدركه سواهم من المطلعين على التيارات السياسية ، فقد كان للجامعة الاسلامية التي احتضنها

---

(٢٣) عبد العزيز القصاب (من ذكرياتي) ـ بيروت ١٩٦٢ ـ ص ١٣ ـ ١٤ .
(٢٤) مصطفى الواعظ (المصدر السابق) ـ ص ٢٠٩ ـ ٢١١ .

SS

هذا السلطان لتوطيد مركزه أثر كبير عند رجال الدين والشعراء في العراق اذ ان كان دعاة هذه الجامعة ومؤيدوها لا يألون جهداً في ترسيخها في نفوس العراقيين ... »[٢٥] .

اشترك في تمجيد السلطان عبدالحميد الكثير من الشعراء منهم جميل صدقي الزهاوي ، وأحمد عزت الفاروقي ، وجعفر الحلي ، وطاهر الدجيلي ومحمد القزويني ، والشيخ يعقوب الشيخ جعفر ، وعبدالنبي الخضري . فهم كانوا يصفونه بانه « أمير المؤمنين » و « امـام العصر » و « وخليفـة المسلمين » و « حامي حمى الاسلام » وغير ذلك من الالقاب التقديسية .

وحين نشبت الحرب بين اليونان والدولة العثمانية في نيسان من عام ١٨٩٧ ، ونالت الجيوش العثمانية انتصارات باهرة ، كان ذلك حافزاً لشعراء العراق أن ينظموا القصائد الرنانة في تمجيد السلطان والاشادة بانتصـار جيوشه التيهي جيوش الاسلام في نظرهم على جيوش الكفار . وكان مـن جملة هؤلاء الشعراء السيد جعفر الحلي ، فقد نظم في ذلك قصيدة رنانـة نقتطف منها الابيات التالية :

لك طأطأت دول الضـلال رقابهـا	قدها فسيفك قد أذل صعابهـا
فاليوم صـار الـدين فيـك مؤيدا	ولدولـة الاسـلام كـل هابهـا
فمـن المطـاول دولـة نبويـة	وقفت ملائكة السما حجابها
أرسى قواعدهـا النبـي محمـد	ورفعت أنت الى السماء قبابهـا
لـم يسطع المخلوق ذلة دولة	الحـق خالقها أعـز جنابهـا[٢٦]

ابو الهدى الصيادي :

يحسن في ختام هذا الفصل أن نتحدث عن رجل نال أعظم الشـهرة والنفوذ في العهد الحميدي ، وظل يتمتع بمكانته العليا طيلة ذلك العهـد دون أن يتمكن أحد من زحزحته عنها ــ هو أبو الهدى الصيادي .

ولد الصيادي في عام ١٨٤٩ في قرية من قرى حلب اسمها « خـان

---

(٢٥) ابراهيم الوائلي (المصدر السابق) ــ ص ٢١٢ ــ ٢١٣ .
(٢٦) جعفر الحلي (سحر بابل وسجع البلابل) ــ صيدا ١٣٣١ هـ ــ ص ٥٢ــ٥٣

شيخون » ، وكان رفاعي النسب وعندما بلغ مبلغ الرجال اتنسب الى الطريقة الرفاعية ، ثم هاجر الى اسطنبول في أواخر عهد السلطان عبدالعزيز. يروي محمد كرد علي في مذكراته نقلاً عن أبيه أنه قال : « ... كنا بضعة تجار من الشاميين في استانبول في خان من خاناتها ، ولم تكن الفنادق يومئذ معروفة وكنا نتآلف ونشترك في النفقة والسمر ، وكان يزورنا درويش شاب ، أسمر اللون ، جهوري الصوت ، تبدو امارات الذكاء عليه ، وله جدائل يرخيها على ظهره ، يعتم بمئزر ، ويكتسي عباءة وقفطاناً . ويضرب بالدف ، وينشد أشعاراً على طريقة القوم ، وما كان يشاركنا في النفقة ، ومهمته أن يسلينا بأناشيده كل ليلة ، وهذا الفتى هو محمد بن حسن واري المعروف بأبي الهدى الصيادي » [٢٧] .

يحدثنا الكاتب المصري ابراهيم المويلحي عن كيفية اتصال الصيادي بالسلطان عبدالحميد ونيل الحظوة عنده ، فيقول ما خلاصته : أن الصيادي ذهب ذات يوم الى قصر السلطان وطلب مقابلته بحجة أن النبي ظهر له في المنام وأمره أن يبلغ السلطان كلاما على أن يكون الكلام شفاهيا في غير واسطة ، ولما قيل له ان السلطان لا يعرف العربية ذهب ثم عاد بعد يومين وهو يقول : ان النبي جاءني في الرؤيا وتفل في فمي فتكلمت باللغة التركية . فدخل على السلطان وأبلغه الرسالة النبوية ، وكان ذلك سبباً في نيله الحظوة الرفيعة لدى السلطان[٢٨] .

يبدو أن هذه القصة غير خالية من المبالغة ، ولعلها من اختلاق الخصوم، وقد أورد محمد كرد علي قصة أخرى في هذا الشأن أراها أقرب الى الواقع وخلاصتها : ان زوجة ناظر الضبطية في اسطنبول أصيبت بمرض أعجز الاطباء ، وكان يحبها حباً جماً ، فوصفوا له الصيادي فجيء به ، وقرأ هذا عليها الادعية والتعاويذ على طريقة الصوفية ، فشفيت المرأة من مرضها بعد أيام . وشاء القدر أن تصاب احدى جواري السلطان بمرض مماثل فجيء بالصيادي اليها وفعل بها مثلما فعل بالمرأة الاولى ، فشفيت كذلك .

---

(٢٧) محمد كرد علي (المذكرات) ـ دمشق ١٩٤٨ ـ ج١ ص ٢٤٢

(٢٨) محمود ابوريه (جمال الدين الافغاني) ـ القاهرة ١٩٥٨ ـ ص١٣٢–١٣٣ .

وكان الصيادي يومذاك في الثامنة والعشرين من عمره ، وحظي بمقابلة السلطان فنال عنده المنزلة العليا[٢٩] ..

وهناك رواية ثالثة في هذا الشأن يرويها سليمان فيضي ، وخلاصتها ان الصيادي حين ذهب الى اسطنبول أخذ يقيم في ليالي الجمع حلقات الذكر على الطريقة الرفاعية المعروفة فأثار ذهول الناس بما كان يقوم به من خوارق الاعمال كادخال السيوف والخناجر في أجسام مريديه وتناول النار. وقد سمع السلطان عبدالحميد به فاستدعاه الى قصره ولما شاهد منه تلك الاعمال العجيبة اعتقد انها لابد أن تكون من كرامات الاولياء ، وان الصيادي لابد أن يكون من اولياء الله الصالحين ، فأمر له بقصر فخم ولمريديه برواتب ضخمة ، وصار يستشيره في أموره ومشاكله ، ولم يكن يرد له طلباً ...[٣٠] .

مهما يكن الحال فقد صار أبو الهدى الصيادي أعظم شخصية في عهد السلطان عبدالحميد ، واخذ الوزراء والكبراء يقبلون يديه ويعتقدون أنه المهدي المنتظر ويستدلون على ذلك بأن لفظة « أبو الهدى » تساوي في حساب الحروف لفظة « المهدي » . وكان هو يفتخر أمام السلطان بأن مريديه من الرفاعية يبلغ عددهم عشرة ملايين ، وان بلاد العرب في قبضته ، والاولياء في خدمته ، والنبي في معونته[٣١] . ومما يذكر ان الصحافة الاوربية كانت تشير الى الصيادي أحيانا باعتباره « منجم السلطان » الذي يفتح له الفال .

واتخذ الصيادي من نفسه وسيطاً بين العرب والسلطان . فجعل داره مضيفاً يقصده العرب ، طلابهم وزوارهم ، فكان يغدق عليهم من كرمه ويتشفع لهم عند السلطان في قضاء حاجاتهم . وقد انتفع منه الكثيرون فكانوا من دعاته وأنصاره في مختلف البلاد العربية .

ومن الذين انتفعوا من الصيادي السيد رجب نقيب أشراف البصرة

---

(٢٩) محمد كرد علي (المصدر السابق) — ج١ ص ١٤١ .
(٣٠) سليمان فيضي (في غمرة النضال) — بغداد ١٩٥٢ — ص٤٧ .
(٣١) محمد أبوريه (المصدر السابق) — ص ١٣٣ — ١٣٤ .

وابنه السيد طالب ، فقد كان السيد رجب ينتسب الى السادة الرفاعيه ، وكان ذا جاه ومال ، وأراد في أحد الايام أن يتقرب من السلطان عبدالحميد بمعونة الصيادي ، فأرسل اليه ستة من الجياد الاصيلة مع خرقة خضراء مأخوذة من ستار الرفاعي ، وقد وصلت الهدية الى اسطنبول برفقة الحاج عيسى روحي أفندي . وحين علم بها السلطان أوعز بأن تقدم « الخرقة » اليه في موكب ، فسار الحاج عيسى وهو يحملها بيديه وأمامه فرقة تعزف الموسيقى كما سار خلفه رجال الدرك والجنود . وعند وصول الموكب الى القصر استقبله رجال القصر بألبستهم الرسمية ، ثم تناول السلطان « الخرقة » فقبلها ثم وضعها على رأسه وعينيه وصدره ، وقبلها من بعده الحاضرون من وزراء وقواد وكبراء ، ثم ذهبوا بها الى الحرم السلطاني . وأمر السلطان بأن تمنح الرتب والمناصب المناسبة الى السيد رجب النقيب وأخيه وأولاده ، والى الشيخ ابراهيم الراوي وأولاده ، والى الحاج عيسى وابنه ، كما صدر الامر باسناد نقابة الكاظمية الى اسماعيل ابن الشيخ ابراهيم الراوي ، وباسناد مديرية المعارف ببغداد الى الحاج عيسى[٣٢] .

ومثلما كان للصيادي أنصاره الكثيرون كان له خصومه الكثيرون ايضاً ، وكان الخديوي عباس الثاني من أولئك الخصوم ، وفي عام ١٩٠١ هرب من الصيادي غلام له اسمه « شكيب » والتجأ الى مصر ، فاستغل الخديوي ذلك للتشنيع على الصيادي ، ونظم حافظ ابراهيم قصيدة على لسان الصيادي يشكو فيها حرقة الجوى لفراق الغلام ، وفيما يلي بعض أبياتها :

أحرق الدف لو رأيت شكيباً	وأفض الأذكار حتى يغيبا
هو ذكري وقبلتي وامامي	وطبيبي اذا دعوت الطبيبا
لا تعيبن يا شكيب دبيبي	انما الشيخ من يدب دبيبا
فسلوا سبحتي فهل كان تسبي	حي فيها الا شكيبا شكيبا[٣٣]

---

(٣٢) مصطفى الواعظ (المصدر السابق) ــ ص ٣٧٦ ــ ٣٧٧ .

(٣٣) عبد المتعال الصعيدي (المجددون في الاسلام) ــ القاهرة ــ ص ٥١٨ ــ ٥١٩ .

الفصل الثاني

احداث العراق

في العهد الحميدي

حين تبوأ عبدالحميد العرش كان الوالي في بغداد اسمه عبدالرحمن باشا ، وكان أول عمل قام به هـذا الوالي فـي العهـد الحميدي هو اجراء الانتخابات لمجلس المبعوثين ، ولم يكن العراقيون يومذاك يدركون معنـى الانتخابات ، ولهذا جرت الانتخابات بكل هدوء وفـاز فيهـا الذين أرادت الحكومة فوزهم •

كان المبعوثون الذين يمثلون بغداد ثلاثة هم : مناحيم دانيال ، وعبـد الرزاق الشيخ قادر ، ووفعت بك بن الحاج أحمد أغا • وقد سافر هؤلاء الى اسطنبول لحضور افتتاح المجلس الذي جرى فى آذار ١٨٧٧ ، غير أنهم لـم يبقوا هناك سوى شهر واحد ثم عادوا الى بغداد بعد أن عطل السلطـان الدستور وأغلق المجلس •

نقل الوالي عبد الرحمن باشا الى ولاية ديار بكر ، وحل محله فى ولاية بغداد عاكف باشا وقد وصل هذا الى بغداد فى ١٣ أيار ١٨٧٧ ولم يبق فيهـا سوى احد عشر شهرا ، وفي عهده وقعت الحرب الروسية العثمانية وهـي التي عرفت في العراق باسم « دقة الغربية » ، وقـد سـيق من العراق الى ساحة الحرب في قفقاسيا عشرة آلاف جندي ولم يرجع منهم سوى نفر قليل، فقدهلك اكثرهم من شدة البرد والجوع ، ومن هنا نشأت النوحية المشهورة في العراق : «أويلاخ يا دقة الغربية » [1] •

---

(١) الغربية في اللهجة العراقية تعني جهة الشمال ، ويقصد بها جبهة قفقاسيا ، والواقع ان « دقة الغربية » حدثت مرتين : أولاهما في بداية العهد الحميدي على نحو ما ذكرناه هنا ، والثانية فى بداية الحرب العالمية الاولى كما سنذكره في الجزء القادم من هذا الكتاب .

SS

وفي ٤ نيسان ١٨٧٨ وصل الى بغداد الوالي الجديد قدري باشا ، وبعد مرور ثمانية أشهر على وصوله عين وزيراً للداخلية فغادر بغداد متوجها الى اسطنبول عن طريق البصرة ، وحل محله في ولاية بغداد عبد الرحمن باشا الذي كان والياً فيها من قبل . وقد دامت ولاية عبد الرحمن باشا في هذه المرة سنة واحدة وتسعة أشهر ، وفي أثناء تلك المدة حدثت في شمال العراق مجاعة فظيعة لم تشهد البلاد مثلها منذ عهد بعيد .

كارثة المجاعة :

في الاشهر الاخيرة من عام ١٨٧٩ هطلت الامطار بغزارة في شمال العراق مما جعل الناس يستبشرون بقدوم موسم جيد تهبط فيه أسعار المواد الغذائية ، غير أن تفاؤل الناس لم يدم طويلاً اذ هبت على حين غرة ريح سموم لافحة أهلكت الزروع وجعلت سنابلها ذاوية لا بذور فيها ، ثم أعقب ذلك برد شديد جمد الانهار[٢] ، فكان ذلك بداية القحط والمجاعة .

كتب القنصل الفرنسي في الموصل المسيو سيوفي الى حكومته رسالة مؤرخة في ٢٣ شباط ١٨٨٠ وصف فيها المجاعة قائلاً : « لقد تحول القحط الى مجاعة حقيقية أخذت وطأتها تشتد يوماً بعد يوم . فكانت أعداد كبيره من سكان الأرياف تترك في كافة الايام قراها مولية وجوهها شطر مدينتنا بحثاً عن الرغيف بعد أن طوح بها الجوع وضاقت بها ديارها . وقد استحال المئات من سكان هذه المناطق الذين ينتمون الى الطبقة الكادحة الى فقراء متسولين يئنون تحت وطأة البؤس ويتضورون من الجوع ويشكون من قلة العمل . وكان لهجوم هذا الجيش العرمرم من سكان الريف ومن الشغيلة المعوزين ، وكلهم جائعون ، أثره في زيادة عدد الجائعين الذين لا ينضب له معين . اذ أنه في ظرف شهر واحد ضاعف عدد فقرائنا ثلاثة أضعاف . فاضطر بعضهم تحت لهيب الجوع الى أكل لحوم جثث الحيوانات . وقد أكد لي أحد الضباط بحضور الوالي أن خمسة أشخاص كانوا يموتون من الجوع في كل

(٢) سليمان صائغ الموصلي (تاريخ الموصل) ـ القاهرة ١٩٢٣ ـ ج١ ص ٣١٤ ـ ٣١٥ .

يوم في مدينة الموصل .. وكانت الفاقة في كركوك أشد من الفاقة في الموصل . فقد كتب مطران هذه المدينة الكلداني الى بطرياركه يقول ان ثلاثين شخصاً يموتون في كركوك كل يوم . وعاثت عصابات اللصوص وقطاع الطرق في الأرياف ، فهم يهاجمون القرى ويستولون على كل ما يجدونه دون أن تتدخل السلطة فتقدم أي نجدة للضحايا المساكين . وقد أكد لي بعضهم أن قرابة أربعين قرية قد هجرها سكانها ... »

وقد انتهز المحتكرون الفرصة اذ كانوا قد ادخروا منذ بداية السنة كميات كبيرة من الحنطة والشعير ثم صاروا يستعملون وسائل جهنمية لرفع الاسعار ، فكانوا يزعمون نفاد الحنطة لديهم ولكنهم في الوقت نفسه يبيعون حبوبهم سراً بسعر يبلغ عشرين مرة أو خمسة وعشرين مرة من سعر التكليف، وكان رئيس البلدية من جملة هؤلاء المحتكرين ، واستطاع اثناء المجاعة أن يضاعف ثروته أربعة أضعاف .[٣]

حاولت الحكومة المحلية معالجة الأمر فخولت سلطات البلدية حق دخول المساكن للاستحواذ على ما فيها من طعام وتوزيعه على المعوزين ، غير أن المفتشين الذين كلفوا بهذه المهمة لم يكونوا أهلاً لها ، اذ كانوا كغيرهم من موظفي ذلك العهد يخضعون لتأثير العلاقة الشخصية أو الرشوة ، فصاروا اذا أرادوا الذهاب الى بيت من بيوت الأغنياء لتفتيشه أرسلوا الى أصحابه يعلمونهم بنيتهم ، وبذلك ظل الاغنياء على وضعهم لم يخسروا شيئاً وباء الفقراء بالخسران [٤] .

وشاءت الأقدار أن تصدر الدولة العثمانية آنذاك أمراً بتخفيض نقدها تخفيضاً كبيراً ، فأصبح المجيدي يساوي ثمانية قروش بعدما كان يساوي عشرين قرشاً ، والبيشلغ يساوي قرشين بعدما كان يساوي خمسة قروش . فأضاف هذا التخفيض على الناس بلاءاً جديداً ، وخربت بسببه بيوت

---

(٣) بيير دي فوصيل (الحياة في العراق منذ قرن) ــ ترجمة اكرم فاضل ــ بغداد ١٩٦٨ ــ ص ٨٣ ــ ٨٤ .

(٤) وليس بدج (رحلات الى العراق) ــ ترجمة فؤاد جميل ــ بغداد ١٩٦٦ ــ ج١ ص ٢٨٧ .

المئات منهم[٥] • يروى ان امرأة فقيرة في الموصل باعت مصاغاً ذهبياً لها بمبلغ مائة قرش ، ولم يكن لديها غيره ، وصادف أن انخفضت قيمة النقود في ذلك اليوم فهبط المبلغ لديها الى ستين قرشاً • ثم نزل بها مصاب آخر عندما ذهبت الى السوق لتشتري منه ما يقيتها ويقيت ابنتها الصغيرة ، حيث سطا عليها نشال وسرق المبلغ منها . وعادت المرأة الى بيتها أخيراً وهي تندب نكد حظها •[٦]

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد ان القناصل والمرسلين الاجانب قاموا بدور لا يستهان به في تخفيف أثر المجاعة على الناس ، فقد أرسلوا الى بلادهم يطلبون منها النجدة على وجه السرعة • وكان القنصل البريطاني من أوائل الذين فعلوا ذلك اذ أرسل الى لندن برقية يقول فيها : « الغوث •• الغوث •• وعلى استعجال • الوفيات كثيرة ، الاطفال يباعون ويشترون ، أو يتركون تحت رحمة الاقدار ، الجياع ينحدرون كالسيل المنهمر من القرى المجاورة الى المدينة »[٧] • فوردت الى الموصل من أوربا مبالغ كثيرة من المال ، فنصبوا بها القدور الضخمة حيث طبخوا بها الحساء وأخذوا يغرفون منه للجياع فأنقذوا منهم عدداً غير قليل •

وأخذت الجماهير الجائعة ترفع أصواتها بلعن الدولة العثمانية دون خشية ، فقد جعلهم الجوع لا يخافون العقاب ، وصاروا كذلك يتمنون حكم النصارى • وعندما مر القنصل الفرنسي بالجماهير المحتشدة عند باب السراي قالت امرأة من بينهم بصوت مرتفع وهي تخاطب القنصل : « بارك الله فيك فانك خير من المسلمين ما دمت تحنو على الفقراء » •[٨]

سميت تلك المجاعة في الموصل بـ « سنة الليرة » لأن وزنة الحنطة بيعت عامئذ بليرة واحدة[٩] ، وكانت الليرة في تلك الايام ذات شأن عظيم • أما

---

(٥) المصدر السابق — ج١ ص ٢٨٧ •
(٦) سليمان صائغ الموصلي (المصدر السابق) — ج١ ص ٣١٥ •
(٧) وليس بدج (المصدر السابق) — ج١ ص ٢٨٦ — ١٨٧ •
(٨) بيير دي فوصيل (المصدر السابق) — ص ٨٤ — ٨٥ •
(٩) عباس العزاوي (تاريخ العراق بين احتلالين) — بغداد ١٩٥٦ — ج٨ ص ٤٩ ، ٥٠ •

SS

في بغداد فسميت المجاعة « سنة البرسيمة » وكان سبب هذه التسمية ان كثيراً من الاكراد جاؤوا الى بغداد فراراً من المجاعة وهم يصرخون « برسيمه ! برسيمه ! » اي جوعان ، فنشأ الاسم من ذلك . وقد وصل أثر المجاعة حتى البصرة اذ انحدر اليها بعض الجياع فسكنوا العراء ، واشتغلت البنات منهم خادمات في البيوت ، وتزوج بعضهن بالبصريين .(١٠)

ثورة عشائرية كبرى :

لم تكد المجاعة تخف وطأتها عن الناس في الشمال حتى كان الجنوب يتمخض عن ثورة عشائرية كبرى بزعامة منصور باشا السعدون .

كان منصور باشا قبل قيامه بالثورة مقيماً في بغداد حيث كانت الحكومة قد فرضت عليه الاقامة الجبرية وعينته عضواً في مجلس الادارة . وقد ظل في بغداد ثلاث سنوات ، ثم انتهز أخيراً فرصة فخرج من بغداد متوجهاً نحو الغراف ، ومن هناك استدعى اليه ابن أخيه فالح باشا الذي كان متصرفاً للواء الناصرية ، كما استدعى اليه جميع عشائر المنتفق ، وأعلن استقلاله وسمى نفسه « سلطان البر » .

كان الرأي في بغداد منقسماً حول هذه القضية فالوالي عبدالرحمن باشا كان يعطفه على آل السعدون ويريد حل قضيتهم سلماً ، أما قائد الجيش عزت باشا فكان مصراً على محاربتهم والقضاء على امارتهم وكان يكتب الى المسؤولين في اسطنبول يحرضهم على حرب آل السعدون فلا يجد منهم الجواب الشافي . والمظنون ان ناصر باشا السعدون ــ وهو الاخ الاصغر لمنصور باشا وكان في اسطنبول يومذاك ــ قد استطاع بلباقته وهداياه أن يؤثر على المسؤولين ويقنعهم بان أخاه ليس عاصياً وان الفتنة سببها قاسم باشا الزهير ، وقد صدق المسؤولون بقوله وأمروا بالقاء القبض على قاسم باشا وسوقه مخفوراً من البصرة الى بغداد ، وقدم بعض أعيان البصرة عريضة طويلة الى السلطان ذكروا فيها المظالم التي حلت بهم على أيدي آل السعدون ويرجون من السلطان أن يأمر باطلاق سراح قاسم باشا الزهير

---

(١٠) حامد البازي (البصرة في الفترة المظلمة) ــ بغداد ١٩٦٩ ــ ص ١٥٥ .

واعادته الى البصرة « معززاً مكرماً كما هو اللائق بشأن أمثاله »[11] •

أشتد حنق عزت باشا اخيرا تجاه التحديات التى كان منصور باشا يوجهها الى الحكومة في الجنوب، فأرسل الى السلطان برقية قال فيها بصراحة: ما دامت ليرات السعدون ومطامع المسؤولين موجودة فلا يمكن اصلاح العراق ! • ويبدو ان هذه البرقية كان لها أثرها في حكومة اسطنبول فجاء الجواب منها الى عزت باشا تأمره بأن يأخذ المسوءولية على عاتقه بالقوات المتوفرة لديه • ثم ورد الامر بعزل عبدالرحمن باشا عن ولاية بغداد ، فحل محله وال معروف بالبطش هو تقي الدين باشا ، وكان هذا الوالي له معرفة سابقة بالعراق وأهله لانه كان والياً فيه من قبل •

وقعت المعركة الفاصلة بين عشائر آل السعدون وقوات الحكومة في منطقة أم الشعير قرب الحي وذلك في أواخر صيف ١٨٨١ ، وكان عدد أفراد العشائر نحو عشرة آلاف بينما كان عدد جنود الحكومة لا يتجاوز الالفين • واتخذت العشائر خطة بارعة للحرب اذ هم ساقوا أمامهم مجموعة كبيرة من الاباعر يتراوح عددها بين الالفين والثلاثة آلاف بعير ، ووضعوا أكياس الرمل على ظهورها كما وضعوا الزفت في آذانها لكي لا تفزع من صوت المدافع • وكان على كل بعير رجلان أولهما ينثر الرمل في وجوه الاعداء بينما الثاني يضرب البعير بعصا من حديد لكي يشتد في اندفاعه الى الامام • وكادت هذه الخطة تنجح لو لم يتخذ عزت باشا تجاهها موقف الصمود ، فقد كان هذا الرجل على رأس جنوده يحضهم على القتال • وكان للمدافع أثرها في كسر قوة العشائر وبث الرعب فيهم وتفريق أباعرهم • اضف الى ذلك أن عشيرة المياح خرجت في اللحظة الاخيرة من صفوف آل السعدون وانثالت على أموالهم تنهبها، فكان ذلك بمثابة الضربة القاصية لآل السعدون، ففروا منهزمين ، وغنم الجيش فى تلك المعركة غنائم وفيرة جيء بها الى بغداد فبيعت هنالك ، وذهبت حصيلة البيع الى الخزانة[12] •

---

(١١) انظر نص العريضة فى جريدة (الجوائب) فى عددها الصادر في ١٥ ذي القعدة ١٢٩٧ هـ •

(١٢) عباس العزاوي (المصدر السابق) — ج٨ ص ٥٢ — ٥٨ •

كانت تلك نهاية الامارة السعدونية في العراق تلك الامارة التي حكمت منطقة واسعة من جنوب العراق ردحا من الزمن ، وصار سقوطها محور حديث الناس وظهرت حوله بعض الاغاني الشعبية كان منها اغنية جاءت على لسان امرأة من آل السعدون وهي تخاطب فالح باشا السعدون حيث تقول : « فالح ياغرنوق ، طاسه وخذوها اروام ، بيش أحلب النوق » . ومعناها : ان الاروام — أي الاتراك — استلبوا منها الاناء الذي كانت تحلب به الناقه فبأي اناء تحلب بعد هذا ؟ ! .

حاول سعدون باشا بن منصور باشا أن يستعيد شيئاً من مجد أسرته القديم ، وكان يدفع بأفراد أسرته نحو الرجوع الى البداوة والخشونة وترك التحضر ، فلم يوفق اذ كانت تقف في طريقه عقبتان : اولاهما انشقاق آل السعدون والبغضاء المستحكمة بين آل ناصر وآل منصور فكان كل فريق منهما يهدم ما يبنيه الآخر ، والثانية نفرة عشائر المنتفق من آل السعدون من جراء خلافها معهم حول ملكية الاراضي . وكان مصير سعدون باشا أن ألقت الحكومة عليه القبض وسيرته الى حلب حيث مات فيها[١٣] .

معاملة الزوار :

دامت ولاية تقي الدين باشا مدة تزيد على الست سنوات . وهي مدة طويلة بالنسبة لوال عثماني في العراق . ويبدو أن الدولة كافأته بذلك على مساهمته في القضاء على الامارة السعدونية . و لم يحدث أثناء ولايته الطويلة ما يستحق الذكر من الناحية الاجتماعية سوى ما اشارت اليه جريدة الزوراء عن معاملة الزوار الايرانيين في بغداد واتخاذ الوالي بعض التدابير لحمايتهم من الاذى .

نشرت جريدة الزوراء في يوم ٢١ صفر ١٣٠٢ هـ — الموافق ١١ كانون الاول ١٨٨٤ م — خبرا مفاده أن الزوار يشكون على لسان حكومتهم من أنهم ينالون الحيف في العبور وفي نزول الخانات ، وقد اخذت الحكومة تعهداً من أرباب الخانات وأمثالهم في تضمين المسروقات ، ومن لا يقدم

---

(١٣) علي الشرقي (ذكرى السعدون) — بغداد ١٩٢٩ — ص ٤٨ — ٤٩ .

مثل هذا التعهد منهم يسد خانه (١٤) ٠

ومما يلفت النظر ان السائحة الفرنسية مدام ديولافوا التي جاءت الى العراق مع زوجها في عام ١٨٨١ قد أشارت في مذكراتها الى سوء المعاملة التي يلقاها الزوار الايرانيين ببغداد حيث قالت : ان قوافل الزوار لا تكاد تدخل باب السور في الجهة الشرقية من بغداد ويلمحها الاطفال هناك حتى ينهالوا عليها بالسباب المقذع ، وقد يهاجمونها لانتهاب أغطية الزوار أو نراجيلهم أو أوانيهم المعلقة على جوانب الدواب ، ثم يطلقون سيقانهم للريح فيختفون في منعطفات الازقة . واذا عجز الاطفال عن نهب شيء منهم قذفوهم بالاحجار ، وقد يسقط الحجر منهم بين أرجل الدواب فيسبب ذعرها وسقوط أحمالها على الارض ، وعندما ينهمك الزوار في اعادة الاحمال الى مواضعها يأخذ الاطفال في السخرية منهم وضجيج قهقهتهم يشق عنان السماء ٠ وتضيف ديولافوا الى ذلك قائلة : ان الزوار كانوا يتحملون تلك المضايقات بصبر وأناة ، ولم يفكروا يوماً في تقديم شكواهم الى المسؤولين الاتراك ٠ وفي الواقع ان هؤلاء المسؤولين كانوا يشجعون تلك الافعال أو هي تحدث بوحي منهم ، فكانت كل شكوى تقدم اليهم في هذا الشأن تقابل بالاستهزاء (١٥) ٠

يبدو أن الزوار قد نفد صبرهم في عام ١٨٨٤ ، فتقدموا بشكواهم الى القنصل الايراني ببغداد ، ورفع القنصل الشكوى الى الوالي تقي الدين باشا ، فاتخذ هذا الوالي التدابير التي رآها كافية لحماية الزوار ٠ ولا ندري هل استمر العمل بتلك التدابير أم أنها أهملت بعد حين كغيرها من أعمال الحكومة في تلك الايام ٠

بين النقيب والوالي :

أحيل تقي الدين باشا على التقاعد ، فغادر بغداد في ٢٩ آذار ١٨٨٧ ، وحل محله في ولاية بغداد مصطفى عاصم باشا ٠ وقد اتخذ الوالي الجديد

---

(١٤) عباس العزاوي (المصدر السابق) ـ ج٨ ص ٧٣ ٠

(١٥) ديو لافوا (رحلة مدام ديولافوا) ـ ترجمة علي البصري ـ بغداد ١٩٥٨ ـ ص ٧٤ ـ ٧٥ ٠

دار سكناه في محلة الميدان مقابل الاعدادية المركزية حالياً ، بينما كان سلفه تقي الدين باشا يسكن في قصر النجيبية في باب المعظم وهو القصر الـذي بنـاه مدحت باشا لضيافة الشاه ناصـر الدين فـي عام ١٨٧٠ ، وقد جعله الوالي الجديد مستشفى للبلدية[١٦]

دامت ولاية مصطفى عاصم باشا زهاء ثلاث سنوات ، وأهم ما كـان يشغل أذهان الناس في ايامه هو حديث الصراع بينه وبين نقيب أشراف بغداد السيد سلمان الكيلاني . ومن الجدير بالذكر ان السيد سلمان كان ذا مجد باذخ وشخصية قوية ، وقد قابل السلطان عبدالحميد في اسطنبول فنال عنده حظوة كبرى ، ولكن نفرة حدثت بينه وبين أبي الهدى الصيادي مما جعـل هذا يكيد له ويحاول الحط من شأنه .

والمظنون أن الصيادي كان قد أوعز الى الوالي مصطفى عاصم باشا بمعاداة السيد سلمان ، فلما وصل الوالي الى بغداد أخذ يسعى نحو الوقيعة بـه والاضرار بالاوقاف القادرية التي كانت تحت اشرافه .

يمكن القول ان السيد سلمان الكيلاني لقي الكثير من العنـاء فـي عهد الوالي مصطفى عاصم باشا ، فانفض عنه الناس الذين كانوا يحفون به ويرتادون ديوانه ، وتكالب عليه أهل القرى الذين كانت لهم علاقة زراعيـة معه . وأخذ الوالي يسعى نحو توهين الطريقة القادرية من جهة ، ونحو تدعيم الطريقة الرفاعية من الجهة الاخرى ، فتم في عهده تشييد جامع ومقـام فخم حول قبر السيد أحمد الرفاعي الذي يقع في البلدة التي تسمى باسـمه الآن على نهر الغراف ، كما بوشر في بغداد بتعمير جامع السيد سلطان علي الذي هو جد الرفاعي ليكون مقابلاً لجامع الشيخ عبدالقادر الـكيلاني ومضاهياً له .

وقد حصل الصيادي من السلطان عبدالحميد على فرمان بنصب السيد ابراهيم الراوي نقيباً للسادة الرفاعية مع منحه رتبة عالية ليكسف به مجـد السيد سلمان الكيلاني ، ويقال ان السيد ابراهيم الراوي استطاع أن يستثمر علاقته الوثيقة بالصيادي في نفع أهل راوة وعانة حيث صار ملجأ لهم فـي

---

(١٦) عباس العزاوي (المصدر السابق) — ج٢ ص ٢ ، ٨ ، ٩٧ .

بغداد وواسطة يتشفع لهم عند الحكومـة ، « وتراه لا يرد أحـدا يرجوه ويلتمسه ، فاذا زرته تجده يحرر كتب رجاء وشفاعة لمن يرجوه ويتشفع به ، ورجاءه وشفاعته مقبولة في كل الاوقات ... »(١٧) .

لم يسترح السيد سلمان ويسترجع نفوذه الا عند ما نقل مصطفى عاصم باشا من بغداد على أثر قضية دفن الحاخام كما سنأتي اليـه . ومـن طريف ما يروى عن السيد سلمان انه حين وصل اليه خبر موت مصطفى عاصم باشا بعـد سـنتين أخـذ يبكي بكاءاً شديداً ، فلما سأله أخوه عبدالرحمن عن سبب بكائه أجاب : لست أبكي أسفاً عليه بل اسفاً على موته قبل أخـذ حقي منه(١٨) .

قضية دفن الحاخام :

في صيف ١٨٨٩ ظهرت الكوليرا في العراق ، وكانت شديدة فعم بلاؤها مختلف الانحاء ، وقد بلغ عدد الموتى في مدينة بغداد وحدها ما يزيد علـى المائة والثلاثين يومياً . وهرب الموسرون والحكام والاجانب من بغـداد ـ كعادتهم في كل وباء ـ حيث خيموا بعيدا في البراري . واستمر الوباء في بغداد ثلاثين يوما ثم أخذ يتضاءل شيئا فشيئا .

كان من بين الذين ماتوا بالوباء عبدالله ابراهيم سوميخ ، وكان رئيس الحاخامين وله عند اليهود منزلة رفيعة . ولم يشأ اليهود أن يدفنوه في مقبرتهم العامة الواقعة في الجهة الشرقية من بغداد ، وحصلوا على اذن من الوالي مصطفى عاصم باشا ليدفنوه عند مرقد النبي يوشع الواقع في جانب الكرخ قريبا من مرقد الشيخ جنيد ، ولكنهم عندما وصلوا الى المرقد وأرادوا فتح بابه عارضهم السادن وتجمع الناس ، ثم جاء رئيس بلدية الـكرخ عبدالله الزيبق مع بعض مأموريه ليقف الى جانب السادن ، وهجم اليهود على الباب فكسروها ثم دفنوا الجثة داخل سور المرقد . وقيل انهم ضربوا أثناء ذلـك عبدالله الزيبق وشتموه بمساعدة أمير اللواء سعيد أغا ، فقد كان هذا الضابط

---

(١٧) مصطفى نورالدين الواعظ (الروض الازهر) ـ الموصل ١٩٤٨ ـ ص ٣٧٦ .
(١٨) المصدر السابق ـ ص ٤٠٩ .

يرعاهم وعلى صلة بأحد رؤسائهم معلم نسيم .

وعندما علم الوالي بالامر اتخذ الاجراءات الشديدة ضد اليهود فامر بالقاء القبض على رئيس الحاخامين اليشاع ورفقاءه من اعضاء المجلس الجسماني كيوسف شنطوب وصالح كاشي . فحبسوا في الكنيس[19] ووصل الخبر الى أوربا ، وهب اليهود هنالك فأثاروا ضجة في الصحف والاوساط السياسية ، ورفع أحد زعماء اليهود في بريطانيا احتجاجا الى اللورد سالزبري ، وقدم هذا شكوى الى اسطنبول[20] . وأشيع أن اليهود توصلوا الى أم السلطان وجعلوها تتدخل في الامر[21] .

طلب الوالي من السلطان اذناً باخراج جثة الحاخام من مدفنها ونقلها الى مقبرة اليهود العامة . وقد أبدى السلطان في هذا الشأن لباقة سياسية ، كما هي عادته في مثل هذه الامور ، اذ هو أبرق الى الوالي يأذن له بنقل الجثة ، كما أبرق أليه في الوقت نفسه يعلمه بأنه منقول الى ولاية أطنة وأنه يجب أن يغادر بغداد حالاً . وقد تم نقل الجثة ليلا في ١١ كانون الاول ١٨٨٩ ، وفي اليوم التالي غادر الوالي مصطفى عاصم باشا بغداد متوجها الى أطنة ، غير أنه نقل الى ولاية الشام قبل وصوله الى تلك المدينة[22] .

الوالي سري باشا :

عين سري باشا والياً لبغداد خلفاً لمصطفى عاصم باشا ، وقد وصل الى بغداد في ١٢ كانون الثاني ١٨٩٠ ، ولم يمكث فيها طويلا اذا كانت مدة ولايته فيها سنة واحدة وسبعة أشهر .

الواقع ان سري باشا تميز عن غيره من الولاة العثمانيين بصفة اشتهر بها ، هي انه كان اديبا وله عدة موءلفات في التفسير وعلم الكلام وشرح العقائد الاسلامية ونقد ما يخالفها ، وكان عهده من اكثر العهود تشجيعا للادب

---

(١٩) عباس العزاوي (المصدر السابق) ــ ج٨ ص ٩٤ ــ ٩٦ .

(٢٠) ريجاردكوك (بغداد مدينة السلام) ــ ترجمة فؤاد جميل ومصطفى جواد ــ بغداد ١٩٦٧ ــ ج٢ ص ١٧٣ .

(٢١) عباس العزاوي (المصدر السابق) ــ ج٨ ص ٩٥ .

(٢٢) المصدر السابق ــ ج٨ ص ٩٤ .

وتكريما لرجال الدين . وعندما تلى فرمانه في القشلة على أثر وصوله الى بغداد ألقى خطبة أدبية رنانة دعا فيها الى طاعة الله ورسوله وولي الامر ، وطلب من الرعية تنبيهه اذا اعترته غفلة في اداء الواجب ، وقال : « ليس بعيب ظهور الخطأ من الانسان وانما العيب في الاصرار على الخطأ ، والحق أحق أن يتبع ... »[٢٣] .

يقول بهجت الاثري في وصف سري باشا : انه كان أخا علم وأدب يقضي ليله ونهاره بمطالعة الكتب ، ومحاورة العلماء ، ومطارحة الادباء ، فلم يجد صاحباً يجول معه في هذه الميادين سوى محمود شكري الآلوسي ، وكان هذا غير راغب في معاشرة الامراء ويؤثر العزلة عن الناس ، ولكن سري باشا حبب نفسه اليه واكثر الترداد عليه حتى استماله اليه، فكان يقضي اكثر أوقاته في مجالسته ومحادثته كما كان يستعين به على التأليف والتصنيف ، ثم أناط به انشاء القسم العربي من جريدة الزوراء فكتب فيها ما شاء من المقالات العلمية والادبية وأوجد حركة في ذلك الجو الساكن بما كان يعرضه فيها من الاسئلة المتنوعة على علماء بغداد[٢٤] .

ومثل هذا ذكر الشيخ آغا بزرك الطهراني في كتابه « طبقات اعلام الشيعة » حيث قال : ان الوالي سري باشا كان أديباً له علاقات مع رجال العلم والادب ومنهم الشيخ علي كاشف الغطاء النجفي ، وقد ألف الشيخ علي كتابا بعنوان « النوافح العنبرية في المآثر السرية » جمع فيه ما قيل في صديقه سري باشا من مدائح وتهان ، وما قاله هو أيضاً فيه[٢٥] .

ولم يكتف سري باشا بما كان له من علاقات وثيقة برجال الدين ، بل رأيناه علاوة على ذلك يقسو على البابيين يضطهدهم ولا سيما رئيسهم ببغداد الحاج محمد حسين الاصفهاني صاحب الدار المعروفة في محلة الشيخ بشار بجانب الكرخ ، فقد نفاه سري باشا الى الموصل ، وصدرت جريدة الزوراء

---

(٢٣) انظر نص الخطبة في جريدة الزوراء في عددها الصادر في ١ جمادي الآخرة ١٣٠٧ هـ .

(٢٤) محمد بهجة الاثري (اعلام العراق) ـ القاهرة ١٣٤٥ هـ ـ ص ١٠٤ .

(٢٥) آغا بزرك الطهراني (طبقات أعلام الشيعة) ـ النجف ١٩٦٨ ـ ج١ ق٤ ص ١٤٣٨ ـ ١٤٤٠ .

في ٢٨ آذار ١٨٩١ تشرح السبب الذي أدى الى نفيه اذ قالت عنه: انه كان دائم السعي لاضلال عقول الناس واجتذابهم الى نحلته ، وان الدولة كانت تحميه ، أو كانت غافلة عنه ، فتمادى هو في اعلان دعوته جهارا حتى كثر القال والقيل بين الاهالي ، ورفع بعضهم العرائض طالبين ابعاده مع اتباعه، ولهذا صدر قرار نفيه الى الموصل وجاءت الاخبار بوصوله اليها[٢٦] .

والغريب في أمر سري باشا أنه في الوقت الذي كان فيه على تلك الصورة من حيث رعايته للعلم والادب كان عهده من أبشع العهود من حيث شيوع التفسخ والرشوة واللصوصية فيه . كتب القنصل الفرنسي ببغداد المسيو بونيون في رسالة الى حكومته مؤرخة في ٢٣ آذار ١٨٩١ قال فيها ما نصه :

« ان التسيب في بغداد قد بلغ الاوج . فالسرقات متصلة واعتقد أن مائتي حادثة قتل على الاقل قد وقعت منذ ثمانية أشهر في المدينة . ولم يصدر أي حكم جدي في أي من هذه الجرائم . فان الحكام يبيعون أحكام تخليص المجرمين للمجرمين . ويذكر الناس هنا أسماء قتلة ارتكبوا جرائم القتل في رابعة النهار ولكن أطلق سراحهم بحجة عدم وجود شهود . ولا أستطيع أن أرسم لمعاليكم صورة عما وصلت اليه الحالة في هذا الاقليم منذ أن أصبح يدار من قبل الوالي الحالي . ان هذا الشخص المرتشي يبيع كل شيء لقاء المال الى درجة لا يمكن تصورها . وان الناس هنا ابتداءاً من الوالي وانتهاءاً بآخر فرد من أفراد الجندرمة يسرقون وينهبون وأن الفوضى خير من النظام الذي نعيش في ظله »[٢٧] .

يمكن القول ان سري باشا اقتدى في سيرته هذه ببعض الحكام القدامى الذين كانوا ينهبون رعاياهم من جهة ، ويسخون على الادباء والعلماء من الجهة الاخرى . وتلك طريقة كانت تنفع الحكام في الازمنة الماضية لان الادباء والعلماء هم الذين يملكون القلم لتسجيل مناقب الحكام وتخليد ذكرهم ، أما سواد الرعية فان شكاويهم لا يسجلها أحد . وكادت

---

(٢٦) عباس العزاوي (المصدر السابق) — ج٨ — ص ١٠٨ — ١٠٩ .
(٢٧) پيير دى فوصيل (المصدر السابق)— ص ٤٦ — ٤٧ .

هذه الطريقة تنفع سري باشا كذلك لو لم يفضح أمرها القنصل الفرنسي !

سدة الهندية الاولى :

في أواخر القرن الثامن عشر أراد ثري هندي اسمه آصف الدولة ايصال الماء الى النجف ، فأمر بشق جدول يأخذ ماءه من الفرات جنوب المسيب • ولما تم شق الجدول أخذ يتوسع مجراه بمرور الايام حتى تحولت معظم مياه الفرات اليه ، وصار نهر الحلة يتضاءل تدريجيا • وقامت الحكومة منذ عهد علي رضا باشا بمحاولات شتى لاعادة المياه الى نهر الحلة دون جدوى •

وفي عام ١٨٨٥ جف نهر الحلة تماماً فلم تكن المياه تدخل فيه الا في موسم الفيضان ، فنقص سكان بلدة الحلة الى أقل من النصفه ، وتحولت العشائر الى مناطق أخرى • وارسل السيد محمد علي القزويني برقية الى اسطنبول على شكل بيت من الشعر هذا نصه :

الى أن يعود الماء في النهر جاريا ويخضر جنباه تموت ضفادعه [٢٨]

واهتمت اسطنبول بالامر فاستدعت من فرنسا مهندساً معروفاً هو المسيو شونديرفر ، ووصل هذا مع مساعد له الى بغداد في خريف ١٨٨٩ ، وأخذ يتجول دارساً مجرى الفرات حتى وصل الى مسكنة ثم عاد • وقام أخيرا ببناء سدة على شكل جناحين مائلين مع فتحة في الوسط طولها سبعة عشر مترا[٢٩] • وقد حشر لبناء هذه السدة الكثير من ابناء العشائر وغيرهم، واستعملت السخرة في سبيل ذلك احيانا • وتخليدا لذكرى بناء السدة شيدت منارة مرتفعة قريبا من جناحها الايسر كتب عليها تاريخ الانتهاء من البناء مع تمجيد للسلطان عبدالحميد • ولا تزال المنارة قائمة حتى الآن مع العلم ان السدة اندثرت منذ زمن بعيد •

وفي ٢٥ تشرين الاول ١٨٩٠ جرى الاحتفال بافتتاح السدة ، وحضر الوالي سري باشا ومعه السيد عبد الرحمن الكيلاني ورفعت افندي الچادرچي

---

(٢٨) يوسف كركوش الحلي (تاريخ الحلة) — النجف ١٩٦٥ — ج١ ص ١٥٢ •

(٢٩) احمد سوسة (وادي الفرات) — بغداد ١٩٤٥ — ج٢ ص ٢٨٨ •

وغيرهما من أعيـان بغداد ، كما حضره أعيان الحلـة وكربلاء ، وألقى مفتي الحلة السيد مصطفى الواعظ خطبة مدح بها السلطان على هـذه المنة العظيمة التي تفضل بها على رعيته ، ثم مدح الوالي على همته • وبعد الانتهاء مـن الاحتفال توجهوا الـى بستان لرفعت الچادرچي قـريبة من الحلة اسمهـا « الجمجمة » فباتوا فيها • وفي اليوم التالي توجهوا الـى الحلة ، وتزينـت الحلة لاستقبالهم ، وخرج أهلوها بأسلحتهم وطبولهم ، وألقى الشيخ عبـاس العذاري قصيدة في مـــدح الوالي فانعم الوالي عليــه بساعته الذهبية مـع سلسلتها المصنوعة من الذهب • [30]

ويجب أن لا يفوتنا في هذه المناسبة أن نذكر أن الطابوق الذي بنيت به السدة استخرج كله من خرائب بابل ،وقد استخدم الديناميت من أجل ذلك اذ كان يوضع في جدران قصور بختنصر لنسفها واستخلاص الطابوق منها. [31] وهذا أمر يؤسف له فان قصور بختنصر لو كانت باقيــة على وضعها القديم لكانت اليوم من الكنوز الآثارية والسياحية التي لا تقدر بثمن •

ضجة في الموصل :

اعتاد السلطان عبدالحميد أن يرسل الى الولايات العثمانية بين كل آونه واخرى مفتشاً ذا رتبة عالية وسلطة واسعة لكي ينظـر فـي اصـلاح الفساد المستولي على البلاد • وفي عام ١٨٩٢ أرسل السلطان الى العراق مفتشاً مـن هذا النوع اسمه عمر لطفي باشا ومنحه سلطة تفوق سلطة الولاة • وقد وصل هذا الرجل الى الموصل في ٥ تموز عازماً أن يبدأ مساعيه الاصلاحية فيها •

كانت ولاية الموصل يومذاك قد عم فيها التفسخ وكثرت المظالم • [32] وظن عمر لطفي باشا أنـه قادر أن يصلـح كل شيء فيهـا عن طريـق العنف والارهاب ، وكان من رأيه أن يرهب الكبراء أولاً فيخشاه العامة تبعاً لهم • ولهذا كان أول عمل قام به في الموصل هو أنه أطلق سراح الذين كانوا فـي السجن من العامــة وزج في مكانهم بأعضاء مجلس الادارة وبعض الأعيـان

---

(٣٠) مصطفى نورالدين الواعظ (المصدر السابق) ــ ص ٢٠٠ •
(٣١) وليس بدج (المصدر السابق) ــ ج١ ص ١٥٤ ــ ١٥٦ •
(٣٢) بيير دى فوصيل (المصدر السابق) ــ ص ٨٧ •

يدعوى أنهم اللصوص وقطاع الطرق .[33] ولبث هـؤلاء في السجن ـــ في الحر الشديد ـــ ستة أيام ، ثم أطلق سراحهم وعزلهم عن وظائفهم [34] . ثم جاء بالقاضي وكان معروفاً بالارتشاء ، فأركبه على حمار ووجهه الى الخلف وطاف به في شوارع الموصل وكان المنادي يسير أمامه يعلن للناس جريمته . وأصبح الناس في ذهول اذ كانت تلك أول مرة يشاهدون فيها مثل هـــذا الحكم القاسي العادل .[35]

وألف عمر لطفي باشا لجنة خاصة لتحصيل ما تبقـى على الاهالي مـن ضرائب وديون أميرية عن السنوات الثمان الماضية ، وأسرع الناس يؤدون ما فرض عليهم اذ كانوا يخشون أن يكون مصيرهم كمصير القاضي أو أعضــاء مجلس الادارة . وقد استطاعت اللجنة أن تجمع في خلال مــدة قصيرة مـا يزيد على ٥٢ ألف ليرة . وبنى عمر لطفي باشا بهذا المبلغ داراً للحكومة على طراز جديد كما زاد في مرتبات الجنود .[36]

ان هذا النجاح الذي ناله عمر لطفي باشا جعله يتمادى في الشـــدة غير مبال بشيء ، وقد وصلت به الثقة بالنفس الى حد أنه أصدر أمره باحصاء سكان الموصل حتى الاناث منهم ، وهنا جوبه الباشا بما لم يكن يتوقعه ، فقد أنتهز خصومه تلك الفرصة وأخذوا يشنعون عليه أنه يريد انتهاك حرمــات النساء بتسجيل أسمائهن ، وقامت قيامة أهل الموصـــل ، فاغلقت الأسواق ، وخرجت المظاهرات تهتف بسببه ، وكان من جملة هوساتهم أثناء ذلك قولهم : « كلب أسود خير من الوالي » . وكان يتزعم المظاهرات رجل اسمه « محمد ابو جاسم » ، فلما قبضت الحكومة عليه وزجت به في السجن ظهر ابن اختـه يتزعم الجماهير بدلاً عنه وهو يردد مفتخراً : « هذا الخال واني ابن اخته ـــ عند الموت خالي عرفته » .[37]

أخذت البرقيات تنهال على اسطنبول محتجة على عمل الباشا ، وعــاد

---

(٣٣) صديق الدملوجي (اليزيدية) ـ الموصل ١٩٤٩ ـ ص ٥٠٦ ـ ٥٠٧ .
(٣٤) سليمان صائغ الموصلي (المصدر السابق) ـ ج١ ص ٣١٥ .
(٣٥) پيير دى فوصيل (المصدر السابق) ـ ص ٨٧ ـ ٨٨
(٣٦) سليمان صائغ الموصلي (المصدر السابق) ـ ج١ ص ٢١٦ .
(٣٧) خيري العمري (حكايات سياسية) ـ القاهرة ١٩٦٩ ـ ص ٩٧ ـ ٩٨ .

الجواب من اسطنبول يقول : ان السلطان لا يريد الدخول الى حرمه الامبراطوري قبل ان يطمئن كل الاطمئنان على حقيقة الوضع • واضطر الباشا أخيراً الى التنازل عن أمر الاحصاء • [٣٨] وكانت تلك أول هزيمة له ، ثم تلتها بعدئذٍ هزيمة أخرى ازاء اليزيدية وهي الهزيمة التي أدت الى عزله واعادته الى اسطنبول مدحوراً •

مشكلة اليزيدية :

ان مشكلة اليزيدية قديمة تمتد جذورها الى عدة قرون خلت ، وكانت المعارك بينهم وبين جيرانهم المسلمين لا يخمد لها أوار والاضطهادات لهم متصلة ، غير أن المشكلة اتخذت طابعاً جديداً منذ بدأ تطبيق نظام التجنيد الاجباري في العراق ، فقد انقسم الرأي حولهم بين رجال الدولة : هل هم مسلمون ليخضعوا لنظام التجنيد ، أم غير مسلمين ليكونوا كاليهود والنصارى يؤخذ منهم البدل النقدي •

يبدو ان الرأي استقر أخيراً على أنهم يجب أن يخضعوا لنظام التجنيد، ولهذا رأينا رؤساءهم في عام ١٨٧٢ يقدمون الى الحكومة عريضة يطلبون فيها استثناء اليزيدية من التجنيد بحجة أنه يمنعهم من اداء الواجبات التي تفرضها عليهم دياناتهم كزيارة طاووس ملك الذي يمثل الشيطان في زعمهم ثلاث مرات كل سنة ، وزيارة مرقد الشيخ عادي مرة واحدة ، واحتفاظ كل فرد منهم في جيبه بشيء من تربة الشيخ عادي حيث يأكل قليلاً منها كل صباح • وقد ذكروا في عريضتهم أيضاً أن دياناتهم تحرم عليهم دخول المرحاض والحمام واستعمال اللباس الكحلي وأكل السمك والقرع والبامية والفاصولية واللهانة والخس ، وسكنى الأماكن التي يزرع فيها الخس ، والاستماع الى لعن الشيطان من فم أحد فاليزيدي الذي يسمع لعن الشيطان يجب عليه أن يقتل من تفوه به أو يقتل نفسه والا أصبح كافراً • فهذه الواجبات وغيرها تمنع اليزيدية من الدخول

---

(٣٨) بيير دي فوصيل (المصدر السابق) — ص ٥٦ — ٦٠ •

ف سلك التجنيد ولهذا فهم يرجون من الحكومة اعفاءهم منه .[39]

كان لتلك العريضة أثرها في المسؤولين ، وربما صاحبتها هدايا ثمينة زادت في تأثيرها فيهم على طريقة ذلك الزمان ، فوافقت الحكومة على استثناء اليزيدية من التجنيد وجعلتهم كاليهود والنصارى يدفعون البدل النقدي عوضاً عنه . واستمر الحال على ذلك بضع عشر سنة ، حتى جاء يوم أخذ بعض رجال الدين ينادون فيه بأن اليزيدية لا يجوز معاملتهم كأهل الكتاب وانما هم فرقة من الاسلام انحرفوا عن الجادة وينبغي اعادتهم اليها بكل وسيلة ممكنة وفرض التجنيد عليهم كسائر المسلمين .

أرسلت الحكومة الى اليزيدية بعثات دينية لارشادهم وهدايتهم ، فلم توفق في ذلك [40] . ثم لجأت الى الشدة وأرسلت اليهم الحملات التأديبية فحدثت من جراء ذلك فضائع انتهكت فيها الحرمات وسفكت الدماء وانتهبت الاموال . يحدثنا السائح البريطاني السر وليس بدج عن بعض تلك الفضائع ، وكان قد سمع بها عند مروره بقرى سنجار في شتاء ١٨٩٠ — ١٨٩١ ، فكانت مما تقشعر منه الأبدان [41] .

وفي عام ١٨٩٢ نيطت مهمة ارشاد اليزيدية بعمر لطفي باشا ، وأخذ هذا يستعمل طريقته التي سار عليها في الموصل وعزم على أن يعرض « الرشاد » على اليزيدية بالحسنى فمن رفضه منهم أرغمه عليه بحد السيف .

بدأ الباشا « ارشاده » باليزيدية الذين يسكنون في قرى الشيخان الى الشرق من الموصل باعتبار أنهم أقل عناداً وعنفاً من يزيدية سنجار ، فأرسل اليهم يستدعيهم اليه ، فجاء منهم خلق كثير لما وقر في نفوسهم من هيبته ، وكان على رأسهم أمير الشيخان ميرزا بك . ولما قاربوا مدينة الموصل خرج الباشا لاستقبالهم ومعه علماء الموصل وأعيانها تصحبهم كتيبتان

---

(٣٩) عبد الرزاق الحسني (اليزيديون في حاضرهم وماضيهم) — صيدا ١٩٥١ — ص ٧٢ — ٧٤ .

(٤٠) صديق الدملوجي (المصدر السابق) — ص ٥٠٦ .

(٤١) وليس بدج (المصدر السابق) — بغداد ١٩٦٨ — ج٢ ص ١٠٨ — ١١٤ .

ss

من الجند وجوق موسيقي • وقد دهش اليزيدية من هذا التكريم الغريب ، فساروا والموسيقى تعزف أمامهم حتى وصلوا الى دار الحكومة فدخلوها حتى امتلأت الساحة بهم • وصعد الباشا مع العلماء والأعيان الى أعلى السلم ، وألقى عليهم كلمة بالمناسبة ثم طلب منهم أن يلعنوا الشيطان ، فسكتوا جميعاً ، وكرر الأمر عليهم ثلاث مرات فلم ينطق باللعن منهم سوى الأمير ميرزا بك وأخيه الصغير واثنين من العامة [٤٢] • فأمر الباشا الجنود بضربهم ، وأخذ الجنود يضربونهم ضرباً مبرحاً حتى مات منهم تحت الضرب ثلاثة ، وسقط الكثير منهم جرحى فحملوا الى المستشفيات للمعالجة • أما الذين سلموا من الأذى فقد قربهم الباشا اليه وأكرمهم لعلهم يهتدون [٤٣] •

الظاهر أن ميرزا بك وبعض الذين جاؤوا معه آثروا التقية وتظاهروا أمام الباشا أنهم تركوا تقديس الشيطان وأنهم اذا عادوا الى قراهم فسيقنعون اخوانهم بأن يفعلوا مثلهم • وأبرق الباشا الى اسطنبول يقول بان عشرين ألفاً من اليزيدية اهتدوا بهمته ، وطلب أوسمة للامير ميرزا بك وأخوته ، وقد وصلت الاوسمة الى الموصل فسلمت لأصحابها ، وأخذ اليزيدية يعودون الى قراهم تدريجياً •

وأرسل الباشا الى قرى الشيخان معلمين ليعلموا اليزيدية القراءة وأصول الدين • ولم يكد المعلمون يصلون الى القرى حتى جوبهوا بالطرد منها وهددهم سكانها بالقتل ان عادوا • ولما بلغ الباشا ذلك استشاط غيظاً وأرسل ابنه مع كتيبة من الجند الى تلك القرى فنهبوها واستاقوا المواشي كما سبوا النساء والاطفال ، وذبحوا من رجالها خلقاً كثيراً • وأضرموا النار في أربع من قرى الدنادية فاحترقت بأهلها ومواشيها[٤٤] وكذلك نهبوا قصر الامارة وهدموا قباب الأضرحة ، وفعلوا في مرقد الشيخ عادي من المنكرات ما يكل عنه الوصف ثم حولوه الى مدرسة دينية ، واستولوا على السناجق والمقدسات وأرسلوها الى بغداد حيث احتفظ بها في خزانة الجيش ولم تعد

---

(٤٢) صديق الدملوجي (المصدر السابق) ــ ص ٥٠٧ •
(٤٣) سليمان صائغ الموصلي (المصدر السابق) ــ ج١ ص ٢١٨ ــ ٢١٩
(٤٤) عباس العزاوي (المصدر السابق) ــ ج٨ ص ١٢٠ •

الى اليزيدية الا بعد اعلان الدستور .[٤٥]

وحين علم يزيدية سنجار بما حل باخوانهم في قرى الشيخان أعلنوا العصيان ، وكانت مواضعهم الجبلية تساعدهم على مقاومة القوات الحكومية وانزال الخسائر الفادحة بهم . وعزم عمر لطفي باشا على أن يتوجه بنفسه لقتالهم ، وأعد لهم المدافع مع قوات عشائرية وعسكرية كبيرة . وفي ١٥ نيسان ١٨٩٣ وقعت معركة عنيفة بين الفئتين استمرت ثلاثة أيام ، في موقع يقال له « زوقايه » ، وكانت خسائر القوات الحكومية في تلك المعركة كبيرة بينما كانت خسائر اليزيدية قليلة نسبياً . فقد كان اليزيدية مستميتين في القتال وكثيراً ما كانوا يهاجمون الجيش ليلاً ثم يعودون الى متاريسهم. وأخذت العشائر الملتحقة بالجيش تترك مواقعها كما هي عادتها في أوقات المحنة . واضطر الباشا ازاء هذا الفشل الذي مني به أن يلجأ الى فتح باب المفاوضة مع اليزيدية .

وفي الوقت الذي كان فيه الباشا مشغولاً بمفاوضة اليزيدية وصلت الى الموصل لجنة كان الباب العالي قد أرسلها للتحقيق معه ، وقد استدعته اللجنة الى الموصل وأبلغته بوجوب السفر الى اسطنبول ، فسافر اليها في ٢٥ نيسان وصدر الأمر هناك بعزله . ولما سمع اليزيدية بذلك أعلنوا السرور وصاروا يهتفون باسم السلطان عبد الحميد واعتبروه واحداً منهم ، وقالوا انه لم يكن راضياً بالاعتداء عليهم .[٤٦]

في عام ١٩٠٣ كتب والي الموصل نوري باشا الى الباب العالي يدافع عن اليزيدية ويقترح أن تترك لهم الحرية في معتقداتهم ، وأن يؤخذ البدل النقدي منهم عوضاً عن الخدمة العسكرية ، وقد استجاب الباب العالي لهذا الاقتراح ، وأعيد مرقد الشيخ عدي الى اليزيدية حيث ألغيت المدرسة الدينية التي أسسها عمر لطفي باشا فيه .[٤٧]

ان تلك النكبات التي حلت باليزيدية لا تزال ذكراها ماثلة في أذهانهم

---

(٤٥) صديق الدملوجي (المصدر السابق) ـ ص ٥٠٧ .
(٤٦) المصدر السابق ـ ص ٥٠٩ .
(٤٧) عبد الرزاق الحسني (المصدر السابق) ـ ص ٩٨ .

حتى الآن ، فهم قد حفظوها في تراثهم الشعبي على شكل اناشيد رثائية بطريقة الحكاية تسمى « ستران » [٤٨]. ومن الجدير بالباحثين بالتراث الشعبي أن يهتموا بتسجيل تلك الاناشيد لما فيها من أهمية اجتماعية وتاريخية .

الحاج حسن باشا :

في عام ١٨٩١ اتفق سري باشا والي بغداد مع الحاج حسن باشا والي ديار بكر على أن يحل أحدهما محل الآخر على طريقة « البجايش » ـ أي التبادل ـ وقد وافقت اسطنبول على ذلك .

وفي ٢٤ آب وصل الوالي الجديد الى الطارمية في طريقه الى بغداد ، وكانت قد خرجت لاستقباله باخرة نهرية وهي تحمل وكيل الوالي المشير نصرت باشا ومعه الأعيان وكبار الضباط والموظفين . فبات الوالي الجديد تلك الليلة في قصر كاظم باشا ، ثم تحركت به الباخرة في صباح اليوم التالي نحو الاعظمية فنزل اليها حيث قام بزيارة مرقد أبي حنيفة ، ومن هناك عبر الى الكاظمية حيث قام بزيارة مرقد الجوادين . وتحركت به الباخرة بعدئذ نحو بغداد ، فخرج الناس على الضفتين ليشهدوا مرور الباخرة ، وكان ذلك يوماً مشهوداً في بغداد ، وأطلقت المدافع تسع عشرة طلقة . وقد وصلت الباخرة الى شاطيء القشلة في الساعة التاسعة غروبية ، أي قبل غروب الشمس بثلاث ساعات . وفي الساعة الثانية بعد الغروب قرأ مميز المكتوبي فرمان السلطان ، فأعقبه الوالي بكلمة مدح فيها السلطان مدحاً كثيراً حتى جعله كأنه قديس يوحى اليه ، وختم كلمته بقوله : « ليعش سلطاننا عيشاً كثيراً » . ثم ألقى المفتي محمد سعيد أفندي الزهاوي دعاءً بالمناسبة ، ثم تقدم من بعده أخوه الشاعر جميل صدقي الزهاوي فألقى قصيدة بالتركية رحب فيها بالوالي وبارك قدومه .[٤٩]

ظل الحاج حسن باشا في ولاية بغداد خمس سنوات ، وقد تميز

---

(٤٨) سليمان صائغ الموصلي (المصدر السابق) ـ ج١ ص ٣٢٠ .
(٤٩) عباس العزاوي (المصدر السابق) ـ ج٨ ص ١١٥ ـ ١١٧ .

بصفتين نال بهما حسن السمعة : أولاهما أنه كان متديناً يقوم بالشعائر الدينية بشكل يرضى العامة بمختلف طوائفهم ، فقد رأيناه يزور مرقد أبي حنيفة ومرقد الجوادين قبل دخوله الى بغداد، وقد ذكرنا في الفصل السابق كيف أنه كان يخرج شعرة النبي بنفسه في الاعياد تبركاً بها • أما الصفة الثانية التي تميز بها فهي أنه كان بشوشاً يجامل الناس وقد نال بذلك رضا القناصل ببغداد • وصفه القنصل الفرنسي المسيو بونيون بقوله : « ان والينا الجديد لا هو متعلم ولا هو ذكي ، انه اداري فاشل لا يستحق درجة الصفر في الادارة ، ولكنه هشوش بشوش في وجوه الأجانب ويعمل كل ما في وسعه لارضاء الناس كافة • ولم ينقطع القناصل أبداً عن كيل المديح والثناء له • وعذرهم وعذري في ذلك ان الاساليب المحزنة التي كانت تصرف بموجبها الشؤون في عهد سلفه الطالح قد حملتنا حملاً على الاعتقاد بأن الولاة الجهلاء في بعض الأحيان هم أفضل الولاة » • (٥٠)

الهر ريتشارز :

حدث في عهد الحاج حسن باشا أمران يستحقان الذكر : أحدهما ما جرى في سامراء وهو الذي هز المجتمع العراقي هزاً عنيفاً وكاد يؤدي الى فتنة طائفية رعناء على نحو ما سوف ندرسه في الفصل القادم • أما الأمر الثاني فهو في شأن شاب ألماني كان يسكن بغداد في تلك الآونة اسمه ريتشارز •

كان ريتشارز ذا ثروة طائلة ومن اسرة المانية نبيلة وقد سكن بغداد لسبب غير معروف ، وكان متعطلاً يحرص على حضور حفلات الاستقبال التي كانت الجالية الأوربية تقيمها بين حين وآخر ، فكان مطمح الانظار في تلك الحفلات لما له من شباب وثراء •

قيل عنه انه كان لوطياً وقد جاء الى بغداد لاشباع شهوته الشاذة فيها • وقد رفعت عائلة مسيحية في عام ١٨٩٤ دعوى الى المحكمة ضد ريتشارز اتهمته فيها بأنه لاط بغلام لها كان تلميذاً في مدرسة الآباء الكرمليين • وقد أثارت هذه القضية ضجة في بغداد ، وانقسم الناس فيها الى فريقين فوقف

---

(٥٠) پيير دي فوصيل (المصدر السابق) — ص ٩٠

فريق منهم الى جانب ريتشارز بينما وقف آخرون ضده • وادعى ريتشارز ان الآباء الكرمليين هم الذين لفقوا الدعوى ضـــده وتآمروا للايقاع به لانه لم يكن يمتنع عن أكل اللحم والدسم في يوم الجمعة ، وكـــان يقيم حفـــلات راقصة أثناء الصوم الكبير •

وقد جرى الفحص الطبـــي على الغلام فتبين أنه قـــد سبق اللواط به بافراط بحيث لا يمكن اثبات حدوث اللواط الاخير عليه أو نفيه ، ولم ينته التحقيق الى نتيجة • وقد أظهرت الحكومة الالمانية استياءها من هذا التشهير الذي أحاط بالقضية ، فأرادت البرهنة عملياً على اقتناعها ببراءة احد رعاياها ، فعينت ريتشارز قنصلاً لها ببغداد ، (٥١) وكـــان بذلك أول قنصل لالمانيـــا في العراق •(٥٢)

ان هذه القضية في الواقع تثير التساؤل ، فما هو السبب الذي جعل ذلك الشاب الثري يترك أوربا وما فيها من مجالات واسعة لاشباع شهوته ثم يختار بغداد من دون غيرها من بلدان العالم • كتب القنصل الفرنسي الى حكومته يقول : « أي دافع دفع هذا الشاب الثري الأنيق سليل الاسرة النبيلة للمجيء الى بغداد ان لم يكن ذلك لاحتمال الاستفادة من الفرص التي تتيحها له مدينة عامورة الجديدة ؟ » •(٥٣)

نرى القنصل الفرنسي يصف بغداد بأنها « عامورة الجديدة » أي انهـــا تشبه بلدة لوط القديمة ، وهذا أمر يلفت النظر • فنحن نعـــرف ان الانحراف الجنسي كان منتشراً في بغداد آنذاك انما هو لم يكن على تلك الدرجـــة التي يصفها القنصل • اننا نقف هنا تجاه لغز اجتماعي غامض !

نامق باشا الصغير :

نقل الحاج حسن باشا الى ولاية الشام ، وفي ٢٦ تموز ١٨٩٦ وصل الى

---

(٥١) بيير دي فوصيل : المصدر السابق) ــ ص ١٥٥ ــ ١٥٦

(52) Stphen Hemsly Longrigg (Iraq 1900 To 1950) — Oxford 1950 — P . 5 .

(٥٣) بيير دي فوصيل (المصدر السابق) ــ ص ١٥٦ •

بغداد الوالي الجديد عطاءالله باشا الكواكبي • وكان هـذا الوالي طاعنـة في السن ذا لحية كثـة بيضاء تشبه لحى رجال الدين ، وقـد هجاه الشاعر الشيخ رضا الطالباني ببيتين من الشعر باللغة التركية قال فيهما ما معناه : ان تعيين الوالي الذي تجاوز عمره المائة يـؤدي الى اضطراب أحوال البلاد بـلا ريب ، اذ ليس من المعقول احياء البلاد بأحد الأموات ، فمرحى لقوة ادراكك أيها الباب العالي ! (٥٤).

دامت ولاية عطاءالله باشا في بغداد ثلاث سنوات ، ثم نقل منها ، وحل محله والي طرابلس الغرب نامق باشا ، وقد وصل هذا الوالي الى بغداد فـي ١٩ ايار ١٨٩٩ •

لقب نامق باشا بـ « الصغير » للتمييز بينـه وبين نامق باشا « الكبير » الذي ولي العراق قبل العهد الحميدي مرتين • والواقع ان نامق باشا الصغير له أهمية خاصة تميزه عن غيره من ولاة العهد الحميدي ، وتأتي أهميته من ناحيتين : أولاهما أنه تصاهر مع آل الآلوسي حيث تزوج عاتكة خاتون بنـت السيد نعمان خير الدين الآلوسي ، والثانية أنه حاول التشبه بمدحت باشا في الانشاء والتعمير •

يخيل لي أن نامق باشا عند وصوله الى بغداد وجد الناس يلهجون بذكر ما قام به مدحت باشا من أعمال عمرانية في العراق فاراد أن يقلده أو لعله أراد أن يتفوق عليه لكي ينال سمعة أعظم منه • نذكر فيما يلي بعض الأعمال التي قام بها نامق باشا تشبها بمدحت باشا :

اولا ــ كان مدحت باشا قد أنشأ اول مدرسة حديثة في العراق ، وهي كانت للذكور طبعاً ، فجاء نامق باشا وأنشأ أول مدرسة للاناث • ثم أنشـأ علاوة على ذلك مدارس جديدة في بغداد كما أنشأ مدارس أخرى في الحلة والديوانية وخانقين ومندلي • وحين وجد صعوبة في استقدام المعلمين من اسطنبول أنشـأ داراً للمعلمين ببغداد وجعلها معهـداً داخلياً لكي يسكنها الطلاب من مختلف الألوية العراقية •

ثانيا ــ كان مدحت باشا قد أنشأ مدرسة الصنائع للايتام ، وقد اهملت

---

(٥٤) عباس لعزاوي (المصدر السابق) ــ ج٨ ص١٢٦ •

هذه المدرسة بعد ذهاب مدحت باشا وأشرفت على الاندثار اذ لم يبق فيها عند مجيء نامق باشا سوى أربعين تلميذاً • وانبرى هذا الوالي لانعاشها من جديد فرمم بنايتها وأضافه اليها قسماً خاصاً بالنجارة ، كما أدخل فيها تدريس الموسيقى واستقدم لها من أوربا جوقاً كاملاً ، ونما بذلك عدد تلاميذها حتى وصل الى المائة والثلاثين • (٥٥)

ثالثا ـ كان مدحت باشا قد شيد مستشفى للغرباء في جانب الكرخ• وقد أهمل هذا المستشفى على منوال ما أهملت مدرسة الصنائع • وفي عام ١٨٩٦ تحولت بناية المستشفى الى مدرسة اعدادية • ولما جاء نامق باشا أسرع الى تشييد مستشفى جديد في باب المعظم في الموضع الذي أقيمت فيه السجون بعدئذ ، واستورد له الأدويه والادوات الجراحية من أوربا ، واهتم به اهتماماً كبيراً • (٥٦)

رابعا ـ كان مدحت باشا قد اسس شركة تراموای الكاظمية ، وجاء نامق باشا فأسس شركة لعربات تجرها الخيول وتسير بانتظام بين بغداد وبعض المدن القريبة منها كالحلة وكربلاء وسامراء وبعقوبة ، وهي الشركة التي أطلق العامة عليها اسم « الكومبانية » واشترك في تأسيسها بعض سراة بغداد وكبار تجارها كعارف أغا وغيره •

خامسا ـ كان مدحت باشا قدشيد كثيرا من الابنية العامة التي لا يزال بعضها قائماً حتى الآن • وقد حاول نامق باشا الاقتداء به في ذلك ، وكان من آثاره سراي الكاظمية الذي ظل قائماً حتى عام ١٩٥١ ، وكان سراياً فخماً في حينه وقد جرى الاحتفال بوضع حجر الاساس فيه في ٢٠ تشرين الثاني من عام ١٩٠٠ •

سادساً ـ كان مدحت باشا قد صنع جسراً جديداً لبغداد وزينه لكي يمر عليه الشاه أثناء زيارته العراق في عام ١٨٧٠ • وقد أصبح هذا الجسر

---

(٥٥) عبد الرزاق الهلالي (تاريخ التعليم في العراق) ـ بغداد ١٩٥٩ ـ ص ١٦٨ ـ ١٦٩ •

(٥٦) هاشم الوتري ومعمر خالد الشابندر (تاريخ الطب في العراق) ـ بغداد ١٩٣٩ ـ ص ٥٥ •

عند مجيء نامق باشا واهياً مفككاً وكثيراً ما كان ينقطع أثناء الفيضان فينجرف مع تيار الماء فاذا أعيد الى محله أقيمت له زفة عامة حيث يخرج الأهالي بالمزامير والطبول فرحاً بعودته . وقد اهتم نامق باشا بالامر وأوعز الى مدرسة الصنائع بصنع جسر جديد بدلا عنه . وجرى الاحتفال بنصب الجسر الجديد في ٣١ آب من عام ١٩٠٢ ، وتجمهر الناس على جانبي النهر ليشاهدوا الاحتفال . والواقع أنه كان جسراً لم يشهد البغداديون له مثيلاً من قبل ، فقد كان متيناً عريضاً ذا سياج أنيق وكانت في أحد جانبيه شرفات مسقوفة وضعت فيها الكراسي كأنها المقاهي ، على نمط الجسور في اسطنبول . وبقي هذا الجسر حتى الليلة التي انسحب فيها الاتراك من بغداد في عام ١٩١٧ ، فقد أشعلوا النار فيه عند انسحابهم وبقيت النيران تلتهب فيه طيلة النهار والليله التالية . (٥٧)

والغريب أن نامق باشا لم يكد يفتتح الجسر حتى جاءه أمر عزله من ولاية بغداد ، وقد فرح بهذا العزل المفاجيء الكثيرون من أهل بغداد وشاع بينهم أنه ورد عليه التبليغ بالعزل أثناء مروره على الجسر عند افتتاحه نكاية به . ونظم الحاج محمد رفعت بيتاً بالتركية يسخر فيه من الوالي المعزول حيث قال ما معناه : ان نامق خرج من بغداد منكسراً فركب القفة ولم يعبر من فوق الجسر . وكذلك نظم أحد الشعراء بالعربية أبياتاً كان مطلعها :

قوموا بنا يا بني الزوراء نبتهل فمن قريب جميع الخزي يرتحل

مما يذكر أن نامق باشا عند تشييده للجسر لم يكلفه خزانة الحكومة بشراء الاخشاب والمواد اللازمة له بل فرض معظمها على الملاكين وأصحاب البساتين ، وجمعها منهم قسراً ، فكان ذلك سبباً لانتشار التذمر منه بين سكان بغداد . وقيل في سبب عزله انه عندما صلى في جامع الميدان يوم الجمعة قرن الخطيب اسمه أثناء الدعاء باسم السلطان ، فانتهز المتذمرون الفرصة وأبرقوا بالخطبة الى اسطنبول فعاد البرق مخبراً بعزله .. »(٥٨) .

---

(٥٧) عبد الكريم العلاف (بغداد القديمة) ـ بغداد ١٩٦٠ ـ ص ١٤٧ ـ ١٥٠ .
(٥٨) عباس العزاوي (المصدر السابق) ـ ج٨ ص ١٤٦ ـ ١٤٧ .

الفوضى بالبصرة :

كانت البصرة في مطلع القرن العشرين في حالة من الفوضى والتسيب لا تطاق . وقد أشار الى ذلك سليمان فيضي في مذكراته فقال في وصف أحوال العراق بوجه عام ، وأحوال البصرة بوجه خاص ، ما نصه :

« كان من نتائج سوء الادارة أن فقد الأمن في ربوع البلاد ، وأصبح اللصوص وقطاع الطرق في مأمن من العقاب ، يرتكبون جرائمهم في وضح النهار دون خوف أو وجل . وكانت الحالة في المدن الكبرى ، مثل بغداد والموصل ، أهون شراً منها في النواحي البعيدة ، اذ لم تكن الأعمال اللصوصية فيها لتتعدى السرقات الفردية في جنح الظلام . ولكنها في البصرة بلغت حداً خطيراً ، حتى ساد فيها قانون الغاب ، وأصبح هم الناس أن يحرسوا ممتلكاتهم بأنفسهم ، وأن يدافعوا عن حياتهم بسلاحهم ، كأن لم تكن حكومة وكأن لم يكن قانون . واني لا أزال اذكر جيداً تلك الحوادث المؤلمة التي كانت تروع سكان المدينة الآمنة بين حين وآخر . أذكر كيف كان بعض الرجال المدججين بالسلاح يدخلون السوق الرئيسية في وضح النهار فينهبون أموال الصيرفيين ، ويفتكون بهم ، ثم يخرجون آمنين . وأذكر أيضاً تلك الأمسيات القاتمة ، عندما تهاجم عصابة من أربعين أو خمسين رجلاً مسكن أحد الاثرياء أو مخزناً تجارياً كبيراً ، فيقلعون الأبواب والنوافذ ويدخلون الدار عنوة ، ويفتكون بساكنيها ، لا فرق عندهم بين كبير أو صغير .. ثم يحملون ما استطاعوا حمله من مال ورياش في حين يقوم أعوانهم بحراسة مداخل الطرق المؤدية الى تلك الدار . فاذا ما انتهى الغزو ، حملوا المسروقات الى البساتين المتاخمة للمدينة لاقتسام الغنائم .. وهم يرددون الاهازيج .. ويطلقون الرصاص اعتباطاً . كل هذا والحكومة ساهرة على الأمن وأعز الله السلطان !! .. » (٥٩)

يبدو لي أن من أهم الاسباب التى ادت الى هذه الفوضى هو أن البصرة محاطة بمناطق يستطيع اللصوص والخارجون على القانون الالتجاء اليها بسهولة ، فالصحراء تقع الى الغرب منها ، والحدود الايرانية

---

(٥٩) سليمان فيضي (غمرة النضال) ـ بغداد ١٩٥٢ ـ ص ٥١ .

الى الشرق عبر النهر منها ، كما يقع البحر الى الجنوب ، والاهوار الى الشمال • أضف الى ذلك أن منطقة البصرة نفسها هي عبارة عن غابة هائلة من النخيل يمكن أن يختفي فيها اللصوص فلا ينالهم أحد •

ويجب أن لا ننسى ما كان للشيخ خزعل أمير المحمرة من أثر في تلك الفوضى • فقد كانت لهذا الامير بساتين واملاك كثيرة في البصرة وكان يستخدم لحمايتها نفرا من الاشقياء الذين احترفوا مهنة القتل والابتزاز ، فكان هؤلاء يعيشون في البصرة كما يشاؤون ، ثم يلجأون الى المحمرة عندما يهددهم خطر • ومن الجرائم التي اقترفها هؤلاء الاشقياء واشتهر أمرها في البصرة جريمة ذهب ضحيتها أحد وجهاء البصرة هو الحاج منصور جلبي السلمان عميد أسرة السلمان المعروفة ، فقد شاع عن هذا الرجل أنه تفوه ذات يوم بكلمة تنم عن قلة احترام للسيدة فاطمة ابنة الرسول ، وحين وصل خبر تلك الكلمة الى الشيخ خزعل أوعز من طرف خفي الى بعض اشقيائه بقتل الرجل • فجاء الى الرجل اثنان منهم ، فوجداه جالساً في المقهى الذي اعتاد الجلوس فيه كل يوم وكان مكتظاً بالناس ، فأطلقا عليه الرصاص ثم سارا بهدوء كأنهما لم يفعلا شيئا حتى تواريا عن الانظار • وقد اعتبرت هذه الجريمة في نظر الكثير من الناس منقبة للشيخ خزعل ، فهم حمدوا له غيرته على ابنة الرسول ونسوا أنه قاتل • وتلك كانت عقلية الناس في تلك الايام !

السيد طالب النقيب :

في تلك الفوضى التي كانت سائدة في البصرة نبغ شاب ذو طموح وشخصية قوية هو السيد طالب بن السيد رجب نقيب أشراف البصرة • انه كان النبتة الملائمة لتلك التربة الاجتماعية !

جمع السيد طالب حوله عصابة من الاشقياء وأخذ يهاجم بهم كل من يقف في طريق طموحه ، ثم اتصل بابي الهدى الصيادي مدلاً عليه بكونه رفاعياً مثله ، فشمله هذا بحمايته • وصار السيد طالب يصول ويجول في البصرة دون أن يعترضه أحد • وكان يتوقع من والي البصرة أن يلبي طلباته ولا يعارضه في شيء ، فاذا تردد الوالي في اجابة طلبه مرة أسرع

السيد طالب فاحتل برجاله دائرة التلغراف وراح يمطر الباب العالي ببرقيات الشكوى طالبا نقل الوالي ، وكثيرا ما كان ينجح في مسعاه بمعونة مولاه أبي الهدى الصيادي[٦٠] •

والمعروف عن السيد طالب أنه كان عطوفا على الفقراء بقدر ما كان شديدا على الاغنياء ، وقد شبهه آيرلند بـ « روبن هود »[٦١] لهذا السبب • انه كان سخياً جدا يبذل الطعام للمحتاجين في الوقت الذي كان فيه يبتز المبالغ الضخمة من الملاكين وكبار التجار لا سيما الذميين منهم ، وتلك صفة كان الناس يقدرونها كل التقدير ويعدونها من معالم الرجولة الكاملة، ولهذا ذاع صيت السيد طالب وأخذ العامة يلهجون بذكره ويختلقون حوله المبالغات والاساطير •

ولم يكن السيد طالب يتردد من سفك الدماء حين يجد احدا يعانده في شيء ، يروى أن أحد المحامين في البصرة اسمه عبدالله الراوندوزي كان يتوكل في الدعاوي التي تقام ضد آل النقيب ، فاغتاظ منه السيد طالب وأمر أحد رجاله بالاعتداء عليه من أجل أرهابه ، وقد جرح المحامي ولكنه لم يرتدع ، فعاقبه السيد طالب أخيرا بقتله علناً أمام الناس في محلة « سوق الدجاج » واهتز المجتمع البصري لهذا الحادث وتضعضع مركز السيد طالب به ، غير أن الصيادي أسرع لنجدته فاستدعاه الى اسطنبول، ولم يلبث أن عينه متصرفاً للواء الاحساء • وقيل ان السيد طالب أثناء ولايته في الاحساء لم يكف عن نشاطه المعتاد فقد هاجم دار منصور باشا أحد أثرياء القطيف بحجة وجود أسلحة وعلم بريطاني فيها ، وأتهمه منصور باشا على أثر ذلك بأنه اختلس من داره عند التفتيش مبلغا قدره مائة ألف جنيه، وملأ منصور باشا الدنيا صراخاً ، وطلب تقديم السيد طالب الى محكمة جزائية ، مما اضطر السيد طالب الى الاستقالة من وظيفته والعودة الى اسطنبول ، وهناك عين عضوا في ديوان شورى الدولة[٦٢] •

---

(٦٠) خيري العمري (شخصيات عراقية) ـ بغداد ١٩٥٥ ـ ص ٢٤ •

(٦١) فيليب ويلارد آيرلند (العراق) ـ ترجمة جعفر خياط ـ بيروت ١٩٤٩ ـ ص ١٧٧ •

(٦٢) مهدي البصير (تاريخ القضية العراقية) ـ بغداد ١٩٢٣ ـ ص ٣٨ـ٤٠ •

SS

فخري باشا ابو الكواني :

في عام ١٩٠٤ أرسلت الحكومة العثمانية الى البصرة رجلا عسكريا شديد المراس اسمه فخري باشا ليكون فيها واليا بالوكالة ، والمظنـــون أن الحكومة انما أرسلت هذا الرجل بغية انقاذ البصرة من حالة الفوضى التي كانت سائدة فيها . يقول سليمان فيضي في هذا الشأن ما نصه :

« بقي الامن في البصرة مزعزعاً زمناً طويلا ، حتى قدمها فخري باشا الوالي الجديد ، الذي كان قائدا عاما للجيوش العثمانية في العـراق قبـل ذاك . فلما استلم مهام منصبه راعه وضع الامن ، فعمد الى كسر شوكـة الشقاة وقطع دابرهم . ولم تكد تمر ليلتان على وصوله حتى هاجـــم صحبة فريق من جنوده ، مباءة اللصوص وفتح عليهم نارا حامية ، فقتـل منهم ستة وجرح خمسة وفر الباقون . وفي صبيحة اليوم التالي صحـا الناس على صوت منـاد يدعوهم للتفرج على الجثث المكدسة فـي أحـد الميادين ... فاستبشروا وزايلهم بعض خوفهم . ثم دعـا المختارين فـي المدينة وقراها وهددهم بالسجن ان لم يفضوا اليه بأسماء المجرمين . فلـم يكد يمر النهار حتى توفرت لديه قائمة طويلة ، فسعى جنوده الى القبض عليهم ، فاستسلم الكثيرون وأودعوا السجن ، وقتل كل من حاول الفرار منهم . وحين بلغه أن بعض الفارين التجأوا الى المحمرة ، كتب الى أميرها الشيخ خزعل راجيا اعادتهم ، فأعيدوا الى البصرة مقيدين بالسلاسـل . وبنتيجة هذه الحملة بلغ عدد القتلى من اللصوص واحدا وعشرين ، وضعت جثثهم داخل أكياس (كواني) وألقيت في النهر .. فظلت عائمـة فيـه .. ترتفع مع المد وتنخفض بالجزر ، فكان منظرها عبرة وعظة . ومن يومهـا وأهل البصرة ينعمون بالنوم اللذيذ بعد طول سهاد وقلق ، وهم يلهجون بالدعاء للوالي الجديد (أبو الكواني) .. »[٦٣] .

ان هذه الطريقة التي اتبعها فخري باشا تشبه من بعض الوجوه تلك التي اتبعها زياد بن أبيه عندما تولى حكم البصرة في عام ٤٥ هـ ، فقـد كانت البصرة حينذاك على مثل حالة الفوضى التي شهدناها أخيرا ، وجاء

---

(٦٣) سليمان فيضي (المصدر السابق) ــ ص ٥١ ــ ٥٢ .

زياد فخطب في أهل البصرة خطبته « البتراء » ثم أخذ يقتل فيهم تقتيلا ذريعا حتى وصل الامر به الى أنه قتل اعرابيا مع علمه أنه بريء ، ونطق اذ ذاك بكلمته المشهورة التي أصبحت فيما بعد مثلا سائرا «أشهد أنك بريء ولكن في قتلك صلاحاً للامة » .

ان هذه الطريقة قد لا يرضى عنها رجال القانون والشرع ، ولكنها في الواقع هي الطريقة الناجعة عند شيوع الفوضى واللصوصية في مجتمع ما . ان البشر في مثل هذه الحالة لا تجدي معهم العدالة المثالية وحرفية القانون ، بل لا بد لهم من حاكم سفاك لا يبالي أن يقتل البريء لكي لا يفلت من يده المجرم . ان هذا الحاكم قد يجني على آحاد من الناس لا ذنب لهم غير أنه في الوقت نفسه ينقذ ألوف الناس من الرعب الدائم والفوضى . ان القسوة قد تكون في بعض الاحيان أنفع للناس من الرحمة. يجب ان لا ننسى ان الانسان هو في أصل طبيعته حيوان !

دهاء ابن رشيد :

في الوقت الذي كان فيه فخري باشا يتعقب اللصوص في البصرة كانت صحاري نجد تعج بأحداث جسام من جراء ظهور أمير سعودي ذي دهاء وجرأة اسمه عبدالعزيز آل سعود .

كان عبدالعزيز في مطلع شبابه لاجئا مع أبيه الأمير عبدالرحمن في الكويت ، وكان أبوه يعاني الضيق في معيشته حتى قيل أنه رهن سيفه ذات يوم عند عطار كويتي من أجل شراء ما يحتاج اليه من القهوة . وفي أواخر ١٩٠١ خرج عبدالعزيز مع أربعين فارسا من أعوانه متوجها نحو بلدة الرياض بغية استخلاصها من حكم آل الرشيد . والظاهر ان عبدالعزيز حين خرج في تلك الحملة كان كاليائس المستميت الذي يريد أن يحيى حياة كريمة أو يموت فيستريح .

في ١٥ كانون الثاني ١٩٠٢ استطاع عبدالعزيز بضربة جريئة بارعة أن يحتل الرياض ، فكان ذلك بداية صعود نجم هذا الشاب . وفي خلال السنتين التاليتين كانت المعارك متصلة بينه وبين خصمه عبدالعزيز آل رشيد أمير حائل ، وقد تمكن خلال تلك المدة من توسيع نطاق سيطرته

جنوبا وشمالا حتى وصل بفتوحه الى منطقة القصيم تلك المنطقة التي تقع في منتصف الطريق بين الرياض وحائل وتعد من أغنى بقاع نجد وأكثرها عمرانا وخصبا ، وتحتوي على خمسين قرية وبلدة أهمها بريدة وعنيزة .

كان ابن رشيد على صلة وثيقة بالدولة العثمانية فاستنجد بها لكي تساعده على ابن سعود . ولم تتردد الدولة عن تلبية طلبه اذ هي كانت تدرك ما وراء انتصار ابن سعود من خطر ، ولعلها كانت تخشى أن يكرر الوهابيون على يد هذا الرجل ما فعلوه من قبل حين احتلوا الحجاز وهاجموا العراق وارتكبوا فيهما المذابح الفظيعة .

وفي أوائل آذار من عام ١٩٠٤ وصلت الأوامر من اسطنبول الى بغداد بتجهيز حملة قوية لمساعدة ابن رشيد في حربه لخصمه ابن سعود . وكان المشير أحمد فيضي باشا هو قائد الجيش في بغداد ويقوم بأعمال الوالي وكالة ، أي أنه كان يجمع في يده زمام الامور العسكرية والادارية معا . والمعروف عن هذا الرجل أنه كان مرتشيا سيء السيرة لا يبالي بنجاح الحملة بمقدار ما يبالي بامتلاء جيبه . فكان ذلك سببا في وقوع الكارثة التي حلت بالجنود العراقيين في الصحراء ، وهي الكارثة التي اشتهرت في العراق باسم «دقة ابن رشيد» ، فكانت الكارثة الثانية بعد «دقة الغربية» .

تألفت الحملة من أربعة أفواج مع بطرية من مدافع الصحراء ، وكان عدد جنود الفوج يتراوح بين الثمانمائة والالفه معظمهم من العراقيين . وكانت الحملة بقيادة الحاج شكري بك . فتوجهت الى الصحراء عن طريق السماوة ، فاستقبلها ابن رشيد استقبالا حافلا وجهز لها الجمال اللازمة لنقلها الى القصيم(٦٤) .

ظلت الحملة تحارب في القصيم خلال أشهر الصيف ، وفي احدى المعارك قتل قائدها الحاج شكري بك مع اثنين من أمراء الافواج ، ثم انتهى أمرها الى الهزيمة الشنعاء . يقول فيلبي في تعليل تلك الهزيمة : « ينبغي علينا أن نذكر ان الاتراك كانوا يقاتلون في بيئة غير مألوفة لديهم وأحوال

(٦٤) المصدر السابق – ص ٣٩ .

غير ملائمة لهم .. كانوا يحاربون في صحراء مجدبه وفي حمارة القيظ .. ومع هذا فان في وسع المؤرخ المنصف أن يقول : انهم لـم يقاتلوا بصورة ممتازة وقد عانوا الهزيمة على يدي عدو شجاع ماهر ، موارده تقل كثيرا عن مواردهم »[٦٥] .

وتشتت جنود الحملة هائمين على وجوههم فى تلك الصحراء المترامية الاطراف فالذين ساروا في أثر البدو نجوا ومنهم مـن استسلم الى ابن سعود فآواهم واحسن معاملتهم [٦٦] ، أما الباقون فقد صاروا عرضـة للجوع والعطش ، واضطروا الى أكل بذور الحنظل ولحوم الدواب الميتة، وفتك الموت بهم فتكا ذريعا . واستطاع بعض الناجين منهم أن يصلوا الى البصرة ، يقول سليمان فيضي : « وان أنسى لا أنسى يوم وصلت هـذه الفلول الى مدينة البصرة ، في حالة يرثى لها من الجوع والعري والمرض . لقد عم الحزن البصـرة يومذاك ، وأبـدى أهلهـا في مؤاساتهم أبلـغ الكـرم » . [٦٧] واصيب بعض الذيـن نجوا بعاهـات رافقتهم طيلـة حياتهم . [٦٨]

لم تتعظ الحكومة العثمانية بمـا جرى ، بل قـررت ارسال حملتين أخريين لمساعدة ابن رشيد احداهما من الحجـاز والاخرى مـن العـراق ، على أن تلتقيا في منطقة القصيم ، وناطت القيادة العامة عليها بالمشير أحمد فيضي باشا .وقد انتهز هذا الرجل هذه الفرصة الذهبية التي أتيحت له من جديد ، فصار يشتد على الناس من أجل احتلابهم ، وكان الناس يدفعون له ما يشاء لكي يتخلصوا من مغبة الموت في الصحراء . وقيل انه أخذ يمنـح الاجازات لكبار الضباط الذين يريدون التخلفه عن الحملة لقاء مبلغ لا يقل عن ثلاثمائة ليرة ،[٦٩] وكـان يكلف المثرين من التجـار بالالتحاق بالحملـة

---

(٦٥) عبدالله فيلبي (تاريخ نجد) ــ ترجمة عمر الديراوي ــ بيروت ــ ص ٢٨٩ .
(٦٦) المصدر السابق ــ ص ٢٨٨
(٦٧) سليمان فيضي (المصدر السابق) ــ ص ٣٩ .
(٦٨) عباس العزاوي (المصدر السابق) ــ ج٨ ص ١٤٨ .
(٦٩) مجيد الموسوي (الحاج عطية أبو كلل) ــ بغداد ــ ص ٥٠

بحجج وأعذار واهية فكانوا يفتدون أنفسهم منه بأموال كثيرة ،[٧٠] ولم ينج منه حتى رجال الدين اذ كان يفرض عليهم السفر مع الحملة من أجل تشويق الجنود على القتال ، وقد سلبهم بهذه الوسيلة فوق ما يملكون .[٧١]

تألفت الحملة العراقية فيهذه المرة من ثمانيةأفواج وبطريتين مدفعيتين مع فرقة موسيقية كبيرة ا . وخرجت الحملة من بغداد مع قائدها المشير أحمد فيضي باشا في ٢١ تشرين الاول من عام ١٩٠٤ وسارت الحملة عن طريق النجف ، ومكثت في تلك البلدة عدة أيام لاستكمال ما تحتاج اليه من تموين . ونزل المشير في ضيافة السيد جواد الكليدار ، فأخذ منه خمسة آلاف ليرة بحجة أنها قرض . ثم كلف الحاج عطية أبو كلل بشراء خمسة طغارات من الملح المهرب وسجلها في دفاتر الحكومة بالسعر الرسمي[٧٢] .

مهما يكن الحال فان مصير هذه الحملة يختلف عن مصير الحملة السابقة ، فقد كان الموسم في هذه المرة شتاءاً ، ويبدو أن ابن سعود لم يشأ أن يصطدم بها فتركها تحتل القصيم كلها بدون مقاومة ، وارتفع العلم العثماني على قلعة بريدة كما أعلن الخطباء الدعاء للسلطان في المساجد . وكتب أحمد فيضي باشا الى اسطنبول يقترح عودة القوات العثمانية الى العراق بعد انتهاء مهمتها في القصيم ، وجاءه الجواب من اسطنبول يأمره بالذهاب الى اليمن وتسليم قيادة الحملة في القصيم الى قائد آخر . وقد ذهب المشير الى اليمن ، وضاعت الخمسة آلاف ليرة على السيد جواد الكليدار !

وفي ١٤ نيسان من عام ١٩٠٦ وقعت معركة ضارية بين ابن رشيد وابن سعود دون أن تشارك فيها القوات العثمانية . وقد قتل ابن رشيد في تلك المعركة ، وانتصر ابن سعود انتصاراً كاد يكون حاسماً . وفي أواخر تشرين الثاني حصل الاتفاق مع ابن سعود على جلاء القوات العثمانية من القصيم ،

---

(٧٠) مصطفى نورالدين الواعظ (المصدر السابق) ـ ص ٤٠٤ .
(٧١) عباس العزاوي (المصدر السابق) ـ ج٨ ص ١٤٨ .
(٧٢) مجيد الموسوي (المصدر السابق) ـ ص ٥٠ .

فتم ترحيل جنود العراق الى العراق ، وجنود الحجاز الى المدينة ، على جمال جهزها لهم ابن سعود • وبذا تمت السيادة لابن سعود على القصيم بدون منازع •[73]

ابعاد الآلوسي :

في ١٦ كانون الاول ١٩٠٤ وصل الى بغداد وال جديد هو عبد الوهاب باشا الألباني ، ولم تدم ولايته الا عاماً واحداً ، وأهم ما حدث فيها هو ابعاد العالم الديني المشهور السيد محمود شكري الألوسي الى الأناضول •

ان التهمة التي أبعد الآلوسي من أجلها هي أنه يميل الى المذهب السلفي ، وكانت تلك تهمة شديدة يومذاك اذ هي تعني بأن صاحبها وهابي أو يعطف على الحركة الوهابية ،وكان السلطان عبد الحميد يميل الى المتصوفة ويعتمد عليهم في تدعيم ملكه ويعتبر السلفية كالوهابية حركة معادية له • يقول بهجت الاثري ــ وهو سلفي من تلاميذ السيد محمود شكري الآلوسي ــ في ذلك ما نصه :

« ••• ما كاد ينطوي بساط ذلك القرن بما فيه ــ يقصد القرن الثالث عشر الهجري ــ حتى آل الأمر الى بعض السلاطين الذين كان من سياستهم ارضاء المشعبذين بالدين واستدناؤهم منهم ليحولوا جماهير العوام اليهم فيقوي بهم ضعفهم ، ويشتد ساعدهم ، وينبسط سلطانهم ، فيستمتعوا بشهواتهم ويتذوقوا لذة الاستفادة من غفلتهم ، فحارب العلم وساعد الجهل ، فظهرت دجاجلة الطرق والملبسون متظاهرين بالدين يبثون روح الفساد ويغررون بالعامة ، ومن ورائهم السلطة تؤيدهم وتعزز دعوتهم، حتى تم له على يدهم ما أراد فبنيت التكايا ، وشيدت القباب على قبور المتمشيخة والدجالين ، من رفاعيين ونقشبنديين وقادريين وعيدروسيين ، وعظم سلطان الشرك والرياء ، ونذرت للقبور النذور ، وقربت لها القرابين ، وعلقت عليها التمائم ، وأوقدت لها السرج ، حتى صار المتدين في

---

(٧٣) فؤاد حمزة (قلب جزيرة العرب) ــ الرياض ١٩٦٨ ــ ص ٣٧٤ •

نظر الناس من يضرب بالدف ويرقص في (حلقة الذكر) ، والعالم من يطيل الذقن ، ويكحل العين ، ويكبر الردن ، وصار العالم المستقل والموحد العريق اذا أنكر عليهم شيئاً من أضاليلهم ينبز (بوهابي) بل ينبذ ويسخط عليه وينتقم منه بكل ما يقتدر عليه ويساعد عليه السلطان الجائر ••• »

ثم يقول الأثري في وصف استاذه محمود شكري الآلوسي : انه كان في بداية أمره مضطراً الى المجاملة والتستر بستار التقية فألف كتابا بعنوان « الاسرار الإلهية في شرح القصيدة الرفاعية » شرح فيه منظومة أبي الهدى الصيادي في مدح السيد أحمد الرفاعي ، وقدم الكتاب الى السلطان ، فأجازه السلطان بتدريس مدرسة السيد سلطان علي • ولكن الآلوسي عندما اشتهر أخيراً وكثر أتباعه وتلاميذه خلع عنه رداء التقية والمجاملة وأخذ يدعو الى ضرورة تطهير الدين من أوضار البدع التي طرأت عليه، « وشن الغارات الشعواء على الخرافات المتأصلة في النفوس، والتقاليد السخيفة التي شب عليها القوم •• فغاظ ذلك أصحاب العمائم المكورة ، والاردان المكبرة ، والاذيال المجررة ، من كل حشوي غر ، وجاهل غمر ، ذي خداع ومكر ، وصاروا يشنعون عليه في مجالسهم وينبزونه بوهابي وهي كلمة ينفر منها السواد الجاهل حيث توحي اليهم أبالستهم زخرفة القول زورا ويذكرون لهم عن الوهابي أنه منكر للرسل وعدو لجميع المسلمين يريق الدماء ويستحل الحرمات ••• ولم يزالوا يتربصون به الدوائر حتى عام ١٣٢٢ هـ فسعوا فيه الى (عبدالوهاب باشا) والي بغداد وكان حشويا عدواً للاصلاح ، فكتب عنه الى عبدالحميد ما شاء وشاء له الهوى ، واقل ما جاء في كتابه : أنه يبث فكرة الخروج على السلطان، ويؤسس مذهبا يناصب كل الاديان ، وأن تأثيره سار ، وآخذ يوما فيوما في الانتشار ، ويخشى منه سوء المغبة ••• »(٧٤) •

ويضيف الاثري الى ذلك في كتاب آخر له حيث قال في وصفه الوالي عبدالوهاب باشا بأنه : « كان رجل سوء وكان شعوبياً خرافياً يشنأ المفكرين ويحقد على المصلحين ودعاة التجديد ، فطفقوا يدسون على

---

(٧٤) محمد بهجة الاثري (المصدر السابق) ـ ص ٩٧ ـ ١٠١

السيد الآلوسي عنده ويمثلونه له على الصورة التي تمليها البغضاء والضغينة ، حتى أخافوه منه وبغضوه اليه وأثاروه الى رفع مذكرة الى السلطان عبدالحميد يصف فيها نفوذه الشعبي وتأثيره في الناس وترويجه للدعوة العربية والانفصال عن الدولة ، وما الى هذا من مخاوف يحذرها السلطان ولم تكن تخطر من السيد الآلوسي ببال ، ويقترح ابعاده من بغداد والتنكيل به وبأعوانه وأنصاره قبل أن تستفحل دعوته وتحدث للدولة متاعب هي في غنى عنها ... وأصدر السلطان أمره بنفي السيد الآلوسي وكبار أنصاره وتلاميذه الى الاناطول فورا ، فأخذ من داره مخفورا ليلة ٢٢ محرم ١٣٢٣ هـ ، وأخذ معه ابن عمه السيد ثابت بن أبي البركات نعمان خيرالدين الآلوسي ، والتاجر الثري الحاج حمد العسافي من كبار الاتقياء الصالحين ، وأبعدوا جميعا الى الاناطول . وطلبت السلطة المحلية آخرين من كبار تلاميذ السيد الآلوسي كالاستاذ عبدالرزاق الاعظمي الذي علم بالامر فاختفى ثم فر الى بريدة الى حاكمها الامير بن رشيد ... ليحتمي به وليوسطه لدى السلطان ليلغي أمر النفي ويعيد السيد الآلوسي الى بغداد ...»[٧٥] .

وعندما وصل الآلوسي وصاحباه الى الموصل تشبث بهم علماؤها وأعيانها وأبرقوا الى السلطان يتشفعون لهم عنده . وكان في اسطنبول يومذاك السيد علي علاء الدين الألوسي فتشفع لهم كذلك .[٧٦] وقبل السلطان شفاعتهم وأمر باعادة المبعدين الى بغداد ، وحين غادر ركب الآلوسي مدينة الموصل خرج أهلوها لتوديعه باحتفاء عظيم . وكذلك فعل أهل بغداد عند اقتراب الآلوسي منها ، « وقد استقبلته الجماهير البغدادية وفي طليعتها أصدقاؤه وتلاميذه ومريدوه من مراحل بعيدة استقبالاً حافلاً منقطع المثال ، وانهالت عليه من كل مكان القصائد والرسائل في تهنئته

---

(٧٥) محمد بهجة الاثري (محمود شكري الآلوسي) ــ القاهرة ١٩٥٨ ــ ص ٨٧ ــ ٨٨ .

(٧٦) عباس العزاوي (المصدر السابق) ــ ج٨ ص ١٥٠ .

بعودته منتصراً على غرمائه . » (٧٧)

ومن الجدير بالذكر ان ثلاثة من تجار البصرة قد أبعدوا في تلك الأيام أيضاً بتهمة العطف على الحركة الوهابية ، وهم الحاج محمد الشعيبي وعبدالله العويد ومحمد الشبل ، وسيقوا الى قونية . (٧٨) والظاهر أنهم ظلوا مبعدين مدة طويلة دون أن يتشفع لهم أحد .

الفجر الصادق :

ان ابعاد السيد محمود شكري الألوسي أمر له دلالته في تلك الظروف ، والظاهر أن الحكومة العثمانية كانت تربط بين دعوة الآلوسي في بغداد وحركة عبدالعزيز بن سعود في نجد ، فالأمران في نظر الحكومة يؤديان الى نتيجة واحدة هي نسف الاساس الديني الذي تقوم عليه الخلافة العثمانية . وتشير القرائن الى أن الدعوة السلفية في بغداد لم تقتصر على اولئك الذين تم ابعادهم من بغداد والبصرة ، بل كان لها اتباع غيرهم ، وهم اخذوا ينشطون في تمجيد المذهب الوهابي في الوقت الذي كانت فيه الحملة العثمانية تحارب القوات الوهابية في القصيم ، وهذا أمر لا يمكن أن تصبر عليه الحكومة العثمانية كما لا يخفى .

ومما يلفت النظر أن الشاعر المعروف جميل صدقي الزهاوي أخرج في تلك الآونة ذاتها كتاباً بعنوان « الفجر الصادق في الرد على منكري التوسل والكرامات والخوارق » هاجم فيه الوهابية هجوماً شديداً وأيد المتصوفة في توسلهم في القبور وتقديسهم للاولياء ، ثم دعا الى طاعة السلطان معتبراً اياها من اهم الواجبات الدينية ، ومدح السلطان عبد الحميد مدحاً كثيراً .

فرغ الزهاوي من تاليف الكتاب في ٩ تشرين الثاني ١٩٠٤ ، وأرسله الى القاهرة فطبع هناك وجاء في ٧٦ صفحة بالقطع الصغير ، وقد كتب الزهاوي في صدر الكتاب ما يوضح مقصده منه فقال : « انه يكتب هذه

---

(٧٧) محمد بهجة الاثري (المصدر السابق) ـ ص ٨٩ .

(٧٨) سليمان فيضي (المصدر السابق) ـ ص ٥٦ .

الرسالة لرد اعتراضات الوهابية وليكشف زيف عقائدها الزائفة لكي يحذرها المسلمون بعد أن شاهد في بغداد مروجين لهذا المذهب من أدعياء العلم» •
ثم ختم الزهاوي الكتاب بقوله : « لقد تم ما أزدت تنميقه في هذه العجالة منعاً لاتساع المذهب الوهابي وانتشاره في بغداد وما جاورها من البلاد كي يتضح الحق لعين القاريء وينجلي له الصواب فلا يغتر بما نشرته هذه الفرقة المارقة وموهت به على البسطاء والجاهلين ، وقد ساعدني على تأليفها وتنميقها حضرة أخي وصاحبي العلامة (معروف أفندي الرصافي) دام في حفظ الباري والحمد لله أولاً وأخيراً — الفقير اليه تعالى زهاوي زاده جميل صدقي » •

قد يعجب القاريء حين يرى الزهاوي يؤلف مثل هذا الكتاب وهو الرجل الذي كان أول من دعا الى الحضارة الحديثة في العراق وآمن بنظرية داروين واتهم بالالحاد • ويبدو أن الزهاوي شعر بالندم فيما بعد على تأليفه الكتاب ولا سيما بعد سقوط عبد الحميد • نراه في عام ١٩١٦ يكتب الى صديقه هبة الدين الشهرستاني يعتذر له عن تأليفه الكتاب ويقول انه انما فعل ذلك خوفاً من استبداد عبد الحميد واضطهاده • (٧٩) وكتب روفائيل بطي مدافعاً عن الزهاوي في ذلك فقال : « •••ان أحد رؤساء الوهابية في بغداد أخذ يحرض عليه الحكومة ، تارة بحجة أنه يطعن بسياسة السلطان عبد الحميد ، وطوراً يرميه بالكفر والزندقة ، وذلك في عهد عبدالوهاب باشا الألباني والي بغداد ، وكان الوالي هذا يعاديه فكتب الى المراجع يطلب ابعاده عن الديار العراقية الى بلاد قصية ، فاضطر الاستاذ الى أن يؤلف كتابه (الفجر الصادق) في الرد على الوهابية مصدراً اياه بمدائح السلطان عبدالحميد مخافة أن يناله المعتدون بسوء وتبكيتاً لذلك المحرض الوهابي • » (٨٠)

أما بهجت الاثري — وهو من تلاميذ الألوسي كما رأينا — فله رأي

---

(٧٩) يوسف عزالدين (في الأدب العربي الحديث) — بغداد ١٩٦٧ — ص ٦٢ •
(٨٠) روفائيل بطي (الأدب العصري في العراق العربي) — القاهرة ١٩٢٣ — ج١ ص ٨ •

آخر في تأليف الكتاب . انه يعطف على الحركة الوهابية ويعتبرها دعوة اصلاحية كانت تحاول نزع الخلافة من الترك وارجاعها الى العرب ولهذا صار الاتراك يشنعون عليها وينسبون اليها فضائع هي بريئة عنها . ويصف الأثري جميل صدقي الزهاوي بأنه من « ملاحدة العصر » وأن رده على الوهابيين انما كان لقاء أجر تقاضاه من الاتراك للقضاء على العرب ، ثم يقول الأثري : « ولا أعلم متى ينتبه المسلمون من رقادهم ، ولا تروج عليهم أمثال هذه الدسائس التي خدرت أعصابهم وجعلتهم شذر مذر ؟ اللهم ان ذلك لا يتحمله قلب مليء بالايمان ، ولا يسيغه امرؤ رزق حظاً من الاسلام، دين الأخوة والوحدة والوئام . » (٨١)

الطوفان :

في ٢٦ كانون الأول ١٩٠٥ وصل الى بغداد وال جديد هو عبد المجيد بك ، وهذه أول مرة يأتي فيها الى بغداد وال بلقب « بك » وليس « باشا » . ولم يمكث هذا « البك » في بغداد سوى سنة واحدة وخمسة وأربعين يوماً ، وقد حدثت في عهده مذبحة الايرانيين في كربلاء ، على نحو ما سنذكره في فصل قادم ، وهي التي أدت الى عزله .

وفي ١٦ شباط ١٩٠٧ وصل الى بغداد وال آخر هو أبو بكر حازم بك . وفي عهد هذا الوالي حدث الفيضان الهائل الذي لم تشهد بغداد له مثيلاً منذ زمن بعيد . وفيما يلي ننقل وصفاً لهذا الفيضان على لسان شاهد عيان له هو الأب انستانس ماري الكرملي ، فهو يقول ما نصه :

« نهار الخميس ٢٨ آذار شعر البغاددة بحر فجائي غير مألوف وخارق العادة في مثل ذلك اليوم من الشهر المذكور ، وان درجة الحرارة بلغت ٢٥ من المقياس المئوي ، فتطير منه الناس وخافوا انقلاباً عظيماً في الجو . وفي تلك الليلة وقع من المطر كمية عظيمة أثر رعود قصفت ولا قصف المدافع وبروق مزقت كل ممزق أديم السحب الركام ، فنزل المطر حتى تصورنا أن البحور علتنا وأن نظام الكون قد تشوش ، ودامت الأمطار

---

(٨١) محمد بهجة الاثري (أعلام العراق) ـ القاهرة ١٣٤٥ هـ ـ ص ١٠٠.

تنحدر مدة خمسة أيام حتى فاض دجلة فيضانا كسر به السدود وفاض على ضواحي المدينة فأغرقها وأتلف الـزروع كلها من حنطة وشعير وقد بلـغ سنبلها الصدر والباقلي وغيرها من البقول التي قد أحصدت .

« وأما الدور فسقط كثير منها على أهاليها فقتلتهم . ومنها ما نبهت أهاليها على الفرار ففروا من هجوم المياه تاركين كل ما عندهم من أثـاث البيت حتى غدت النجاة من أنفس النفائس . وقد دخل الماء عدة محـلات وأحياء وأتلفها عن آخرها . أما الموتى من انسان وحيوان فـلا تحصى ، اذ ترى الجثث تطفو على وجه الماء وليس من يلتفت اليها واغلـب الهلكى من أهل البادية اذ فاجأهم الماء وعلاهم بدون سابق علامـة أو خبر . وكنـت تسمع الجلبة والصياح في الليل كأن يوم القيامة قد جاء بهوله ولا يعلم الى أين المفر . فلا ترى الا ضوءاً هنا ، وامرأة مولولة هناك ، وفي تلك الناحية حائط يدفن عشيرة بأسرها ، وفي ذلك البستان يسمع النـواح والعويل . والخلاصة ذكر مثل هذا التفصيل وسماعه مما يفتت الاكباد ويسحق الصم الاصلاد ... » (٨٢)

والغريب ان فيضاناً عالياً حدث في الوقت نفسه في نهري الفـرات وديالى فكسر السدود فيهما وهاجمت المياه بغداد من كل جانب ، حتـى أصبحت المدينة كأنها جزيرة صغيرة في وسط بحر واسع . وقد وصف عبد العزيز القصاب تدفق المياه الآتية من الفرات الى جانب الكرخ فقال :

« ... فاكتسحت جميع السهول بسرعة مدهشة حتـى وصلت الى سدة المسعودي الكائنة بالقرب من مرقد الشيخ الجنيد والست زبيـدة . ومن شدة اندفاع المياه انكسرت أيضاً سدة المسعودي وقد تدفقت الأمواج المتلاطمة على جانب الكرخ ولم تتوقف الا بالقرب من سوق حمادة وعلاوي الحلة بعد ما هرع جميع الأهلين رجالاً ونسـاءاً مع الجنـود والفلاحين والعمال لانقاذ جانب الكرخ . ولقد شاركهم في ذلك العلماء والوجهـاء ونقلوا الأتربة والحصـر والاخشاب لمدة اسبـوع تقريباً . وكان هـذا الحادث من أفجع الحوادث الاخيرة ولقد أحدث هـذا الفيضان الفظيـع

---

(٨٢) احمد سوسه (فيضانات بغداد) ـ بغداد ١٩٦٥ ـ ج٢ ص ٤٠٥ .

أضراراً جسيمة في المزروعات والمواشي والابنية والنفوس وكأنما اكتسحها بحر خضم • حتى ان السفن صارت تنقل الناس والتجار بين الفرات وجانب الكرخ من بغداد مدة طويلة • وعلى أثر ذلك قررت الحكومة تشكيل لجنة لتقدير الأضرار برئاسة السيد عبد الرحمن النقيب وعينتني سكرتيراً لها • وأذكر أن الاحصاء الذي قدمناه قد أثبت انهيار أكثر من مائة وخمسين داراً وموت أكثر من سبعين شخصاً تحت أنقاضها • ولقد أسعفت الحكومة الأهلين وساعدتهم بالتعويضات المناسبة ونفذت اقتراح اللجنة المشار اليها • واعتقد أن الأحياء من الكرخيين يذكرون فظاعة ذلك الفيضان ويذكرون ما قاساه أهالي جانب الكرخ من رعب واضطراب ويذكرون أيضا الاهازيج التي كانت تنشد في الشوارع والساحات من نظم بعض الشيوخ والعجائز وخاصة ما نظمته العدادة المسماة (طخة) الجبورية ••• » [٨٣]

خاتمة العهد :

في عام ١٩٠٧ ــ وهو عام الفيضان الذي ذكرناه ــ قرر الباب العالي تأليف لجنة باسم « الهيئة الاصلاحية للخطة العراقية » لدراسة أحوال العراق الادارية والاقتصادية والثقافية ووضع خطة للنهوض بها ، وكانت اللجنة مؤلفة من رئيس وثلاثة أعضاء وسكرتير ، وكان رئيسها رجل حقوقي برتبة وزير اسمه ناظم باشا وهو غير الوالي العسكري الفريق ناظم باشا الذي اشتهر أمره بعدئذ في عهد الدستور •

وصلت اللجنة الى بغداد في خريف ١٩٠٧ ، فطافت انحاء العراق للتفتيش والدراسة ثم قدمت توصياتها ، وكان مما قامت به اللجنة أنها فصلت عدداً من الموظفين كما حكمت على آخرين منهم بحرمانهم من وظائف الدولة وقد اصطدمت اللجنة اخيراً بالوالي أبو بكر حازم بك مما أدى الى نقله الى ولاية سيواس ، وتولى ناظم باشا أعمال الوالي بالوكالة • ولم يمض على ذلك سوى أيام معدودة حتى أعلن الدستور العثماني •

---

(٨٣) عبد العزيز القصاب (من ذكرياتي) ــ بيروت ١٩٦٢ ــ ص ٤٣ •

الفصل الثالث

المرزا محمد حسن الشيرازي

ونظام الاجتهاد الشيعي

يعد المرزا محمد حسن الشيرازي أعظم مجتهد شيعي ظهر في العهد الحميدي ، وقد جرت في عهده أحداث هامة كان لها أثرها الاجتماعي في العراق وايران • ولكي نفهم سيرة هذا الرجل والاحداث التي وقعت في عهده يجدر بنا دراسة نظام الاجتهاد عند الشيعة وهو موضوع قل الباحثون فيه على الرغم مما له من أهمية اجتماعية كبيرة •

بين الاخباريين والاصوليين :

الواقع ان نظام الاجتهاد لم تتركز دعائمه لدى الشيعة الا في عهد متأخر ، أما قبل ذلك فكان الشيعة منقسمين الى فرقتين متنازعتين هما الاخبارية والاصولية • فالاخباريون لا يجيزون فتح باب الاجتهاد انما يعتمدون في أحكامهم الشرعية على الاخبار الواردة عن النبي والأئمة الاثنى عشر ، ومن هنا جاءت تسميتهم بـ « الاخباريين » • أما الاصوليون فرأيهم أن الاخبار الواردة قد لا تكون كلها صحيحة ، وهي على مراتب مختلفة من حيث القوة ، ولذا وجب على الفقيه أن يبحث في أسانيدها ويقارن بينها مستعينا في ذلك بعلم خاص يسمى علم « الاصول » لكي يتحقق من مدى صحتها ويتمكن من استنباط الاحكام الشرعية منها •

قد يصح القول ان « الاخباريين » سلفيون يعتمدون على الاخبار المنقولة ولا يميلون الى استعمال المنهج العقلي في نقدها وغربلتها ، أي أنهم يعتمدون على « النقل » ولا يستعملون « العقل » في أحكامهم الشرعية ، وشعارهم : « ان دين الله لا يصاب بالرأي وعقول الرجال » • أما الاصوليون فهم على النقيض من ذلك اذ هم يرون في الاخبار ما هو

ضعيف وقوي ، أو مكذوب وصحيح ، ولابد من استعمال العقل في التمييز بينهما . ولعل من الممكن تشبيه هذا الخلاف بين الاخباريين والاصوليين بالخلاف الذي حدث في القرن الثالث الهجري بين الحنابلة والمعتزلة ، فالمعتزلة كانوا يريدون أن يقيموا عقائدهم على أساس من قواعد المنطق بينما كان الحنابلة يستنكرون ذلك كل الاستنكار وكان شعارهم : « من تمنطق فقد تزندق » .

اشتد النزاع بين الاخباريين والاصوليين في أوائل القرن التاسع عشر ، وكان الشيخ جعفر كاشف الغطاء حامل راية الاصوليين بينما كان المرزا محمد الاخباري حامل راية الاخباريين . وقد بلغ النزاع بين هذين الرجلين الى حد التنابز بالالقاب وتبادل الشتيمة المقذعة . كتب الشيخ جعفر كتابا عنوانه «الحق المبين في تصويب المجتهدين وتخطئة الاخباريين»، فرد عليه المرزا محمد بكتاب عنوانه « الصيحة بالحق على من ألحد وتزندق » . وكتب الشيخ كتابا آخر عنوانه « كاشف الغطاء عن معائب المرزا محمد الاخباري عدو العلماء » . وكان جواب المرزا محمد أنه اتهم الشيخ بأنه ينتمي في نسبه الى بني أمية — وتلك تهمة فظيعة في نظر الشيعة كما لا يخفى — فكتب الشيخ يقول : « جنابكم أقرب الى هذا النسب ... »[1] .

كان على عرش ايران في ذلك الحين الشاه فتح علي ، والمعروف عن هذا الشاه أنه كان يحاول الاقتداء بالصفويين من حيث تدعيم التشيع الاثني عشري ورعاية علمائه ، ودام حكمه سبعا وثلاثين سنة . وقد قصده المرزا محمد الاخباري الى طهران محاولا اجتذابه الى مذهبه ، وكاد ينجح في ذلك ، لو لم يتداركه الشيخ جعفر كاشف الغطاء حيث سافر الى طهران واستطاع بعد جهد جهيد أن يقنع الشاه بصحة المذهب الاصولي . وعاد المرزا محمد الاخباري من طهران مدحورا .

وفي عام ١٨١٧ عندما كان المرزا محمد في الكاظمية هجم عليه نفر من أهل الكاظمية وقتلوه كما قتلوا معه أكبر أولاده المرزا أحمد . وبذلك

---

(١) محسن الامين (أعيان الشيعة) — دمشق ١٩٤٠ — ج٥ ص ٤٢١ .

ضعفت الحركة الاخبارية بمقتل زعيمها ، وصارت تذوي وتتضاءل بمرور الزمن حتى لم يبق لها الآن من الاتباع الا قليلون وهم متفرقون هنا وهناك في بعض نواحي العراق وايران . أما الحركة الاصولية فقد سادت وشملت مختلف أقطار العالم الشيعي .

ازدهار النجف :

ابتداءاً من عام ١٨٢١ أخذت العلاقات بين العراق وايران تسير في طريق التحسن تدريجيا ، فأستتب الصلح بين الحكومتين وتعينت الحدود بينهما ، فأدى ذلك الى كثرة ورود الزوار والمهاجرين الايرانيين الى العراق، وانهمرت الاموال معهم الى العتبات المقدسة . وشهدت النجف من جراء ذلك أعظم عصور ازدهارها العلمي فشيدت فيها المدارس الدينية الكبيرة ، وصار كل طالب علم في ايران أو في غيرها من البلاد الشيعية يطمح أن يهاجر الى النجف لكي يكمل دروسه العالية فيها . وقيل أن عدد الطلاب بلغ في تلك الآونة عشرة آلاف ، فكان فيهم الايراني والتركي والهندي والتيبتي والافغاني والبحراني والعاملي والاحسائي علاوة على العراقي ، ولكن نسبة الايرانيين فيهم هي الغالبة .

من طبيعة البشر أنهم اذا اتثالوا على أمر واشتد تنافسهم عليه صاروا يفرطون فيه ويغالون . وهذا هو ما حدث في النجف فعلا على أثر انتصار الحركة الاصولية فيها وازدهارها . وقد أشار الى ذلك السيد محسن الامين في عدة مواضع من كتابه الموسوعي « أعيان الشيعة » ، فهو يقول في هذا الموضوع ما خلاصته : ان المجتهدين في النجف انهمكوا في علم الاصول والفقه الى درجة الافراط ، ويأتي على ذلك مثلاً بالمرزا حبيب الله الرشتي المتوفي في ١٣١٢ هـ اذ كان أعظم المجتهدين تدريسا في زمانه فكان يعمد في درسه على التطويل العجيب حتى قيل انه بقي في تعريف « البيع » شهورا ، وكان ذلك مألوفاً في ذلك الزمان انما هو في رأي السيد محسن الامين من قبيل « تضييع العمر فيما لا فائدة فيه » . ويقول السيد محسن ان عشرات المجلدات الضخمة كتبت في علم الاصول فكان ذلك تعقيدا للعلم ، وتبعيدا لا تعبيدا ، ولو كانوا قد نقحوا تلك

الكتب وهذبوها لكان عشرها كافيا[٢] .

ان المواضيع الفقهية التي تدرس في المدارس الدينية عادة هي : الطهارة والنجاسة ، الوضوء والصلاة ، الصوم ، الزكاة والخمس ، الحج، الزواج والطلاق والارث ، معاملات البيع والشراء . وحين تتفحص المجلدات الضخمة التي كتبت في هذه المواضيع لا نملك انفسنا من الدهشة على الصبر العجيب الذي اتصف به مؤلفوها ، ولكننا مع ذلك لا نستطيع الا أن نوافق السيد محسن الامين على قوله بأنها تضييع للعمر فيما لا فائدة فيه .

حاول بعض المجددين من المجتهدين اجراء تهذيب وتلخيص للدروس التي تلقى في مدارس النجف ، وقد قوبلت هذه المحاولة بمعارضة شديدة من قبل المجتهدين المحافظين وأتباعهم ، وذلك أمر طبيعي في كل أمر جديد كما لا يخفى . والواقع ان محاولة التجديد سائرة في طريقها غير أنها تسير ببطء ، مع العلم أن المجتمع يسير بزخم شديد . وهذا هو من معالم التناشز الاجتماعي في مجتمعنا .

نفوذ المجتهدين :

ان نظام الاجتهاد الشيعي يحتم على كل فرد بالغ أن يقلد في أحكامه الشرعية أحد المجتهدين ، ولا يجوز للفرد أن يبقى من غير تقليد الا أن يكون هو نفسه مجتهدا ، أو يتحرى «الاحوط» من أقوال المجتهدين وهذا أمر صعب كل الصعوبة. ولذا صار اكثر الناس في المجتمع الشيعي يرجعون الى المجتهدين في مختلف أمورهم الدينية والدنيوية ، يسألونهم عن الحلال والحرام فيها ، وعن الطاهر والنجس ، وقد يحدث أحيانا أن يستفتوهم في أمور السياسة وتكون الفتوى التي يصدرها احد المجتهدين سببا في ثورة او انتفاضة شعبية كبرى . يصف المستشرق براون نفوذ المجتهدين في ايران ، وهو قد زار ايران ودرس أحوالها الاجتماعية دراسة دقيقة ، فقال : « ان المجتهدين والملائية يمثلون قوة ... عظيمة

---

(٢) المصدر السابق ــ دمشق ١٩٤٥ ــ ج١٧ ص ٤٥٩ ، ج١٨ ص ٩٦ ، ج ٢٧ ص ١٥٥ .

في ايران ، وهم يهتمون في كل ناحية من نواحي الحياة البشرية ، من أدق التفاصيل في الطهارة الشخصية الى أعظم القضايا في السياسة . فالمسلم الشيعي حين تقع له مشكلة لها مساس مباشر بالاحكام الشرعية (التي هي من الناحية العملية تدخل في كل الأمور) فانه يتقدم بها الى أحد المجتهدين يستفتيه في حلها ، والفتوى التي يصدرها المجتهد قد تشمل تكفير ملك فاسق أو وزير ، وقد يعلن فيها أن الذي يؤيد ذلك الملك أو الوزير هو كمن يحارب الامام الغائب . والواقع أن وجود المجتهدين الكبار في النجف وكربلا، أي خارج الحدود الايرانية، دعم مركزهم وجعل لهم حصانة . وقد حاول الكثيرون من حكام ايران تقليص نفوذ هؤلاء المجتهدين قبل العهد الصفوي وبعده ، فلم يوفقوا في محاولاتهم الا قليلا، لان الملائية يؤلفون طبقة وطنية حقيقية ويمثلون في كثير من الاحيان مطامح الشعب ووجهة نظره ، واستطاعوا غير مرة أن يدرأوا عن الشعب جور الحكام ..» (٣) .

حين نقارن بين المجتهد الشيعي والفقيه السني من الناحية الاجتماعية نجد فروقا واضحة أهمها ثلاثة :

اولا : ان الفقيه السني يشبه أن يكون موظفا حكوميا اذ هو يعتمد في معاشه على الحكومة وينقل من مكان الى آخر بأمر منها ، وقد تزاد وظائفه ومخصصاته أو تقلل حسب رغبة الحكام أو مقدار رضائهم عنه . أما المجتهد الشيعي فهو يستمد معاشه من زكوات الناس وهداياهم وأثلاث أمواتهم ، وهو لذلك يكون وثيق الصلة بسواد الناس يتحسس بأحاسيسهم ويميل الى الوقوف الى جانبهم ضد حكامهم . انه قد يضطر الى مجاراة العامة في خرافاتهم وعاداتهم الموروثة ولكنه في الوقت نفسه لا يسمح بوقوع الظلم عليهم .

ثانيا : ان انفتاح باب الاجتهاد عند الشيعة جعل المجتهد فيهم قادرا على اصدار فتاوى جديدة تلائم ظروف الوقت ، وهو قد يستطيع ان

---

(3) Edward Browne (A Litbrary History Of Persia) — Campridge 1953 — Vol 4 P 371 — 372 .

ينسخ تلك الفتاوى بفتاوى منافضة بناءاً على تغير الظروف • انه مثـلاً قد يعلن تحريم شيء من الاشياء ـ كما حدث في قضية « التنباك » التي سنأتي اليها ـ ثم يعلن بعدئذ تحليله • وكثيرا ما تؤدي هذه المقدرة عند المجتهد الشيعي الى ظهور نفوذ سياسي له تجعل الحكام يحسبون لـــه حسابه ولا سيما حين يكون المجتهد قد مات منافسوه وتمت له الرئاســة العامة في التقليد •

ثالثا : ان المجتهد الشيعي ينظر الى الحكام نظرة تختلف عن نظــرة الفقيه السني اليهم ، وقد اتضح هذا في القرون الاخيرة حين اتخــذ السلطان العثماني لقب « الخليفة » وخوطب بـ « أمير المومنين » ، فقــد أصبح السلطان واجب الطاعة لدى أهل السنة باعتباره ولي الامر الــذي ورد وجوب طاعته في القرآن • اما عند الشيعة فولي الامر الواجب الطاعة هو الامام الثاني عشر الذي غاب عن الابصار ، وهم يسمونه « صــاحب الزمان » ، وينوب عنه اثناء غيبته المجتهدون ، ولذا فان المجتهدين فــي نظر الشيعة أولى بالطاعة من الملك ، واذا لم يحصل الملك على اذن منهــم في الحكم كان حكمه باطلا • يقول الشيخ سليمان ظاهر العاملي : « ان المجتهدين جامعي شروط الاجتهاد هم نواب الامام ••• ومن وظيفتهم أن لا يقروا ظلم ملك ظالم في الرعية وأن لا يكتموا حكماً من أحكام الشريعة شريطة التمكين وان لا يجر الى فساد واهراق الدماء ••• »[٤] •

التنافس بين المجتهدين :

المجتهدون فــي كل عصــر كثيرون وهم يتفاوتون فــي عدد مقلديهم، فهناك المجتهد الصغير الذي يتخذ مركزه في بلدة معينة وينحصر مقلدوه في نطاق تلك البلدة والقرى المجاورة لها ، وهناك من الناحية الاخرى المجتهــد الكبير الذي يسكن النجف أو غيرها من المراكز الدينية الكبرى وينتشر مقلدوه في مختلف انحاء العالم الشيعي • ويتراوح بقية المجتهدين بين هذا

---

(٤) ف • و • فرنو (يقظة العالم الاسلامي) ترجمة بهيج شعبان ـ بيروت ـ ج٢ ص ٢٠٥ •

وذاك على درجات شتى •

والمجتهدون عادة يتنافسون فيما بينهم على منوال ما يتنافس أصحاب المهنة الواحدة ، كل يريد أن يجتذب اليه اكبر عدد من المقلدين • انهم بشر وقد تعتورهم النقائص البشرية كما تعتور غيرهم من الناس •

قد يظهر في بعض الأحيان مجتهد كبير تساعده الظروف فيصبح مرجعاً عاماً للعالم الشيعي كله من غير منافس ، كما حدث للمرزا محمد حسن الشيرازي في أواخر القرن التاسع عشر ، أو السيد أبو الحسن الاصفهاني في العقد الخامس من القرن العشرين ، ولكن هذه المرجعية العامة ليست مطلقة كما تبدو في مظهرها الخارجي ، بل هي في واقعها محدودة ويهددها الخطر دائماً •

ان المرجعية العامة لدى الشيعة لا تشبه البابوية لدى الكاثوليك ، فالبابا يتم انتخابه عند موت سلفه ولا يحق لأحد من الكرادلة بعدئذ أن ينازعه في شيء أو ينافسه • أما المرجعية الشيعية فهي غير انتخابية انما ينالها أحد المجتهدين الكبار عن طريق ما يمكن تسميته بـ « الغربلة الاجتماعية » ، فاذا مات المرجع السابق حصل التنافس بين المجتهدين الذين يلونه في المنزلة ، وهذا التنافس قد يقصر أو يطول حسب اختلاف الظروف، وكثيراً ما ينحصر بين اثنين منهم اذ يكون لدى كل واحد منهم عدد من المقلدين قريب مما لدى الآخر ، وحينذاك قد تشتد المنافسة بينهما وتتخذ أنماطاً وصوراً شتى • ولا يستطيع أحدهما أن يحصل على المرجعية العامة الا بعد أن يموت منافسه • واذا مات هو بعد ذلك عاد التنافس من جديد بين المجتهدين •

ان هذه المنافسة بين المجتهدين لا تخلو من فائدة ، اذ هي كثيراً ما تؤدي الى التسابق بينهم في العلم والتقوى من أجل الحصول على كسب المقلدين ، ولكننا يجب أن لا ننسى في الوقت نفسه أن المنافسة قد تؤدي أحياناً الى استفحال الخلاف بينهم والعداء مما يدفع بعضهم الى اتخاذ وسائل غير مستحسنة فى سبيل الانتصار على خصمه •

ان المقلدين أكثرهم من العامة ، ومن طبيعة العامة أنهم يتمسكون

بالخرافات والأباطيل ويحسبون أنها هي الحق الذي لا شك فيه • وقد يلجأ بعض المجتهدين الى استرضاء العامة والى موافقتهم على خرافاتهم واباطيلهم، اذ هم يخشون أن يجابهوا العامة بما لا يرضون فينفض العامة عنهم وينضموا الى صفوف منافسيهم •

وهناك ناحية أخرى يجب أن لا نغفل عنها في هذا الصدد هي أن المرجعية العامة لا تستقر في أحد أمداً طويلاً ، ذلك ان المجتهد الذي يحصل عليها لا بد أن يكون كبير السن لانه قد بقي على قيد الحياة بعد أن مات منافسوه جميعاً ، ومعنى ذلك أنه حصل على المرجعية في أواخر عمره ، وسرعان ما يدركه الموت • أضف الى ذلك أنه لا يستطيع وهو في شيخوخته أن يفهم الدنيا وما استجد فيها من ظروف وأحداث •

صاحب الجواهر :

في الربع الثاني من القرن التاسع عشر كان يتنافس على المرجعية العامة في النجف رجلان هما : الشيخ حسن بن الشيخ جعفر كاشف الغطاء، والشيخ محمد حسن صاحب كتاب « جواهر الكلام » • وفي عام ١٨٤٦ مات الشيخ حسن كاشف الغطاء فانفرد صاحب الجواهر بالمرجعية من بعده غير أنه لم يتمتع بها الا قليلاً حيث مات بعد موت زميله باربع سنوات •

كانت النجف في عهد صاحب الجواهر قد وصلت الى أوج نموها من حيث عدد طلابها وكثرة الأموال المنصبة فيها • والمعروف عن صاحب الجواهر أنه كان ميالاً الى الترف والمظاهر الباذخة ، وصفه صاحب كتاب « ماضي النجف وحاضرها » فقال ما نصه :

« هذا الشيخ أظهر عز الشريعة وفخرها ، وأبهة العلم ومجده ، كان فخم المنظر ذا هيئة كهيئة الملوك ذوي الشأن ، وحاشية كحاشية أولى التيجان ، في كمال الجلالة وعظيم الهيئة ، يتختم بالياقوت والألماس ، ويعتم بالترمة البيضاء النفيسة • وهو الذي سن الخروج الى مسجد الكوفة والسهلة ليلة الأربعاء ــ ولم يكن ذلك قبله معروفاً ــ فكان يخرج ومعه تلاميذه وحاشيته على الخيول المسرجة وتنقل معه الموائد المنوعة • وتزوج

في أواخر أيامه بالعلوية الشريفة كريمة العلامة السيد رضا بن السيد بحر العلوم وكانت كريمة عليه ، محترمة لديه ، حتى أوصى أن تدفن معه خاصة الى جواره في مرقده الخاص به . » (٥)

وأشيع عن صاحب الجواهر أنه كان متساهلاً في منح الاجازات لطلابه وكان يقول في تبرير ذلك : « دعوهم يأكلوا خبزاً » (٦) ، ولهذا كثر الحاملون لاجازاته في ايران وانتشروا في معظم مدنها ، حتى أن أحد أعيان الايرانيين قال في وصف ذلك : « ان الشيخ صاحب الجواهر عنده مصبغة يخرج منها علماء لأنه لم يبق بلد من بلدان ايران الا وفيه من خريجي مدرسته . »(٧) . ويروى أن الشاه محمد القاجاري قال مثل هذا القول مما اضطر صاحب الجواهر أن يرد عليه من فوق منبر الدرس حيث قال : « كتب الي بعض اخواني من طهران يقول ان السلطان محمد شاه القاجاري قال بأن عند الشيخ محمد حسن مصبغة اجتهاد يصبغ فيها الطلبة ويرسلهم الى ايران ، مع أنه يعلم بأني لم أشهد باجتهاد هؤلاء الذين كتبت لهم بالرجوع اليهم في المسائل والقضاء ، فان مذهبي في المسألة معروف فانني أجوز القضاء بالتقليد . نعم ما شهدت في كل عمري باجتهاد أحد الا أربعة ... » (٨)

توفي صاحب الجواهر في شهر حزيران من عام ١٨٥٠ عن عمر يناهز الرابعة والستين ، فدفن في قبر خاص به هو اليوم مزار بالنجف يقصده الناس للتبرك وعليه قبة زرقاء . ومما يلفت النظر أن صاحب الجواهر عين أحد تلاميذه ليكون خليفته من بعده ومرجعاً عاماً لجميع مقلديه ، وهذه هي المرة الوحيدة التي يحدث فيها مثل ذلك في تاريخ الاجتهاد الشيعي ، ولست أدري ما هو السبب فيها !

---

(٥) جعفر محبوبة (ماضي النجف وحاضرها) ـ النجف ١٩٥٥ ـ ج٢ ص ١٣١ ـ ١٣٢ .

(٦) محسن الامين (المصدر السابق) ـ بيروت ١٩٥٩ ـ ج ٤٤ ص ٦ .

(٧) جعفر محبوبة (المصدر السابق) ـ ج٢ ص ١٣٩

(٨) آغا بزرك الطهراني (طبقات اعلام الشيعة) ـ النجف ١٩٦٢ ـ ق ٣ ج ١ ص ١٢٠٥ .

أوصى صاحب الجواهر أن يكون الشيخ مرتضى الانصاري خليفته من بعده ، والمعروف عن هذا الرجل أنه كان شديد الزهد ولم يكن يريد أن ينال المرجعية بعد استاذه أو يطمح اليها ، وكانت الأنظار متجهة الى غيره من المجتهدين الكبار ، وقد رشح البعض أحد أولاد صاحب الجواهر ليكون خليفته ، ولكن صاحب الجواهر خيب ظنهم جميعاً فهو عندما أدركته الوفاة جمع المجتهدين في بيته وأعلن لهم قائلا : ان ما كان يعود اليه من أمر الشريعة المقدسة فهو وديعة الله عند الشيخ مرتضى الانصاري . فكان قوله هذا مفاجأة للحاضرين ، وقيل أن أحدهم أخذ لشدة أسفه ينكت سبابته في الأرض حتى أدماها لانه كان من الذين يطمحون الى المرجعية العامة فخاب أمله . [٩]

كان الشيخ مرتضى الانصاري على النقيض من استاذه الراحل غير ميال الى الترف ويعيش عيشة الفقراء على الرغم من غزارة الاموال التي كانت ترد اليه ، فكان ينفقها كلها ، حتى قيل انه في يوم وفاته لم يكن عنده ما يصرف لعزائه أوما يقوم بكفالة ابنتيه اللتين تركهما بعده[١٠] وقد سئل ذات مرة عن سبب هذا الفرق الشاسع بين سلوكه وسلوك استاذه فأجاب : ان استاذه أراد أن يظهر عز الشريعة ، أما هو فيريد أن يظهر زهدها[١١] .

الميرزا الشيرازي :

ولد المرزا محمد حسن الشيرازي في مدينة شيراز في ٢٥ نيسان ١٨١٥ ، وأتم دروسه الاولية فيها ، وحين بلغ الثامنة عشر من عمره سافر الى اصفهان لمواصلة دراسته فيها . وفي عام ١٨٤٣ هاجر الى النجف ليحضر دروس المجتهدين الكبار فيها وينال رتبة الاجتهاد .

كان المرزا الشيرازي على صلة وثيقة بالشيخ مرتضى الانصاري منذ بداية هجرته الى النجف ، وكان الانصاري معجبا به فلما تولى المرجعية

---

(٩) جعفر محبوبة (المصدر السابق) ــ ج٢ ص ١٣٤
(١٠) المصدر السابق ــ ج٢ ص ٤٩
(١١) محسن الامين (المصدر السابق) ــ ج٤٤ ص ٦ .

العامة زادت حظوة الشيرازي لديه وفضله على الكثير من تلاميذه • روى السيد حسن الصدر عن أبيه السيد هادي الذي كان زميلا للشيرازي في الدراسة ، فقال : أن الشيرازي كان قليل الكلام في مجلس درس الانصاري، واذا تكلم لا يجهر بصوته ، فينحني الانصاري لسماع كلامه ويشير الى الحاضرين بالسكوت قائلا لهم « ان جناب الميرزا يتكلم » • واذا فرغ من كلامه رفع الانصاري رأسه وتوجه الى الحاضرين فقرر لهم كلام الشيرازي ، وهذا منه تعظيم للشيرازي عظيم ! (١٢) •

عندما مات الشيخ مرتضى الانصاري في أواخر ١٨٦٤ كان هناك أربعة مجتهدين كبار مرشحين للمرجعية من بعده ، هم : المرزا محمد حسن الشيرازي ، والشيخ محمد حسين الكاظمي ، والشيخ حبيب الله الرشتي، والسيد حسين الكوهكمري • وقد انقسم المقلدون فى الاقطار الشيعية بين هؤلاء الاربعة ، فمال العرب نحو تقليد الشيخ محمد حسين الكاظمي، بينما مال الترك نحو الكوهكمري ، أما الفرس فانقسموا بين الشيرازي والرشتي •

وفي عام ١٨٧٠ حدث حادثان كان لهما أثرهما في رفع مكانة الشيرازي فى أوساط العامة وزيادة عدد المقلدين له : أولهما مجيء الشاه ناصر الدين الى العراق ، والثاني وقوع الغلاء الشديد •

يروي صاحب كتاب « أعيان الشيعة » : أن علماء النجف حين سمعوا بتحرك الشاه من كربلا خرجوا لاستقباله ، فذهب بعضهم الى خان الحماد الواقع في منتصف الطريق ، وذهب آخرون الى خان المصلى الذي يقع على بعد ثلاثة فراسخ من النجف ، ولم يتغيب منهم سوى رجل واحد هو الشيرازي • وحين وصل الشاه اليهم سلم عليهم راكبا ولم ينزل لتحيتهم، ولما دخل الى البلدة حضر العلماء جميعا لزيارته ما عدا الشيرازي ، ثم أرسل الشاه مبلغا من النقود الى كل واحد منهم فقبلوها ولم يقبلها الشيرازي • وعند هذا بعث الشاه وزيره حسن خان الى الشيرازي ليعاتبه ويطلب منه أن يزوره ، فكان جواب الشيرازي : « أنا رجل درويش

---

(١٢) ذبيح الله المحلاتي (تاريخ سامراء) ــ النجف ١٣٦٨ هـ ــ ج٢ ص٥٠ •

مالي وللملوك » ، ولما ألح الوزير عليه في ذلك رضي أن يجتمع بالشاه في الحرم العلوي أثناء الزيارة ، وقد اجتمعا فعلا فصافحه الشاه وطلب منه أن يتلو الزيارة لكي يتلو هو معه • وكان هذا الحادث سببا في ارتفاع منزلة الشيرازي عند الشاه وعند كافة الناس ، « وكان ذلك أول ما ظهر من مخايل كياسته وبعد نظره في الامور »[١٣] •

أما في الحادث الثاني ، وهو حادث الغلاء الشديد ، فقد انبرى الشيرازي لتخفيف الضائقة عن أهل النجف والطلاب فيها ، فعين لكل محلة من محلات النجف ، وكل فئة من سكانها ، أناساً يوزعون الحبوب على المحتاجين ، واستمر على ذلك حتى حل موسم الحصاد الجديد وارتفعت الشدة عن الناس « وكان ذلك من كراماته » [١٤] •

هجرته الى سامراء :

صار عدد المقلدين للشيرازي يزداد بمرور الايام ، ولم يحل عام ١٨٧٤ حتى كان الشيرازي اكثر المجتهدين مرجعية وأرفعهم مكانة • وفي شهر ايلول من ذلك العام سافر الى سامراء للزيارة ، غير أنه لم يرجع منها بل استقر فيها ، واخذ تلاميذه وأعضاء حوزته ينضمون اليه تدريجا ، ثم التحق به أخيرا أفراد عائلته وأصحابه جميعاً •

كانت هجرة الشيرازي الى سامراء من أهم الاحداث في حينها، وصارت محور حديث الناس وكثرت التقولات حولها ، وأخذ الناس يتساءلون : ما السبب الذي جعل الشيرازي يترك النجف دار العلم ويتخذ مقره في تلك القرية الصغيرة النائية ؟ ! وقد تعددت الآراء في تعليل تلك الهجرة ، فمنهم من قال ان الشيرازي اراد بها التخلص من قيود الرئاسة والعزلة عن الخلق[١٥] ، ومنهم من قال انه أراد الابتعاد عن المنافسين

---

(١٣) محسن الامين (المصدر السابق) ـ دمشق ١٩٤٦ ـ ج٢٣ ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠ •

(١٤) آغا بزرك الطهراني (المجدد الشيرازي) ـ النجف ـ ص ٣٩ •

(١٥) آغا بزرك الطهراني (طبقات أعلام الشيعة) ـ النجف ١٩٥٤ ـ ج١ ص ٤٣٩ •

ومكايداتهم ، وكذلك الابتعاد عن معارك الزقرت والشمرت[16] ، وآخرون ذكروا أنه كان مصابا بمرض السل وهو انما اختار سامراء لطيب هوائها .
وقال تلميذه السيدحسن الصدر فيسبب هجرته: انه بعد مساعدة أهلالنجف في سنة الغلاء « صار عامة الناس يرجونه في كل مهمة ، ويقصدونه في كل ملمة ، حتى في فكاك أولادهم من الجندية ببذل المال الذي به يكون فكاكهم من ذلك ، وكان بدل الواحد منهم يومئذ مائة ليرة عثمانية ، فضاق به الامر وعرفه ان المحرك لكثرة الرجاء منه بعض أعيان النجف ، ورأى أن لا علاج له الا بالخروج من النجف الاشرف ...» [17] .

اننا حين نستعرض هذه الآراء المختلفة لا نستبعد ان تكون كلهاصحيحه، وهي ربما اجتمعت كلها في ذهن الشيرازي عندما عزم على الهجرة الى سامراء ، ولكن هناك سببا آخر لم يذكره أحد وهو فيما أظن قد لا يقل أهمية عن الاسباب الاخرى ان لم يكن أهمها .

يجب ان لا ننسى في هذا الصدد ان سامراء تتميز عن غيرها من المدن العراقية بصفة خاصة بها هي أنها قد اجتمع فيها عاملان متناقضان : الاول هو أن سامراء مزار شيعي مقدس يقصدها آلاف الزوار من الشيعة في كل عام ، والثاني ان سكان سامراء وسدنة الاماكن المقدسة فيها من أهل السنة. والواقع ان اجتماع هذين العاملين المتناقضين في سامراء كان سببا في وقوع الكثير من المخاصمات الطائفية فيها ، وطالما كان زوار الشيعة ولا سيما الايرانيين منهم يلقون الاذى والمضايقات من قبل سكان البلدة والعشائر المحيطة بها ، وادى ذلك الى توتر العلاقات بين ايران والعراق في بعض الاحيان . يخيل لي أن من الاسباب التي دفعت الشيرازي الى الهجرة الى سامراء هو أنه كان يريد تحويلها الى بلدة شيعية لكي ينقذ الزوار من المضايقات التي يلقونها فيها . انه لم يعلن ذلك على الناس ولكن الكثير من القرائن يشير اليه .

ومهما يكن الحال ، فقد صار الشيرازي بعد استقراره في سامراء

---

(16) محسن الامين (المصدر السابق) — ج ٢٣ ص ٢٧١ .
(17) ذبيح الله المحلاتي (المصدر السابق) — ج٢ ص ٥٣

ينفق الاموال الطائلة فيها ، فشيد فيها مدرسة دينية تتسع لمائتين من الطلاب. وهي ما زالت قائمة تعرف باسم « مدرسة المرزا » ، كما بنى حسينية ، وحماماً للرجال وآخر للنساء ، وسوقاً كبيرة ، ودورا كثيرة ، ثم نصب جسرا من القوارب على دجلة بلغت تكاليفه الفه ليرة عثمانية • وكثرت هجرة الشيعة الى سامراء من شتى الانحاء حتى أصبحت بلدة عامرة مع العلم انها لم تكن قبل ذلك سوى قرية صغيرة بيوتها من طين •

وكاد السكان القدامى يذوبون في خضم هذا النمو السريع ، واخذ الشيرازي يبذل لهم العطاء بغية تأليف قلوبهم ، فأحبه الكثير منهم • وصار الشيعة يقيمون طقوس العزاء الحسيني على عاداتهم في كل بلدة يحلون فيها ، وهي طقوس كانت في تلك الايام تؤثر في النفوس تأثيرا عاطفيا عميقا خاصة في أوساط العامة وأبناء العشائر ، فوقع أهل سامراء تحت تأثيرها وشرعوا هم أنفسهم يخرجون مواكب العزاء تقليدا للشيعة ، ومعنى هذا أنهم بدأوا يسيرون في طريق التشيع شيئا فشيئا على نحو ما فعل الكثير من سكان العراق قبلهم[١٨] •

رد الفعل :

ان هذا التحول الهام الذي حدث في سامراء أدى الى ظهور رد فعل شديد ضده بين علماء السنة في بغداد فتحفزوا للعمل في سبيل « انقاذ » سامراء ، وكان أشدهم حماساً في ذلك الشيخ محمد سعيد النقشبندي فقابل والي بغداد الحاج حسن باشا وباحثه في الامر ، وأبرق هذا الى السلطان عبدالحميد يخبره بالخطر الذي يهدد سامراء •

كان السلطان عبدالحميد في تلك الآونة يسعى نحو توحيد كلمة المسلمين للالتفاف حوله ، ولعله لم يكن يحب أن تتطور قضية سامراء بحيث تؤدي الى توتر العلاقة بينه وبين الشاه ناصر الدين • والظاهر أنه أرسل الى والي بغداد يأمره أن يعالج القضية بهدوء ، فاذا كان الشيرازي قد

---

(١٨) انظر في تفصيل ذلك كتاب المؤلف (دراسة في طبيعة المجتمع العراقي) ـ بغداد ١٩٦٥ ـ الفصل التاسع •

فتح مدرسة شيعية في سامراء فليفتح الوالي ازاءها مدرسه سنية ، ولا يزيد على ذلك شيئاً !

سافر الشيخ محمد سعيد النقشبندي الى سامراء مخولاً بفتح المدرسة في سامراء ، وخرج أهل سامراء لاستقباله واحتفوا به احتفاءا منقطع النظير حتى قيل في حينه « كأنه ظهر المهدي عليهم بقدومه » [١٩] . واستأجر النقشبندي دارا جعلها مدرسة له وأخذ يشتغل بالتدريس والوعظ والارشاد.

الواقع اننا لا نعرف تفاصيل ما حدث في سامراء بعد وصول النقشبندي اليها ، غير أننا نستطيع أن نتصور ذلك استنادا الى ما نعرفه من طبيعة البشر بوجه عام . فالبشر حين يتنازعون لا بد أن يتحيزوا في نظرتهم الى الامور، كل فريق منهم يذكر محاسنه وينسى مساوئه ، ويفعل خصمه مثل ذلك ، وكل منهم يعتقد جازما أن الحق معه وحده وأن الباطل مع خصمه . ان هذه طبيعة عامة في البشر لا فرق بين المتعلمين منهم والجهلة ، واذا كان هناك فرق بينهم فهو من جراء اختلافهم في السلاح الذي يستعملونه في النزاع، فالجاهل قد يستعمل الخنجر والهراوة بينما المتعلم يستعمل الادلة «العقلية» و « النقلية » .

عند البحث في قضية سامراء وقع في يدي كتابان أحدهما لمؤلف شيعي والآخر لمؤلف سني . وفيما يلي أنقل نبذة مما كتبه كل من هذين المؤلفين ، وسيرى القارىء فيها نموذجا واقعيا لما ذكرناه من طبيعة البشر .

يقول المؤلف الشيعي في حديثه عن وضع سامراء بعد هجرة الشيرازي اليها ما نصه : «... فصارت سامراء من بركة وجوده مركزا للعلم والعلماء ، وظهرت فيها شعائر التشيع عن حجاب التقية والخفاء ، مثل الاذان والصلاة واقامة مجالس اللطم والنوح والعزاء ، وتبين لكثير من الاهالي الحق الواضح، والنور اللائح ، ومالت قلوبهم اليه كل الميل ، وتنفرت عن كبرائهم أهل الحيف والميل ، فوشى بالخبر الى خليفتهم القاضي الناصبي ، العنيد الشقي ، الموسوم بمحمد سعيد النقشبندي ، فشمر عن ذيل التعصب يداً ، وأقام في التسويلات مجتهدا . مستعملاً للحيل واللطائف ، مستعينا ببناء المدرسة

---

(١٩) يونس السامرائي (تاريخ علماء سامراء) ـ بغداد ١٩٦٦ ـ ص ٢١ .

واجراء الوظائف ، حتى نال مراده ، بما صنعه من صنيع أجداده ، فوقع في العصر الاخير ما وقع في الصدر الاول ، من رجوع القوم القهقري ، حتى جرى في الاواخر ما جرى ، من بعض اشقيائهم من هتك ناموس الدهر وصاحب الشرع ... »[٢٠] .

أما المؤلف السني فقال في وصف النقشبندي وكيف بنى مدرسته في سامراء : « ... ومن جملة حزمه أنه سجل فيها عموم اولاد رؤساء هذه البلدة ... فضبطهم وضبط آباءهم بذلك عن تلاعب المبتدعين بهم لأن تلك الطائفة التي سبقت الاشارة اليها قد لعبت دورا قويا بهذا البلد وبذلت الاموال الطائلة والهدايا الجسيمة لعموم الاهلين ولا سيما للرؤساء فاستمالت قلوبهم وأنطقت بالمدح والثناء ألسنتهم ولو لم يقيض الله انشاء هذه المدرسة وأن يكون مدرسها ذلك الحازم الفاهم لطاحوا في الشبك واصطادهم الفخ كما صاد كثيرا من أبناء العراق وجرفهم التيار ، وبهذا الموقف الكريم الذي وقفه المرحوم الشيخ محمد سعيد أفندي النقشبندي توقفت حركة المتحركين وشلت أيدي المبتدعين فتفرقوا أيدي سبأ ولم ترفع لهم راية ولم يثر لهم ثائر وكل منهم رجع الى كوخه وعشه بعد أن كانت لهم الكلمة المسموعة ويؤيدهم الرأي العام ... »[٢١] .

قضية « التنباك » :

بينما كان النزاع الطائفي يأخذ مجراه الطبيعي في سامراء حدثت في ايران قضية « التنباك » وهي قضية جديرة بالدراسة لما كان لها من صدى قوي فى العراق وما كان لها من أثر في تدعيم مكانة الشيرازي بحيث جعلته المرجع الاعلى للشيعة بلا منافس .

ان « التنباك » نوع من التبوغ كان شائعا في ايران في القرن التاسع عشر اذ كان يوضع في النرجيلة لتدخينه ، ولم يكن الايرانيون قد عرفوا السيكارة بعد . وقد نشأت قضية « التنباك » من جراء اتفاقية عقدها

---

(٢٠) آغا بزرك الطهراني (المجدد الشيرازي) — ص ٢٠ .
(٢١) يونس السامرائي (المصدر السابق) — ص ٢٤ .

الشاه ناصر الدين مع شركة بريطانية حيث منحها امتيازا لاحتكار «التنباك» وبيعه في كافة انحاء ايران • وقد ادى ذلك الى ظهور استياء شديد عــم البلاد بأسرها وصار في نهاية الامر كأنه ثورة شعبية كبرى •

ظهرت أولى بوادر الوعي الشعبي ضد اتفاقية « التنباك » فـي ٢٣ شباط من عام ١٨٩١ ، وذلك حين ذهب عدد من التجار لمقابلة الشاه راجين منه الغاء الاتفاقية لما فيها من ضرر عليهم ، فلم يستجب الشاه لرجائهم[٢٢] • وقد تتابعت الاحداث بعدئذ بسرعة عجيبة كأن يداً خفية كانت تعمــل على تصعيدها ، واتخذ رجال الدين دور الزعامة في الكثير من المدن الايرانية فوقعت من جراء ذلك معارك بين الاهالي والقوات الحكومية سقط فيهــا عدد غير قليل من القتلى والجرحى •

والملاحظ ان موجة من التعصب ضد الحضارة الاوربية أخذت تظهر في أوساط الشعب الايراني أثناء ذلك ، وصارت الاشاعات تدور بين الناس حول مفاسد الحضارة وآفاتها • والظاهر أن رجال الدين انتهزوا فرصــة الاستياء العام من اتفاقية « التنباك » فارادوا اقتلاع جميع النظم الحديثــة التي دخلت الى ايران في عهد الشاه ناصر الدين • وفيما يلي ننقل صــورة من تلك الاشاعات حسبما وردت على لسان كاتب ايراني كان معاصرا لهــا ومصدقا بها • يقول الكاتب :

« ••• فبينما هم كذلك اذ جاء من لندن جماعة من الاجانب لا يقل عددهم عن مائة ألف نسمة بين رجال ونساء ، ودخلوا طهران وشرعوا فــي تنفيذ مقاصدهم ، وأرسلوا في كل بلد من بلاد ايران عــدة مــن هيئتهم ، وقويت بذلك كل ملة في ايران سوى ملة الاسلام ، وكثرت الفواحش وشرب الخمور ، فلم تزل كل يوم تكثر هذه الدواهي ، وقد فتح الاجانب المدارس لدعوة الناس الى مذهب المسيح ، وجعلوا المبشرين (البرتستانت) في جميع المستشفيات ينفقون اموالا جمة على الفقراء والمساكين ويستخدمون بنــات الاسلام وفتياتها ، وصار المسلمون مقهورين تحت أيديهم ، وفرقوا أربعمائة ألف تومان بين الامراء والحكام ليوافقوهم في تنفيذ مقاصدهم ••• واتصل

(22) Edward Browne (The Persian Revolution) — Cambridge 1910 — P . 49

باصحاب الامتياز كثير من الدجالين الذين يريدون التقرب اليهم ويدعون أنهم من المسلمين فكانوا يدلونهم على أعراض الناس ونواميسهم وما ادخروا من التنباك ، وجعلوا يصرفون عوام الناس عن اطاعة العلماء فاضطهد أهل الدين، وكانوا يحبذون السفور لبنات المسلمين وينصبون الكراسي في المعامل الاسلامية ليجلسوا وينظروا الى بنات المسلمين اللاتي يشتغلن في المعامل وهن سافرات ، ووقع من أمثال ذلك ما لا يحيط بيانه القلم ... » [٢٣]

تشير بعض القرائن الى أن الروس بذلوا جهوداً كثيرة في سبيل اثارة الناس ضد اتفاقية « التنباك » ، ففي طهران أعلن السفير الروسي اعجابه بما شاهد من هياج عام ضد الاتفاقية واعتبره دليلاً على غيرة الايرانيين واخلاصهم لدينهم وهتفه على ملأ من الناس قائلاً : « زنده باد اتفاق مسلمانها ! » [٢٤] أي ليحيى اتفاق المسلمين . وفي العراق قيل ان القنصل الروسي سافر من بغداد الى سامراء بغية مقابلة الشيرازي ، وعرض عليه اتخاذ جميع الوسائل الممكنة للقضاء على الاتفاقية ولو أدى ذلك الى خلع الشاه . [٢٥]

فتوى الشيرازي :

كانت الرسائل والبرقيات تتوالى الى الشيرازي من ايران يطلب اصحابها فيها منه أن ينقذهم من اتفاقية « التنباك » . وفي أواخر تموز ١٨٩١ أبرق الشيرازي الى الشاه يطلب منه الاستجابة لرغبة الرعية في الغاء الاتفاقية ، فأرسل الشاه اليه جواباً مفصلاً يذكر فيه الاسباب « المشروعة » التي دفعته الى عقد الاتفاقية . وقد وصل جواب الشاه الى القنصل الايراني ببغداد ، فحمله هذا نفسه الى سامراء وحاول اقناع الشيرازي بصواب ما ورد فيه ، فلم يقتنع الشيرازي بكلامه . وأبرق الشيرازي الى الشاه مرة ثانية يطلب منه الغاء الاتفاقية ويفند الاعذار التي

---

(٢٣) ذبيح الله المحلاتي (المصدر السابق) — ج٢ ص ٦٥ — ٦٨ .
(٢٤) المصدر السابق — ج٢ ص ٧٤
(٢٥) ف . و . فرنو (المصدر السابق) — ص ٢٠٢ .

SS

قدمها الشاه اليه في جوابه السابق •

وبعد أن يئس الشيرازي من اقناع الشاه أصدر فتواه المشهورة بتحريم تدخين التنباك وهذا هو نصها بعد ترجمته الى العربية : « بسم الله الرحمن الرحيم • اليوم استعمال التنباك والتتن حرام بأي نحو كـان ومن استعمله كمن حارب الامام عجل الله فرجه • حرره الأحقر محمد حسن الحسيني » •

ان هذه الفتوى على اختصارها كان بمثابة القنبلة من حيث تأثيرها في المجتمع الايراني ، فهـي حين وصلت الى الشيخ محمـد حسن الاشتياني بطهران ، وكان كبير المجتهدين فيها ، أمر بأن تقـرأ علـى الجمهور من على المنابر ، واستنسخ منها مائـة الف نسخة فأرسلت الى أنحاء ايران • وقـد حاولت الحكومة الايرانية جمع النسخ من أيدي الناس ومنع انتشارها فلم تفلـح •

وامتنع الناس عن تدخين « التنباك » على نطاق واسع ، وصار الناس يراقب بعضهم بعضاً لكي لا يعمد أحدهم الى التدخين سراً خلافاً للفتوى • والغريب أنهم كانوا يتسامحون مع من يتعاطى الافيـون أو يشرب الخمـر ولكنهم لا يتسامحون مع من يدخن « التنباك » ، وكانت حجتهم في ذلك ان متعاطي الافيون والخمر له توبة أما مدخـن « التنباك » فلا توبة له لأنـه بمثابة من يقتل الامام علياً • وشاع في حينه أن تأثير الفتوى امتد الى قصر الشاه نفسه حتى قيل ان الشاه أمر خادمه بأن يحضر له « القليان » ــ أي النرجيلة ــ فامتنع الخادم من تنفيذ أمره محتجاً بوجوب طاعة الشيرازي الذي هو نائب الامام •

ومن الطرائف التي تروى في هذا الصـدد أن بعض الفساق الذيـن اعتادوا على شرب الخمر وتعاطي المنكر امتنعوا عن التدخين وأخذوا يحطمون النرجيلات في المقاهي ، ولما سئلوا في ذلك قالوا : اننا نفعل المعاصي ولنـا أمل برسول الله وأهل بيته أن يشفعوا لنا عند الله يـوم القيامة ، والمرزا الشيرازي هو اليوم نائبهم وحامي شرعهم فاذا عصيناه وأغضبناه فمن الذي سوف يشفع لنا اذن ؟ ! (٢٦)

---

(٢٦) محسن الامين (المصدر السابق) ــ ج٢٣ ص ٢٧٥ ــ ٢٧٦ •

الغاء الاتفاقية :

وفي أحد الايام شوهـد اعـلان ملصق على جدار احـدى العمارات المعروفة في طهران مفاده : ان الناس مأمورون بالجهاد وموعدهم يوم الاثنين القادم فمن كان مسلماً وجب عليه الجهاد حسب فتوى الشيرازي . فكان هذا الاعلان سبباً لشيوع الرعب في طهران ، وانتشر الخوف بين الاجانب ففر الكثيرون منهم من طهران متنكرين بملابس النساء . وأخـذ الناس يشترون الاسلحة استعداداً للجهاد ، وكتبوا وصاياهم وارتفعت اصوات البكاء من دورهم اذ كانوا يودعون نساءهم وأطفالهم . ولم تهدأ الحالة نسبياً الا بعد أن أمر الشيخ محمد حسن الاشتياني خطباء المنابر بتكذيب اعلان الجهاد .

ثم عادت الحالة الى التأزم من جديد بعد فترة قصيرة ، وكان سبب ذلك أن الشاه أرسل الى الاشتياني يخيره بين أن يفتي باباحة « التنباك » أو يغادر طهران ، فاختار الاشتياني المغادرة ، ولم يكد الأهالي يسمعون بذلك حتى هبوا جميعاً للتظاهر ، فامتلأت الشوارع بهم يقودهم رجال الدين ، وأغلقت الأسواق ، وخرجت النساء باكيات ، وارتفعت الاصوات بالهتاف ضد الاحتكار ولعن الوزراء ، وسرت عدوى البكاء الى داخل القصور الملكية أي الى حريم الشاه وجواريه . وأخذ الجنود الذين أرسلوا لمقاومة المتظاهرين يبكون أيضاً .[٢٧] وأحاط المتظاهرون بالقصر الملكي يرأسهم سيد يلبس عمامة زرقاء غامقة وهم يهتفون هتافات معادية ويقذفون القصر بالأحجار ، فأطلق الجنود النار عليهم فسقط على الارض نفر منهم كان السيد من جملتهم ، وبلغ عدد القتلى سبعة والجرحى عشرين ، فأدى ذلك الى تفرق المتظاهرين[٢٨] .

أرسل الشاه خاتماً من الماس الى الاشتياني رمزاً للمصالحة معه ، ولكن الاشتياني اشترط لقبول الخاتم الغاء الاتفاقية ، فوافق الشاه على ذلك . وفي ٢٦ كانون الثاني من عام ١٨٩٢ خرج المنادون في الشوارع ينادون باباحة التدخين ، وكان ذلك يوماً مشهوداً في ايران وفي سامراء .

---

(٢٧) ذبيح الله المحلاتي (المصدر السابق) ج٢ ص ١٦٥ .

(28) Edward Browne (op . cit) — P . 54 .

دفع الشاه للشركة البريطانية صاحبة الامتياز الملغـي تعويضاً قـدره نصف مليون باون استقرضه من البنك البريطاني فـي طهران وكان ذلـك بداية الديون الاجنبية على الحكومة الايرانية • [٢٩] ومما يجـدر ذكره أن الشاه تظاهر بالفرح عند الغاء اتفاقية « التنباك » وأخذ يمدح الشيرازي امام حاشيته وزواره قائلاً بأنه أحيى الدولـة القاجارية بفتواه وأن قدره كـان مجهولاً لديه قبل هذا وقد أدرك الآن منزلة هذا الرجل الكبير • ثم كتـب الشاه الى الشيرازي رسالة مطنطنة أظهر له فيها اخلاصه الصميم ، كما كتب الوزراء والولاة مثل ذلك الى الشيرازي •

يخيل لي أن هذا التزلف الذي أبداه الشاه نحو الشيرازي انما كان من باب الدهاء واللباقة السياسية ، فهو قد رأي مكانة الشيرازي ترتفع في نظر الايرانيين فأراد أن يستفيد من ذلك لكي يخلص سمعته مـن اللطخة التـي لحقت بها بسبب عقده اتفاقية « التنباك » • وبعبارة أخرى : ان الشاه حين تظاهر بمدح الشيرازي أراد أن يقول للايرانيين انه لا يقل عنهم في تمسكه بالدين وفي طاعته لنائب الامام •

ضجة في سامراء :

في الوقت الذي بلغ فيه الشيرازي قمة مجده على النحو الذي ذكرناه آنفاً حدثت في سامراء حادثة كادت تؤدي الى فتنة طائفية خطيرة ، ولا ندري هل كانت تلك الحادثة مدبرة أم هي جرت على رسلها • ولكي لا يفهم القاريء الحادثة من كلا جانبيها أنقل عنها روايتين احداهما لكاتب شـيعي والأخرى لكاتب سني •

يقول الكاتب الشيعي فيهـا ما نصه : « نقـل لي أحـد الثقات من أصدقائي قصة عن الامام المجدد ــ أي المرزا الشيرازي ــ مفادها : ان أحد العوام في سامراء كان مندفعاً ضد الامام المجدد بتأثير عاطفي فاعتـدى على أحد اولاده وهو الابن الاكبر الميـرزا محمـد الشـيرازي وضربـه على رأسه فمات بعد حين ولم يحرك الامام المجدد ساكناً مطلقاً فالتفت أعـداء

---

(29) Percy Sykes (A History Of Persia) — London 1958 — vol 2 . P 373 .

الاسلام ـ يقصد بهم الانكليز ـ الى هذه الناحية وأرادوا شرا بالعراق في استغلال الموقف وقصدوا الامام المجدد الى سامراء طالبين منه الاحتجاج على هذا التصرف المشين ضد مقامه العالي ، فردهم الامام الشيرازي بقسوة قائلاً لهم : أرجو أن تفهموا جيداً أن لا دخل لكم ببلادنا مطلقاً وما هذه القضية الا حادث بسيط بين أخوين فرجع هؤلاء بخفي حنين يجرون أذيال الخيبة والفشل ، ووصل الأمر الى الباب العالي في اسطنبول فسر الخليفة بهذا الموقف المشرف ، وأمر الوالي ببغداد أن يمثل بين يدي السيد الامام المجدد ليقدم له الشكر على موقفه هذا والاعتذار على الحادث . ويتذكر المعمرون من أهالي سامراء مواقف الامام الشيرازي الطيبة ... » (٣٠)

أما الكاتب السني وهو سامرائي فقد كتب عن الحادثة بتفصيل أكثر حيث خصص لها فصلاً بعنوان «الفتنة في سامراء سنة ١٣١١ هـ ـ ١٨٩٣م» جاء فيه ما نصه :

« لا يخفى على كل مطلع أن أهالي سامراء يحترمون غيرهم اذا بادلوهم الاحترام والتقدير ويعتزون بالجار ويحمونه . وفي سنة ١٢٩٢ هـ عندما نقل الشيخ محمد حسن الشيرازي مقر اجتهاده من ايران الى سامراء كان اتباعه يعتدون على بعض أهالي سامراء فكان سكان مدينة سامراء يردون هذا الاعتداء بلطف وبكل رجولة واباء الا ان الاعاجم الذين يسكنون في مدرسة الشيرازي وهم لا يتعدون أصابع اليد أرادوا أن يثيروا فتنة عمياء يريدون اظهار أهالي سامراء أنهم هم المعتدون .

« وكان سبب اثارة هذه الفتنة ان الحكومة أرسلت من بغداد الى سامراء مفرزة من الجندرمة لأخذ رسوم الكودة وتعقيب بعض أشغال الدولة يومذاك ، وكان من جملة الجندرمة رجل اسمه (حسن بن دغير) وهو سامرائي من عشيرة البو مليس ، فبينما هو جالس في أحدى المقاهي هجم عليه أحد الايرانيين الساكنين في سامراء فضربه ضربة قوية على خده فاستغرب لهذا الفعل الغريب حيث لم يستطع احد من العجم أن يتجاسر على

---

(٣٠) عبد الرحيم محمد علي (آغا بزرك الطهراني) ـ النجف ١٩٧٠ ـ ص ٤٢ ـ ٤٣ .

شخص من أهل سامراء لما عرف عنهم من الشجاعة والرجولة والأنفة والكرامة ، مع كونه جندرمة تابع للدولة العثمانية ، فلما رأى أهالي سامراء تجاسر هذا الايراني أخذتهم الحمية والنخوة فكالوا للايراني الصاع صاعين ، وهناك جاء الايرانيون وجاء جماعة من أهل سامراء واشتبكوا في معركة ضارية استعملت فيها المدي والخناجر والقامات والسيوف والبنادق ، كما أن محمد علي النائب العجمي صعد فوق منارة الحضرة العسكرية وأخذ يطلق النار من بندقيته التي هي من نوع (مكنزي) على أهالي سامراء ، وأخيراً قتل ابن أخت الميرزا حسن الشيرازي كما أصيب كثيرون من الطرفين بجروح بليغة ، فولى بعد ذلك الايرانيون الادبار •

« فأوفدت الحكومة العثمانية الوالي ببغداد(الحاج حسن رفيق باشا)الى سامراء لدراسة الوضع واصلاح الطرفين ، وقد تحرك كل من أهالي الكاظمية وكربلاء والنجف وايران نفسها لنصرة العجم في سامراء ، حتى أن الحكومة الايرانية أرسلت أحد وزرائها أيضاً وهو المدعو (علاء الدين) ، كما وصل القنصل الانكليزي من بغداد الى سامراء في زورق بخاري للتدخل في الموضوع أو اثارة الفتنة مرة ثانية حيث طلب مقابلة الميرزا حسن الشيرازي فرفض الشيخ الشيرازي مقابلة القنصل وبعث له شخص يبلغه بكلمته وهي (نحن مسلمون فلا حاجة لتدخلكم بيننا) فرجع القنصل خائبا ، ولم يغادر الوالي حسن باشا حتى أصلح بين الطرفين •• »[31]

جنازة الشيرازي :

كان الشيرازي في ذلك الحين قد تجاوز الثمانين من عمره ، ويبدو أن الحادثة هدت قواه ففاضت روحه في ٢٤ شعبان ١٣١٢ هـ ـ الموافق ٢٠ شباط ١٨٩٥ م ـ وكان لموته صدى هائل في ايران والعراق •

كان نقل جنازة الشيرازي منسامراء الى النجف منأعجب الحوادث في حينها اذ هي حملت على الاعناق في معظم الطريق بين البلدتين ، فكانت كلما

---

(٣١) يونس السامرائي (تاريخ مدينة سامراء) ـ بغداد ١٩٧١ ـ ج٢ ص ١٧٧ ـ ١٧٨ •

قاربت بلدة خرج أهلها لاستقبالها مسافة ثم ودعوها مسافة .

روى السيد حسن الصدر قصة الجنازة بتفصيل ، اذ كان من الذين رافقوها طيلة الطريق ، فقال ما خلاصته : انهم حين قاربوا بلدة بلد خرج أهلها بالاعلام السود واللطم فحملوا النعش الى البلدة ، وبات النعش فيها في تلك الليلة ، وعند الصباح خرجوا فاستقبلهم أهل الدجيل وحملوا النعش الى بعد فرسخين أو ثلاثة من الكاظمية حيث كان الكاظميون في استقبالهم ، وجرى في الكاظمية تشييع عظيم حتى خيف أن ينكسر الصندوق من شدة الزحام ، وبات النعش في الحرم الكاظمي ، وفي الصباح خرجوا نحو بغداد فاستقبلهم البغداديون حتى الذميين منهم ، وأرسل المشير رجب باشا الجنود لاستقبال النعش وقد نكسوا بنادقهم بهيئة الحزن ، وحين وصل النعش الى جسر الخر وضع على الأرض وأحاط الناس به لاطمين ، ولما رفع من على الارض أخذ الناس التراب من تحته للتبرك . وفي المحمودية كان السيد جعفر عطيفة قد أعد القدور الضخمة لاطعام المشيعين ، فباتوا فيها ، ثم خرجوا منها عند منتصف الليل متوجهين نحو المسيب . وكان الطريق كله حتى وصلوا الى كربلاء ، ثم من بعدها الى النجف ، مملوءاً بالعشائر يتصل بعضها ببعض وهي تحمل الأعلام والبنادق ، وكانت كل عشيرة حين يأتي دورها ترمي البنادق من أيديها فتلطم على رؤوسها ثم تتناول النعش لتسلمه الى العشيرة التالية . وعندما وصلوا الى النجف كان يوماً عجيباً غريبا لم يشاهد في الدنيا نظيره حيث كان الألوف من الناس بين نوح وبكاء ولطم وعزاء ، وبعد أن طيف بالنعش حول المرقد العلوي وتم حفر القبر أنزل الجثمان الى القبر وكانت أرضه قد فرشت بالتربة الحسينية التي كان الشيرازي قد ادخرها لنفسه في كيس وأودعها عند وكيله في النجف الحاج محمد ابراهيم الكازروني . وأقيمت الفواتح من بعد ذلك في جميع الاقطار الشيعية ، ودام عزاؤه سنة واحدة تقريباً . (٣٢)

سامراء بعد الشيرازي :

حاول نفر من أصحاب الشيرازي وكبار تلاميذه البقاء في سامراء بعد

---

(٣٢) آغا بزرك الطهراني (المصدر السابق) ــ ص ٤٢ ــ ٤٥ .

وفاة شيخهم ، وكان على رأسهم مجتهد اسمه المرزا محمد تقي الشيرازي، والظاهر ان هذا الرجل حاول أن يواصل رسالة شيخه في سامراء فلم تساعده الظروف ، وقد انفض عنه أكثر الطلاب والمدرسين فعادوا الى النجف أو الى كربلا والكاظمية ، ومنهم من عاد الى ايران • وقد اضطر هو نفسه الى الهجرة من سامراء على أثر الاحتلال البريطاني لها في أواخر الحرب العالمية الاولى ، فاستقر في كربلا ثم أصدر هناك فتواه التي تشبه من بعض الوجوه فتوى تحريم « التنباك » والتي كانت من أسباب ثورة العشرين كما سنأتي اليه في الجزء الخامس من هذا الكتاب •

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد ان الشيخ سعيد النقشبندي بقي في سامراء بعد وفاة الشيرازي • وقد استطاع أن يسافر الى الحج ومن هناك ذهب الى اسطنبول وقابل السلطان عبدالحميد ، وكان من نتائج تلك المقابلة أن تقرر بناء مدرسة دينية كبيرة في سامراء ، وقد تبرع السلطان من خزينته الخاصة بمبلغ ألف ومائتي ليرة لبناء المدرسة ، كما خصص مرتبا شهريا قدره خمسون ليرة لينفق على اعالة مائة طالب •

وحين عاد النقشبندي الى سامراء شرع ببناء المدرسة فيها ، ويحكى ان العمال اثناء عملهم في بناء المدرسة عثروا على « كنز » يحتوي على نقود عباسية ، فاستبشر أهل سامراء بذلك واعتبروه هدية من الخليفة العباسي الى الخليفة العثماني في سبيل الدفاع عن السنة المحمدية •

وظل النقشبندي يدير المدرسة ويدرس فيها طيلة أربع سنوات • وفي عام ١٨٩٨ نقل الى الاعظمية للتدريس في مدرسة الامام الاعظم ، فأرسلت الحكومة بدلا عنه رجلين هما الشيخ قاسم أفندي الغواص والشيخ عباس أفندي القصاب •

لا حاجة بنا الى القول ان التوتر الطائفي في سامراء قد خف بعد وفاة الشيرازي ولكنه لم يتلاش تماماً وليس من طبيعته أن يتلاشى • يحدثنا عبدالعزيز القصاب في مذكراته عن الوضع في سامراء وكان قائمقاماً فيها عام ١٩٠٧ فقال ما نصه : « وبعد مباشرتي لعملي بخمسة أيام علمت بحصول اعتداءات على الزوار الايرانيين في العتبات المقدسة هناك ، وفي احدى الليالي لبست زيا ايرانيا ودخلت الى محل غيبة الامام المهدي ومرقد الامامين

على الهادي وحسن العسكري (رضى الله عنهم) واطلعت على ما يحـــدث هناك من اعتداءات على الزوار • وفي صباح اليوم التالي جلبت جميـــع الخدم ووبخهم وشـــددت عليهم النكير وحذرتهم بأنـــي سأراقب الحالـــة بنفسي واخذوا يخشون مراقبتي فتغيرت الحالة عما كانت عليه • » (٣٣)

الوضع في النجف :

عاد المجتهدون في النجف بعد وفاة الشيرازي الى التنافس من جـــديد على منوال ما كانوا عليه بعد وفاة الشيخ مرتضى الانصاري • وصف الحالة شاهد عيان كان يسكن النجف يومذاك فقال : ان المقلدين تفرقوا بعـــد وفاة الشيرازي وتوزعوا على عدة مجتهدين ، وبهذا اشتهر بعض المجتهدين بعد ما كان مغمورا ، ونال البعض الآخر منهم عددا من المقلدين ولم يكن قبلئذ يقلده أحد ، « وكان في النجف رجل صحاف من العجم ••• اســـمه الحاج باقر ، فقلنا له ونحن جماعة ـــ من باب المطايبة ـــ : أنت يا حاج باقر لمن قلدت ؟ فقال : قلدت السيد كاظم اليزدي • فقلنا : لماذا ؟ فقال : لمـــا توفى الميرزا رفع كل واحد من العلماء بيرقا أما السيد كاظم فذهب الـــى مسجد السهلة وانزوى ولذلك قلدته •••(٣٤) » •

يمكن القول على أي حال ان المجتهدين الذين نالوا اكبر عـــدد مـــن المقلدين بعد وفاة الشيرازي كانوا ثلاثة هم : المرزا حسين الخليلي وكـــان أكثر مقلديه من الفرس ، والشيخ محمد طه نجف وكان اكثر مقلديه مـــن العرب ، والشيخ حسن المامقاني وكان أكثر مقلديه من الترك • وقد مات المامقاني في آذار من عام ١٩٠٥ ، ومات طه نجف بعده ببضعـــة أشـــهر ، فانحاز اكثر المقلدين الى الخليلي ولكن هذا الرجل لم يتمتع بالمرجعيـــة طويلاً اذ كان حينذاك قد تجاوز التسعين من عمره وأصيب بالعمى ، ثم توفي في ٥ تشرين الثاني ١٩٠٨ •

كان قد برز منذ أواخر أيام الخليلي مجتهدان كبيران هما الملا كاظم الخراساني والسيد كاظم اليزدي ، وكان التنافس بينهما شديدا • وقد ظهر تنافسهما بوضوح في قضية المشروطية كما سنأتي اليه في الفصل القادم •

---

(٣٣) عبد العزيز القصاب (من ذكرياتي)ـ بيروت ١٩٦٢ ـــ ص ٥١ •

(٣٤) محسن الامين (المصدر السابق) ـــ ج٢٣ ص ٢٧٦ ـــ ٢٧٧ •

SS

الفصل الرابع

المشروطية الايرانية
واثرها في العراق

المشروطية هي حركة المطالبة بالدستور التي ظهرت في تركيا وايران[١] ، وهي انما سميت بهذا الاسم لان القائمين بها اعتبزوا مواد الدستور بمثابة « الشروط » التي يجب أن يتقيد بها الملك في حكم رعيته ، وهذه فكرة مستمدة من نظرية « العقد الاجتماعي » التي شاعت في أوربا بعد قيام الثورة الفرنسية ومنها جاءت الى تركيا وايران •

ان المشروطية ظهرت في تركيا قبل ظهورها في ايران بما يزيد على ثلاثين سنة ، ويعود سبب ذلك الى قرب تركيا من أوربا وشدة تأثرها بالحضارة الاوربية • يجب ان لا تنسى ان الصراع بين القديم والجديد بدأ في تركيا منذ منتصف القرن الثامن عشر ، أما في ايران فقد بدأ هذا الصراع منذ منتصف القرن التاسع عشر وذلك من جراء دخول بعض المخترعات والنظم الحديثة الى ايران على عهد الشاه ناصر الدين •

المعروف عن الشاه ناصر الدين انه كان معجباً بالحضارة الاوربية ميالاً للتعرف عليها ومشاهدتها عياناً ، وقد سافر الى أوربا ثلاث مرات فقوبل فيها بحفاوة بالغة ، غير أنه كان يخشى تأثير الافكار الاوربية على رعاياه ويكره أن تنتشر بينهم فكرة المشروطية على منوال ما انتشرت في تركيا • وقد صرح ذات مرة : أنه يود أن يكون محاطاً بحاشية من الاغبياء لا يعرفون عن بروكسل هل هي مدينة أم نوع من الخس[٢]•

---

(١) انها تلفظ في تركيا « مشروطية » وفي ايران « مشروطة » وقد اخترنا في هذا الكتاب التلفظ التركي لانه شائع الاستعمال في المصادر العربية .

(2) Percy Sykes (A History Of Persia) — London 1958 — Vol 2 , P . 395 .

يمكن القول ان ناصر الدين كانت له يد كبرى في ادخال معـــالم الحضارة الحديثة الى ايران ، وكان في الوقت نفسه شديدا تجاه كل مـــن يتحدث عن القانون او الدستور أو أية فكرة تحررية أخرى . وبعبارة أخرى انه كان كمن يقدم الطعام اللذيذ للجائع ويمنعه من تناوله ، وقد أحدث في المجتمع الايراني من جراء ذلك نوعاً من التوتر ، وبقي هذا التوتر كامنـــاً يتحفز للظهور عند أول فرصة تتاح له . فلما مات ناصر الدين وتبوأ العرش من بعده ابنه الضعيف مظفر الدين ، انطلق التوتر الكامن وكأنه كـــان مستعداً للانطلاق .

بدايات النظم الحديثة :

لابد لنا لكي نفهم جذور المشروطية في ايران أن ندرس كيف بدأت النظم والمخترعات الحديثة في الدخول الى ايران في عهد الشاه ناصر الدين. والواقع ان ذلك جرى تدريجاً خطوة وراء خطوة على النمط التالي .

اولا : في عام ١٨٥١ أسست في طهران كلية حديثة باسم «دار الفنون»، وكان الغرض من تأسيسها تخريج موظفين أكفاء للـــدولة ودبلوماسيين(٣). وجيء بأساتذة من أوربا للتدريس فيها ، وقد ألف هؤلاء عدة كتب فـــي العلوم التي كانوا يقومون بتدريسها (٤) ، فكانت تلك الكتب بذرة النهضة الفكرية الحديثة في ايران . وفي عام ١٨٥٨ أرسلت الحكومة الايرانيـــة اثنين واربعين من متخرجي « دار الفنون » الى أوربا لاكمال دراستهم(٥).

ثانيا : وفي السنة التالية لتأسيس « دار الفنون » افتتح أول محفـــل ماسوني في طهران ، وكان مؤسسه المرزا ملكم خان الذي كان قد نشـــأ في باريس وتعلم فيها . وصار اسم المحفل في اللغة الفارسية « فراموش خانة » أي دار النسيان باعتبار أن العضو يجب أن ينسى جميع أسرار المحفل

---

(3) Peter Avery (Modern Iran) — London 1967 — P . 82 .

(4) Edward Browne (Press And Poetry Of Modern Iran) — Cambridge 1914 — P . 154 .

5) Peter Avery (op . cit .) — P 84

فلا يفشيها الى أحد . وقد انتمى الى المحفل كثير من أبناء الطبقة العالية[6] .
وكانت الماسونية في ذلك الحين من عوامل نقل الافكار الاوربية الى الشرق إذ كانت تسعى نحو بث مبادىء الثورة الفرنسية بين الناس أي الاخوة والحرية والمساواة . وقد أدرك الشاه ناصر الدين أخيرا خطرها على عرشه فأمر بسد المحفل وأبعد المرزا ملكم خان الى خارج البلاد .

ثالثا : فى عام ١٨٥٨ بدأ نصب أول خط للتلغراف في ايران ، ثم أخذت الخطوط التلغرافية تنمو مع الزمن ، حتى وصل عدد المحطات التلغرافية فى ايران عام ١٨٨٤ الى أربعة عشر ، وكانت هذه المحطات تدار من قبل فنيين بريطانيين يسكنون في دور بالقرب منها ، وقد جلب بعض هؤلاء الفنيين زوجاتهم معهم أو تزوجوا من فتيات أرمنيات ، وكان معهم أطباؤهم . وبذا كانت المحطات التلغرافية بمثابة مراكز اشعاع للقيم الحضارية في الكثير من أنحاء ايران القاصية[7] .

رابعا : لم تظهر في عهد الشاه ناصر الدين سوى صحف اسبوعية تسيطر عليها الحكومة ، ولكن بعض الايرانيين استطاعوا أن يصدروا صحفاً معارضة في خارج البلاد ويرسلوها الى ايران بشتى الوسائل . وكان أهم تلك الصحف : صحيفة « اختر » التي كانت تصدر في اسطنبول ، وصحيفة « حبل المتين » في كلكتا ، وصحيفة « ثريا » في القاهرة ، وصحيفة « القانون » التي كان يصدرها المرزا ملكم خان في لندن . وكان لهذه الصحف تأثير بالغ في الشعب الايراني ، وكثيرا ما كانت تهرب الى ايران ضمن بالات البضائع المستوردة ، وقد اتخذت الحكومة اجراءات شديدة لمنع تسللها الى ايران فكان ذلك سبباً في ازدياد تهافت الناس عليها سراً .

عوامل مساعدة :

عندما قتل الشاه ناصر الدين في عام ١٨٩٦ تبوأ العرش مكانه ابنه

---

(6) Percy Sykes (op . cit .) — vol 2 . P . 398 .
(7) Peter Avery (op . cit .) P . 83 — 84

مظفر الدين ، وكان هذا الشاه الجديد على النقيض من أبيه متهافت الشخصية لا يخلو من غباء وفطارة ، وكان بالاضافة الى ذلك عليل البدن ، ولم يكد يتولى الحكم حتى حفت به جموع من المتزلفين الذين كانوا يطمحون ان ينالوا في عهده الثروات بكل وسيلة تقع في أيديهم[٨] .

كان الشاه مظفر الدين مولعاً كأبيه بالسفر الى البلاد الاوربية غير ان الخزينة كانت في أيامه فارغة فاضطر الى الالتجاء الى القروض الاجنبية، وقد انتهزت روسيا الفرصة فصارت تمده بالقروض وتحصل منه على بعض المنافع والامتيازات الكمركية[٩] مما أدى الى انتشار التذمر بين التجار وأهل « البازار » أي الحرفيين وأصحاب الدكاكين .

كان أهل « البازار » — وما زالوا — يؤلفون في ايران طبقة ذات أهمية غير قليلة في الحياة الاجتماعية والسياسية اذ أن لهم رؤساءهم وتقاليدهم النقابية التي تسمى « قواعد الصنف » ، واذا قرروا اغلاق دكاكينهم احتجاجاً على أمر من الامور كان ذلك بمثابة نوع من الاضراب العام[١٠] وأصابوا الحياة الاقتصادية بالشلل . أضف الى ذلك ما كان لاهل « البازار » من تأثير في رجال الدين وصلة معاشية بهم ، فاذا اشتكوا من شيء فسرعان ما تسري شكواهم الى رجال الدين ويصدر هؤلاء لهم الفتاوي المناسبة .

ومما زاد في الطين بلة أن الشاه مظفر الدين كان قد ترك شؤون الدولة بيد صهره الامير « عين الدولة » وكان هذا جاهلاً صلفاً ومكروهاً من قبل الشعب الايراني فكانت أعماله التعسفية من عوامل زيادة التذمر بين أهل « البازار » .

وفي عام ١٩٠٥ حدثت ثورة في روسيا ضد القيصر وقمعت بشدة ، فهرب بعض زعمائها القفقاسيين الى ايران حيث أنشأوا الصحف وأخذوا

---

(8) Percy Sykes (op . cit .) vol 2 P . 374

(9) Richard Frye (Iran) — London — P . 67

(١٠) ف . و . فرنو (يقظة العالم الاسلامي) — ترجمة بهيج عثمان — بيروت — ج٢ ص ١٣ .

يوجهون الشعب الايراني نحو الافكار الديمقراطية الحرة[11] فكان ذلك عاملا آخر في نشر التذمر بين الناس تجاه كل عمل تقوم به الحكومة ولو كان حسناً •

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد ان التنافس بين روسيا وبريطانيا كان في تلك الآونة شديدا ، وكان لكل من هاتين الدولتين دعاة وعملاء يسعون لها بين أفراد الشعب الايراني • وقد رأينا في الفصل الماضي كيف اغتنمت روسيا قضية « التنباك » لكي تثير الايرانيين على بريطانيا ، فكان ذلك سبباً في انهيار النفوذ البريطاني في ايران وارتفاع النفوذ الروسي[12] • والظاهر ان البريطانيين أرادوا الانتقام من الروس فاخذوا يشجعون حركة المشروطية في ايران نكاية بهم ـ حسب المثل القائل : « دقة بدقة » •

بداية الحركة :

بدأت حركة المشروطية في ايران من جراء حادثة بسيطة حدثت في عام ١٩٠٥ ، وخلاصتها : أن نفراً من أهل « البازار » خالفوا بعض الاوامر الحكومية فأمرت الحكومة بشد أقدامهم في « الفلقة » وجلدهم بالسياط ، وكانت تلك عادة متبعة تقع بين حين وآخر في عهد الشاه السابق دون أن يعيرها الناس اهتماماً كبيرا ، أما الآن فقد أهتم الناس لها ، وتجمع عدد كبير منهم بينهم جماعة من رجال الدين فذهبوا الى مسجد الشاه القريب من سوق « البازار » الكبير بغية « الالتجاء » فيه •

ان « الالتجاء » من التقاليد التي اعتاد الايرانيون عليها منذ العهد الصفوي ، وهم يسمونه « البست » ، ومعناه ان يذهب الناس الى أماكن معينة كالمساجد أو الاضرحة أو بيوت المجتهدين او السفارات الاجنبية أو الاسطبلات الملكية او ميادين المدفعية أو محطات التلغراف ، وهناك لا تستطيع الحكومة أن تلقي القبض عليهم •

---

(11) Amin Banani (The Modernization Of Iran) — Stanford 1961 — P 9

(12) Edward Browne (The Persian Revolution) — Cambridge 1910 — P 35 , 57 .

استطاع الامام في مسجد الشاه أن يطرد الملتجئين اليه بايعاز من الحكومة وبمعونة جماعة من أعوانه ، فخرج الملتجئون من المسجد وهم اكثر حماسا من قبل ، وانضم اليهم أناس آخرون ، وتوجهوا الى بلدة «الشاه عبدالعظيم» على بعد بضعة أميال من طهران فالتجأوا الى المرقد المقدس الموجود فيها ، وهناك أعلنوا أنهم لا يخرجون من مكانهم الا بعد اجابة مطاليبهم ، وكان من بين مطاليبهم عزل « عين الدولة » من منصبه وتأسيس دار للعدالة أطلقوا عليها اسم « عدالة خانه » .

أخذ عدد الملتجئين في بلدة « الشاه عبدالعظيم » يتكاثر يوما بعد يوم، وكأن الناس وجدوا في ذلك فرصة لشفاء غليلهم من الحكومة ، وصار الوعاظ والروضخونية ــ أي قراء التعزية ــ يصعدون المنابر لينددوا بالحكومة ويشجبوا أعمالها . ومما زاد في أهمية هذا « الالتجاء » أن اثنين من اكبر علماء طهران كانا من بين الملتجئين وهما : السيد محمد الطباطبائي والسيد عبدالله البهبهاني ، كما كان بينهم الواعظ المشهور آغا سيد جمال الدين .

أرسل الشاه اليهم رسوله الخاص ليسترضيهم ، فقابلوا الرسول بجفاء وأرجعوه خائباً . واضطر الشاه أخيرا أن يرسل اليهم كتاباً مسجلاً بخط يده يتعهد لهم فيه باجابة مطاليبهم . وعند هذا وافقوا على العودة الى طهران ، وقد جهزهم الشاه بعربات ملكية فركب كبراؤهم فيها ، واستقبلتهم الجماهير في طهران استقبال الفاتحين . ولا حاجة بنا الى القول بأن مكانة الطباطبائي والبهبهاني قد ارتفعت ارتفاعاً هائلا في نظر الجماهير يومذاك .

تفاقم الحركة :

يبدو أن الشاه لم يستطع تحقيق وعده حيث أخذ على يده صهره « عين الدولة » . وفي منتصف أيار ١٩٠٦ أصيب الشاه بالشلل فانتهز « عين الدولة » الفرصة ليضرب ضربته ، فقد أصدر أمره بالقاء القبض على السيد محمد الطباطبائي ، وحين جاء الجنود للقبض على هذا المجتهد الكبير تجمع الناس لتخليصه من أيديهم ، فوقع من جراء ذلك اصطدام بين الجنود

والاهالي سقط فيه واحد من الاهالي قتيلاً ، وشاء القدر إن يكون هذا القتيل من طلبة العلم وسيداً من ذرية الرسول . ولما جرى تشييع السيد القتيل وقع اصطدام آخر سقط فيه خمسة عشر قتيلاً .

توتر الوضع في طهران الى الدرجة القصوى ، وغادر طهران كثير من المجتهدين حيث ذهبوا الى بلدة قم المقدسة للالتجاء فيها ، ثم أصدروا بياناً هددوا الشاه فيه أنهم سيغادرون ايران جميعا الى العراق ما لم يوف بوعده لهم في تحقيق المطاليب الشعبية . وأغلق أهل « البازار » دكاكينهم تأييدا للمجتهدين ، فأصدرت الحكومة أمرا بنهب كل دكان يغلقه صاحبه .

وهنا حدث حادث له مغزاه العميق ، فقد ذهب فريق من أهل « البازار » الى المفوضية البريطانية ينشدون معونتها ، وحين وجدوا منها تشجيعا التجأوا اليها فخيموا في حديقتها الواسعة الواقعة في ضاحية قولهك ، وهناك أخذ عددهم يزداد يوماً بعد يوم ، وأعلنوا أنهم لن يرجعوا الى فتح دكاكينهم حتى تجاب مطاليب المجتهدين .

يقول السيد هبة الدين الشهرستاني في مذكراته التي سجل فيها بعض أحداث المشروطية : ان التجاء التجار الى المفوضية البريطانية أحدث فيهم تطورا فكريا ووعيا سياسيا جديدا ، فهم كانوا قبلئذ يطالبون بتأسيس مجلس الـ « عدالت خانة » ولكن زوجة المفوض البريطاني أخذت تفهمهم بأن طلبهم هذا لا قيمة له وأن هدفهم يجب أن يكون أوسع من ذلك وأهم وهو الحرية والمساواة والشورى . وقد كانت تلك السيدة مثقفة فاستطاعت أن تحدث فيهم التأثير المطلوب ..[١٣] .

مهما يكن الحال فان التجاء أهل « البازار » الى المفوضية البريطانية كان حدثاً مثيرا تحدثت عنه صحف العالم وأخذت تفسره تفسيرات شتى ، ونشرت جريدة التايمس اللندنية في عددها الصادر في ١٤ أيلول من عام ١٩٠٦ وصفاً للحادثة أرسله اليها مراسلها في طهران نذكر فيما يلي نبذة منه : ان الالتجاء الى المفوضية بدأ في شهر تموز وأخذ عدد الملتجئين يتضخم بسرعة حتى بلغ في شهر آب اثني عشر ألفاً وأصبحت الاسواق كلها مغلقة ،

---

(١٣) علي الخاقاني (شعراء الغري) ـ النجف ١٩٥٦ ـ ج١ ص ٨٥ .

وكانت حديقة المفوضية مليئة بالخيام وهي مزدحمة بشتى الفئات ، تجـارا وعلماء وحرفيين وغيرهم ، وأخذوا يضبطون أنفسهم ضبطا دقيقا فلم ينتج عنهم على الرغم من كثرة عددهم شيء كثير من الاذى ، وكانت مطابخهـم وتحضير طعامهم في غاية النظام ، وكان منظرهم في الليل رائعاً حيث كـان لكل خيمة روضخون خاص بها ، فيجتمع سكان الخيمة حوله ليستمعوا الى قصة المقتل حيث يبكون على طريقتهم العجيبة ويضربون رؤوسهم مـن شـدة الحزن ...(١٤) .

اضطر الشاه اخيراً الى الرضوخ لارادة الشعب ، فعزل « عين الدولة » من منصبه ونصب في مكانه رجلاً من أنصار المشروطية هو نصرالله خان ، ثم أصدر أمره باجراء الانتخابات للمجلس النيابي الذي سمي بـ « المجلس الشوروي الملي » .

التجاء في كربلاء :

لم يمض على حادثة التجاء أهل « البازار » في طهران الى المفوضيـة البريطانية سوى مدة قصيرة حتى جرت في كربلا حادثة مماثلة خلاصتها . ان الحكومة المحلية في كربلا فرضت على الايرانيين الساكنين فيها ضرائب خاصة ، فأعلن الايرانيون احتجاجهم على تلك الضرائب وتذمرهم منها ، وكان يشجعهم على هذا الاحتجاج والتذمر محمد حسن خان القندهـاري الذي كان يتولى وظيفة نائب القنصل البريطاني في كربلا . فكان هـذا الرجل يغريهم ويمنيهم ، وقد وثقوا بوعوده فتجمعوا قريبا من دار القنصلية البريطانية الواقعة في محلة « الخيمگاه » وهم في حالة « الالتجاء » علـى الطريقة الايرانية . ففرشوا البسط في الشارع وعلقوا خياماً على الجـدران ليستظلوا بها من وهج الشمس ، واستمروا على ذلك اكثر من خمسـين يوماً يأكلون وينامون في مكانهم لا يتحولون عنه حتى سدوا الطريق على المارة .

كان المتصرف في كربلا يومذاك رشيد بك الزهاوي ، وقد حـاول اقناعهم بالتفرق دون جدوى ثم وسط بعض رجال الدين في ذلك فلم يأبهوا لهم . وقد بعث الميرزا حسين الخليلي والسيد كاظم اليزدي اليهم من النجف

(14) Edward Browne (op . cit .) P 119 — 120 .

رسلاً ينصحونهم فلم يستمع أحد منهم للنصح • واضطر المتصرف أخيرا أن يرسل اليهم مدير الشرطة لينذرهم فقابلوا المدير بالاستهزاء وكأنهم كانوا واثقين ان الحكومة في العراق كحكومة ايران لا تستطيع أن تنتهك حرمة « الالتجاء » ، أو لعلهم ظنوا أن بريطانيا العظمى كلها تقف الى جانبهم •

وجهت الحكومة اليهم ثلاثة انذارات متعاقبة كان الاول منها لمدة أسبوع ، والثاني لمدة أربع وعشرين ساعة ، والثالث لمدة ست ساعات • وقد حلت نهاية الانذار الثالث في منتصف ليلة القدر من شهر رمضان ١٣٢٤ هـ ــ الموافق ١٠ تشرين الثاني ١٩٠٦ ــ فأحاط الجنود بالملتجئين ووجهوا عليهم رصاص بنادقهم من كل ناحية • ان الملتجئين لم يكونوا يتصورون ان الامر سيصل الى هذا الحد ، وقال قائل منهم : «لا تخافوا انه ليس رصاصاً حقيقياً»، غير أنهم صاروا يتساقطون صرعى على الارض ، فأسرعوا يستغيثون بالقنصلية يدقون بابها لتسمح لهم بالدخول فلم يجدوا منها غوثا • وعند هذا أطلقوا سيقانهم للريح بعد أن سقط منهم سبعون قتيلاً وعدد كبير من الجرحى •

استطاع السيد علي الشهرستاني من علماء كربلا أن يذهب الى بغداد وأن يتصل بالقنصل الايراني ليخبره بما جرى ، وأبرق القنصل بتفاصيل الواقعة الى طهران واسطنبول • ثم وصل الى كربلا خبراء أرسلهم القنصل البريطاني من بغداد للتحقيق في الامر ، فشهدوا محل الواقعة وأثر الرصاص في جدران القنصلية • وكان من نتيجة ذلك أن عزلت الحكومة العثمانية والى بغداد مجيد بك وعينت في مكانه أبو بكر حازم بك •

ان السؤال الذي يواجهنا هنا : هل كان هناك ارتباط سببي بين واقعة كربلا وأحداث المشروطية في طهران ؟ وهل ان محمد حسن خان حرض الايرانيين على « الالتجاء » من تلقاء نفسه أم هو فعل ذلك بايعاز من الحكومة البريطانية ؟ ان في هذا سراً لا نعرفه ، وربما كشفت عنه الوثائق فيما بعد •

صياغة الدستور الايراني :

افتتح المجلس الملي في طهران في ٧ تشرين الاول من عام ١٩٠٦ ،

ss

وقد حضر الشاه مظفر الدين حفلة الاحتفال على الرغم من مرضه • وكـــان أول عمل اهتم به المجلس الملي هو تأليف لجنة لصياغة مواد الدستور ، وقد تمت صياغة الدستور وصادق عليه الشاه في شهر كانون الثاني من عـــام ١٩٠٧ ، ثم مات الشاه بعد ذلك بأيام معدودة •

كان الدستور الايراني في كثير من نصوصه عبارة عن ترجمة حرفيــة للدستور البلجيكي الصادر في عام ١٨٣٠ ، فهو يقوم على أساس المبــادىء الديمقراطية التي كانت شائعة في أوربا من حيث الاعتقاد بالقانون الطبيعي وحقوق الانسان ، ولــكن لجنــة صياغة الدســتور حرصت على أن يكون موافقاً للشريعة الاسلامية لا يخالفها في شيء • نجد هذا واضحا في المادتين الاولى والثانية منه • وفيما يلي نصهما المترجم :

المادة الاولى : الدين الرسمي للدولة هو المذهب الجعفري الاثني‌عشري الحق من الاسلام ، ويجب على الشاه أن يقر بهذا المذهب ويحميه •

المادة الثانية : ان المجلس ، الذي تم تشكيله ببركة امام العصر عجل الله فرجه ، وتفضل جلالة الشاه ، وسعي العلماء كثر الله أمثالهم ، والامــة الايرانية ، لا يجوز له أبدا أن يسن أي قانون مناقض لشرائع الاســلام المقدسة ••• ومن الواضح أن العلماء هم الذين يقررون ذلك • ولهــذا فالواجب رسميا في كل دورة من دورات المجلس أن تكون فيه لجنــة مؤلفة من خمسة أشخاص هم من المجتهدين والفقهاء الورعين ، والعارفين أيضاً لحاجات العصر ومقتضياته ••• وعلى المجلس أن يعتبر هؤلاء أعضاء فيه • ووظيفتهم هي أن يدرسوا جميع اللوائح التشريعية فاذا وجدوا فيهــا ما يخالف الشرائع الاسلامية المقدسة رفضوه • وان قراراتهم فــي هــذا الصدد واجبة التنفيذ ونهائية • وان هذا الشرط من الدستور لا يمكن تغييره الى حين ظهور أمام العصر عجل الله فرجه[١٥] •

الشاه محمد علي :

بعد موت الشاه مظفر الدين تولى الحكم ابنه محمد علي ، وكان هذا

---

(15) Amin Banani (op , cit .) P 17 — 18 .

طاغية طماعاً سيء السيرة ، وأخذ منذ بداية حكمه يكيد للمجلس النيابي والحركة الدستورية ، ولهذا تميز عهده القصير بالصراع العنيف بين أنصار « الاستبداد » وأنصار « المشروطية » .

ومما زاد في شدة الصراع عقد المعاهدة الروسية البريطانية في ٣١ آب ١٩٠٧ . ففي هذه المعاهدة اقتسمت الدولتان النفوذ في ايران حيث حصلت روسيا على القسم الشمالي منها بينما حصلت بريطانيا على القسم الجنوبي ، فكان ذلك بمثابة ضربة قاسية على انصار المشروطية اذ أصبحت طهران ومناطق ايران الشمالية تحت النفوذ الروسي مما شجع الشاه محمد علي على التمادي في نزعته الاستبدادية ، وصار حرا يعمل ما يشاء دون أن يخشى من تدخل بريطانيا في دعم انصار المشروطية(١٦) .

كان الشاه محمد علي يحيط به مستشارون روس ، وهو يتأثر بآرائهم تأثيرا كبيرا ولا سيما برأي رجل منهم يهودي اسمه شبشال(١٧) . يقول المؤرخ لنشوفسكي : ان الروس كانوا يعتقدون بأن حركة المشروطية هي من تدبير بريطانيا ويعتبرونها مهددة لسطوتهم ونفوذهم في ايران ، فاستغلوا تقربهم من بريطانيا في عام ١٩٠٧ وشجعوا الشاه محمد علي على تعطيل الدستور(١٨) .

صار الشاه محمد علي على أي حال يبذل الاموال ويحشد الانصار في سبيل القضاء على حركة المشروطية في بلاده ، وكان الشعار الذي رفعه في ذلك هو أن الدستور بدعة مخالفة للشريعة الاسلامية . وقد أيد الشاه في موقفه هذا لفيف من رجال الدين الكبار على رأسهم الشيخ فضل الله النوري ، وكان هذا الرجل من انصار المشروطية في أول الامر ثم انفصل عنهم واخذ يحاربهم حرباً لا هوادة فيها ويتهمهم بأنهم بابيون وزنادقة . أما أنصار المشروطية فكان يتزعمهم السيد محمد الطباطبائي والسيد عبدالله

---

(١٦) ف . و . فرنو (المصدر السابق) — ج٢ ص ١٥ .

(17) Peter Avery (op . cit .) -- P 128

(١٨) جورج لنشوفسكي (الشرق الاوسط في الشؤون العالمية) — ترجمة جعفر خياط — بغداد ١٩٦٤ — ج١ ص ٥٨ .

البهبهاني . وبهذا انقسم الشعب الايراني الى حزبين متطاحنين ، وصار كل حزب منهم يكفر الحزب الآخر ويدعو الى محاربته .

تألفت في طهران وأكثر المدن الايرانية نواد أو مجالس محلية تشبه تلك التي ظهرت في فرنسا ابان ثورتها الكبرى[19] ، وقد أطلق عليها اسم « الانجمن » . فكانت هذه النوادي تجمع التبرعات وتحشد الانصار وتدربهم على السلاح بغية الدفاع عن المشروطية . وكثيراً ما شوهد رجال الدين بعمائمهم وهم يتدربون على استعمال البنادق معتقدين أنهم يقومون بواجب الجهاد في سبيل الله .

وبعد صراع عنيف بين الشاه والمجلس النيابي استطاع الشاه في حزيران ١٩٠٨ أن يوجه للمشروطية ضربة قاصمة ، فأعلن الاحكام العرفية ووجه جنود « القوزاق » بقيادة لياخوف الروسي لتطويق المجلس ، ثم أمر باطلاق المدافع عليه . وأنتشر الرعب في طهران ، وأخذ أنصار المشروطية يلوذون بالفرار ، فاستطاع بعضهم أن يلتجيء الى المفوضية البريطانية وينجو بنفسه بينما وقع البعض الآخر في قبضة القوات الحكومية . وقد شنق من المقبوض عليهم اثنان احدهما المرزا جهانكير خان صاحب جريدة « صور اسرافيل » الثورية ، والثاني هو المرزا نصرالله الاصفهاني الذي كان من أشد وعاظ المشروطية تأثيراً في الجماهير حتى كان يلقب بـ « ملك المتكلمين » وهو الذي لا يزال تمثاله قائماً في أحد شوارع طهران .

وبعد أن انتصر الشاه في طهران أبرق الى ولاته في أنحاء ايران يأمرهم بالغاء المشروطية وتشتيت شمل أنصارها وسد نواديهم . وأخذ الولاة ينتقمون من أنصار المشروطية ، فكانوا يجلدون من يقع في أيديهم منهم أو يبعدونه أو يحبسونه ...

لم يهنأ الشاه بانتصاره طويلاً ، فقد هبت الثورات عليه في بعض المدن ، وكان أهم هذه الثورات تلك التي نشبت في تبريز اذا استطاع أنصار المشروطية فيها أن ينظموا أنفسهم تنظيماً جيدا وتمكنوا من السيطرة على

(19) Percy Sykes (op . cit .) Vol 2 . P 408

المدينة فترة غير قصيرة من الزمن[٢٠] • وقد شجعت هذه الثورة أهل رشت لأن يقوموا بثورة مماثلة ، وتحركت القوات الرشتية نحو مدينـــة قزوين فاحتلتها ثم توجهت نحو طهران • وجاءت الضربة القاصمة اخيراً على يـــد الحاج علي قلي خان رئيس قبائل البختيارية في منطقـــة أصفهـــان وهـــو المعروف بلقب « السردار أسعد » ، فقد حشد هذا الرجل قوات مقاتلة بلـــغ عدد افرادها الفين ومعها عدة مدافع • وفى حزيران من عـــام ١٩٠٩ توجـــه السردار أسعد بقواته نحو طهران ، والتقى على مقربة منها بالقوات القادمة من رشت ، وفي ١٢ تموز دخل طهران فاتحاً • وعند هذا أدرك الشاه حراجة موقفه فالتجأ الى المفوضية الروسية طلباً للسلامة ، وأعلن الثوار عزله عـــن الملك وتتويج ابنه أحمد الذي كان في الثانية عشرة من عمره •

الشقاق في العراق :

ان هذه الاحداث الصاخبة التي حدثت في ايران لا يمكن أن تمـــر دون أن يكون لها صداها في المجتمع العـــراقي • والواقع ان الرســـائل والاستفتاءات أخذت تنهال من ايران على كبار المجتهدين في النجف تسألهم عن المشروطية هل هي حلال أم حرام • وكان جواب المجتهـــدين في أول الامر أن المشروطية موافقة للشريعة الاسلامية ، غير أنهم انقسموا بعدئذ على منوال ما انقسم علماء ايران ، فادى ذلك الى ظهـــور الجـــدال والتنـــازع في أوساط العامة مما كان له أثره البالغ في المجتمع العراقي وتطـــور وعيـــه السياسى •

من أوائل الرسائل التي وردت الى علماء النجف تستفتيهم في أمـــر المشروطية كانت هذه الرسالة ننقلها بعد ترجمتها الى العربية :

الى حضرات المجتهدين وحفظة الحكمة الآلهية ــ لابد وانكم سمعتم بمجلس الشورى الشعبي وانتم تعرفون جيدا أن هذا المجلس الذي يعمـــل على حفظ القوانين المستمدة من الطريقة الاثنى عشرية المقدسة لمحو الظالمين والخائنين ونشر العدل على جميع البلاد وأعلاء شأن الرايـــة الايرانيـــة ،

---

(٢٠) انظر المقالات المتسلسلة التي نشرتهـــا مجلة العرفان الصيداوية في عـــام ١٩٢٣ بقلم السيد احمد كسروي التبريزي •

ويؤسفنا أن عــددا من الانانيين المفسدين أخــذوا ينشــرون الافتراءات والاكاذيب من أجــل محو المجلســ • فنحن ننتظر فتواكم في بيان تكليف المسلمين في هذا الشأن » •

وعلى أثر وصول هذا الاستفتاء الى النجف اجتمع كبار علمائها للجواب عليه ، وكانت فتواهم التي اتفقوا عليها هي كما يلي :

« بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وآله الطاهرين ، ولعنة الله على القوم الظالمين الى يوم القيامة • أما بعد فبالتأييدات الالهية والمراحم الســماوية وتحت توجيهات الهادي العالي الشأن حضرة صاحب الزمــان روحنا فداه : ان قوانين المجلس المذكور على الشكل الذي ذكرتموه هي قوانين مقدسة ومحترمة وهي فرض على جميع المسلمين أن يقبلــوا هــذه القوانين وينفذوها • وعليه نكرر قولنا : ان الاقدام على مقاومة المجلــس العالي بمنزلة الاقدام على مقاومة أحكام الدين الحنيف ، فواجب المسلمين أن يقفوا دون أي حركة ضد المجلس[٢١] » •

وقد وقع على هذه الفتوى الملا كاظم الخراساني بالنيابة عن زملائــه المجتهدين ، ولم يشذ عنهم في ذلك سوى مجتهد واحد هو السيد كاظــم اليزدي اذ امتنع عن التوقيع • وكان امتناع هذا المجتهد بداية الانقسام بين المجتهدين ، ثم أخذ الانقسام يشتد ويستفحل بمرور الايام •

انقسم أهل النجف الى فريقين متعاديين : أحدهما يدعو الى المشروطية بزعامة الملا كاظم الخراساني ، والآخر يدعو الى الاستبداد بزعامة السيد كاظم اليزدي • ويجب أن لا ننسى في هذا الصدد ما في المجتمع النجفي من ميل مفرط الى الجدل بوجه عام ، فلما جاءت قضية المشروطية كــانت حافزاً جديداً فيه حيث أثال الناس يتجادلون حولها بعنف شديد الى درجة لم يسبق لها مثيل من قبل • وقد أشار أحد الشعراء الى ذلك حيث قال :

تغيرت الدنيــا وأصبح شرهــا	يروح بافراط ويغــدو بتفريط
الى اين يمضي من يروم ســلامة	وما الناس الا مستبد ومشروطي[٢٢]

---

(٢١) محمد علي كمال الدين (التطور الفكري في العراق) ــ بغداد ١٩٦٠ ــ ص ٢٣ ــ ٢٤

(٢٢) محسن الامين (أعيان الشيعة) ــ دمشق ١٩٣٨ ــ ج ٧ مكرر ص ٤٦١ •

حدثني الكتبي النجفي عبدالحميد زاهد : أنه كان في تلك الايام صبياً يلعب مع أقرانه في الازقة ، فكان الصبيان عند اللعب يقسمون أنفسهم الى فريقين : مستبد ومشروطة ، ثم نشبت المعارك بينهم تقليدا لما يقع بين الكبار •

ومما زاد في الطين بلة أن الروس أسسوا في النجف قنصلية وعينوا لها رجلاً واسع الحيلة شديد الدأب في مقاومة المشروطية هو أبو القاسم الشيرواني ، فتم التعاون بينه وبين اليزدي• واستطاع اليزدي ان يستميل اليه الكثير من العامة ومغاوير المحلات من رجال « الزقرت » و « الشمرت » ، فكان اذا خرج الى الصلاة حف به المسلحون من أعوانه وهم يهتفون بالصلاة على محمد وآل محمد ـ تحدياً لانصار المشروطية• وصارت الاشاعات تروج في أوساط العامة حول المشروطية بأن المقصود منها هو هدم الدين وافساد الاخلاق •

وفي أحد الايام ظهر على بعض الجدران في النجف اعلان فيه صورة يد تمسك مسدساً وفيه تهديد لليزدي بأنه سيقتل اذا لم ينزل على ارادة أنصار المشروطية ، فهاج العوام لذلك وثارت بهم « الغيرة على ابن رسول الله » باعتبار ان اليزدي سيد من ذرية الرسول • وصار أنصار المشروطية عرضة للاعتداء والضرب في الاسواق والطرقات بحجة أنهم زنادقة مارقين عن الدين •

الواقع ان الجدال حول المشروطية لم يقتصر على النجف وحدها بل سرى الى كربلا والكاظمية وبعض المدن الشيعية الاخرى • حدثني أحد المسنين من أهل الكاظمية عما جرى في هذه البلدة من نزاع شديد وجدال حول المشروطية ، فقد كان اكثر العامة من دعاة الاستبداد ويعدون الملا كاظم الخراساني هو واتباعه كفاراً ولا يكادون يسمعون عن أحد العلماء أنه « مشروطة » حتى ينفضوا عنه ويلعنوه ويتركوا الصلاة خلفه •
حاول أحد دعاة المشروطية ، وكان شاباً شديد الحماس ، أن يجمع التواقيع في تأييدها ، فذهب الى أحد العلماء في الصحن الكاظمي يطلب منه توقيعه ولما وجده يرفض اعطاء خاتمه للتوقيع سحب السجادة من تحته ومنعه من الصلاة ، وقد حدثت في الكاظمية ضجة من جراء ذلك وهب نفر من مغاوير

المحلات فطاردوا الشاب ثم أمسكوا به في أحد الازقة واعتدوا عليه اعتداءاً منكرا • وحين علمت الحكومة بالامر أرسلت قوة من الجنود لحماية الاستبداديين ، فأدىٰ ذلك الى انكماش المشروطيين وتضاؤل نفوذهم في البلدة ، وظل الوضع كذلك فيها حتى يوم اعلان الدستور في البلاد العثمانية حيث انقلب الوضع الى عكسه •

من النوادر الادبية التي تروى عن تلك الفترة ان أحد علماء الكاظمية وهو السيد محمد مهدي الصدر نظم بيتين من الشعر في ذم الاستبداديين ، فانبرى الشيخ عبدالحسين الاسدي يرد عليه حيث قام بتشطير البيتين مما أدى الى قلب معناهما الى النقيض منه • ننقل فيما يلي البيتين مع تشطيرهما ، وقد وضعناً التشطير بين قوسين تمييزا له عن الاصل :

المستبدون قد تاهوا بغيهم	(بذاك قد قال قوم وافتروا زورا)
(صم وبكم فهم لا يعقلون كما)	لم يجعل الله في أبصارهم نورا
لوكان يمكنهم أن ينسخوا نسخوا	(ما كان في لوحه المحفوظ مسطورا)
(مالوا لشورى الأولى قدحرفوا علناً)	من الكتاب عناداً آية الشورى

عند اعلان الدستور العثماني :

أعلن الدستور في البلاد العثمانية في ٢٣ تموز من عام ١٩٠٨ ، وانتشرت مظاهر الزينة والابتهاج في العراق بتلك المناسبة ، على نحو ما سنذكره في الفصل القادم • فكان هذا التحول الفجائي في موقف الحكومة العثمانية من المشروطية عاملاً مهماً في تدعيم موقف الملا كاظم الخراساني وأعوانه وانخذال أعوان السيد كاظم اليزدي •

من طبيعة العامة أنهم يستأسدون في حالة الامن من الخطر ، فاذا حل بهم الخطر انكمشوا في بيوتهم وأخذ كل منهم يتبرأ من عمل آخر ويزعم أنه لا دخل له في الامور • وهذا هو ما حدث في النجف عند اعلان الدستور العثماني ، فقد انكمش العوام أتباع اليزدي وأصبح الجو ملائماً لاتباع الخراساني يصولون فيه ويجولون • ونظم الشيخ علي الشرقي قصيدة يهجو بها اليزدي ويتشفى به ، كما نظم السيد صالح الحلي بعض الابيات اللاذعة من الشعر قارن في أحدها بين اليزدي ويزيد •

كان قائمقام النجف يومذاك ناجي السويدي ، وهو بغدادي أديب لـه صلات حسنة مع أنصار المشروطية ، وقد بذل جهـده في تأييدهم • ثم زار النجف ثريا بك من زعماء الاتحاديين فاجتمع بالخراساني في احدى المدارس الدينية ، فكان يوماً حافلاً في النجف ابتهج له الانصار وابتأس الخصوم • ويمكن القول ان بعض الذين كانوا من أنصار اليزدي تحولوا عنه وأخذوا يتملقون للحكومة ويهتفون بأعلا أصواتهم « يعيش الدستور ! » ـ وليس هذا بالامر الغريب !

انذار الخراساني الى الشاه :

عندما اشتد الصراع بين الشاه محمد علي وانصار المشروطية في ايران وضع الملا كاظم الخراساني كل ثقله الى جانبهم ، وبذل جهودا كبيرة لتدعيم موقفهم ضد الشاه •

كان للخراساني كاتب نشيط أسمه الشيخ علي المحلاتي ، فكان هـذا الكاتب يأخذ الفتاوي والمقالات التى يصدرها الخراساني ضد الشاه فيطبع منها آلاف النسخ ثم يرسلها تهريباً عبر الحدود الى ايران لكي توزع هناك سراً • وكان لهذه المنشورات اثر لا يستهان به في تحريض الايرانيين على الشـاه وفي عزله أخيراً • ننقل فيما يلي ترجمة جزءاً من أحد تلك المنشورات حيث يخاطب الخراساني فيه الشاه بشدة وينذره ويتوعده :

« يا منكر الدين ويا أيها الضال الذي لا نستطيع مخاطبتك بلقب شاه • كان المرحوم أبوك أعطى الدستور ليرفع الظلم والتصرفات غير القانونيـة عن الشعب الذي كان في ظلام دامس قروناً عديدة حيث أنـه لا يوجـد في المشروطية شيء يخالفه الدين ••• ولكنك من اليوم الاول الذي تبوأت فيه عرش السلطة وضعت تحت أقدامك جميع الوعود والإيمان وعملت بجميـع الحيل ضد المشروطية • وقد تجلى لنا خطأنا فيك حيث سعيت أن تجعلنـا آلة بيدك ضد المجلس ••• والآن سمعنا أنك أرسلت الينـا أحـد رجالك المقربين لشراء ذممنا بالذهب ، ولست تعلم أن سعادة الشعب أثمن كثيرا من ذهبك ••• ان ذكرك للدين والشريعة كذب وهراء أردت بكذبك هذا اغفال البسطاء المتمسكين بالدين لتمنع الدستور وتجعل الناس في ذل وفقر • وعلى

هذا انت عدو للدين المقدس وخائن للوطن وتشبه السارق الذي يسرق الناس باسم الدين والشريعة ... انك انت والمجتهدون المرتزقة الذين يدعون بمخالفة المشروطية للشرع يتجاهلون حقيقة الدين بأن العدالة شرط حتى في الامور الجزئية ... واذا حصل تأخر منك عما قلنا فاننا سوف نحضر جميعاً في ايران ونعلن الجهاد ضدك . ولنا في ايران اتباع كثيرون ، والمسلمون كثيرون أيضا . فاننا أقسمنا على ذلك(٢٣) » .

الوضع في كربلاء :

كان الوضع في كربلا يختلف عن الوضع في النجف من بعض الوجوه ، فقد كان في كربلاء حينذاك واعظ ايراني من أنصار الاستبداد اسمه السيد أكبر شاه ، وكان خطيباً مصقعاً له لحية طويلة وتأثير قوي على العامة . انه كان يعظ ضد المشروطية قبل اعلان الدستور العثماني ، وظل يخطب بعد اعلانه من غير أن يخشى أحدا .

وفي شهر آذار من عام ١٩٠٩ وصل الى كربلا واعظ ايراني من المشروطيين اسمه الشيخ جواد ، وبدأ منذ ذلك الحين نزاع شديد بين الرجلين من على المنابر . وانقسم أهل كربلا الى فريقين ، كل فريق التزم واعظاً ، وصار يكفر بعضهم بعضاً .

كان قتل الحسين من المواضيع التي اتخذها الفريقان مستندا لهما في الجدل . فأنصار المشروطية يعتقدون ان الحسين انما قتل بسيف الاستبداد وأنه لو كان نظام المشروطية سائدا في زمانه لاختاره المسلمون خليفة عليهم بدلاً من يزيد . أما أنصار الاستبداد فرأيهم أن المشروطية تعني الشورى وأن الشورى هي التي أدت الى ضياع الخلافة من أهل البيت ووصولها الى رجل مثل يزيد

نشرت جريدة الرقيب البغدادية في ١ نيسان ١٩٠٩ وصفا لما كان يحدث في كربلا من جدال بين الشيخ جواد والسيد اكبر شاه ، ومضمون ما ذكرته الجريدة هو : ان الاحرار الايرانيين والعثمانيين استبشروا بوصول الشيخ جواد الى كربلا ، فغص الجامع بالناس لسماع خطبه المؤثرة ، وقد ذكر

---

(٢٣) محمد علي كمال الدين (المصدر السابق) — ص ٢٦ — ٢٧ .

الشيخ ما أمر به النبي من اجراء العدل والمساواة ، ثم أشار الى أن الحسين لم يقتل الا بسيف الاستبداد ، وعند هذا قام أحد أركان « المستبدين » يـرد على الشيخ ويثلبه ، وهو لم يجرأ على ذلك من تلقاء نفسه « لانه أحقر من ذلك » بل كان مدفوعاً من قبل حزبه الذين « يريدون ليطفئوا نور الله » ولولا حضور وكيل المتصرف لحصل ما لا يحمد عقباه ، وفي اليوم التالي حضـر الشيخ جواد « رغما عن أركان حزب التقهقر » يحيط به الاحرار « اطاحـة الهالة بالقمر ... فرمى الله بالذل والخزي اولئك الاضداد لكل فضيلة، وعند ذلك تهللت وجوه الاحرار ... وتكلم الخطيب بما خطر له من مدح العدل وقدح الظلم ، والثناء على الاحرار والطعن في المستبدين الاشرار ، فلـم يستطع من اولئك الظلمة أحد أن يفوه بكلمة ... (٢٤) » •

أمرت الحكومة السيد اكبر شاه أن يغادر كربلا الى الكاظمية ، وقـد علقت جريدة الرقيب على ذلك في ٥ نيسان حيث تساءلت عن الفائدة مـن نقل هذا الواعظ من مدينة الى أخرى داخل العراق وهل أن ذلك سيرفع الضرر الناتج عن خطبه المثيرة الداعية الى مبادىء الاستبداد والظلم ؟! يبـدو أن الجريدة كانت تريد من الحكومة أن تبعد الواعظ الى ايران وتنقذ العراقيين من شـره •

الفوضى في ايران :

كان الايرانيون يعتقدون ان المشروطية عند تطبيقها في بلادهم ستـكون علاجاً ناجعاً لجميع مشاكلهم فلا يشكون بعد ذلك من شيء ، ولكنهم وجدوا بعد انتصار حركة المشروطية وعزل الشاه محمد علي أنهم وقعوا في حالـة هي أسوأ مما كانوا فيها •

أصبح كل من ساهم في الحركة طامحاً أن ينال أعظم المناصب مكافأة له على جهاده في سبيل « الملة » ، وظهرت عصابات اللصوص في كثير مـن الانحاء يعبثون بالامن ويقطعون الطرق ، وامتنع حكام الاقاليم عن ارسال

---

(٢٤) عبدالله الفياض (الثـورة العراقية الكبـرى،) ــ بغـداد ١٩٦٢ ــ ص ٩٩ ــ ١٠٠ •

ما عليهم من مبالغ للخزينة المركزية ، وانقسم الناس شيعاً واحزاباً كل حـزب يعتقد ان رأيه هو الذي يجب أن يتبع في اصلاح البلاد .

ان قبائل البختيارية حصلت من تلك الفوضى على حصة الاسد ، فقـد احتلت مدينة أصفهان بحجة حماية الثورة ، واستحصلت من الخزينة المركزيه مبلغا شهريا قدره عشرون ألف تومان بدعوى حراسة الطريق ، وذلك عـلاوة على ما كانت تجبي من الناس من ضرائب مباشرة . ومن الطرائف التـي رويت في هذا الصدد أن لصاً من قطاع الطرق اسمه نائب حسين الكاشاني نهب ذات مرة أحد البختياريين وقال : ان هذه هي حصتي من الغنائم[٢٥] .

وكانت جلسات المجلس الملي تمثل أعجب المشاهد وأدعاها للسـخرية ، فقد كان الجدال بين النواب عنيفاً والشتائم متبادلة ، وكثيرا ما شـارك المستمعون فيها ، وكان كل نائب يريد أن يخطب بحماس لينال اعجـاب الغوغاء ، حتى اذا خرج من المجلس توقع أن ينال من أهل الاسـواق حمداً وتقديرا . واذا كان النائب شديد التعصب جهوري الصوت اسـتطاع أن يغلب الآخرين ، في الجدال ، ثم يدعي بعدئذ ان الحكومة لم تأخذ برأيـه ولو كانت قد أخذت به لارتقت ايران الى مصاف الدول العظمى .

كتب الوزير المفـوض البريطاني الى حكومتـه يقول مامضمونه . ان الايرانيين سيبقون الى مدى جيلين غير جديرين بالنظام الدستوري . وقـد علق أحد البريطانيين الذين كانوا يسكنون في طهران يومذاك على هـذا القول اذ وضع اللوم على بريطانيا واعتبرها مسؤولة عن نشر الديمقراطيـة في البلاد التي لا تصلح لها ...[٢٦] .

من الاعمال التي تورط بها أنصار المشروطية عند انتصارهم أنهـم شنقوا المجتهد الكبير الشيخ فضل الله النوري الذي كان يتزعم انصـار الاستبداد في عهد الشاه محمـد علي ، وكـان شيخا وقورا كبير السن ، وقد قام بشنقه على ملأ من الناس رجل أرمني اسمه بيريم كـان مـديراً للشرطة حينذاك ، فأدى ذلك الى شيوع التذمر في اوساط الـكثيرين مـن

---

(25) J .M . Balfour (Recent Happennings In Persia) — London 1922 — P 99 .
(26) Ibid , P 85 .

SS

الناس . واتنهز الخصوم الفرصة فجعلوا شنق الشيخ بمثابة « قميص عثمان » وأقاموا له مجالس الفاتحة وحفلات التأبين في كل مكان ، وأخذوا يبالغون في تمجيد الشيخ بغية التشهير بالمشروطية وانصارها . ولم يقتصر ذلك على ايران بل سرت عدواه الى العراق فأخذ خصوم المشروطية فيه يكثرون من أقامة مجالس الفاتحة على روح الشيخ وينادون : « أويلاخ ، قتل شيخنا مظلوماً ! » .

اعلان الجهاد على روسيا :

في عام ١٩١١ حصل اختلاف حول بعض الامور المالية بين روسيا والحكومة الايرانية ، فزحفت القوات الروسية نحو مدينة تبريز فاحتلتها ، ثم عمدت الى شنق بعض رجال الدين فيها من أجل ارهاب غيرهم ، فأدى ذلك الى الهياج العام في ايران فأعلن رجال الدين الجهاد وأمروا الناس بالتدريب على السلاح . ومن طريف ما يروى في هذا الصدد أن سكان كرمان ، وهي بلدة تقع في الجنوب من ايران ، تحمسوا للجهاد أكثر من غيرهم وأخذوا يتدربون على السلاح تحت اشراف رجال الدين وهم عازمون عزماً أكيدا على غزو روسيا وعزل القيصر . ولم يمر على ذلك سوى مدة قصيرة حتى ظهرت بالقرب من البلدة عصابة من اللصوص وأخذت تقطع الطرق وتنهب القوافل حتى وصل مجال فسادها الى أبواب البلدة . فاستنجد المسؤولون في البلدة بالقنصل البريطاني وطلبوا منه قوة لمحاربة العصابة ، وقد اعتذر القنصل لهم ثم سألهم متعجباً : لماذا لا يستطيع المجاهدون أن يحاربوا عصابة صغيرة من اللصوص بينما هم يستعدون لمحاربة روسيا كلها . فكان جواب المسؤولين : أن المجاهدين انما يستعدون لمحاربة روسيا لانها بعيدة عنهم ، ولكن اللصوص قريبون[٢٧] !

وكانت حركة الجهاد قد انتشرت في العراق أيضاً ، فقد أوعز الملا كاظم الخراساني بنصب الخيام في ظاهر النجف وتعبئة المجاهدين فيها استعدادا للزحف على روسيا . وقد نصبت الخيام فعلا وتهيأ الناس.

---

(27) Ibid . P 32 — 33

السفر ، وامتلأ الجو بأهازيج العشائر والخطب الرنانة .

وفي ليلة ١٢ كانون الاول من عام ١٩١١ بينما كان الخراساني على أهبة السفر شعر بتوعك مفاجيء في صحته ، فاصفر وجهه وانتابه العرق الغزير ، وقبل أن تشرق شمس الصباح التالي أدركته الوفاة . فاستدعي اليه طبيب الحكومة ، وقد قرر هذا بعد فحصه أنه مات بالسكتة القلبية . ولكن الناس لم يصدقوا ذلك وأخذت الاشاعات تروج بينهم في أنه مات مسموماً بأيدي الجواسيس ، وانتشرت بينهم قصة مفادها أن رجلاً كان قد أهدى اليه قبيل وفاته تفاحة صفراء وهي التي جرت عليه البلاء[٢٨] .

تفرق المجاهدون على أثر موت الخراساني ، وطويت الخيام ، وانشغل الناس بالنوح على الفقيد واقامة مجالس الفاتحة والقاء القصائد الشعرية في تأبينه . حدثني أحد المسنين من اهل الكاظمية : أنه كان عند وفاة الخراساني صبياً وكان يسمع باذنه سب الخراساني وتكفيره شائعاً على ألسنة الكبار المحيطين به ، وصادف أن ذهب الى النجف مع أهله للزيارة في تلك الايام فوجد المآتم والفواتح تقام للخراساني في كل مكان، فكان عجبه شديداً وأخذ يسأل أهله : كيف يجوز للناس أن يقيموا المآتم للكافر أي للخراساني ؟! ولم يستطع أهله أن يقدموا له جواباً مقنعاً .

وفي أواخر آذار ١٩١٢ وصل الى العراق خبر مفاده ان الجيوش الروسية قصفت بالمدافع مشهد الرضا في خراسان فانهدم جزء من القبة والسقف وأدى ذلك الى قتل وجرح عدد من الزوار الذين كانوا يتهجدون فيه . وعند هذا ساد الهياج في مختلف انحاء ايران والعراق ، ووجد المجتهدون في العراق ان من الضروري استئناف حركة الجهاد من جديد .

اجتمع في الكاظمية لفيف من المجتهدين كان فيهم : السيد مهدي الحيدري ، والشيخ مهدي الخالصى ، والسيد اسماعيل الصدر ، والشيخ عبدالله المازندراني ، والشيخ فتح‌الله الاصفهاني ، والشيخ محمد حسين القمشئي ، والسيد علي الداماد ، والسيد مصطفى الكاشاني ، وقرروا اعلان الجهاد على روسيا على منوال ما فعل الخراساني الراحل .

---

(٢٨) مجلة العلم النجفية ــ العدد السابع ــ السنة الثانية .

امتنع مجتهدان كبيران عن الحضور الى مؤتمر الكاظمية وعن الانضمام الى حركة الجهاد وهما : المرزا محمد تقي الشيرازي في سامراء، والسيد كاظم اليزدي في النجف • فقرر الشيخ مهدي الخالصي أن يسافر بنفسه اليهما بغية اقناعهما بالانضمام الى الحركة، ولم يجد الخالصي صعوبة في اقناع الشيرازي عندما ذهب اليه في سامراء ، غير أنه عند ذهابه الى النجف لم يتمكن من الاجتماع باليزدي لمحادثته في الموضوع اذ كان هذا يتهرب من لقياه المرة بعد المرة •

وفي أحد الايام بينما كان الخالصي في النجف يواصل مساعيه للاجتماع باليزدي وقع عليه اعتداء من قبل بعض العامة ، وقد أسرع الخالصي الى مغادرة النجف والعودة الى الكاظمية درءاً للفتنة • وحين سمع أهل الكاظمية بالحادث تحفزوا لاخذ الثأر اذ لم يهن عليهم أن يعتدي أهل النجف على عالمهم دون أن ينتقموا له • وقد بذل الخالصي جهده لتهدئتهم •

كان والي بغداد يومذاك جمال بك ، وكان على صلة وثيقة بالخالصي؛ فلما سمع بحادث الاعتداء عليه أمر بالقاء القبض على المعتدين وبسوقهم مكبلين الى بغداد • وانبرى الخالصي يتشفع لهم عند الوالي حتى جعله يأمر باطلاق سراحهم • وفي زحمة هذه الاحداث نسي الناس جهاد الروس وانشغلوا بجهاد بعضهم بعضاً ! •

نظرة عامة :

اننا حين ننظر الى حركة المشروطية بوجه عام نستطيع أن نقول انها على علاتها كانت ذات أثر اجتماعي وفكري لا يستهان به في تطوير المجتمع العراقي • ينبغي أن لا ننسى ان أنصار المشروطية كانوا في ذلك الحين يمثلون « الجبهة التقدمية » بالنسبة للمرحلة الاجتماعية التي عاشوا فيها ، فهم كانوا يدعون الى تأسيس المدارس الحديثة ، وتعلم اللغات والعلوم الاوربية ، ومطالعة الجرائد والمجلات • وهذه كانت يومذاك من الامور المستنكرة أو المحرمة في نظر العامة والكثير من رجال الدين •

كان شباب المشروطية في النجف من اكثر الناس اندفاعاً في التطلع

الى الحضارة الحديثة والاقتباس منها ، فكانت الكتب والمجلات والجرائد الحديثة ترد اليهم خلسة ، وكانوا يجتمعون في بيت أحدهم سرا لمطالعتها. واذا خرجوا من البيت أخفوها تحت عباءاتهم لكي لا يراها أحد من العامة أو المتزمتين من رجال الدين فيثيرها عليهم شعواء .

أهم ما الف في الدعوة الى مبادىء المشروطية في تلك الفترة كتاب صدر في النجف باللغة الفارسية عنوانه « تنبيه الامة في وجوب المشروطة». وكان مؤلفه المرزا محمد حسين النائيني من كبار تلامذة الملا كاظم الخراساني ، وقد جاء فيه بآراء جريئة جداً بالنسبة لزمانها كتعليم المرأة واصدار الصحف وحرية الرأي وما أشبه . ومما يدل على أهمية الكتاب أن مؤلفه حاول التملص منه عندما صار من المراجع الكبار اذ هو خاف أن ينفر المقلدون منه بسبب هذا الكتاب . ففي عام ١٩٢٩ ترجم أحد النجفيين الكتاب الى العربية ونشره تباعاً في مجلة العرفان الصيداوية ، فأوعز النائيني الى حاشيته بشراء جميع نسخ المجلة التي وردت الى العراق لكي لا تصل الى أيدي القراء .

محمد مهدي الموسوي :

ان الكثير من رجال الدين ما زالوا حتى الآن يحملون أسوأ الاثر عن المشروطية ويلعنونها لعناً وبيلاً . التقيت بأحد هؤلاء منذ عهد قريب ، وهو السيد محمد مهدي الموسوي الاصفهاني الكاظمي ، فسألته عن رأيه في المشروطية ، ولم يكد يسمع سؤالي حتى انبرى يذمها ذماً قبيحاً ووصفها بأنها « خراب الدين » ، ثم قال : انها هي التي أوصلتنا الى مانحن فيه من ضياع !

ولهذا الرجل كتاب عنوانه « أحسن الوديعة في تراجم مشاهير مجتهدي الشيعة » ، وقد تطرق في كتابه الى ذكر المشروطية عند ترجمته للشيخ فضل الله النوري ، فهو يقول فيه ما نصه :

« وكان رحمه الله من كبار العلماء المجتهدين وأجلاء الفقهاء المحدثين والادباء البارعين والنبلاء الجامعين ولدين الله من الناصرين ... وقد صلبه أشرار الفرقة المعروفة بالمشروطة ، والمتولي لصلبه بأمرهم رجل من الأرامنة

يدعى ببيرم ... في طهران بملأ من الناس ، ولم يتكلم أحد أبدا ، من دون جرم وتقصير لسبب ليس محل ذكره هنا . وقد قتلت هذه الفئة المعروفة جمعاً كثيرا من أعاظم علمائنا ... وكان غرضهم من ذلك محو الدين كي تكون لهم الحرية التامة فيفعل كل منهم ما يشاء ويحكم ما يريد من دون معارض لهم (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا أن يتمه) اذ مع نفوذ العلماء ما كانوا يقدرون أن يبثوا آرائهم الباطلة وينشروا عقائدهم الفاسدة في البلاد الاسلامية ولكن للبيت رب يحميه وللدين صاحب يقيه ... » .

ويعود السيد محمد مهدي الموسوي الى ذم المشروطية في موضع آخر من كتابه عند ترجمته للسيد كاظم اليزدي ، فهو يصفها على النحو التالي :ـ

انها هي التي أنزلت الملوك عن عروشها والسلاطين عن تخوتها ، وقتل فيها العلماء الورعون والوزراء العادلون ، وأحدثت في الاسلام ثلمة عظيمة لا يسدها الا ظهور المهدي عجل الله تعالى فرجه وسهل لنا مخرجه ، وقد ذهب أبالسة المشروطة الى حجة الاسلام السيد محمد كاظم اليزدي عليه الرضوان ليدخلوه في حزبهم العاطل كما أغفلوا جماعة من معاصريه ، ولكن سيدنا المعظم استلم سرا عن أحوال الحزب المشروطي من أهالي بعض المدن الايرانية ، ممن يثق بقولهم ، فلما كتبوا له حقيقة الامر لم يدخل في الحزب وقعد في داره خائفا يترقب . وقد أرادوا قتله لكن رؤساء أعراب النجف ، وهم أهل الغيرة والحمية والديانة والفتوة ، حفوا به وطافوا حول داره كطوافهم حول الكعبة المشرفة ، فلم ير العدو الفرصة في قتله . وظني أن رؤساء النجف هؤلاء لو كانوا في طهران لمنعوا من قتل الشهيد السيد عبدالله البهبهاني ... « اللهم أرنا الفجر الصادق والنور البارق ، الطلعة الرشيدة والغرة الحميدة ، مولانا امام العصر والزمن ، الحجة بن الحسن (ع) ، ليأخذ من أعداء الدين ثار المسلمين ...[٢٩] » .

---

(٢٩) محمد مهدي الموسوي (أحسن الوديعة) ـ النجف ١٩٦٨ ـ ص ١٥٣ ـ ١٥٤ ، ٢٥٠ ـ ٢٥١ .

ss

الفصل الخامس

المشروطية التركية
واحداث عهد الدستور

ان تاريخ المشروطية التركية مر بمرحلتين ، الاولى هي التي قامت بزعامة مدحت باشا ثم قضى عليها السلطان عبدالحميد على نحو ما ذكرناه سابقا ، أما الثانية فهي التي نشأت من جديد في عهد السلطان عبدالحميد ثم انتصرت عليه أخيراً ، وهذه المرحلة هي التي نريد أن نتحدث عنها في هذا الفصل •

وقبل أن نبدأ الحديث عن المشروطية التركية يجب أن نذكر أنها كانت ذات طابع اجتماعي يختلف كل الاختلاف عن طابع المشروطية الايرانية • فالمشروطية التركية هي في الغالب من صنع « الافندية » أي أولي الثقافة الحديثة ، فهؤلاء هم الذين قاموا بها دون أن يساعدهم فيها رجال الدين والعامة الا قليلاً ، اما المشروطية الايرانية فهي على العكس من ذلك قامت بزعامة بعض المجتهدين الكبار وتابعهم فيها العامة والكثير من أعيان المدن والارياف •

يمكن أن نعزو هذا الفرق الى سببين : أحدهما هو ما ذكرناه في الفصل الثالث من أن رجال الدين في ايران اعتادوا أن يقفوا الى جانب الشعب ضد حكامه لان معظم ارتزاقهم منه ، أما في تركيا فارتزاق رجال الدين يأتي معظمه من الحكومة وهم لذلك ينظرون الى السلطان نظرة تقديسية ويعتبرونه ولي الامر الذي نص القرآن على وجوب طاعته •

والسبب الثاني هو أن تركيا قريبة كل القرب من أوربا وقد تأثرت بالحضارة الاوربية منذ زمن بعيد مما جعل الكثير من شبابها ينشأون على الثقافة الاوربية ويعتنقون مبادئها ونظمها السياسية ، وقد نما عدد هؤلاء « المتأوربين » بمرور الايام فاصبحوا يؤلفون في تركيا طبقة كبيرة

لها أهميتها الاجتماعية والفكرية ، وهؤلاء هم الذين قاموا بحركة المشروطية بمعزل عن العامة ورجال الدين تقريبا .

وهناك ناحية أخرى في المشروطية التركية ينبغي أن لا ننساها هنا هي أن الجيش لعب دورا حاسماً فيها اذ هو قام بقيادة ضباطه الشبان من أولى الثقافة الحديثة بحركة انقلابية ضد السلطان عبدالحميد واستطاع أن يفرض عليه الدستور في أول الامر ثم يخلعه أخيراً . أما في ايران فكان الجيش ضعيفاً وكان ضباطه من الطراز القديم وقد وقفوا جميعا الى جانب الشاه محمد علي في صراعه ضد المشروطية ، ولهذا تميزت حركة المشروطية في ايران بظهور صراع عنيف بين الجماهير والحكومة استمر بضع سنوات وسقط فيه كثير من الضحايا .

جمعية الاتحاد والترقي :

ان جمعية الاتحاد والترقي كان لها الفضل الأكبر في انجاح المشروطية التركية في مرحلتها الثانية ، وليس هنا مجال الاسهاب في ذكر بدايتها وكيف نمت ، يكفي أن نقول انها تأسست في اسطنبول عام ١٨٨٩ باسم « تركيا الفتاة » وكانت سرية تعمل في منتهى الحذر والحيطة مخافة أن تقع في يد جواسيس السلطان عبدالحميد أو شرطته .

والظاهر ان الجمعية لقيت تشجيعاً في أوربا ، ولا سيما في فرنسا وبريطانيا ، فأخذ الكثير من أعضائها يهربون الى أوربا او الى مصر فيجدون هناك مجالاً رحباً لنشاطهم وقد يصدرون الصحف المعارضة للسلطان عبدالحميد ، وكان السلطان ينزعج من ذلك كل الانزعاج ويبعث رسله الى الاعضاء الهاربين بغية اسكاتهم او اغرائهم بالعودة . ذكر الملك عبدالله في مذكراته عن أيام شبابه التي قضاها في اسطنبول فقال : ان فرار أحد اعضاء الجمعية من اسطنبول يؤدي الى انتشار ضجة خافتة بين الناس حول فراره حيث يأخذ الناس بتداول الخبر بينهم همساً فيقول أحدهم للآخر : هل سمعت أن فلاناً فر وأخذوا جيرانه للتحقيق ؟! وكان السلطان ينزعج من هذا التساؤل الهامس ويقلق له[1] .

---

(١) عبد الله بن الحسين (مذكراتي) ــ القدس ١٩٤٥ ــ ص ٢٦ .

في عام ١٩٠٢ عقدت جمعية الاتحاد والترقي مؤتمرا عاما لها في باريس رفعت فيه شعارها المعروف وهو « الحرية والاخوة والمساواة » ، وهو كما لا يخفي مستمد من مبادىء الماسونية والثورة الفرنسية ، فكان ذلك من العوامل التي ساعدت على رفع سمعة الجمعية في الاوساط الاوربية .
وفي عام ١٩٠٥ وجدت الجمعية مجالاً واسعاً لنشاطها في مقدونيا وهي منطقة لم تكن واقعة تحت وطأة جواسيس السلطان بل كانت خاضعة للرقابة الدولية . وقد استطاعت الجمعية ان تعمل في هذه المنطقة على شيء من الحرية ، واجتذبت الى صفوفها عددا لا يستهان به من الضباط الشبان المتحمسين .

والجدير بالذكر ان مقدونيا كانت في ذلك الحين تتميز بكثرة المحافل الماسونية ، فكان ذلك من العوامل التي ساعدت على نمو الجمعية وحمايتها. يقول الدكتور رامزور في هذا الشأن ما نصه :

« لم يمض وقت طويل على المتآمرين في سلانيك ، وهي مركز النشاط ، حتى اكتشفوا فائدة منظمة أخرى ، وهي الماسونية . اذ لما كان يصعب على عبدالحميد أن يعمل هنا بنفس الحرية التي كان يتمتع بها في الاجزاء الاخرى من الامبراطورية ، فان المحافل الماسونية القديمة في تلك المدينة استمرت تعمل دون انقطاع ، بطريقة سرية طبعا ، وضمت الى عضويتها عددا ممن كانوا يرحبون بفكرة خلع عبدالحميد .

« لذلك وجدت الجمعية العثمانية للحرية أن المحافل الماسونية في سلانيك تلائم أغراضها بصورة رائعة . وعلى ما يبدو ان الجمعية استعملت بعض المحافل أو ربما جميعها لتكون محلات للاجتماع ، وضمت كثيرا من أعضائها ، واستخدمت الفن الذي نماه الماسونيون في اختيار المرشحين للعضوية ، ومن المحتمل أيضاً ان عمل الجمعية سار بسرعة تثير التقدير بسبب هذا الاتصال مع ماسونية سلانيك ...[٢] » .

يمكن القول ان جمعية الاتحاد والترقي أخذت تستعين بكل وسيلة

---

(٢) ارنست رامزور (تركية الفتاة) ــ ترجمة صالح احمد العلي ــ بيروت ١٩٦٠ ــ ص ١٢٣ ــ ١٢٤

تقع في يدها للتخلص من قبضة الاستبداد الحميدي ، فهي لم تكتف بالاستعانة بالمحافل الماسونية بل استعانت باليهود أيضاً . يقول المؤرخ أرمسترونج : ان الجمعية كانت تعقد اجتماعاتها « في بيوت بعض اليهود المنتمين للجنسية الايطالية والجمعيات الماسونية الايطالية ، اذ أن جنسيتهم هذه تحميهم — بحكم المعاهدات والامتيازات الاجنبية — من الخضوع لأوامر القبض التي يصدرها السلطان ، ومن تفتيش البوليس لمنازلهم ، أو محاكمتهم أمام المحاكم التركية لان لهم محاكمهم القنصلية الخاصة .... ومن ثم دأب أعضاء (الاتحاد والترقي) على الاحتماء بحصانة هؤلاء اليهود، فكانوا يجتمعون في بيوتهم آمنين من كل خطر ! . وكان بعضهم ... قد انضموا الى جماعة (الماسون) ... واستعانوا على تأليف جمعيتهم الثورية وتنظيمها باقتباس أساليب المنظمات الماسونية . وصاروا يتلقون الاعانات المالية الوافرة من مختلف الجهات ، ويتصلون اتصالاً منتظماً باللاجئين السياسيين البارزين الذين نفاهم السلطان الى خارج البلاد[٣] » .

اعلان الدستور :

في ٢٣ تموز ١٩٠٨ أرسل نفر من الضباط في سلانيك انذارا باسم الجيش الى السلطان عبدالحميد يطلبون فيه اعادة الدستور الى البلاد، ثم تحركت بعض القوات من سلانيك زاحفة نحو اسطنبول . وأدرك السلطان خطورة الوضع فدعا مجلس الدولة الى الانعقاد ، وكان السلطان على عادته يرقب المجلس من وراء ستار ، وسره أن أحدا من الحاضرين لم ينطق بكلمة « الدستور »[٤] ، ولكن رجلا واحدا تجرأ وتفوه ناصحاً بقبول مطاليب الثوار ، ذلك هو شيخ الاسلام جيث قال للسلطان : « بل أجبهم الى رغائبهم وامنح الدستور فانه مطابق للشرع الشريف[٥] » ...

---

(٣) هـ . س . ارمسترونج (مصطفى كمال) — القاهرة — ص ٢٩ .

(٤) آلما وتلن (عبد الحميد ظل‌الله فى الارض) — ترجمة راسم راشد — القاهرة ١٩٥٠ — ص ١٨٧ — ١٨٨ .

(٥) سليمان البستاني (الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده) — القاهرة ١٩٠٨ — ص ٩٦ .

أصدر السلطان أمره باعادة الدستور والشروع بالانتخابات ، وصدرت الصحف في يوم ٢٤ تموز وهي تحمل الخبر ، غير أن أهالي اسطنبول قابلوا الخبر بشيء من الوجوم ، وصار « الاحرار » الذين كانوا ينتظرون هذا الاعلان بفارغ الصبر يهنيء بعضهم بعضا مع شيء من الخوف والحذر ، حتى أن الكثير من الناس كانوا يعتبرون هذا الاعلان حيلة من السلطان يريد أن يوقع به الناس(٦) .

وقد تحقق صدق الخبر في اليوم التالي اذ صدرت الصحف الاسطنبولية وهي تحمل في صفحاتها الاولى المقالات الطويلة العريضة تبشر بها الناس بحلول يوم الحرية والعدل وزوال الظلم . وكان ذلك ايذانا بخروج المظاهرات الهائلة وانتشار معالم الفرح والزينة في كل مكان . يقول الكاتب التركي أحمد أمين يالمان في ترجمته الذاتية : « ان الصحف التي ظهرت في ٢٥ تموز لم تكن سوى صرخة داوية من الفرح والسرور وكان أثر ذلك كبيراً . فالمدينة النائمة انتفضت وقد عرتها هزة الانفعال والحماسة، فامتلأت الشوارع بالجماهير المرحة ، وهي تولي الخطابات الثورية عنايتها واهتمامها ، وأخذ الناس من مختلف الاجناس والمذاهب يعانق واحدهم الآخر ويؤاخيه(٧) » .

وكان من أهم مظاهر الابتهاج بالعهد الجديد اعلان التآخي بين المسلمين والمسيحيين ، وقد ظهر ذلك واضحاً في المناطق التي كان النزاع بين الفريقين شديدا كاسطنبول وبلاد البلقان والشام . وصف الدكتور هوارد بلس ما جرى في بيروت يوم اعلان الدستور وكان شاهد عيان فيها، فقال : « فأطلقت حينئذ الحرية في المدينة ولم يعد الناس يتمالكون ضبط نفوسهم عن اظهار بهجتهم ــ والناس الذين قضوا السنين الغابرة والعداوة بينهم مستحكمة صاروا الآن أصدقاء أعزاء في الحفلات والمجتمعات وصار رؤساء الدين المسيحيين والمسلمين يتضامون ويتعانقون . وقطعت الاغصان من الاشجار وأتي بالبسط من المنازل واكتظت الشوارع بالناس

---

(٦) مصطفى نور الدين الواعظ (الروض الازهر) ــ الموصل ١٩٤٨ ــ ص ٢٢٧ .
(٧) نقولا زيادة في مقدمة كتاب ارنست رامزور (المصدر السابق) ــ ص ١٤ .

فكانوا يضيفون اخوانهم الذين فقدوا صداقتهم زماناً طويلاً . وكانت امارات المودة والالفة ظاهرة في كل مكان حتى بين الرعاع وذوي الجرائم » .

ووصف شاهد آخر هو الشيخ مصطفى الغلاييني ما جرى في بيروت فقال : « من أبهج ما رأيت من هذا الوفاق ان نفرا من شبان حي السراي (حي اسلامي) ركبوا العربات فسارت الى محلة الجميزة (حي مسيحي) فجددوا عهود الاخاء مع اخوانهم المسيحيين بعد أن أبلاها الجهل ورجال السوء . هناك تآخى الفريقان وتحاب القبيلان وعلموا أن العثمانيين جسم واحد تديره روح واحدة[8] » .

وفي اسطنبول سارت وفود من المسلمين وعلى رأسهم رجال الدين بصورة ملفتة للنظر الى مقابر الارمن ليضعوا الزهور على قبور الضحايا الذين قتلوا اثناء المذابح قبل أكثر من عشر سنوات[9] وفي مدينة أخرى سجن ضباط العهد الجديد رجلاً تركياً لانه أهان أحد المواطنين المسيحيين[10] .

ومما يلفت النظر ان الكثير من الناس عند اعلان الدستور ظنوا ان بريطانيا كانت لها اليد الطولى فيه ، ولهذا ارتفعت سمعة الانكليز في نظر الجماهير العثمانية الى الدرجة القصوى[11] . ولما وصل السفير البريطاني الجديد السر جيرارد لوثر الى اسطنبول استقبلته الجماهير في محطة القطار بالهتاف الشديد ، وقيل انهم فكوا أربطة الخيل وسحبوا عربته بأيديهم زيادة في تكريمه[12] .

وحدث مثل هذا للماسونية ، فقد اعتقد الكثير من الناس في البلاد العثمانية وخارجها ان الانقلاب هو من صنع الماسونية ، وقد ساعد

---

(٨) انيس المقدسي (العوامل الفعالة فى الادب العربي الحديث) — القاهرة ١٩٣٩ — ص ٤٣ .

(9) William Yale (The Near East) — Ann Arbor — P 166 .

(١٠) توفيق علي برو (العرب والترك فى العهد الدستوري العثماني) — القاهرة ١٩٦٠ — ص ٧٦ .

(11) G . J . S . Eversley (The Turkish Empire) London 1917 — P 348 .

(١٢) زين نور الدين زين (نشوء القومية العربية) — بيروت ١٩٦٨ — ص ٢١٨ .

الماسونيون أنفسهم على ترويج هذه الفكرة بين الناس حيث أخذوا يبالغون في ذكر ما فعلوه من أجل قيام الدستور ، وصارت بعض الصحف الاوربية تضرب على هذا الوتر أيضا ، فأدى ذلك الى ارتفاع سمعة الماسونية فـي نظر المتحمسين للعهد الجديد ، ولقيت الماسونية رواجاً في تركيـــا بعض الوقـــت[13] .

موقف السلطـان :

المظنون ان السلطان عبدالحميد لم يكن مخلصا في موافقته على اعلان الدستور ، بل فعل ذلك من باب الدهاء والمراوغة ، وربما كان غرضـــه أن يماشي الثوار في أول الامر لـكي يخففه مـن فورتهم الجامحة حتى اذا خمدت الفورة بمرور الزمن اسـتطاع أن يدبر لهـا الضربـة القاضيـة . تقول الدكتورة وتلن : ان طريقة السلطان عبدالحميد في قبول الدسـتور تكشف عن مواهبه كسياسي وكممثل ، فقد أعلن عن استعداده ليرأس جمعية الاتحاد والترقي ثم رضي بقبول العضوية العادية في الجمعية عندما أبانت له اللجنة المركزية فيها أن الاعضاء كلهم متساوون ، وأخذ السلطان عـلاوة على ذلك يتظاهر بأنه أشد الاعضاء اخلاصاً للجمعية فتبرع بنصف مليون ليرة من جيبه الخاص لصندوق الجمعية ووهب أحد قصوره ليكون مقـر البرلمان القادم ، ووضع الوردة الحريرية التي كانت شعار الجمعية في معطفه ثم صار يشكر رجال الجمعية لانهم « فتحوا عينيه » على الحقيقة مدعيـاً أن مستشاريه الاغبياء هم الذين أخفوها عنه[14] .

وقد صدق الناس أقوال السلطان هذه ، وصاروا يضعون اللوم فـي مظالم العهد البائد وأسوائه على عاتق الحاشية ، ويستثنون السـلطان منها . فهو صار في نظرهم بريئاً وأنه كان ضحية الوزراء والباشوات الذين احاطوا به وأضلوه بنصائحهم الشريرة . وخرجت الصحف التركية المصورة وفيها رسوم رجال العهد البائد على هيئة العقارب والافاعي والضباع وقـد

---

(۱۳) ارنست رامزور (المصدر السابق) ــ ص ۱۲۷ .

(١٤) آلما وتلن (المصدر السابق) ــ ص ۱۸۸ .

انقضوا على البلاد ينهشونها ، ما عدا الخلطان الذي كان فوق الشبهات. وبعد قليل قامت مظاهرات تهتف بحياة السلطان ، ثم جاءت الوفود من المقاطعات المختلفة لتتأكد من سلامة السلطان وأنه غير مصاب بسوء ، ولما أطل عليهم السلطان من شرفة قصره ارتفعت أصوات الجماهير هاتفة بحياته[١٥] . « باديشا هم جوق يشا ! » .

بين المحاسن والمساويء :

لا ينكر ان عهد الدستور كان له الكثير من المحاسن بالمقارنة الى العهد السابق ، فقد أزيح به عن كراسي الحكم اولئك المحافظين الذين كانوا يسيرون على الاسلوب القديم ، وحل محلهم شبان مفعمون بالحماس وحب التجديد والعمل الدائب ، وكذلك ظهر نوع من التنبه أو الوعي بين أفراد الشعب فصار الموظفون يخشون من الاهالي بعد ما كانوا قبلئذ يحتقرونهم ويطردونهم ، وأصبح الموظف المرتشي حذرا متخوفاً لا يدري متى يأتي أمر نقله أو عزله وكان ذلك مانعاً من الرشوة قليلا أو كثيرا .

ولكن العهد الجديد على الرغم من محاسنه كان لا يخلو من مساويء أصيلة كامنة فيه ، شأنه في ذلك كشأن أي تغير فجائي في نظام الحكم او المجتمع . ولم تمض على اعلان الدستور مدة طويلة حتى بدأت المساويء تبدو للعيان وتنمو بمرور الايام . وأخذ الناس يتذمرون منها ويبالغون فيها. ومن الممكن حصر هذه المساويء في نقاط خمسة هي كما يلي :

أولا : ان رجال العهد الجديد لم تكن لديهم خبرة كافية في السياسة أو ادارة شؤون الدولة . وكان يغلب عليهم الحماس والتفاؤل الشديد ، فاذا تحمسوا لفكرة ظنوا أنهم قادرون على تحقيقها بقوة الارادة ، ولعلهم اتبعوا في ذلك شعار نابليون الذي قال : « ليس في قاموسي كلمة مستحيل » . والظاهر ان الكوارث التي واجهوها خلال السنوات القليلة التي حكموا فيها جعلتهم يدركون أن الحياة اكثر تعقيدا من أن تخضع لمثل هذا الشعار الساذج .

---

(١٥) المصدر السابق ــ ص ١٨٨ .

ss

ثانيا : من طبيعة كل انقلاب أو ثورة أن يظهر فيه أناس متطرفون يريدون من الناس جميعاً أن يسيروا معهم في طريق التطرف او الاباحية . وقد ظهر مثل هؤلاء في العهد الدستوري ، فكان منهم دعاة الالحاد الذين أخذوا يهاجمون الاديان كلها و يعدونها أكاذيب وزخارف مزيفة تورث العداوات بين الناس[16] ، ومنهم المتفرنجون الذين يدعون الى تقليد أوربا في كل شيء فشاع بينهم استعمال القبعة وأسرفت نساؤهم في التبرج وخرجن في المنتزهات والشوارع في « ثياب فاضحة »[17] ، وكذلك منهم دعاة العنصرية الطورانية الذين رفعوا شعار « نحن أتراك قبل أن نكون مسلمين » .

ثالثا : لا بد في كل عهد جديد أن يظهر من ينقم عليه وينتهز الفرص للكيد له ، فكل من خسر وظيفة أو فقد مصلحة في العهد الجديد يصبح عدواً له بالطبع . والواقع ان الناقمين في العهد الدستوري كثيرون ، كان منهم المتصوفة ورجال الدين بوجه عام ، وأعوان السلطان عبدالحميد وجواسيسه وقد بلغ عددهم كما قيل ثلاثين ألفاً[18] ، وكان منهم أيضا كبار الساسة والموظفين الذين كانوا يتنعمون في العهد السابق بالجاه العريض والمال الوافر ، فانقطع عنهم عند اعلان الدستور كثيرا مما كانوا يتنعمون به ولهذا وجدناهم يستغلون الاخطاء التي تورط بها رجال العهد الجديد وأخذوا يضخمونها وينشرونها بين العامة ، ومن طبيعة العامة أنهم ميالون الى تصديقها ويأخذون هم بدورهم في تضخيمها ونشرها . وهكذا يعم التذمر بين الناس تدريجيا .

رابعا : ان رجال العهد الجديد لابد أن ينقسموا عاجلاً أو آجلا الى فريقين متصارعين . فهم كانوا متفقين في العهد السابق لوجود عدو مشترك لهم يهددهم بالخطر الماحق ، فلما انتصروا على عدوهم أصبحوا هم

---

(١٦) انيس القدسي (المصدر السابق) ـ ص ٤٥ .
(١٧) آلما وتلن (المصدر السابق) ـ ص ١٩٤ .
(١٨) جورج انطونيوس (يقظة العرب) ـ ترجمة ناصر الدين الاسد واحسان عباس ـ بيروت ١٩٦٢ ـ ص ١٧٥ .

أعداء بعضهم لبعض ، وسبب ذلك يعود الى طبيعة الحسد والمنافسة التي تنشأ بينهم ، فاذا حصل فريق منهم على المناصب العليا تألم الآخرون من ذلك وأضمروا له الحقد . أضف الى ذلك أن كل فريق منهم يحسب أن رأيه في ادارة الدولة أصوب من رأي الآخرين وهو يريد أن يسير الجميع على رأيه ، وبذا يبدأ الشقاق بينهم ثم ينمو شيئاً فشيئاً . وقد يصل العداء بينهم الى حد يشغلهم عن الاهتمام بالعدو المشترك الواقف لهم بالمرصاد .

خامسا : ان الجماهير التي أعلنت ابتهاجها الشديد عقب اعلان الدستور لابد أن تصيبها خيبة الامل بعد وقت قصير أو طويل ، وربما صح القول ان خيبة الامل بالعهد الجديد يشبه رد الفعل في عالم الفيزياء اذ هو يكون شديدا بمقدار شدة الابتهاج الذي قوبل به العهد الجديد في أول أمره . لقد جاء عهد الدستور بمبادىء ثلاثة هي : « الحرية والاخوة والمساواة » ، ثم زاد عليها مبدأ رابعاً هو « العدالة » ، وهذه مبادىء مثالية يلهج بها الانسان عندما يكون في حاجة اليها ، أي عندما تكون مصلحته متوقفة عليها ، ولكنه يتنكر لها حالما يراها تخالف مصلحته أو تكون في مصلحة خصمه . وهذا هو ما حدث فعلاً في البلاد العثمانية في عهد الدستور ، فالناس كانوا يريدون من الحكومة أن تساويهم في المعاملة مع من هو أعلى منهم ولكنهم لا يرضون أن تساويهم مع من هو أدنى . وكذلك كان الناس يريدون الحرية لانفسهم يعملون فيها ما يشاؤون ولكنهم اذا رأوا غيرهم يتمتع بالحرية غضبوا منه وصاروا يشتمونه ويشتمون الحكومة معه .

من معالم خيبة الامل :

وصف المؤرخ شيفيل حالة الابتهاج الشديد الذي قوبل به عهد الدستور في البلاد العثمانية فقال : انها كانت كهذيان الحمى، وكانت كغيرها من الهياجات العاطفية تحتوي على خداع للنفس هائل ، ولا بد أن يأتي اليوم الذي يصحو الناس فيه من سكرتهم ليدركوا أن الدنيا لا يمكن أن تتغير بالحماس الشديد . والغريب ان ذلك الهياج العاطفي لم يقتصر أثره على الشعوب العثمانية بل شمل بعض الدوائر السياسية المهمة في أوربا أيضاً،

فقد أخذت بعض الصحف الاوربية الرصينة تتحدث عن « المعجزة » التي أنجزتها الديمقراطية في تركيا ، وتجرأ وزير الخارجية البريطانية السر ادوارد غراي فتنبأ بأن مشكلة مقدونيا وغيرها من مشاكل البلاد العثمانية المشابهة لها سوف تختفي نهائيا . ويقول شيفيل : ان الانقلاب العثماني كان من جملة الاحداث التي جعلت قسماً كبيرا من الشعوب الاوربية قبل عام ١٩١٤ يعيشون في ما يمكن تسميته بـ « فردوس المجانين[١٩] » .

لم تمض على تلك الحالة سوى مدة قصيرة حتى بدأ النقيض يعمل عمله . زارت المس بيل بلاد الشام بعد ستة أشهر من اعلان الدستور العثماني فقالت تصف مشاعر الناس فيها بما نصه :

« ... فانني جالست في حلب رجالا عديدين يمثلون أعلى الطبقات الاجتماعية وأدناها ، من العالم الجليل الى العامل البسيط ، وعندها استطعت أن أدرك جانباً مما كان يجول في أفئدة الناس في آسيا من أمل وخوف وحيرة . فلقد اشتركت جماهير الناس باقامة حفلات ومهرجانات حماسية احتفاءاً بالدستور ـ وكانت فترة مضمخة بالآمال ، وبالاحلام الشاردة ، اذ بدا للناس أن مشاكل الامبراطورية العثمانية المتأصلة الجذور قد حلت بضربة قلم . ولكن سرعان ما خفت الحماسة وعاد الناس من عالم الاحلام الى عالم الواقع المرير حتى ظهر لهم أن طبيعة الانسان هي هي لم يطرأ عليها تبديل . فانقلب الرأي العام . فانهم كانوا يترقبون تغييرا وتبديلا ولكن التغيير كان بطيئاً ، فوقعوا في حيرة ، وداخلتهم المخاوف من أن يتبدل كل شيء وهم في غفلة من أمرهم . ولكن خفت مظالم الحكم حيناً وكان لهذا أثر في نفوس الناس هنا وهناك ، ولكن الناس لم يشعروا بالطمأنينة والأمن . نعم شعروا بشيء من الحرية الشخصية ، وزال عنهم شبح الجواسيس في الدوائر الرسمية ... وكنت تسمع الناس في كل مجتمع ، مسيحياً كان أم اسلامياً ، يوجهون النقد اللاذع للمعاملات الرسمية الحكومية ، ولكن قل أن تسمع نقداً بناءاً . فان الحكومة ظلت

(19) Ferdinand Schevill (The History of The Balkan Peninsula) — New York — P 452

في نظر الناس قوة مستقلة متسلطة لا تربطها بالمحكوم أية رابطة . فقد يشكو المرء من ظلمها وجورها فيلعنها كما يلعن العاصفة الثلجية التي تخرب مزرعته ، ولكن هذا المرء لم يشعر أنه مسؤول عن هذه الحكومة أو انه يستطيع اسداء النصح لها أو كبح جماحها ، بل كان يقف مكتوف اليدين تماماً كما يقف ازاء العاصفة الثلجية التي لايد له فيها ، انما يلعنها ... ولكن عندما كنت أسأل عن هذه الناحية ، ناحية مسؤولية الفرد تجاه الحكم، كنت أسمع الاجوبة لا تختلف عن جواب فتوح عندما سألته مرة عن الانتخابات وكيف انتخب . قال لي : تعرفين ، سعادتك ، اني سائق عربة فمالي وللحكومة ؟ غير أني اقول لك أن الحكومة الجديدة ليست بأفضل من الحكومة القديمة . فها هي حلب ، هل يسود فيها العدل اكثر من ذي قبل ؟ والله لا ...[٢٠] » .

وزار الكاتب المعروف جرجي زيدان بلاد الشام في عام ١٩١٠ فكتب يصف خيبة آمال الناس بالدستور وتطرفهم في ذلك حيث قال: «... وطائفة تعجلت استثمار الدستور فهي تريد أن تصير المملكة العثمانية التي قضت قرنين في حالة الاحتضار وقد نضبت ماليتها، وأجدبت أرضها ، واظلمت مدنها ، وتخربت طرقها وشوارعها ، وفسد كل شيء فيها حتى أخلاق أهلها، واختل نظام اجتماعها ، وفرق التعصب بين طوائفها ومذاهبها — تريد هذه الفئة من المنتقدين أن تصير هذه المملكة في سنتين مثل أرقى ممالك أوربا وهذا مستحيل» [٢١] . يبدو أن المشكلة الاساسية في عهد الدستور هي أنه أثار في الناس آمالا طوبائية من المستحيل تحقيقها في عالم الواقع . كان الناس في العهد السابق لا يتوقعون من الحكومة أي خير ، فاذا أصابهم الخير منها في بعض الاحيان حمدوا ذلك منها ورفعوا أيديهم يدعون الله أن ينصر الدين والدولة ، أما في عهد الدستور فصاروا يتوقعون من الحكومة كل الخير ، وكأنهم اعتقدوا أن الدنيا انقلبت دفعة واحدة الى جنة الفردوس ، وأصبح كل فرد يتخيل أن الحكومة ستحل جميع مشاكله

---

(٢٠) زين نور الدين زين (المصدر السابق) — ص ٢٠٦ — ٢٠٧ .
(٢١) انيس المقدسي (المصدر السابق) — ص ٤٧ .

التي كان يشكو منها ، وسترفع عنه كل ضيم ، وتغدق عليه النعم الوافرة • ثم تمر عليه الايام من بعد ذلك دون أن يتحقق له شيء من ذلك فيشعر عندئذ بخيبة الأمل ويعلن تذمره •

ومن طبيعة الناس أنهم حين يتذمرون من عهد جديد يأخذون بالترحم على العهد السابق ويحنون اليه ، ويدفعهم ذلك الى تضخيم محاسن ذلك العهد ونسيان مساوئه • ويظل الناس يفكرون على هذا المنوال حتى يأتيهم انقلاب جديد ينسيهم ما كانوا فيه ويفتح لهم من الذكريات صفحة جديدة •

واقعة ٣١ آذار :

لم تمض على اعلان الدستور العثماني سوى مدة قصيرة حتى تألفت في اسطنبول جمعية باسم « الجمعية المحمدية » تحمل الصبغة الدينية في مظهرها الخارجي بينما هي في الواقع ذات هدف سياسي تعمل لمحاربة العهد الجديد والقضاء عليه •

كان من أبرز أعضاء الجمعية رجل متصوف يدعى « درويش وحدتي » وقد أخذ هذا الرجل يعمل تحت ستار الغيرة على الدين واستطاع أن يؤثر على الجنود بواسطة أعوانه من الدراويش وبعض رجال الدين ، وكانت دعواه أن الدستور مخالف للشريعة الاسلامية وان السلطان غير راض عنه وهو انما وافق عليه مكرهاً ، ولهذا وجب الغاء الدستور واعلان الشريعة بدلاً عنه •

لقيت دعاية هذه الجمعية رواجا في أوساط العامة ، وكان أنصارها يؤكدون للناس أن الدستور هو من صنع الماسون والمرتدين واليهود • وفي أوائل نيسان ١٩٠٩ نشر الصحفي حسن فهمي بك في جريدته «سربستي» خبراً قصيراً مفاده ان الاتراك يجب أن يلبسوا القبعة ومعنى هذا أن الاتراك سوف يتشبهون في زيهم بالكفار • ولم يمض على نشر الخبر سوى أيام معدودة حتى أطلق مجهول رصاص مسدسه على الصحفي فأرداه قتيلا، وكان القاتل يرتدي بذلة ضابط من ضباط العهد الجديد(٢٢) • فهاجت الخواطر

(٢٢) آلما وتلن (المصدر السابق) — ص ١٩٢ — ١٩٤

لهذا الحادث ، وقدم ستة من أعضاء مجلس المبعوثين سؤالا عنه الى وزير الداخلية ، وتفاقم القلق في اسطنبول[٢٣] . واغتنم الناقمون الفرصة فحولوا تشييع جنازة القتيل الى مظاهرة ضد العهد الجديد وأخذوا يوزعون فيها اوراقاً صغيرة في مهاجمة المبعوثين ، وما ان انتهت مراسيم الدفن حتى ارتفعت أصوات تهتف بحياة الشريعة المحمدية وبسقوط جمعية الاتحاد والترقي فجاوبتها أصوات كثيرة أخرى ...[٢٤] .

وفي ١٣ نيسان استيقظت اسطنبول صباحاً على أصوات الطبول والرصاص ، وشوهدت أفواج من الجنود تجري في الشوارع وتطلق الرصاص ، وكان في مقدمة كل فوج جماعة من الدراويش تحمل الاعلام وتهتف مع الجنود « باشاسون شريعة محمدية » أي تعيش الشريعة المحمدية. وحاصر الجنود مجلس المبعوثين والباب العالي وأرسلوا وفدا الى السلطان يطلبون منه الغاء الدستور واعلان الشريعة .

ثم أخذ الجنود يتفرقون الى شراذم صغيرة يبحثون في كل حارة عن شبان الضباط ليقتلوهم ، انهم كانوا يريدون تطهير الجيش من الضباط « المكتبلية » أي الضباط المتخرجين من المدارس الحديثة ، أما الضباط « الألايلية » أي الذين نشأوا وتقدموا من بين صفوف الجنود بدون مدرسة فقد تركهم الجنود[٢٥] . وقد قتل الجنود من الضباط « المكتبلية » نحو ثلاثمائة[٢٦] .

وهجم الجنود على نادي الاتحاد والترقي ، وعلى ادارة جريدة طنين ، وعلى النادي العسكري ، وعلى النادي النسائي ، فنهبوها وجعلوا عاليها سافلها . وتقدموا نحو مجلس المبعوثين بغية قتل أعضائه ، وكان فيه نحو أربعين مبعوثاً ، ولبث هؤلاء ينتظرون الموت مدة ساعتين ، ومنهم من رمى بنفسه من النوافذ فسقطوا وتكسرت أرجلهم ، ومنهم من اختبأ في أي

---

(٢٣) شكيب أرسلان (سيرة ذاتية) ــ بيروت ١٩٦٩ ــ ص ٧١ .
(٢٤) آلما وتلن (المصدر السابق) ــ ص ١٩٣ .
(٢٥) ساطع الحصري (البلاد العربية والدولة العثمانية) ــ بيروت ١٩٦٠ ــ ص ١١٠ ــ ١١٢
(٢٦) شكيب أرسلان (المصدر السابق) ــ ص ٧٢ .

مكان يتوارى به عن الاعين • وتمكن الجنود من قتل وزير العدلية كما قتلوا مبعوثاً عربياً اسمه محمد بك أرسلان ، ولكنهم عندما فعلوا ذلك سمعوا بأن عسكراً سيأتي بأمر من السلطان ليقتص منهم فوقع الرعب في قلوبهم وتوقفوا عن قتل بقية المبعوثين ، ثم صاروا يطلقون الرصاص في الفضاء تهويلاً" (٢٧) •

تقول الدكتورة وتلن : « كان الهياج في العاصمة يزداد ساعة بعد ساعة ، ولم ينقطع اطلاق النيران في الشوارع • كانت الجماعات الثائرة تهاجم الرجال الذين ارتدوا القبعات ، وتقص شعور النساء اللواتي كن يسرن بدون نقاب • وأصبح الجنود أصحاب الامر والنهي في المقاهي ، والشوارع ، وجعلوا من أنفسهم قضاة ينزلون العقاب بالسكارى وهم أشد سكرا منهم • وكانت المدينة كلها تردد الهتاف : لتحي الشريعة ! والموت لتركيا الفتاة ! (٢٨) » •

وقد انتشرت عدوى هذا الغليان الديني الى الولايات التركية المختلفة، ففي الولايات الشرقية عاد الاكراد الى شن غاراتهم المعتادة على الارمن ، كما وقعت مذابح أرمنية في مرسين وأطنة وبعض المدن الواقعة في شمال سوريا(٢٩) وانتشر الرعب في الاحياء المسيحية في اسطنبول وصار سكانها ينتظرون بفارغ الصبر تدخل البوارج الاجنبية لحمايتهم(٣٠) •

أطلق الاتراك على تلك الواقعة اسم « أتوز بير مارت وقعه سي » ، أي واقعة ٣١ آذار ، لانها وقعت في ذلك اليوم حسب التقويم الشرقي وكان هذا التقويم متأخرا عن التقويم الغربي عامئذ بثلاثة عشر يوما •

خلع عبد الحميد :

في ١٦ نيسان ١٩٠٩ — أي بعد ثلاثة أيام من الواقعة — أبرق محمود شوكت باشا قائد حامية مقدونيا الى اسطنبول يقول بأنه « عائد لاقرار

---

(٢٧) المصدر السابق — ص ٧٢ — ٧٤ •

(٢٨) آلما وتلن (المصدر السابق) — ص ١٩٥ •

(29) William Yale (op . cit .) P 170 .

(٣٠) آلما وتلن (المصدر السابق) — ص ١٩٥ •

«النظام في العاصمة» . ثم تحرك القائد بجيشه وهو يتظاهر أمام الجنود بأنه زاحف لحماية السلطان وانقاذ العاصمة من الفوضى ، وكان السلطان نفسه يزعم أمام حاشيته أنه هو الذي استدعى «جيشه الوفي» من مقدونيا لاقرار الامن في بلاده .

استطاع محمود شوكت باشا أن يصل الى مقربة من اسطنبول خلال مدة قصيرة تكاد لا تزيد على الثلاثة أيام وضرب بذلك رقما قياسيا في سرعة الزحف . وقد انضم اليه في الطريق جماعات من اليهود والارمن والاروام والبلغار والصرب بغية المعاونة على قمع الحركة «الرجعية» . وفي ٢٣ نيسان وقف محمود شوكت باشا عند أبواب العاصمة فاستسلمت له حاميات الاسوار الخارجية ، والجنود الهائمون في الشوارع ، بلا مقاومة . وفي مساء ٢٤ نيسان عاد الهدوء الى اسطنبول وصار محمود شوكت باشا السيد المطلق فيها .

كان رجال العهد الجديد قد اختفوا في بيوت غير بيوتهم أثناء واقعة ٣١ آذار ، فلما دخل محمود شوكت باشا العاصمة منتصرا عادوا الى الظهور وأخذوا ينتقمون من أعدائهم ومن جميع من ساهم في الواقعة .

نصبت المشانق على جانبي جسر «غلطة» وعلقت على صدور الجثث المشنوقة عبارة «خائن للحرية» . وحكمت المحكمة على ثلاثين من رجال الدين بأن يأكلوا خبزاً مسموماً لكي يكونوا عبرة لغيرهم ، وصار كل معمم يمشي في شوارع اسطنبول عرضة للاهانة والاعتداء . ذكر معروف الرصافي أنه وصل الى اسطنبول في تلك الفترة فاضطر الى خلع عمامته وزيه الديني واستبدل به ملابس افرنجية جديدة لكي لا يتعرض للاذى[٣١] .

وفي ٢٦ نيسان اجتمع مجلس المبعوثين ومجلس الاعيان في جلسة مشتركة وقرروا خلع السلطان عبدالحميد ، واستدعوا شيخ الاسلام لكي يصدر الفتوى اللازمة لذلك ، ويقال ان شيخ الاسلام صادق على الفتوى وهو محاط بحراب البنادق[٣٢] .

---

(٣١) يوسف عزالدين (شعراء العراق في القرن العشرين) ــ بغداد ١٩٦٩ ــ ص ٧٢ .

(٣٢) آلما وتلن (المصدر السابق) ــ ص ٢٠٠ .

وذهب الى السلطان وفد مؤلف من أربعة أعضاء لتبليغه بقرار خلعه. والغريب أن اعضاء الوفد لم يكونوا اتراكا أصليين بل كانوا مواطنين عثمانيين من أصل أرمني ورومي ويهودي (٣٣) ، وكان أحدهم من ذوى الرتب العالية في الماسونية اسمه عمانويل كراسو أفندي وهو يهودي من سلانيك(٣٤) . والمظنون ان جمعية الاتحاد والترقي انما اختارت اعضاء الوفد بهذه الشاكلة نكاية بالسلطان عبدالحميد وتحديا له .

كان السلطان شاحب اللون تظهر عليه علامات الشيخوخة عندما دخل عليه الوفد ، فسألهم بلهجة الآمر الناهي التي اعتاد عليها : « ماذا تريدون ؟... ماذا حدث ؟ » ، فتقدم نحوه رئيس الوفد الفريق أسعد ، وبعد أن أدى له التحية اللائقة قال : « جئنا لنبلغكم أن الامة قد عزلتكم عن العرش » . وعند سماع السلطان هذه الكلمات سرت رجفة في جسده وظل ساكتا برهة ، ثم نطق بنفس الكلمة التي نطق بها عمه عبدالعزيز عند عزله قبل ثلث قرن : « قسمة ! » . ثم وجه السلطان الى الوفد سؤالا حول مصيره ومصير عائلته فأجابه الفريق أسعد : « أن الشعب التركي شهم نبيل ، ولك أن تثق به » . ولما ألقى أعضاء الوفد تحية الخروج ووصلوا الى الباب صاح فيهم السلطان المخلوع قائلا : « ليعاقب الله أولئك المسؤولين عن هذه النكبة ! » ، فتطلع كراسو الى أعلى وقال : « ان الله عادل . ولنا أن تتأكد من أن المذنب سينال عقابه ! ...(٣٥) » .

عومل السلطان بعد خلعه بكل شهامة وتأدب ، فاختار من الحريم ثلاث زوجات وأربع جوار ، كما اختار عددا من الحاشية لمرافقته . وسار بهم قطار خاص نحو سلانيك حيث استقروا هناك في قصر كبير وسط حديقة واسعة .

وجدوا في قصر يلدز الذي غادره السلطان المخلوع أحد عشر كيساً مملوءة بالنقود بلغ مقدارها نصف مليون ليرة ذهباً ، كما وجدوا كمية هائلة

---

(٣٣) المصدر السابق — ص ٢٠١ .

(٣٤) أرنست رامزو (المصدر السابق) — ص ٢٠٠ — ٢٠١ .

(٣٥) آلما وتلن (المصدر السابق) — ص ٢٠١ — ٢٠٢ .

من الجواهر مخبأة في دولاب حديدي قـدر ثمنها بمليون ليرة[٣٦] • وكان للسلطان في بنوك المانيا رصيد بمليونين باون ، وله مبالغ أخرى كبيرة عند القيصر غليوم الثاني[٣٧] •

بقيت في قصر يلدز ٢١٣ جارية هن اللواتي لم يأخذهن السلطان المخلوع معه ، فطلبوا من ذوي قرباهن أن يأتوا اليهن لاسترجاعهن • فجاء الاقرباء ومعظمهم من فلاحي الشركس والارناؤوط وصاروا يتفحصون وجوه الجواري حتى عثر كل واحد منهم على من يريد • ولم يبق من الجواري سوى عدد قليل لم يمكن الاهتداء الى أقاربهن ، أو كن قد نسين المكان الذي جئن منه[٣٨] •

حل محل عبدالحميد على العرش أخوه محمد رشاد باسم 'السلطان محمد الخامس ، وكان في الرابعة والستين من عمره ، والمعروف عنه أنه كان في عهد أخيه شبه محجور يقضي وقته في الحريم وغير مسموح له أن يقرأ الصحف او يكون له أصدقاء وكان خدمه جواسيس عليه من قبل أخيه •

وصف السلطان الجديد دبلوماسي أجنبي كان قد قابله بعد تسنمه العرش فقال : « ان مظهر السلطان محمد الخامس يشير الى أنه شخص تافه• فهو قصير محدوب له عيون غائرة ووجه عميق الخطوط ولون زيتي أصفر ، انه غير جذاب على وجه التأكيد • وتدل ملامحه على ضعف ذكائه ، ولم يتخلص من نظرة الرعب التي تراوده وكأنه كان يخشى أن يفاجئه قاتل من وراء ركن مظلم فيغتاله ...[٣٩] »

ومما يجدر ذكره ان جلوس هذا السلطان على عرش آل عثمان جعل العامة يرددون قول من قال : « اذا حكم رشاد ظهر الفساد » • وكان المتصوفة ينشرون هذه العبارة بين الناس وينسبونها الى القطب الصوفي المشهور محي‌الدين بن عربي[٤٠] • وقد اعتقد الكثير من الناس ان تلك

---

(٣٦) المصدر السابق ـ ص ٢٠٩ •

(37) G . J . S . Eversley (op . cit .) — P 351 .

(٣٨) آلما وتلن (المصدر السابق) ـ ص ٢٠٨ •

(39) G . J . S . Eversley (op . cit .) — P 352 .

(٤٠) عباس العزاوي (تاريخ العراق بين احتلالين) ـ بغداد ١٩٥٦ ج٨ ص ١٨٦ •

نبوءة لا بد أن تتحقق عاجلا أو آجلا • فلما توالت المصائب على الدولة العثمانية في عهد السلطان الجديد ، من حرب طرابلس الغرب الى حرب البلقان ثم الحرب العالمية الاولى ، تحققت النبوءة في نظر الناس وأخذوا يذكرون العهد الحميدي بكل خير واشتد حنينهم اليه •

حرب طرابلس الغرب :

كان الاتحاديون ـ أي أعضاء جمعية الاتحاد والترقي ـ يحكمون البلاد قبل واقعة ٣١ آذار بصورة غير مباشرة ، فلما وقعت الواقعة وانتصروا فيها على خصومهم صاروا يحكمون بصورة مباشرة ، وأخذوا يصدرون القوانين والانظمة لاصلاح الدولة حسبما يتراءى لهم • وكان من جملة القوانين التي أصدروها « قانون التنسيقات » والقصد منه تطهير أجهزة الدولة من الموظفين المتفسخين ، وكذلك أصدروا قانونا ألغوا فيه عبارات التفخيم المبالغ فيها التي كانت تستعمل في المراسيم والمراسلات الرسمية ، كما أصدروا قانونا ساووا فيه بين المسلمين وغير المسلمين في التجنيد الاجباري وهو بخلاف القانون القديم الذي كان يستثني غير المسلمين من التجنيد ويفرض عليهم البدل النقدي •

ظل الاتحاديون يعملون على هذا المنوال زهاء سنتين دون أن يعترض طريقهم عارض جدي يربك جهودهم ، وكان التفاؤل آنذاك سائدا بينهم اذ كانوا يحسبون أنهم سينقذون الدولة العثمانية من مرضها العضال قريبا ويسيرون بها في مضمار الحضارة الحديثة • وبينما هم في تفاؤلهم فوجئوا في ٢٧ ايلول ١٩١١ بانذار قدمته اليهم ايطاليا أمده أربع وعشرون ساعة ، وبدون انتظار للجواب أرسلت ايطاليا أسطولها الى سواحل طرابلس الغرب ـ أي ليبيا الحالية ـ فأنزلت فيها قوات عسكرية كبيرة واحتلت أهم مدنها الساحلية كطرابلس ودرنه وبنغازي خلال أيام معدودة •

قررت الحكومة العثمانية أن تحارب ايطاليا بكل مالديها من قوة ، ولكن مشكلة قامت في وجهها هي عدم توفر اسطول بحري لديها لنقل الجنود الى طرابلس الغرب ، مع العلم أن الاسطول الايطالي كان مسيطرا على البحر • واضطرت الحكومة أن تضع خطة حربية من نوع خاص : هي

أن يذهب جماعات من الضباط بملابسهم المدنية وبصورة سرية فيدخلوا طرابلس الغرب شرقا عن طريق مصر ، وغربا عن طريق تونس ، ثم يتولوا هناك أمر تكوين جيش محلي من أهل البلاد .

الواقع ان هذه الخطة نجحت عند تطبيقها ، فأنزلت بالايطاليين خسائر فادحة وحالت دون تقدمهم من المدن الساحلية نحو داخل البلاد[٤١] . وكان أنور بك — وهو الذي اشتهر فيما بعد باسم أنور باشا — من أول الضباط الذين تطوعوا للذهاب الى طرابلس الغرب من أجل تحقيق تلك الخطة ، وقد تطوع معه في ذلك مصطفى كمال الذي صار فيما بعد اول رئيس للجمهورية التركية ، وعزيز علي المصري ، وبضعة ضباط عراقيين كان منهم تحسين العسكري وصبحي الطرابلسي ومحمود حلمي وعيسى الوتري وسعيد المدفعي واسماعيل الطرابلسي ، وهؤلاء كانوا ضباطا صغارا قد تخرجوا حديثا من الكلية العسكرية في اسطنبول .

يحدثنا تحسين العسكري عن الطريقة التي وصل بها الى طرابلس الغرب فقال : انه تنكر باسم حسن العطار من أهالي حماه ، وركب باخرة رومانية الى الاسكندرية ، وقد اعترضت طريق الباخرة سفينة حربية ايطالية فأطلقت طلقة واحدة في الهواء على سبيل الانذار ثم صعد رجالها لتفتيش الباخرة خشية أن يكون فيها جنود أو ذخائر عثمانية . وقد نجا تحسين العسكري ورفاقه على أي حال فوصلوا الى الاسكندرية في ٢ آيار ١٩١٢، ومن هناك ذهبوا الى طرابلس عن طريق الصحراء[٤٢] .

كان أنور بك قد نشر دعوة « الجهاد » بين القبائل السنوسية ، ونجحت دعوته فيهم فانضموا اليه بحماس بالغ واعتبروه ممثل الخليفة الشرعي في جهاد الكافرين . وقد اتخذ هو لنفسه خيمة فخمة مفروشة بالسجاد ومبطنة بالجوخ والاصواف المزركشة ، فكان يستقبل فيها رؤساء القبائل ويستمع الى آرائهم ، وأصبح له بينهم نفوذ عظيم

---

(٤١) ساطع الحصري (المصدر السابق) — ص ١١٥ .

(٤٢) تحسين العسكري (الثورة العربية الكبرى) — بغداد ١٩٣٦ — ج١ ص ١٥ — ١٨ .

واسم لامع .

ولم تخل الحرب في طرابلس الغرب من بعض المشاكل التي أثارها الحسد والتنافس بين الضباط الاتراك . ذكر المؤرخ أرمسترونج : ان مصطفى كمال كان ينفس على أنور تلك الابهة والنفوذ الذي ناله بين القبائل فصار يكثر من انتقاده وتسفيه آرائه ، وقد ازداد التوتر بينهما بمرور الايام حتى صارا يتشاجران علنا . كان انور يتحمس للمشروعات الضخمة والخطط الجبارة من غير أن يعبأ بالتفصيلات او الحقائق او الارقام بينما كان مصطفى كمال على النقيض من ذلك شديد الحذر لا يجري وراء الاحلام العريضة انما يسعى الى أهدافه بعد أن يمعن فيها النظر طويلا ويقلبها على شتى وجوهها ، ولم يكن يميل الى استمالة العرب او الاجانب بل كان معتداً بتركيته الى حد احتقار كل ما عداها . ثم انتهى الامر بمصطفى كمال أن لاذ بخيمته الصغيرة التي كان يعيش فيها معيشة خشنة مثل معيشة جنوده[٤٣] .

ويبدو ان شيئا من التحاسد والتنافس ظهر كذلك بين أنور وعزيز علي المصري مما كان له أثره في الحوادث التي جرت في اسطنبول في عام ١٩١٣ كما سنأتي اليه في فصل قادم .

مهما يكن الحال فقد استمرت الحرب أحد عشر شهرا ، وقد جلب الايطاليون خلالها نجدات كثيرة فدعموا بها مراكزهم على السواحل غير أنهم لم يستطيعوا التقدم نحو الداخل . والظاهر أنهم أرادوا أن يعوضوا عن فشلهم هذا عن طريق تفوقهم في البحر ، فاحتلوا جزيرة ردوس وجزائر الدوديكانيز في بحر ايجه ، وحاصروا مضيق الدردنيل[٤٤] ، كما قصفوا سفينتين عثمانيتين في ميناء بيروت فأغرقوها ، وقتل من جراء ذلك سبعون شخصا وجرح نحو مائتين . وقد نظم الشعراء العرب في هذه الواقعة قصائد كثيرة يشكون الى الله فيها مما أصابهم على يد الظالمين .

---

(٤٣) هـ . س . ارمسترونج (المصدر السابق) ــ ص ٤٣ ــ ٤٤ .

(44) William Yale (op . cit .) — P 178

SS

بين الاتحاديين والائتلافيين :

في الوقت الذي كانت فيه المعارك الحربية تدور على سواحل طرابلس الغرب كانت المعارك الكلامية تدور في اسطنبول على صفحات الجرائد وفي جلسات مجلس المبعوثين . فقد نشأت تجاه الحكومة آنذاك معارضة شديدة وأخذت تشن حملاتها الضارية عليها .

كانت المعارضة تتهم الحكومة بأنها لم تهتم بتحصين طرابلس الغرب مع علمها بأطماع ايطاليا فيها ، وكان اكثر الهجوم منصبا على الصدر الاعظم حقي باشا حيث كانت المعارضة تتهمه بأنه محب لايطاليا بتأثير زوجته الايطالية وأنه كان شغوفا بارتياد النوادي الايطالية باسطنبول يتعاطى القمار فيها مع أصدقائه الايطاليين ويخضع لسلطان الذهب(٤٥) .

استقالت وزارة حقي باشا وحلت محلها وزارة أخرى غير أن المعارضة لم تخمد حدتها بل ظلت تواصل حملاتها على الحكومة . وفي ٨ تشرين الثاني ١٩١١ تأسس حزب ضم معظم المعارضين باسم « جمعية الحرية والائتلاف » ، وبهذا بدأ الصراع الحزبي المشهور بين الاتحاديين والائتلافيين .

كانت جمعية الحرية والائتلاف تضم بين صفوفها بعض الامراء ورجال الدولة القدماء الذين يمثلون اتجاها يمينياً في السياسة العثمانية ، وكان المبدأ الذي نادوا به هو « اللامركزية » أي منح الولايات العثمانية شيئاً من الاستقلال الاداري لكي تتصرف به حسب حاجاتها وظروفها الخاصة دون الرجوع الى المركز أي عاصمة الدولة .

أما الاتحاديون فكانوا يدعون أنهم أصحاب الحق في البلاد لما بذلوه من تضحيات ، وكانوا يتهمون الائتلافيين بأنهم من الرجعيين الذين قضى العهد الجديد على مصالحهم . وكان الائتلافيون يردون هذه التهمة بتهمة مضادة هي أن الاتحاديين شبان أغرار يضرون البلاد بحماسهم من حيث يظنون أنهم ينفعونها .

بلغ الخصام بين الفريقين في مجلس المبعوثين الى الدرجة القصوى ،

---

(٤٥) توفيق علي برو (المصدر السابق) ــ ص ٣٣٠ .

مما اضطر الاتحاديين الى اصدار فرمان سلطاني بحل المجلس واجـــراء انتخابات جديدة . وقد جرت الانتخابات في ربيع ١٩١٢ وكان فيها الصراع عنيفا بين الاتحاديين والائتلافيين . وكانت تلك أول مرة يشهد النـــاس في البلاد العثمانية انتخابا بهذه الصورة . واستطاعت الحكومة الاتحادية أخيرا أن تنجح فيه حيث لم يفز من خصومها سوى أربعة مبعوثين .

لم تدم فرحة الحكومة الاتحادية بنجاحها فـي الانتخـاب طويـلا ، فقد تراكمت المشاكل عليها حتى اضطرت فى ٢٢ تموز أن تستقيل . وألف الائتلافيون وزارة جديدة وأسرعوا الى حل مجلس المبعوثين الذي لـم يمض على افتتاحه سوى أربعة أشهر[٤٦] .

حرب البلقـان :

كانت دول البلقان تريد اغتنام فرصة انشغال الدولة العثمانية بحرب طرابلس الغرب لكي تعلن الحرب عليها ، وكانت المفاوضات تجري سرا بين الدول البلقانية في هذا السبيل ، وقد أدركت الحكومة الائتلافية ذلك ورأت من الضروري أن تعقد الصلح مع ايطاليا لكي تتفرغ للحرب المتوقعـــة مع دول البلقان .

جرت المفاوضات بين المندوبين العثمانيين والايطاليين في سويسرا ، وفي ١٨ تشرين الاول ١٩١٢ تم عقد معاهدة الصلح بين الدولتين تقرر فيها تنازل الدولة العثمانية عن طرابلس الغــرب الى ايطاليا على شرط أن تبقى سلطتها الدينية على المسلمين هناك محفوظـة حيث يحق للسـلطان تعيين موظفين شرعيين لهم[٤٧] .

ومما يلفت النظر في هذا الشأن أن دول البلقان أعلنت الحرب علـى الدولة العثمانية قبل يوم واحد من التوقيع على معاهدة الصلح تلك[٤٨]، وشرعت جيوش بلغاريا واليونان وصربيا والجبل الاسود تهاجـم الحدود

---

(٤٦) سليمان موسى (الحركة العربية) ـ بيروت ١٩٧٠ ـ ص ٢٩ .

(47) Carl Brockelmann (History of The Islamic Peoples) New York — P 385 .

(48) William Yale (op . cit .) — P 188

العثمانية كأنها كانت مستعدة لذلك منذ زمن بعيد • وبذا بدأت حرب ضروس تعد من أبشع الحروب في ضراوتها وفي المآسي التي تنجت عنها •

كانت الحدود العثمانية قبل بدء الحرب تمتد غربا حتى ساحل بحر الادرياتيك ، وقد أخذت الجيوش البلقانية تهاجم تلك الحدود كل جيش من جبهته الخاصة به حسب خطة موحدة متقنة • وصارت الجيوش العثمانية تمنى بالهزائم الفظيعة مرة بعد أخرى بشكل لم يحدث له مثيل في جميع أطوار التاريخ العثماني •

من أفظع الهزائم التي مني بها الجيش العثماني تلك التي وقعت قرب مدينة قرق كليسه في الجبهة البلغارية في ٢٣ تشرين الاول ١٩١٢ ، فقد ساد الرعب على الجنود فيها بشكل يصعب تصديقه وصاروا يفرون على وجوههم لا يلوون على شيء ، وأخذ قسم منهم من شدة رعبهم يطلقون الرصاص بعضهم على بعض(٤٩) •

وفي ٣١ تشرين الاول وقعت هزيمة أخرى قرب لوله برغاز ، فكانت هزيمة حاسمة اذ تقهقر الجيش العثماني بلا نظام ، ولم يقف الا عند خط شطالجة الذي يحمي اسطنبول وهو على بعد عشرين ميلا عنها ، وصار سكان اسطنبول يسمعون هدير المدافع ، وانتشرت الاشاعات المرجفة بينهم ، وبدأ الناس يتساءلون : متى تسقط اسطنبول ؟ ! وأرسلت الدول الاوربية سفنها الحربية الى مياه اسطنبول • وأنزلت تلك السفن جنودا لحماية أحياء الاوربيين والبنوك والسفارات • وذهب سفراء الدول الى الصدر الاعظم كامل باشا لمفاتحته في موضوع الامن في اسطنبول فقال لهم : « اني سأدافع عن النظام في الاستانة حتى النهاية ، أما اذا سمحت الدول بغزو الاستانة واستولى اليأس على الاهالي فاني ألقي تبعة ما يجري حينئذ على وجدان أوربا • ولا تحسبوا أنني أترك الاستانة مع سلطاني ، فهو يفضل أن يقتل في قصره وأنا أفضل أن أقتل في ديواني على مزايلة الاستانة » (٥٠) •

---

(٤٩) يوسف البستاني (تاريخ حرب البلقان) ــ القاهرة ــ ص ٩١ ــ ٩٣ .
(٥٠) المصدر السابق ــ ص ١٠٩ .

يمكن تعليل هذه الهزائم التي مني بها الجيش العثماني في حرب البلقان بعدة أسباب نذكر منها بعضها فيما يلي :

اولا : كانت الدول البلقانية تستعد للحرب منذ زمن غير قصير ، واستطاعت أن تنظم جيوشها على أساس حديث ، أما العثمانيون فلم يدركوا الخطر الآتي اليهم من هذه الجهة وكانوا واثقين بالجندي التركي الذي في الواقع من أعظم جنود العالم في شجاعته وقوة صموده ولكن هذا الجندي لا يكفي وحده لنيل النصر بل لابد أن يكون لديه تموين كاف وطرق مواصلات صالحة وضباط أكفاء وسلاح جيد . قيل ان أشد ما كان يعانيه الجندي التركي في حرب البلقان هو البرد والجوع ، وكانت لفظة «أكمك» التركية ـ أي الخبز ـ لا تفارق أفواههم ، وقد تمضى على البعض منهم أربعة أيام دون أن يأكل فيها شيئا أو يأكل شيئا قليلا لا يكفيه .

ثانيا : كان الاتحاديون قد أصدروا قانونا للتجنيد ساووا فيه بين المسلمين وغير المسلمين كما أشرنا اليه آنفا ، ولهذا فقد تجند في الجيش العثماني الكثير من المسحيين الذين كانوا معفيين من التجنيد سابقا كالبلغار والروم والصرب ، وحين نشبت حرب البلقان كان هؤلاء يطلقون رصاصهم في الهواء اذ لم يكن يهون عليهم أن يصوبوا بنادقهم على أبناء عمومتهم من بني قومهم ودينهم ، وكانوا أول الفارين من صفوف الجيش عندما تلوح بارقة النصر في جانب أبناء عمومتهم .

ثالثا : ان الصراع الحزبي الذي كان مستفحلا بين رجال الدولة في اسطنبول قد ألهاهم عن توحيد الجهود ضد عدوهم المشترك ، وقيل ان ذلك الصراع قد سرت عدواه الى الضباط في جبهة الحرب . كتب مراسل جريدة الطان الباريسية يقول : « ان عقارب السياسة كانت تسعى الى قلوب الضباط فتنفث سمها في عواطف الالفة وتصرف الضابط عن واجبه المقدس ، فكنت ترى الضابط الصغير ينظر بعين الحقد الى رئيسه اذا كان من غير حزبه ، وربما استخف بأوامره . وقد أكد لنا ضابط كبير من أركان الحرب أن الشقاق والتنازع كانا واقعين بين كبار القواد قبيل

المعركة الكبرى في تراقيا »[٥١] .

انواع المآسي :

لم يقفه الامر عند حد الهزائم الشنعاء بل تعداه الى كوارث اخــــرى أبشع منها ، فقد كان في البلقان مسلمون كثيرون ، وقد فر قسم كبير منهم من ويلات الحرب والتجأوا الى اسطنبول أو غيرها من المدن القريبــة من ساحات القتال وهم في حالة يرثى لها وانتشرت بينهم المجاعة والاوبئة .

كان في مدينة أدرنة نحو خمسين ألفه مسلم محاصرين وهم علــى وشك الموت جوعا ، وفي سلانيك نحو مائة ألف لاجيء . أما في اسطنبول فكان عدد اللاجئين اليها مائة وثلاثين الفا ولم يكن أكثرهم يملكون ما يقوتون به أنفسهم وعائلاتهم[٥٢] ، وكان فيهم الكثير من النساء والاطفـــال . وازدحمت اسطنبول بالجرحى فغصت بهم المستشفيات والكنائس والجوامع والدور الخاصة ، وأصبحت النواحي المحيطة بالمدينة حاشدة بمعسكرات اللاجئين ، وانهار نظام التموين ، ومــات الالوف بالــكوليرا والتيفوس ، وألوف غيرهم من الجوع والبرد[٥٣] .

والغريب ان اسطنبول في الوقت الذي كانت فيه زاخرة بالمآسى على النحو الذي ذكرناه كانت الفنادق الافرنجية فيها وحارات الاروام والاجانب تسير في حياتها المألوفة كأن الامر لا يعنيها ، وكانت صالات الرقص صاخبة على عادتها « فكنت ترى الجرحى المرتجفين بردا المتقمين لونا يسيرون في جهات (بيرا) على ألحان الموسيقات وخطرات الراقصين والراقصات ، بل كنت ترى ما هو أقبح من ذلك كله ، ترى أناساً يرقبون أخبار فشــل الجيش ليذيعوها في الانحاء ، وبعضهم كان يستنبطها[٥٤] ... »

وقد جرت في بعض القرى البلقانية القريبة من ساحات القتال مآس أبشع من مآسى المهاجرين ، فقد انثال الجنود البلقانيون وأفراد عصاباتهم

---

(٥١) المصدر السابق ــ ص ٢٢١ .
(٥٢) شكيب ارسلان (المصدر السابق) ــ ص ٩٠ ــ ٩٣ .
(٥٣) هـ . س . أرمسترونج (المصدر السابق) ــ ص ٤٥ ــ ٤٦ .
(٥٤) يوسفه البستاني (المصدر السابق) ــ ص ١٠٧ .

على المسلمين هناك وصاروا يذبحون فيهم وينتهكون حرمات نسـائهم كما يشتهون . والظاهر أن هؤلاء الجنود وأفراد العصابات ارادوا أن ينتقموا لما كان الاتراك يفعلون بهم في الماضى ولكنهم تفوقوا عليهم . قال أحـد الـكتاب في وصف تلك المذابح : « انه اذا صحت جميع أخبـارها فـان البلقانيين ارتكبوا في خمسة أشهر بقـدر ما ارتكبه الباشبزق والجنـود التركية في خمسة قرون » . وأرسل كاتب بريطاني الى جريدة التايمـس اللندنية يقول : « الواقع اذا صحت الانباء التي وصلتني ــ وليس هنـاك ما يحملني على الارتياب في صحتها البتة ــ أن أفظع المذابح في العصور الحديثة تجرى باسم المسيحية ... ولا ريب أن سكوتنا عن تلك الفضائع الهائلة يقع أسوأ وقع في صدر كل مسلم يعلم قيامنا وقعودنا مـن جـراء مذابح محلية صغيرة أقدم عليها الاكراد او الالبان ... »[٥٥]

ومن الجدير بالذكر ان اخبار تلك المآسى كان لها وقع شديد فـي مختلف أنحاء العالم الاسلامي . يقـال ان الكثير من المسـلمين فـي الهند كانوا يحيون الليالي بالبكاء والتضرع في المساجد ، وأخذ أهل كل بلـدة منهم يجمعون ما يستطيعون من المال ويرسلونه الى اسطنبول اغاثة للاجئين فيها واعانة للجيش العثماني . وكانت مصر من اكثر البلاد الاسلامية حماسا وبذلا في هذا السبيل . يقول يوسف البستاني : انه يعرف أناسا فـي مصر باتوا على الطوى يوم ورد خبر معركة لوله برغاز[٥٦] . وتألفت لجنـة برئاسة الامير عمر طوسون لجمع التبرعات ، فجمعت ما يقرب من اربعمائة الف جنيه[٥٧] ، وأرسلت جمعية الهلال الاحمر المصرية سبع بعثـات الـى اسطنبول لاغاثة الجرحى واللاجئين[٥٨] ...

انقلاب اتحادي :

ان من سوء حظ الأئتلافيين ان تلك المآسى والهزائم وقعت اثنـاء

---

(٥٥) المصدر السابق ــ ص ١٨٧ ــ ١٩٥ .
(٥٦) المصدر السابق ــ ص ٢٠٦ .
(٥٧) شكيب أرسلان (المصدر السابق) ــ ص ٨٩ .
(٥٨) يوسف البستاني (المصدر السابق) ــ ص ٢١١ .

توليهم الحكم • وفي ٣ كانون الاول ١٩١٢ تم عقد هدنة في البلقـــان بتوسط من الدول الكبرى ، ثم جرت المفاوضات في لندن بين منــدوبي الدولة العثمانية ودول البلقان • وقد أصرت دول البلقان على أخذ أدرنــة وكانت هذه المدينة يومذاك محاصرة من قبل القوات البلغارية ، فرفضت الدولة العثمانية تسليمها ، وكادت المفاوضة تنقطع من جراء ذلك ويعــود الفريقان الى الحرب •

كان كامل باشا يرأس الحكومة العثمانية آنذاك وهو شيخ محنــك ضرسته التجارب ، والظاهر أنه وجد نفسه في موقف حرج ، فهو يخشــى الرأي العام في حالة موافقته على تسليم أدرنة ، وهو يخشى سوء المغبة فــي حالة رفضه ذلك • وارتأى أخيرا أن يدعو اليه كبار رجال الدولة فــي مؤتمر وطني عام ليشاورهم فى الامر ، وقد انعقد المؤتمر فــي قصــر « دولمة باغجة » فى ٢٢ كانون الثاني ١٩١٣ حضره ولي العهــد يوسـف عزالدين أفندي وعدد من الامراء وشيوخ الساسة والقواد ، ولكن زعماء الاتحاديين لــم يحضروه بالرغم من توجيه الدعوة اليهم وكأنهم كانوا غير راضين عن عقده • كان عدد الحاضرين في المؤتمر ستة وستين ، وقد وافقوا كلهم على تسليم أدرنة ماعدا واحدا منهم لم يوافق •

وفي اليوم التالي انعقد مجلس الوزراء في الباب العالي للنظر فــي كتابة الجواب الى لندن حسبما وافق عليه المؤتمر الوطني ، وبينما كــان الوزراء يتداولون فيما بينهم سمعوا أصوات مظاهرة صاخبة في الخارج ، وكان المتظاهرون يرفعون الاعلام وينشدون الاناشيد الحماسية ويهتفون بالعبارات التالية : يحيى الحرب ! لا نريد صلحاً يشين سمعة الوطن ! نريد الحرب ! نريد الحرب التي تشرف الوطن ! [٥٩] •

ودخل نفر من المتظاهرين الى مجلس الوزراء يهتفون فخرج اليهــم وزير الحربية الفريق ناظم باشا وهو غاضب فأخذ ينتهرهم ، فأطلق عليــه أحدهم رصاصة أردته قتيلاً ، والشائع أن القاتل هو أنور بك ، ثم تبودل الرصاص في المدخل فقتل به اثنان من المتظاهرين وســتة من الحــراس

---

(٥٩) احمد عزت الاعظمي (القضية العربية) ـ بغداد ١٩٣١ ـ ج ٢ ص ٨٠ •

والمرافقين • وتقدم أحد المتظاهرين وكان ضابطا نحو الصدر الاعظم كامل باشا وقال له : ان الخواطر هائجة هياجا عظيما خارج الباب العالي والجدير بك أن تكتب استقالتك • فاضطر الصدر الاعظم الى كتابة استقالته • ثم صدر الفرمان السلطاني من بعد ذلك بتعيين محمود شوكت باشا صدرا أعظم ، وقام هذا بتأليف وزارة اتحادية •

الهزائم من جديد :

في ٣ شباط ١٩١٣ ــ أي بعد أحد عشر يوما من تأليف الوزارة الاتحادية ــ عادت الحرب من جديد الى جميع الجبهات البلقانية ، وعادت الهزائم أيضا الى الجيش العثماني •

وفي ٢٦ آذار استطاع الجيش البلغاري أن يحتل أدرنه فانهى بذلك حصارها الطويل ، فغنم فيها مئات المدافع وأسر نحو أربعين ألف رجل ، كما استسلم له قائد الحامية الغازي شكري باشا • وعندما دخل المنتصرون الى أدرنه أخذوا ينهبون ويقتلون كما هي عادة المنتصرين في البلاد المفتوحة، قالت جريدة « لوكال انزيجر » في وصفه المدينة بعد سقوطها : « انها كانت هائجة مائجة ، وكان البلغاريون والاروام يهجمون على بيوت المسلمين فينهبون ويسلبون ويرمون من قاومهم بالرصاص حتى كنت ترى جثث القتلى متراكمة في الشوارع[٦٠] » •

كان الالم بالغاً في اسطنبول عند ورود الخبر اليها بسقوط أدرنه ، واهتزت أوربا للخبر أيضاً ، فقد خافت الدول الكبرى أن يرسل البلغار المائة الف جندي الذين كانوا مشغولين بحصار أدرنة الى خطوط شطالجة فيقتحموها ويدخلوا اسطنبول عنوة ، وتنفتح بذلك مشكلة عالمية يصعب حلها •

أسرعت الدول للتوسط بين الفريقين المتحاربين • وفي ٢٣ أيار تم عقد معاهدة الصلح بينهما في لندن • وقد رضخت الوزارة الاتحادية أخيرا للأمر الواقع فتنازلت عن أدرنه ووافقت على جميع المطاليب التي طلبها

---

(٦٠) يوسف البستاني (المصدر السابق) ــ ص ١٣١ .

المتصرون • وانتهز الائتلافيون الفرصة وأخذوا يشنعون في الصحف على الوزارة الاتحادية وكيف أنها رضيت بشروط أشد واثقل من تلك الشروط التي رضيت بها وزارة كامل باشا من قبل • فرد الاتحاديون عليهم بقولهم: « ان الدولة التي تقع في خطر يجب عليها أن تدافع عن نفسها ما دامت تجد للدفاع سبيلاً ، حتى اذا فازت استرجعت ما فقدت مع الفخر ، واذا فشلت أنقذت شرف سيفها وشهد لها التاريخ بأنها فعلت كل ما استطاعت[٦١] » •

الاتحاديون يسيطرون :

في صباح ١٢ حزيران ١٩١٣ بينما كان الصدر الاعظم محمود شوكت باشا راكبا سيارته متوجها بها نحو الباب العالي شاهد جمعا كبيرا من الناس وهي يسيرون وراء نعش • فوقفت سيارة الصدر الاعظم انتظارا لمرور النعش والمشيعين الذين وراءه ، ولكن النعش لم يمر بل أنزله المشيعون الى الارض فجأة وصاروا يطلقون الرصاص على الصدر الاعظم ، فخر هذا صريعاً كما خر معه أحد مرافقيه • ثم هرب المشيعون تاركين النعش وحده على الارض ، وتبين ان النعش كان فارغاً !

شاع في حينه ان الائتلافيين هم الذين دبروا الحادث لكي يثأروا به لمقتل ناظم باشا • غير أن بعض القرائن تشير الى أن الاتحاديين هم الذين دبروا الحادث ، أو كانوا على الاقل يعلمون به ولم يمنعوه ، لكي يتخذوا منه قميص عثمان وينتقموا به من خصومهم • والواقع أن الاتحاديين استفادوا من مقتل محمود شوكت باشا استفادة كبيرة دعموا بها موقفهم ، واستطاعوا من بعد ذلك أن يستأثروا بالحكم دون أن يجرأ أحد على معارضتهم •

قام الاتحاديون باجراء تحقيق شديد قصدوا به مطاردة خصومهم وارهابهم ، وصدر الحكم أخيرا باعدام ثلاثة عشر رجلا من زعماء الائتلافيين بتهمة اشتراكهم في مقتل محمود شوكت باشا ، وكان من بين هؤلاء المحكوم عليهم الداماد صالح باشا زوج منيرة سلطان احدى أميرات البيت المالك ، وذهبت الاميرة الى السلطان محمد الخامس تبكي وتتضرع

---

(٦١) المصدر السابق — ص ٢٣٩ •

لديه لكي لا يصادق على اعدام زوجها • ويقال ان السلطان اخذ يبكـــي معها غير انه لم يستطيع أن يفعل لها شيئاً • وتم اعدام زوجها مع الآخرين !

وفي الوقت الذي كان فيه الاتحاديون يكيلون لخصومهم الضربات القاصمة ، أخذ النزاع يدب بين دول البلقان من جراء اختلافهم على اقتسام المناطق الواسعة التي فتحوها ، ثم أشهروا الحرب بعضهم على بعض • واغتنم الاتحاديون تلك الفرصة فاوعزوا الى القوات العثمانية باجتياز الحـــدود التي وضعتها معاهدة لندن وبالتقدم نحو أدرنه لاحتلالها • وفي ٢٢ تموز ١٩١٣ دخل أنور على رأس القوات العثمانية الى أدرنه فاتحا ، وكان دخوله اليها رائعا حيث كانت الاعلام ترفرف فوق رأسه ، والطبول تدق ، والطريق مفروشة بأغصان الزيتون(٦٢) •

ان استرجاع أدرنه دعم موقف الاتحاديين تجاه خصومهم الأئتلافيين دعماً لا يستهان به ، كما خفت عن الجيش العثماني لطخة العار التي لحقت به على أثر هزائمه المنكرة في حرب البلقان •

انور دكتاتورا :

عندما دخل أنور بك أدرنة فاتحا أضاف بذلك بطولة أخـــرى الى تلك التي قام بها في طرابلس الغرب قبل عامين ، ويمكن أن نضيفه الى هاتين البطولتين بطولة ثالثة هي قتله لناظم باشا وان كان انور بك لا يعترف بها أمام الرأي العام •

ولم يمض على استرجاع أدرنه سوى مدة قصيرة حتى تبوأ أنور بك وزارة الحربية ، وحصل على لقب « باشا » ، ثم تزوج بأميرة من البيـــت المالك هي أخت زوجة المرحوم صالح باشا • وقد جرت حفلة زواجه بشكل لم يسبق له مثيل في قصور آل عثمان(٦٣) •

ان هذا النجاح المذهل الذي ناله أنور في خلال سنوات ــ حيث تحول به من ضابط صغير الى وزير وباشا وداماد ــ جعله مغرورا يحسب ان الدنيا

---

(٦٢) هـ • س • ارمسترونج (المصدر السابق) ــ ص ٤٩ •
(٦٣) خالد محسن اسماعيل (قلم وزير) ــ بغداد ١٩٧٠ ــ ص ٤٨

كلما أصبحت طوع يده • انه كان يومذاك في الواحدة والثلاثين من عمره جميل المحيا مفتول الشاربين ، وقد علق صورة نابليون على جدار غرفته ليشير بذلك الى أنه نابليون تركيا وصار اصدقاؤه يدعونه « نابليونلك » أي نابليون الصغير(٦٤) •

كان أقوى زعماء الاتحاديين في تلك الآونة ثلاثة هم طلعت وأنور وجمال ، وكان أنور أقواهم جميعا فصار الشخصية المسيطرة في اسطنبول • ومما يجدر ذكره أن أنور — ولنسمه الآن أنور باشا — كان ميالاً الى ألمانيا معجباً بنظام جيشها واثقا أنه جيش لا يغلبه أي جيش آخر في العالم ، فأخذ يسعى نحو توثيق العلاقة بين المانيا والدولة العثمانية بكل جهده •

وفي أواخر ١٩١٣ وصل الى اسطنبول قائد الماني هو الجنرال ليمان فون ساندرس مع بعثة عسكرية كبيرة لتنظيم الجيش العثماني وتدريبه ، ومنح سلطة تنفيذية واسعة ، ثم صار الضباط والمعدات تنهال على تركيا في الاشهر الاولى من عام ١٩١٤ ، وبدأت المفاوضات تجري بين أنور باشا والسفير الالماني لعقد معاهدة تحالف بين الدولتين(٦٥) • وعندما أعلنت الحرب العالمية الاولى استطاع أنور باشا وأعوانه أن يدخلوا الدولة العثمانية فيها الى جانب المانيا • وقد كان أنور باشا موقناً بأن الدولة العثمانية ستفوز فى هذه الحرب بالمجد والعظمة وسيصل هو بذلك الى أعظم ما وصل اليه انسان في التاريخ •

يصف القائد التركي علي فؤاد شخصية أنور باشا على أثر مقابلته له بعد اعلان الحرب فيقول : انه كان قبل ذلك شاباً كريم الخلق ، لين الجانب، رقيق الوجه ، وقد انقلب الآن الى دكتاتور تلوح عليه مخايل حاكم قاهر فغاضت بشاشته واكفهرت أسارير وجهه وقر قراره على أن يفعل ما فعل قيصر • ويضيف علي فؤاد الى ذلك قائلاً : « وكان أنور باشا يرى أن الله خلقه ليجري على يديه بعض خوارق العادات ، ولا يخالجه شك

---

(٦٤) هنري مورغنتو (مذكرات سفير امريكا في الاستانة) — ترجمة فؤاد صروف — القاهرة ١٩٢٣ — ص ١٢ •

(65)G . J . S . Eversley (op . cit .) — P 374

في ذلك ، ويرى ان هذه الحرب هي أفضل وسيلة ينبغي التوسل بها ليبلغ مطامحه وشهواته ، وينفذ تلك الخوارق التي قدر لها أن تجري على يديه، وفي الحرب نجم الحاكم القاهر الشاب ، وفيها الواجب الذي اعتقد انه أنزل عليه بقضاء وقدر • وغاية هذه الحياة عنده هي أن يموت ميتة مذكورة ، ولكن قبل أن يموت يجب أن يحمل برؤوس الحراب حملات عنيفة يقيم سوق المنايا ويقعدها ، وكل شيء هين عليه بعد حملات الحراب ، لأن تاريخ العالم لا يكتب الا برؤوسها[66] » •

عانت البلاد العثمانية أثناء الحرب العالمية الاولى أبشع الويلات وأفظعها ، فحلت بها المجاعات ، وانتهكت منها الحرمات ، وكثر فيها الثكالى والايتام والارامل ، كل ذلك لأن أنور باشا وبعض المغرورين من أمثاله أرادوا أن يشيدوا لهم مجدا • وليس هذا بالامر النادر او الغريب ، فمعظم كوارث التاريخ وويلاته انما نشأت بمثل هذا السبب — مع الاسف الشديد !

---

(٦٦) علي فؤاد (كيف غزونا مصر) — ترجمة نجيب الارمنازي — بيروت ١٩٦٢ — ص ٢٦ — ٣٨ •

الفصل السادس

احداث العراق

في عهد الدستور

فوجىء أهل بغداد في يوم ٢٤ نيسان ١٩٠٨ بأمر جذب انتباههم هو ظهور معالم الزينة على دوائر الحكومة ، وكان الافندية في حركة يتحدثون مستبشرين ، وقد رفعت أعلام كتب عليها بالقلم العريض « حريت عدالت مساوات أخوت » . وأخذ الاهالي يتساءلون عما جرى فقيل لهم أن ان السلطان أمر باعادة الدستور .

يقول توفيق السويدي في مذكراته ــ وكان يومذاك في بغداد قد أنهى دراسته الثانوية ــ : ان أهل العراق كانوا لا يعرفون شيئاً عن تلك المفاهيم ولا يحيطون حتى بجزء من مغازيها ، والمفهوم الوحيد الذي كان ظاهرا لدى الجمهور هو أن هذا العهد الجديد سيجعل المسلم وغير المسلم اخوانا في الوطن وأنه سيحد من سلطة السلطان عبدالحميد ، وهذا ما لا يرضاه أحد منهم[1] ...

لقد كانت هناك فئتان فرحتا باعلان الدستور حقاً : احداهما فئة الافندية الذين كانوا منتمين الى جمعية الاتحاد والترقي قبل اعلان الدستور، أو كانوا مؤيدين لها في قلوبهم ، وهؤلاء كانوا قليلين ومعظمهم من الاتراك. أما الفئة الثانية فهي التي كانت تتألف من أتباع الملا كاظم الخراساني أي دعاة « المشروطية » ، وهؤلاء كانوا يمثلون الاقلية بين الشيعة وكان العامة يعتبرونهم زنادقة على نحو ما ذكرناه في فصل سابق .

حين نقارن وضع العراقيين تجاه اعلان الدستور بسكان بعض البلاد

(١) توفيق السويدي (مذكراتي) ــ بيروت ١٩٦٩ ــ ص ١٦ ، ١٩ .

العثمانية الاخرى كالشام وتركيه نجد فرقا كبيرا ، فقد كان الفرح في العراق محدودا ضعيفا بينما في البلاد الاخرى عاما شديدا . ويمكن تعليل ذلك بان البلاد الاخرى كانت تتميز بالصراع الطائفي العنيف بين المسلمين وغير المسلمين ولهذا رأيناهم يظهرون الفرح بالدستور لكي يدلوا به على أنهم أصبحوا اخوانا . أما في العراق فقد كان الصراع الطائفي محصورا فيما بين المسلمين أنفسهم ، وهم لذلك لم يجدوا في اعلان الدستور ما يخفف من داء الطائفية فيهم الا قليلا .

التحرر من القيود :

الواقع ان بغداد شهدت عند اعلان الدستور ظاهرة اخرى غير ظاهرة الفرح هي ظاهرة الانطلاق في السلوك العام والتحرر من القيود التقليدية لدى الكثير من الشبان ، وقد تمثل ذلك في ثلاثة أمور هي : كثرة انتشار الاسلحة ، وانتشار الملاهي ، واستفحال الشتائم الصحافية .

روى شاهد عيان عما جرى في بغداد يومذاك فقال : ان بغداد أصبحت شبه معرض لانواع الاسلحة حيث كانت تباع هذه الاسلحة على مشهد من رجال الحكومة ، فأينما تسير في الاسواق تجد الاسلحة النارية ظاهرة للعيان ، وكان أغلبها مسدسات وهي على انواع ، وكذلك انواع الخناجر والسيوف والبنادق[٢] ويبدو أن أشقياء بغداد ظنوا أن الحرية التي جاء بها عهد الدستور تعني حرية اقتناء الاسلحة والاعتداء على الغير . يحكى أن أحد الاشقياء في ذلك الحين سطا على بيت وقتل صاحبه فلما قدم الى المحاكمة وصدر عليه الحكم بالاعدام صرخ محتجاً : « اين الحرية التي تنادون بها !! » ، انه كان يحسب أن عهد الدستور يبيح له نهب الناس وقتلهم بلا حساب . وانثال البغداديون على الملاهي على منوال ما فعلوا تجاه الاسلحة . وقد شهدت بغداد عقب اعلان الدستور أول مسرح ترقص عليه أمرأة وكان ذلك حدثا هز المجتمع البغدادي هزاً عنيفاً ، ثم توالت من بعد ذلك وفود الراقصات من بلاد الشام ومصر وتركيه بشكل يثير الدهشة

---

(٢) عبد الكريم العلاف (بغداد القديمة) ــ بغداد ١٩٦٠ ــ ص ١٤٥ .

على نحو ما سنذكره في فصل قادم .

أما في ميدان الصحافة فقد حدث أمر يشبه من بعض الوجوه ما جرى في ميداني اللهو والشقاوة . فقد حصل من جراء زوال الرقابة عن الصحف عقب اعلان الدستور أن أصبح كل شخص قادر على الكتابة مهما كان ضحل الثقافة يحاول أصدار جريدة أو مجلة . وبهذا ظهر في بغداد ما يمكن تسميته بـ « الفورة الصحافية » ، وهي فورة مصطنعة لم تقم على أساس من التخطيط الصحيح .

اعتاد القراء في تلك الآونة أن يشهدوا كثرة صدور الصحف كما يشهدوا كثرة موتها ، فكان من شأن كل جريدة أن تموت بعد صدور أعداد قليلة منها . وكثيرا ما كان صاحب الجريدة يلجأ الى الشتيمة المقذعة او المعارضة الشديدة لكي تروح صحيفته فترة من الزمن ، واضطر بعض الاعيان أن يسدوا أفواه الصحفيين « الوقحين » بمبالغ يدفعونها باسم الاشتراك وهي في الواقع ليست سوى رشوة للستر . وصف رفائيل بطي وضع الصحافة في بغداد آنذاك فقال : ان الازدياد الفاحش في عدد الصحف مع نقص الخبرة والدربة عند محرريها جعلهم يشتطون في كتاباتها ولا سيما فى الجدل السياسى والحزبي ، فظهرت فيها مهاترات شخصية « يندى لها الجبين » مما جعل الرجعيين يقعون على فريسة باردة فخرجوا من أوجارهم وطفقوا ينددون بحرية الصحافة[٣] ...

حادث في بغداد :

كانت جمعية الاتحاد والترقي قد أرسلت الى العراق ـ كما أرسلت الى غيره من البلاد العثمانية ـ مندوبين عنها لاجل فتح فروع للجمعية فيه . وقد فتحت الفروع في بغداد والبصرة والموصل والنجف والحلة وكربلاء وغيرها من المدن العراقية . وكان افتتاح الفرع في كل مدينة يجري باحتفال فخم تلقى فيه الخطب والقصائد . وأخذت الحكومة تشجع وجهاء المدن ورؤساء العشائر على الانتماء الى فروع الجمعية ، وقد تهافت

---

(٣) رفائيل بطي (الصحافة في العراق) ـ القاهرة ١٩٥٥ ـ ص ٢١ .

هؤلاء على الانتماء تهافتاً شديداً كما هي عادتهم في كل أمر يجدون فيه تزلفاً الى الحكومة واكتساب رضاها . ولذا رأينا فروع الجمعية في المدن العراقية تتضخم خلال وقت قصير . يروي رئيس فرع البصرة عمر فوزي مكتوبي زادة : أن طلبات الانتساب الى الفرع كانت تتوالى لدرجة أنهم لم يجدوا وقتا لتدقيقها(٤) .

كان فرع بغداد اكبر فروع الجمعية وأهمها ، وكان يرأسه مراد بك سليمان ، وقد أصدر جريدة باسم « بغداد » . وكان من أعضاء فرع بغداد الشاعران المعروفان جميل صدقي الزهاوي ومعروف الرصافي ، وعندما أقيم مهرجان للفرع ألقى الزهاوي فيه قصيدة هاجم بها الظالمين الذين حكموا الشعب بالقرباج وأشاد بالدستور الذي حقق العدالة(٥) .

ان النجاح الذي نالته جمعية الاتحاد والترقي في تأسيس فروعها في العراق لم يكن خاليا من بعض المنغصات ، وكان سبب ذلك حماس بعض أعضاء الجمعية واندفاعهم . ففي بغداد مثلا قام سامي افندي الاورفلي فالقى في أحد اجتماعات الجمعية خطبة هاجم بها أشراف بغداد وأعيانها وكان هؤلاء منذ بداية العهد الجديد يشعرون بالتذمر منه ويحنون الى العهد البائد ، فلما سمعوا بخطبة سامي أفندي عزموا على القيام بعمل منظم ضد العهد الجديد .

اجتمع السيد عبدالرحمن النقيب ، وعيسى افندي الجميل ، وعبدالرحمن باشا الحيدري ، ومحمد فاضل باشا الداغستاني ، وكاظم باشا ، وجميل أفندي أمين الادارة ، والملا نجم الدين الواعظ ، والشيخ عبدالوهاب النائب ، وأخوه الشيخ سعيد النقشبندي ، والشيخ مصطفى الشهرباني ، وغيرهم ، فألفوا جمعية باسم « المشور » جعلوا هدفها الظاهر الدفاع عن الشريعة المحمدية ومقاومة الافكار اللادينية ، بينما كان هدفها الحقيقي مقاومة جمعية الاتحاد والترقي .

كان خطيب الجمعية الشيخ مصطفى الشهرباني وكان أعمى فصيحاً

---

(٤) توفيق علي برو (العرب والترك) ــ القاهرة ١٩٦٠ ــ ص ٧٦

(٥) يوسف عزالدين (الشعر العراقي الحديث) ــ بغداد ١٩٦٠ ــ ص ٣٧ ــ ٣٨.

فأخذ يلقي الخطب الرنانة في المساجد يثير الناس باسم الغيرة على الدين • وقد انبرى لمناهضته الصحافي عبداللطيف ثنيان صاحب جريدة الرقيب ، فصار يكتب المقالات الشديدة في انتقاد جمعية « المشور » مما أدى الى ظهور توتر في المجتمع البغدادي •

وفي ١٣ تشرين الاول ١٩٠٨ م — الموافق ١٧ رمضان ١٣٢٦ هـ — انطلقت الشرارة التى تشعل النار ، وخلاصة الحادثة ان جماعة من الاتحاديين كان فيهم عبداللطيفه ثنيان ومعروف الرصافي وجميل صدقي الزهاوي دخلوا جامع الوزير الواقع تجاه السراي أي القشلة • وكان الناس فيه يؤدون صلاة العصر ، فصعد الرصافي على كرسي أعد له في صحن الجامع وقرأ بياناً حزبيا كانت جمعية الاتحاد والترقي في سلانيك قد أرسلته الى فرعها في بغداد • ولم يكد الرصافي ورفاقه يخرجون من الجامع حتى انطلقت أشاعة في أسواق بغداد مفادها آن الاتحاديين أهانوا الدين الاسلامي وأن الرصافي أسكت قارىء القرآن وأهانه من أجل قراءة بيان جمعيتهم • وفي اليوم التالي ظهرت مظاهرة تتقدمها الطبول فتابعها الغوغاء والاطفال ، وصاروا يطوفون الاسواق والطرقات وهم ينادون « الدين يا محمدا ! » ، وسرعان ما اغلقت الاسواق مخافة النهب •

يقول علي ظريف الاعظمي في كتابه « مختصر تاريخ بغداد » : « ولكن هؤلاء الثائرين بينما كانوا ينادون (الدين يا محمدا) نهبوا في طريقهم ما صادفوه على رؤس الباعة وما وجدوه في بعض الدكاكين المفتوحة ، وسلبوا بعض اليهود ، وتجاوزوا بالنهب على قافلة كانت قد جاءت من كردستان الى بغداد ومرت في سوق السراي ، وفعلوا افعالا مخزية • ثم صاروا يدخلون السراي ويخرجون منه مرارا وينادون بطلب الحكم بالشريعة الاسلامية ولغو الدستور[٦] ••• » •

كان ناظم باشا يومذاك والي بغداد بالوكالة — وهو غير الوالي العسكري الفريق ناظم باشا الذي حكم العراق بعدئذ — فخرج الى

---

(٦) علي ظريف الاعظمي (مختصر تاريخ بغداد) — بغداد ١٩٢٦ — ص ٢٤٩ — ٢٥٠ .

المتظاهرين ووعدهم باجابة مطاليبهم ، فلم يلتفتوا الى أقواله واستمروا في هياجهم ، فارسل الوالي اليهم بعض أعيان بغداد بغية اقناعهم بتحقيق ما وعدهم به ، وخرج هؤلاء الى المتظاهرين في ساحة القشلة يحاولون تهدئتهم . وكذلك أمر الوالي بالقاء القبض على عبداللطيف ثنيان ومعروف الرصافي تسكيناً لهم ، وجيء بهذين الرجلين الى مركز الشرطة ثم أطلق سراحهما بعد أن ثبت كذب ما شاع عنهما . وانفض جمع المتظاهرين أخيرا بعد أن استمرت مظاهرتهم بضع ساعات[٧] .

حادث آخر في الحلة :

حدث في الحلة حادث شبيه بحادث بغداد من بعض الوجوه ، وخلاصته أن أحد الضباط من أعضاء فرع جمعية الاتحاد والترقي في الحلة اسمه حمدي أفندي بن حنوف خطب ذات يوم في جمع من الناس وأخذ يذكر مظالم العهد البائد وما كان فيه من تفسخ في جهاز الدولة ، ثم قال في ختام خطابه : « آن هذا دور الحرية والمساواة والاخوة ، فقد اصبحتم واليهود أخوة ، فلا فرق بين المسلم واليهودي » . فهاج القوم وماجوا وعلت الضوضاء . ووصل الخبر الى العامة فأخذوا يبحثون عن الضابط ليقتلوه ولكنهم لم يجدوه .

ولم يتعظ الضابط بما جرى ، بل رأيناه يعود الى ما يشبه فعله الاول بعد مدة قصيرة ، فقد كان جالسا في أحد المقاهي وأخذ يتكلم عن الحرية ومزاياها فتعرض لحفلات المولد النبوي ومجالس التعزية الحسينية ، ثم قال : ان المفتي يشبه مطران النصارى وان السيد القزويني يشبه حاخام اليهود . وحين وصل الخبر الى السيد محمد القزويني اشتد غضبه وأمر بترك العزاء الحسيني الى أن يتم الاقتصاص من الرجل . وفعل مثله امام جامع السنة عبدالسلام الحافظ فاغلق باب الجامع وقرر أن لا صلاة الا بعد أن يأخذ العدل مجراه . وثار أهل الحلة وأخذ كل واحد منهم سلاحه وهجموا على القشلة يريدون قتل الضابط وأغلق الناس دكاكينهم

---

(٧) المصدر السابق ـ ص ٢٥٠ ـ ٢٥١ .

سبعة أيام ، وهجم الغوغاء على نادي الجمعية ونهبوا ما فيه من أثاث • ولم تهدأ البلدة الا بعد أن أخرج الضابط منها مخفورا وسيق الى بغـــداد• أرسل مركز الجمعية فى سلانيك مندوبا لها يدعى عمر أفندي اليوزباشي للتحقيق فى الامر • وحين وصل هذا المندوب الى الحلة ودرس الامـــر قرر الغاء فرع الجمعية هناك وتأسيسه من جديد بأعضاء من أشراف البلدة ووجهائها ، وقد تألف الفرع أخيرا برئاسة المفتي وصار السيد محمـــد القزويني نائبـا له ، وانتمى اليـه الآلاف من أهـل الحلـة • ثم وردت برقية من مركز الجمعية الى كل من المفتي والقزويني تتضمن الشـــكر على ما فعلا في سبيل الجمعية[٨] •

انتخاب المبعوثين :

كان الفرمان السلطاني قد صدر عقب اعلان الدستور باجراء الانتخاب لاعضاء مجلس المبعوثين ــ أي النواب ــ في كافة البلاد العثمانية • وقـد جرى الانتخاب في العراق في خريف ١٩٠٨ ، والواقع أنه لم يكن انتخابا حقيقيا بل كان صوريا يشبه التعيين • وقد استطاعت فروع الجمعية فـي المدن العراقية أن تسيطر على صناديق الانتخاب سيطرة تكاد تكون تامة •

لم يكن في العراق حينذاك غير قليل من النـاس مـن يفهم ما هـو الانتخاب • ويخيل لي أن العامة خشوا أن يكون الانتخاب حيلة حكوميـة يراد بها التجنيد الاجباري أو جباية الضريبة أو ما أشبه ، انهم لم يصدقوا أن الحكومة تريد نوابا عن الاهالي لمحاسبة الحكومة ومراقبتها ، فهـذا في نظرهم أمر غير معقول • أما وجهاء المدن ورؤساء العشـائر فالـذين ساهموا فى الانتخاب منهم انما فعلوا ذلك من باب التزلف للحكومة طبعا •

كتب السيد اسماعيل الواعظ يصف الانتخاب وكان قد شهده بنفسه فقال ما نصه : « وصار لهذا الانتخاب شأن عظيم لانه كان حرا بتمام معنى الكلمة حتى أن الوالد انتخب من بغداد عن بغداد ، ومن الديوانية عـن

---

(٨) مصطفى نورالدين الواعظ (الـروض الازهـر) ــ الموصـــل ١٩٤٨ ــ ص ٢٢٩ ــ ٢٣٢ •

الديوانية ، وخير فاختار الديوانية »[9] . ولا يخفى ان هــذه الشــهادة كانت منبعثة عن عاطفة ولم تكن تمثل الحقيقة ، فلو كان والد هذا الرجــل قد أخفق في الانتخاب لكانت شهادته من طراز آخر .

انتهت الانتخابات في شهر تشرين الثاني ، وهذه هي أسماء الفائزين فيها مع حفظ الالقاب : اسماعيل حقي بابان وعلي الآلوسي وساسون حسقيل عن بغداد ــ شوكت رفعت ومصطفى الواعظ عن الديوانية ــ عبدالمهدي الحافظ عن كربلا ــ طالب النقيب وأحمد الزهير عن البصرة ــ رأفــت السنوي وخضر لطفي عن المنتفق ــ محمد علي فاضل وداود يوســفاني عن الموصل ــ ملا سعيد كركوكلي زادة عن السليمانية ــ على الحــاج مصطفى قيردار وصالح النفطجي عن كركوك ــ عبدالمحسن الســعدون وعبدالمجيد الشاوي عن العمارة[10] .

الملاحظ ان هذه القائمة تضم اسم رجل شيعي هو عبدالمهدي الحافظ مبعوث كربلا ، واسم رجل يهودي هو ساسون حسقيل مبعوث بغــداد، وهذا أمر لم يكن مسموحا به في العهد الحميدي انما سمح به الاتحــاديون لكي يبرهنوا به أنهم بدأوا عهدا جديدا لا يفرقون فيه بين الناس على آساس من المذهب أو الدين ، فالكل في نظرهم سواء !

كان يوم ٤ كانون الثاني ١٩٠٩ موعد مغادرة المبعوثين بغــداد ، فنصبت البلدية لتوديعهم خيمة كبيرة قرب مقبرة الشيخ معروف في جــانب الكرخ ، وأقام فرع الجمعية مأدبة فخمة فيها حضرها أعيان بغداد وكبــار موظفيها كما حضرها والي بغداد بالوكالة محمد فاضل باشا الداغستاني . واصطف الجنــود ، وعزفت الموسيقى ، والقى مبعوث الديوانية الســيد مصطفى أفندي الواعظ خطبة ذكر فيها ما يجب على المبعوث أن يفعلــه وهو الذي وضعت الامة ثقتها به ، ثم شكر الامة على ذلك[11] ...

---

(٩) المصدر السابق ــ ص ٣٧٩ .

(١٠) عباس العزاوي (تاريخ العراق بين احتلالين) ــ بغداد ١٩٥٦ ــ ج ٨ ص ١٦٦ ــ ١٦٧ .

(١١) مصطفى نور الدين الواعظ (المصدر السابق) ــ ص ٢٨٠ .

غادر المبعوثون بغداد متوجهين الى اسطنبول عن طريق الفرات ، وكان في صحبتهم الشاعر معروف الرصافي اذ كان قد استدعاه صاحب جريدة « اقدام » لكي يساعده على اصدار جريدته باللغة العربية[١٢] • وبعد أربعة وعشرين يوما وصل المبعوثون الى اسطنبول ، وكان المجلس قد جرى افتتاحه قبل وصولهم باربعين يوما ، فبدأوا يشاركون في جلساته ومناقشاته•

صدى الخلع فى العراق :

عندما خلع السلطان عبدالحميد في نيسان ١٩٠٩ ووصل خبره الى العراق كان له صدى بالغ فيه ، فقد كان للسلطان عبدالحميد فى قلوب العراقيين مهابة تشبه التقديس • يقول توفيق السويدي في مذكراته : ان اكثر المصلين فى المساجد بكوا عندما ورد في خطبة الجمعة لاول مرة اسم السلطان الجديد محمد الخامس[١٣] • ويروي السيد اسماعيل الواعظ ما جرى في الحلة ، وكان مفتيا ورئيسا لفرع الاتحاد والترقي فيها ، فقال: ان برقية وردت اليه في منتصف الليل تنبيء بخلع السلطان عبدالحميد ، وفى الصباح غص السراي بالموظفين والاهالي وكان يوما مشهودا ، وبعد أن تلا هو نص البرقية ألقى دعاءا بالمناسبة ابتدأه بالآية : « قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير انك على كل شيء قدير » • فأخذ الناس يبكون بكاءا مرا [١٤]•

وفي اليوم التالي صدرت جريدة « بغداد » الناطقة بلسان جمعية الاتحاد والترقي وهي تحتوي على تفاصيل الخبر ، فاقبل أهل بغداد عليها اقبالا منقطع النظير حتى بيع منها في ذلك الحين ثلاثة آلاف نسخة ، وكان هذا رقما قياسيا بالنسبة لجريدة عراقية في ذلك الزمان[١٥] •

ومن الجدير بالذكر ان محمود شوكت باشا الذي كانت له اليد الطولى

---

(١٢) يوسف عزالدين (شعراء العراق في القرن العشرين) — بغداد ١٩٦٩ — ص ٧١ •

(١٣) توفيق السويدي (المصدر السابق) — ص ١٩ •

(١٤) مصطفى نورالدين الواعظ (المصدر السابق) — ص ٣٨٩ •

(١٥) رفائيل بطي (المصدر السابق) — ص ٢٣ •

في خلع عبدالحميد كان بغداديا وهو ابن سليمان فائق وأخو مراد سليمان وحكمت سليمان . ويمكن القول ان الكثير من البغداديين شعروا بالفخار حين علموا بأن رجلا منهم قام بذلك العمل الجبار واستطاع أن يخلع السلطان ، وقيل ان بعض أشقياء بغداد كان يجلسون في المقاهي المحلية ويفتلون شواربهم مفاخرين بالباشا ابن محلتهم . انهم أسفوا لخلع السلطان ولكنهم في الوقت نفسه فرحوا لان الخلع تم على يد واحد منهم .

كان محمود شوكت باشا من بقايا المماليك في العراق ـ أي انه شركسي الأصل ـ ولكن الناس كانوا يظنون خطأ أنه عربي من سلالة عمر بن الخطاب. وكان سبب هذا الخطأ أن محمود شوكت باشا هو ابن خالة هادي باشا العمري فتوهم الناس أنه لا بد أن يكون عمريا كابن خالته ، وقد راج هذا الخطأ في العراق والبلاد العربية الاخرى ، ونظم شوقي قصيدة في مدح محمود شوكت باشا ذكر فيها أنه « ابن الاكارم من بني عمر » (١٦) ، وفعل مثل ذلك شاعر عراقي حيث وصف محمود شوكت باشا بأنه « بجده عمر اقتدى » (١٧) . وقد نبهت جريدة الرقيب البغدادية الى تصحيح هذا الخطأ فذكرت أن محمود شوكت باشا ليس عمريا وان قام بتلك البطولة العظمى !

تتابع الولاة :

كان ناظم باشا واليا لبغداد بالوكالة عند اعلان الدستور على نحو ما ذكرناه آنفا ، وبعد أشهر قليلة استدعي هذا الرجل الى اسطنبول ليتولى وزارة العدلية ، فحل محله في ولاية بغداد نجم الدين منلا بك ، ولكن هذا الوالي لم يمكث في منصبه الجديد سوى خمسة أشهر ، فقد استدعي بعدئذ الى آسطنبول ليتولى وزارة العدلية على أثر مقتل ناظم باشا الذي لم يتمتع بالوزارة طويلا اذ كان من جملة ضحايا واقعة ٣١ آذار .

وفي ٩ آب ١٩٠٩ وصل الوالي الجديد شوكت باشا وهو مهندس

---

(١٦) خيري أمين العمري (شخصيات عراقية) ـ بغداد ١٩٥٥ ـ ج ١ ص ٤
(١٧) عباس العزاوي (المصدر السابق) ـ ج ٨ ص ١٧٥ .

عسكري ولم يحصل على سمعة حسنة في بغداد . يقول عنه الكاتب العراقي ابراهيم صالح شكر : انه « كان من السذاجة المتناهية ، والضعف في تدبير الامور ما جعل منه (الالعوبة) التي يلهو بها أغرار الاتحاديين ، ولكن في الحاق الاذى بمن يكرهون ، وتوفير الخير لمن به يتصلون ، وكان حظ (الراقصة طيرة المصرية) من هذا الخير غير قليل ... »(١٨) .

وقد أعطانا مفتي الديوانية السيد اسماعيل الواعظ صورة أخرى عن الوالي شوكت باشا حيث قال عنه : « ... هذا الرجل زاده الله في الجسم بسطة غير أنه لا يعي ولا يحل ولا يربط . وأضرب مثلا واحدا هو أنني استأذنت من المشيخة وجئت بغداد ، ومن المعلوم يجب علي أن اذهب الى الولاية وأواجه الوالي ، وعند مواجهتي كان حاضرا السيد أحمد افندي ، والسيد عبدالله أفندي النقيب ، وصارا يعرفاني للوالي ، فأجابهم بنعم ، وبقيت منتظرا لما يدور منه من الاسئلة عن لواء الديوانية وعن حالته السياسية والاقتصادية وما اشبه ذلك . وبعد مضى نصف ساعة رأيت الوالي لا يتكلم بكلمة واحدة سوى أنه مشغول بالكتابة ، فالتفت الى الكتابة التي هو مشغول فيها وكنت قريبا منه فرأيته يشطب ويحرر أرقاما كأنه يريد أن يقضي وقته بغير ما يفيد شيئاً . فقمت وقال لي : « صو كره كور شورز » أي بعدئذ تتواجه . ففكرت أن أعود عليه ثانية ، فبعد يومين ذهبت ، وعندما حللت عنده سألني : « خواجه أفندي نه استيور سكز » أي يا ملا ماذا تريد ؟ فأجبت اني مفتي الديوانية وقد أمرتم في المواجهة فأتيت ، فسكت . وبعد هنيهة قمت فقال لي : « بردها كور شورز » أي كذا مرة أخرى تتواجه ، فعلمت أن الوالي لا يعرف سوى هذه الكلمة .. »(١٩) .

الفريق ناظم باشا :

يبدو أن العراق في عهد الوالي شوكت باشا شاعت فيه الفوضى وكثر عصيان العشائر . يقول الكاتب العراقي ابراهيم صالح شكر في وصفه

---

(١٨) خالد محسن اسماعيل (قلم وزير) ـ بغداد ١٩٧٠ ـ ص ٣٩ .

(١٩) مصطفى نورالدين الواعظ (المصدر السابق) ـ ص ٤٠٢ .

حالة العراق يومذاك : « والفوضى سائدة في العراق ، وحبل الامن العام مضطرب في جوانبه ، فقبائل الهماوند تعبث في أطراف كركوك وجهات السليمانية ، وقبائل المنتفك رافعة لواء العصيان مستخفة بالحكم ، وعشائر الديوانية متمردة تجاهر الحكومة بالاستخفاف وتمنع عنها الرسوم الاميرية. وعشائر بني لام من الكوت الى العمارة تقطع على البواخر ووسائط النقل النهرية المرور بين البصرة وبغداد ، وسعدون باشا السعدون متنمر في البادية وغاراته المجتاحة هنا وهناك تقلق الحكومة وتؤلم رجالاتها ولكنهم لا يستطيعون صدها أو التقليل من حوادثها . ثم ان الامن في بغداد نفسها كان كثير الاضطراب واضح الخلل ، ففي كل ليلة كان اللصوص يصطدمون بالدرك والشرطة والنواطير ، فيهب الناس من مضاجع النوم على أصداء البارود وأزيز الرصاص ، وتجاوب الحراس وخفراء الليل باصوات الاستغاثة وصراخ المعونة وطلب النجدة ... »[20]

قررت الحكومة العثمانية أن تفعل شيئا لعلاج حالة العراق المستعصية ، فعينت له رجلا حازما من طراز خاص هو الفريق حسين ناظم باشا ، وجمعت له قيادة الجيش كما ضمت اليه ولايتي البصرة والموصل علاوة على ولاية بغداد ، ومنحته سلطة واسعة لم تكن للولاة قبله ، وأذنت له بصرف أربعين ألف ليرة زيادة سنوية ليتلافى بها ما يحتاج اليه اصلاح البلاد من نفقات اضافية .

في ١٦ تشرين الثاني ١٩٠٩ وردت من اسطنبول برقية الى الوالي شوكت باشا تعلمه بأمر نقله من بغداد على أن يبقى قائما بأعمال الولاية وكالة حتى مجيء الوالي الجديد . وبعد يومين نشرت جريدة الرقيب البغدادية برقية وردتها من مبعوث كربلا الحاج عبدالمهدي الحافظ تبشر الناس بنبأ تعيين ناظم باشا ، وأخذت الاشاعات تروج في بغداد حول هذا الوالي وعن عزمه وحزمه والاعمال العظيمة التي سيقوم بها في العراق . والمظنون ان بعض الموظفين الاتراك هم الذين بثوا تلك الاشاعات بين الناس للتمهيد لقدوم ناظم باشا وخلق الاسطورة حوله .

---

(٢٠) خالد محسن اسماعيل (المصدر السابق) ـ ص ٣٥ .

ومرت فترة طويلة تقارب الستة أشهر قبل وصول ناظم باشا الى بغداد مما زاد في شيوع المبالغات حوله • ومنذ منتصف شهر نيسان ١٩١٠ بدأت الجرائد البغدادية تنشر أنباء تحرك ناظم باشا نحو بغداد مرحلة بعد مرحلة • وفي ٦ أيار وصل ناظم باشا الى بغداد عن طريق الفلوجة ومعه موكب فخم يحتوي على الكثير من الاسلحة الحديثة ومجموعة من الضباط والاطباء والجنود الممتازين ، فجرى له استقبال فخم جدا حتى قيل ان البلدية أنفقت سبعة آلاف قرش للاحتفاء به • وفي اليوم التالي أدى ناظم باشا صلاة الجمعة في جامع الشيخ عبدالقادر مع الوالي السابق شوكت باشا • وبعد يومين جرى الاحتفال في القشلة بقراءة الفرمان ، ولوحظ أن نص الفرمان كان يختلف اختلافا واضحا عن الفرامين السابقة اذ لم يكن يحتوي على الالقاب الفخمة والمديح المفرط ، وكان هذا اول فرمان من نوعه على أثر صدور القانون الجديد الذي ألغي به عبارات التعظيم في الكتابات الرسمية • ثم صار الشعراء ينظمون في مدح الوالي والترحيب به القصائد الرنانة كان منهم الشيخ محمد السماوي وعبدالمسيح الانطاكي والمعلم داود صليوة وهجري دده الكركوكلي والاسطة علي البناء[٢١] •

كان الفريق ناظم باشا أقصر قامة من سلفه شوكت باشا ولكنه كان أقوى شخصية منه وله وقار ونظرة تلقي الهيبة في القلوب • ذكر عنه علي جودت الايوبي وكان ضابطا تحت امرته فقال : انه كان « صارما في الانضباط العسكري لا يرحم الضابط الذي بمعيته اذا تأخر دقيقة واحدة عن الوقت المحدد ، وويل له اذا هو أهمل واجبه • كان جهده اليومي يستغرق خمس عشرة ساعة في كثير من الاحيان ، وكان لا يبالي عندما يرى بعض الجنود الاتراك يتساقطون وينهارون تحت ضربات الشمس المحرقة أثناء قيامهم بواجب التعليم والتمرين ولا سيما في شهري تموز وآب في بغداد ، وفي الساعة العاشرة او الحادية عشرة صباحا »[٢٢] •

والملاحظ أن ناظم باشا في الوقت الذي كان فيه شديدا تجاه مرؤسيه

---

(٢١) عباس العزاوي (المصدر السابق) — ج٨ ص ١٩٥ •
(٢٢) علي جودت (ذكريات) — بيروت ١٩٦٧ — ص ٢٩ •

كان يتظاهر بالتواضع تجـاه أفراد الشعب ، فكانت عربته تخترق طـرق بغداد من غير موكب او حاشية بخلاف ما كان عليه الولاة قبله[٢٣] . وكـان لهذا السلوك أثره في قلوب البغادة فصاروا يحبونه ويتداولون المبالغـات في مديحه . أضف الى ذلك أنه كان يجامل رجال الدين ويقبل أيديهم امام الناس مما جعلهم يلهجون بذكره .

وصف السيد اسماعيل الواعظ في مذكراته شدة محبـة البغـادة لناظم باشا فقال : انهم كانوا يحبونه محبة عظيمة ولا حديث لهم في مجالسهم الخاصة والعامة الا بذكره الحسن ، واذا مر بأزقة بغداد وأسواقها قاموا له احتراما ، وكان هو يعظم العلماء ويحترمهم غاية الاحترام ولا سيما الوالد يقصد والده السيد مصطفى ـ فكان الوالد اذا دخل عليه يستقبله ويهم بتقبيل يديه غير أن الوالد يمتنع عن ذلك ، وكان لا يحيد عن رأي الوالد فاذا أرادت الحكومة أن تقوم بعمل مخالف للشريعة وكلمه الوالد فيـه أمر بمنعه . ويضيف السيد اسماعيل الى ذلك قائلا : ان ناظم باشا لـم يكن يصلي أو يصوم ولكنه قام بواجب الشريعة في زمانه ، وعندما حـل رمضان لم يشاهد فيه من يتجاهر بالافطار ، وكل من تجده الشرطة مفطرا تأتي به وتجلبه الى المركز وتجلده عشـر جلـدات ثـم تحكم عليـه بالحبس شهرا[٢٤] .

كان ناظم باشا يشبه مدحت باشا من بعض الوجوه ، أو لعله كان يريد التشبه به ، وقد نعته حمدي بابان بـ « مدحت زماننا »[٢٥] ووصفه المؤرخ البريطاني لونكريك بأنه كان ذا عزم ونزاهة ولكن عيبه أنه كان ذا رغبـة شديدة في ظواهر التمدن يعوزه الاعداد لمشاريعه الضخمة[٢٦] .

كان ناظم باشا عازما على القيام بأعمال عمرانية وحضارية عـديدة ، ولكن الوقت لم يسعفه اذ لم تطل مدة ولايته في العراق سوى سنة واحـدة

---

(٢٣) خالد محسن اسماعيل (المصدر السابق) ـ ص ٣٤ .

(٢٤) مصطفى نورالدين الواعظ (المصدر السابق) ـ ص ٤٠٠ ـ ٤٠١ .

(٢٥) عباس العزاوي (المصدر السابق) ـ ج٨ ص ١٩٣ .

(26) Stephen Hamsley Longrigg (Iraq 1900 To 1950) — Oxford 1950 — P 51.

تقريبا . وهو على الرغم من قصر مدته قام بأعمال غير قليلة منها ما هو خاص بمدينة بغداد ومنها ماهو عام للعراق كله . أما الاعمال الخاصة ببغداد فنذكر منها ما يلي :

اولا : العناية بنظافة بغداد ووقايتها ، فقد جلب ماكنة لرش الماء في الاسواق في الصيف بدلاً من رش السقائين ، كما أمر باعداد عربات خشبية لجمع الاوساخ ومنع أصحاب البيوت من رمي اقذارهم في الطرقات على منوال ما اعتادوا عليه قديما ، ودفن الخنادق المحيطة بالمدينة اذ كانت مباءة للقذارة ونمو الجراثيم ، كما أمر بانشاء صيدلية حديثة تفتح أبوابها ليلاً ونهارا ، وجمع المجانين والمصابين بالامراض المعدية في أماكن خاصة بهم وأجرى عليهم النفقات ، وأبعد المشردين من الغرباء الذين لا عمل لهم ، ثم أقام سدة طويلة حول بغداد من الجهة الشرقية لحمايتها من الغرق .

ثانيا : فتح مدرسة « كوجك ضابطان » ــ أي صغار الضباط ــ على النهر فى جانب الكرخ وعين لها مديراً حازماً اختاره من بين الضباط الذين جاؤوا معه من اسطنبول ، وكان من جملة معلميها علي جودت الايوبي وجعفر العسكري ونوري السعيد . وقد جرى فيها تدريب التلاميذ على الاسلحة الحديثة التى جاء ناظم باشا بها معه .

ثالثا : كان الجنود سابقا لا تدفع لهم مرتباتهم بانتظام ، ولهذا كانوا قبل حلول الاعياد يهجمون على أسواق بغداد فينهبونها ، وكان الناس قد اعتادوا على ذلك ويسمونه « فرهود » ، وجاء ناظم باشا فمنع الفرهود وأمر باعطاء الجنود مرتباتهم المتأخرة ، كما أدخل الكثير من التجديد والاصلاح في نظام الجندرمة ، واعتنى بالسجون فأدخل فيها نظام تشغيل السجناء على نحو ما هو معمول به في أوربا .

رابعا : شق شارع النهر وغطاه بالقير وهو أول شارع في بغداد اذ لم يكن فيها قبلئذ سوى أسواق مسقوفة وازقة ملتوية . وقد أدى شق الشارع الى هدم جانب من دار القنصلية البريطانية وبناية بيت لنج ، وجاء الضابط المكلف بشق الشارع الى ناظم باشا يخبره بأن البريطانيين لا يقبلون بهدم الدار والبناية فانتفض ناظم باشا غضباً وقال له بصوت مرتفع :

« خذ الآن فوجاً من العسكر واهدم دورهم على رؤوسهم »[٢٧] • وهذا هو السبب الذي جعل القنصلية البريطانية تنتقل من محلها القديم الى محل لها جديد قريب من الباب الشرقي •

خامساً : امر بجمع الكلاب ، وجعل مبلغ أربعة قروش مكافأة لمن يأتي بكلب ، فصار الناس يأتون بالكلاب يجرونها بالحبال الى القشلة طمعاً بالمكافأة • وقد ضرب الرقم القياسي في ذلك رجل من محلة الطوب اسمه حسون حيث أتى بستة وثلاثين كلباً وحصل منها على مبلغ لا يستهان به • وكانت الكلاب تساق الى محل قرب مقبرة اليهود حيث يجري اعدامها ، وقيل ان الكلاب في تلك الايام أخذت تفزع عند سماعها كلمة « حبل » فكان الاطفال يركضون وراءها ويهتفون « حبل ! حبل ! » وهي تجري مذعورة •

استتباب الامن في العراق :

ان أهم عمل قام به ناظم باشا هو العمل على قمع الفوضى التي كانت سائدة في العراق ومنع القتال الذي يجري بين العشائر ، وهي العادة التي كانت تسمى آنذاك بـ « الغزو » •

عندما وصل ناظم باشا الى بغداد كان أول ما فكر فيه واهتم له هو وضع خطة كافية لمنع الغزو • أرسل في البداية الى رجال الدين من السنيين والشيعة جميعاً فاستكتبهم الفتاوي في تحريم الغزو ، وقد كتب هؤلاء فتاويهم كما أراد ناظم باشا حيث ذكروا فيها أن الغزو عادة جاهلية مخالفة للاسلام وهي تؤدي الى قتل النفوس ونهب الاموال وغير ذلك من الامور التى لا يختلف اثنان فى سوء مغبتها وأضرارها المادية والمعنوية فضلا عن مخالفتها للشرع الشريف ، ويستحق فاعلها العقاب الشرعي والقانوني • وقد شارك في أصدار هذه الفتاوي من علماء السنة : المفتي محمد سعيد الزهاوي ، والسيد عبدالرحمن النقيب ، والشيخ غلام رسول الهندي ، والسيد محمد نافع الطبقجلي ، والشيخ عبدالوهاب النائب •

---

(٢٧) مصطفى نورالدين الواعظ (المصدر السابق) ـ ص ٤٠٠ •

واخوه الشيخ محمد سعيد النقشبندي ، والسيد محمود شكري الآلوسي •
ومن علماء الشيعة : الملا كاظم الخراساني ، والشيخ عبدالله المازندراني، والسيد محمد القزويني ، والسيد محمد اسماعيل الصدر ، واثنان آخران من كربلاء هما الشيخ محمد حسين والشيخ محمد باقر[٢٨] •

كان ناظم باشا مدركا ان الفتاوي الدينية وحدها لا تردع العشائر عن الغزو ، ولم يكن الحافز الديني في يوم من الايام مانعا من قيام الناس بما اعتادوا عليه من أعمال اعتدائية • ولهذا رأينا ناظم باشا يتخذ طريقة عملية لارهاب العشائر ، وهي أنه استدعى الى بغداد جميع الافواج العسكرية التي كانت متفرقة في مختلف انحاء العراق ، واعد لهذه الافواج معسكرا موقتا في موضع قريب من موقع بغداد الجديدة الحالية سماه « أوردي گاه » أي محل الجيش • ثم أخذ يخضع الجنود الى تدريب صارم لكي يجعل منهم قوة عسكرية يؤبه لها •

وأمر ناظم باشا بدعوة رؤساء العشائر الى بغداد ليكونوا بضيافة الحكومة فيها ، ونصبت لهؤلاء الرؤساء خيام في مكان قريب من محل الجيش • وفي يوم معين جرى استعراض مهيب للجيش كله شهده رؤساء العشائر كما شهده علماء بغداد واعيانها وكبار الموظفين وقناصل الدول الاجنبية • ثم وقف ناظم باشا فألقى خطابا بالتركية وكان المترجم بجانبه يترجم الخطاب الى العربية ، وكان الخطاب مليئاً بالتهديد الشديد • وبعد الانتهاء منه أمر ناظم باشا بتوزيع الخلع على رؤوساء العشائر ، من عباءات وغيرها حسب العادة الجارية ، وكان ذلك يوما مشهودا في بغداد لم يشهد الناس له مثيلاً من قبل •

كان من نتائج هذا العمل ان استتب الامن في بغداد وفي مختلف انحاء العراق • وازدادت سمعة ناظم باشا ارتفاعاً لدى الناس ، وصار اسمه يرهب الاشقياء والعشائر العاصية ، وبدأت الاشاعات تدور بين الناس حول تجوله متنكرا ليفتش الامور بنفسه ، واختلق بعضهم الاوهام في ذلك كأن يقول أحدهم هامساً أنه شاهد فارساً في المكان الفلاني هو ناظم باشا •

---

(٢٨) عباس العزاوي (المصدر السابق) – ج٨ ص ١٩٩ – ٢٠٠ •

بعينه ، فيصدقه السامعون وقد يزيدون عليه من عندياتهم قليلاً او كثيرا .

ذكر ابراهيم صالح شكر ، وكان قد أدرك عهد ناظم باشا ، فقال : ان البغداديين نعموا بالامن فى ذلك العهد بحيث صاروا يخرجون في المساء رجالاً ونساءاً من غير خوف الى خارج الباب الشرقي فيتمشون حتى « قهوة العبد » عند بستان الخس ، وهذا أمر لم يكن مألوفاً في بغداد قبلئذ لكثرة اللصوص فى تلك المنطقة(٢٩) .

ظن الكثير من الناس فى ذلك الحين ان استتباب الامن سيدوم ، وأن أيام الشقاوة واللصوصية والعصيان قد زالت الى الابد ولن تعود ، وهذا تفاؤل لم يكن له أساس من الواقع الاجتماعي اذ ليس من السهل على الناس الذين اعتادوا على قيم معينة طيلة أجيال متوالية أن يتركوها فجأة بين عشية وضحاها . انهم قد يتركونها فترة قصيرة من الزمن في حالة الارهاب الشديد ، ولكن الارهاب يجب أن يدوم مدة كافية من الزمن لكي يعطي ثماره . والا فان الناس سيعودون الى مثل ما كانوا عليه حالما يزول الارهاب عنهم . وهذا هو ما وقع فعلاً على أثر عزل ناظم باشا من ولاية بغداد فى عام ١٩١١ .

الواقع ان حالة الفوضى التى كانت سائدة فى العراق قبل مجيء ناظم باشا ، ثم عادت بعده ، لم تكن طارئة على المجتمع العراقى بل هي أصيلة فيه اذ هي من أهم معالم المد البدوي الذي سيطر على العراق خلال القرون الستة الماضية . فقد كان من مفاخر الرجل في الريف وفى الكثير من المدن أن يكون قادرا على السطو والنهب وقطع الطريق وعصيان الحكومة ، بشرط أن لا يفعل ذلك فى عشيرته او محلته . انه يحمي عشيرته ويغزو غيرها ، ومن لا يقدر على ذلك اعتبروه مخنثاً لا رجولة فيه . أعرف أشخاصا هم من وجهاء بعض المدن وكبرائها كانوا في شبابهم يسطون على البيوت أو يخرجون لقطع الطريق ، فكان ذلك بداية شهرتهم وأساس الوجاهة التي حصلوا عليها بعدئذ .

ومن المناسب أن انقل هنا قصة طريفة حدثت فى بلدة السماوة فى

---

(٢٩) خالد محسن اسماعيل (المصدر السابق) ــ ص ٣٧ ، ٧٣ .

الايام الاولى من ولاية ناظم باشا وقد رواها عبدالعزيز القصاب الـــذي كان قائمقاماً في السماوة حينذاك ، انه يقول : عند وصول ناظم باشـــا الى بغداد فوجئت بطلب منه أقلقني هو سحب الفوج الموجود فى الســـماوة حالاً وارســـاله الى بغـــداد ، وفي اليوم التالي غـــادر الفـــوج السماوة ، وعند عودتي من توديعه قابلني في الطريق رجل مجروح في وجهه وهـــو يشكو لي ظلامته ، ثم قابلني رجل آخر دلال نهبت منـــه العباءة التي كـــان يبيعها ، ورجل ثالث بزاز يهودي كان يبكي مدعيا أن فلاناً سلبه مقدارا من الخام وفر هاربا ، ورجل رابع كان قد أهانه شخص من غير سبب يذكـــر . يقول عبدالعزيز القصاب : ان المعتدين فى كل هذه الحوادث كانوا يقولون للمعتدى عليهم : ان الحكومة قد ذهبت بذهاب الجيش وأنه لم يبق فـــى القضاء هيبة للحكومة . وعند هذا أسرع القائمقام فاستدعى المعتدين وأمر الجندرمة بطرحهم على الارض وأخذ يضربهم بنفسه واحدا بعد الآخر ويقول لهم : «تعتقدون أن الحكومة ذهبت . كلا . انها لا تزال هنا وقـــد أصبحت اقوى من ذي قبل . اني لا أســـمح لاحـــد ان يخـــل بالامن ويخـــالف القانون »[٣٠] .

صدق من قال : الحاكم الجائر خير من الفوضى !

ضجة حول الزهـــاوي :

نشرت جريدة المؤيد المصرية فى عددها الاسبوعي الصادر في ٧ آب ١٩١٠ مقالاً بتوقيع جميل صدقي الزهاوي عنوانه « المرأة والدفاع عنها » شرح فيه مضار الحجاب وأورد بعض المظالم التى ترزح تحتها المرأة المسلمة. وفيما يلي نبذة من المقال :

« أجاز المسلمون أن يقسو الرجل فيطلق المرأة ويستبدلها بغيرهـــا كسقط المتاع راداً الى حضنها أطفالها الذين هم نتائج شهوته غير راحـــم لدموعها ولا مصغ لنشيجها ... لماذا لم يجز المسلمون أن تطلقه لتنجـــو من شراسته ، وقد قال تعالى في كتابه المبين بعد آية الطلاق (ولهن مثـــل

---

(٣٠) عبد العزيز القصاب (من ذكرياتي) ـ بيروت ١٩٦٢ ـ ص ٨٢ ـ ٨٤ .

الذي عليهن) ، لماذا لا يكون لها هذا الطلاق مثل ما هو عليها لتتم المساواة وتسود العدالة كما هو مدلول الآية . اني وحقك لاحب الشيعة لانهم لا يقولون بالطلاق الا اذا وقع أمام مجتهدهم ، وأحب الوهابية لانها لاتقول بوقوعه ثلاثا في قول واحد الا اذا كان القول متعددا والازمنة مختلفة ، ولا يخفى ما في ذلك من التؤدة واعطاء المهلة ليجد فيها الزوج الطائش زمانا للندم عن ذنب جناه على أولاده الصبية وعلى رفيقة حياته ، وان كان المذهبان جائرين لانهما لا يخولانها هذا الحق الذي شرعه العقل . أشاعت بعض الصحف الاسلامية أن جماعة من النساء المظلومات شرعن يرتددن فرارا من معاشرة أزواجهن المبسيئين اليهن ، وذلك نتيجة معاملة قاسية طبيعية لذلك الظلم الثقيل ، فلا يلومن المسلمون الا أنفسهم فهن مضطرات الى الردة وما حيلة المضطر الا ركوبها... »[٣١] .

استطاعت مجلة « تنوير الافكار » البغدادية ، وهي مجلة دينية كان يديرها نعمان الاعظمي ، أن تحصل على نسخة من جريدة « المؤيد » فنقلت المقال عنها . ولم تكد المجلة تخرج الى الاسواق في بغداد حتى قامت ضجة كبرى فيها ، وسارت مظاهرة من الجمهور نحو السراي تطالب بانزال العقوبة الرادعة على الكاتب « الزنديق » .

كان رجال الدين هم الذين حركوا الضجة والمظاهرة ، وكان على رأسهم السيد مصطفى الواعظ مبعوث الديوانية ، وكان يومذاك قد عاد الى بغداد أثناء عطلة المجلس، فذهب الى الوالي ناظم باشا وأوضح له ما يترتب على مقالة الزهاوي « المارق من الدين » من « المفاسد المخلة بالشريعة الغراء »[٣٢] ، فلبى الوالي طلب السيد مصطفى وعزل الزهاوي من وظيفته اذ كان مدرساً لمجلة الاحكام العدلية في مدرسة الحقوق . وبعد قليل أصدر الشيخ محمد سعيد النقشبندي كتابا رد فيه على مقالة الزهاوي بعنوان « السيف البارق في عنق المارق » .

أرسل الزهاوي الى جريدة « الرقيب » بيانا للنشر كان هذا نصه :

---

(٣١) عبد الحميد الرشودي (الزهاوي) ــ بيروت ١٩٦٦ ــ ص ١١٣ ــ ١١٤ .
(٣٢) مصطفى نورالدين الواعظ (المصدر السابق) ــ ص ٣١٠ ــ ٣١١

« الى ناظم الحكومة في بغداد ـ اسمع ان أحد المشايخ المتلبسين بالتقوى في بغداد (البلد الذي يسيطر عليه الدستور وعدلك الوافي) أخذ يدير رحى فتنة جسيمة فيحرض الجاهلين على الايقاع بي باسم الدين البريء من الظلم جزاء مقالة اجتماعية نشرت بامضائي في (المؤيد الاسبوعي) كما في (تنوير الافكار) دفاعاً عن المرأة • وهي ، عدا كونها شبهات ضعيفة استفهامية تزول من نفسها ، لم تتعين بعد أكاتبها أنا أم هي مزورة على لساني من عدو لي في العراق ! والذي أرجوه من الحكومة الدستورية هو أن لاتقتص من الصابغين أكفهم بدمي ••• بل تعتني بتعليمهم وانقاذهم من الجهل لئلا تمتد أيديهم في المستقبل الى منكد آخر مثلي يتمنى في كل كتاباته اصلاحاً للامة اجتماعيا »(٣٣) •

لم ينفع الزهاوي هذا البيان شيئا ، فقد وقف ناظم باشا الى جانب رجال الدين ضد الزهاوي ، والمظنون أنه انما فعل ذلك نكاية بالزهاوي اذ كان هذا اتحاديا شديد التعصب للاتحاديين بينما كان ناظم باشا معدودا من المناوئين لهم •

مهما يكن الحال فقد سيطر الرعب على الزهاوي لانه كان يخشى أن يعتدى الغوغاء عليه أو يقتلوه ، واعتزل في بيته لا يخرج منه • روى لي رجل من البغداديين المسنين : أن ثلاثة من أشقياء بغداد ذهبوا الى دار الزهاوي ليلاً وطرقوا عليه الباب ، فلما خرج اليهم طلبوا منه أن تخرج زوجته معهم الى القهوة ، وحين أبدى الزهاوي استنكاره لهذا الطلب أجابوه : كيف اذن يطلب هو من بنات الناس أن يرفعن الحجاب ويختلطن بالرجال ؟! ثم اخذوا يهددونه قائلين له : أنهم سوف يقتلونه بخناجرهم اذا هو عاد الى مثل تلك الاقوال الفاسدة • ولم ينصرفوا عنه الا بعد أن وعدهم وعدا مؤكدا بأنه سوف يسمع قولهم ويتأدب بأدبهم ، وهو يحلف بالله الف مرة على ذلك •

غرام ناظم باشا :

كان ناظم باشا أثناء ولايته في بغداد قد وقع في غرام فتاة أرمنية

---

(٣٣) عبد الرزاق الهلالي (الزهاوي بين الثورة والسكوت) ـ بيروت ـ ص ٤٣

SS

حسناء تعرف بين أهل بغداد باسم « سارة الزنگينه » أو « سارة خاتون » • وقد اشتهرت هذه القصة عنه حتى وصلت أخبارها الى اسطنبول وربمـــا الى اوربا •

بدأت القصة ذات ليلة من شهر آب ١٩١٠ ، وذلك عندما أقام ناظـم باشا حفلة « بالو » على ظهر باخرة نهرية من أجل انشاء مستشفى الغرباء ببغداد ، وكانت الحفلة مختلطة حضرها القناصل وزوجاتهم وأفراد الجاليات الاجنبية وبعض العائلات المسيحية ، وقد زينت الباخرة بالانوار والاعـلام وصدحت فيها الموسيقى • وكانت سارة قد حضرت الحفلة مع أفراد عائلتها وهي تلبس الأزار والبوشى على الطريقة التي كانت مألوفة يومذاك ، ولـم يكد الباشا يشاهدها حتى شغف بها حباً على الرغم من الفرق الـكبير بين عمريهما ، اذ هي كانت في السابعة عشرة من عمرها بينما هـو كان فـي الخمسـين[٣٤] •

ليس هنا مجال الاسهاب في ذكر القصة[٣٥] ، يكفي أن تقول ان الباشا بذل محاولات شتى للوصول اليها دون جدوى ، ولعله ظن أنه قادر بهيبته وسلطانه أن ينال منها مبتغاه ، ثم تبين له أنها فتاة من طـراز خـاص ذات ارادة وشخصية قوية • وقد بلغ به الغرام يوما أن عرض عليها الزواج فلـم تقبل به ، ولما يئس من اقناعها أخذ يهددها ثم سلط عليها جلاوزته يراقبونها ويضايقونها •••

وتسربت أنباء غرام الباشا الى أوساط العامة فى بغداد ، فوجدوهـــا فرصة ثمينة لهم ليحوكوا المبالغات والاساطير حول القصة ويجعلوهـــا على شاكلة ألف ليلة وليلة • وكان الحديث عنها يدور فى أول الامر همساً، ثم صار الناس يتجاهرون به أخيرا ، ونشأت الاغاني « والبستات » وهـي تتضمن اشارات غير مباشرة حول سلوك الباشا العاشق •

---

(٣٤) اتيح لي أن أقابل سارة الزنگينة فى عام ١٩٤٥ وكانت يومذاك عجوزا بدينة غير أنها كانت لا تزال تحمل بعض بقايا جمالها القديم ، وقلت في نفسي عند رؤيتها : « ساعد الله قلبك يا ناظم باشا ! » .

(٣٥) يجد القارىء تفصيل القصة فى كتاب خيري العمـري (حكايات سياسية) ــ القاهرة ١٩٦٩ ــ الفصل الاول .

واتتهز خصوم ناظم باشا الفرصة فأخذوا يشنعون عليه ما شاءت لهم أهواؤهم • والواقع ان خصومه كانوا كثيرين ، فالاتحاديون كانوا يعتبرونه من المناوئين لهم ، كما كان البريطانيون يكرهونه لانه هدم دار قنصليتهم وبيت لنج • وكان هناك كثيرون هدم ناظم باشا دورهم أو عزلهم عن وظائفهم أو أهانهم فهم لا يمكن أن يحبوه ، وكان بعض المتزمتين من رجال الدين وغيرهم يكرهونه أيضا لانه اقام حفلة رقص وغناء على الباخرة في نهر دجلة •

واقسمت جرائد بغداد تجاه ناظم باشا الى فئتين متعاكستين ، فكانت جريدة « صدى بابل » لصاحبها داود صليوه ، وجريدة « الرياض » لصاحبها سليمان الدخيل ، قد وقفتا الى جانبه • أما الجرائد الاخرى فاتخذت موقف النقد والمعارضة له •

واستطاعت سارة أخيرا أن تهرب من بغداد متنكرة حيث أقلتها احدى بواخر لنج الى البصرة ومن هناك أبحرت الى بوشهر • ثم وصلت الى باريس عن طريق بومبي • وقد ساعدها في هربها القنصل الروسي في البصرة والمقيم البريطاني في بوشهر السر برسي كوكس •

غزل ناظم باشا :

في ١٧ آذار ١٩١١ ورد الامر من اسطنبول بعزل ناظم باشا من ولاية بغداد ، ولم يكد الخبر يشيع في بغداد حتى هب أنصار ناظم باشا فنظموا مظاهرة لتأييده قيل أن عدد المشاركين فيها بلغ العشرين ألفا[٣٦] ، وهو رقم مبالغ فيه انما هو على أي حال يدل على أن المظاهرة كانت ضخمة •

يقول علي ظريف الاعظمي : « ولما شاع خبر عزله في بغداد ثارت العامة بايعاز بعض الاشراف الذين كانوا من حزبه ، وقام غوغاء الناس يطلبون ابقاءه ، وهاجوا وماجوا ثم ضربوا الطبول وذهبوا بجموعهم الى داره وأركبوه عربة وسحبوها به وهم ينادون تارة (هذا والينا) وتارة (الله ينصر دولتنا ناظم باشا والينا) ، حتى وصلوا به الى السراي واقعدوه

---

(٣٦) خيري العمري (حكايات سياسية) ـ ص ٣٥

ف محله ثم ساروا الى دائرة البرق والبريد وتجمهروا فيها وظلوا يبرقون الى العاصمة يطلبون ابقاءه باسم الالوف من الناس ودام الحال طوال النهار ... » (٣٧) .

واستمر التوتر فى بغداد ثلاثة أيام ، كما أرسل عدد من الضباط فيها برقيات الى اسطنبول يهددون بالاستقالة الاجماعية احتجاجا على عزل ناظم باشا ، فلم ينفع ذلك شيئاً . وورد الامر من اسطنبول باناطة اعمال الولاية وكالة الى امير اللواء يوسف آگاه باشا ، وعمد هذا الى استعمال الشدة في قمع المظاهرات وزج القائمين بها والمحرضين عليها في السجن ، فهدأت الحالة وأخلد الناس الى السكون .

وفي صباح ٢٠ آذار ١٩١١ ركب ناظم باشا باخرة من بواخر لنج متوجها الى البصرة ، ومن هناك ذهب الى اسطنبول عن طريق بومبي . ولم ينس أثناء مروره بمدينة بومبي أن يسأل عن حبيبته سارة عسى أن يحظى بلقياها فلم يوفق(٣٨) . وقد تولى ناظم باشا وزارة الحربية عندما تسلم الائتلافيون الحكم فى ٢٢ تموز ١٩١٢ ، ثم قتل بعد أشهر معدودة على نحو ما ذكرناه في الفصل السابق .

يجب أن لا يفوتنا أن نذكر ان الشاعر جميل صدقي الزهاوي نظم قصيدة على أثر عزل ناظم باشا ملأها ذما له وشماتة به ، وهي كانت بعنوان « طاغية بغداد » ، وفيما يلي بعض أبيات منها :

رام هتكاً لما تصون فتاة	كسبت في أمر العفافه اشتهاراً
بنت قوم لم يدنس العرض منهم	بقبيح هم من سراة النصارى
ايها المصلح الكبير آهذا	ما يسميه بعضهم اعمارا
يامهين العراق هل كنت تدري	ان أهل العراق ليسوا غيارى
سر بعيداً الى سلانيك عنا	ان فيها كواعباً أبكاراً

الوالي جمال بك :

ظل يوسف آگاه باشا والياً في بغداد بالوكالة زهاء خمسة أشهر

---

(٣٧) علي ظريف الاعظمي (المصدر السابق) — ص ٢٥١ — ٢٥٢ .

(٣٨) خيري العمري (المصدر السابق) — ص ٣٨ — ٣٩ .

حتى وصل اليها الوالي الجديد جمال بك . وجمال بك هذا من زعماء الاتحاديين الكبار كما أشرنا اليه في الفصل السابق ، وهو الذى أطلق العرب عليه فيما بعد — أثناء الحرب العالمية الاولى — لقب « السفاح » وهو لقب يليق به .

وصل جمال بك الى بغداد فى يوم السبت ٢٦ آب ١٩١١ ، وكان فى التاسعة والثلاثين من عمره ربع القامة بهي الطلعة له لحية شقراء أنيقة ، والمعروف عنه أنه كان فى ظاهره بشوشاً يحسن المجاملة غير أنه كان في أعماقه قاسياً لا يتردد ان يؤذي أو يقتل من كان يجامله بالامس ، فتراه اذا تقدم اليه أحد برجاء ابتش له ورحب به وقال له : « باش أوستنه » أي « على رأسى » ، ولكنه يكتب سرا بما يناقض ذلك(٣٩) .

كان جمال بك يختلف عن سلفه ناظم باشا من حيث كونه لا يهتم بالمظاهر الدينية ، وكان يحضر الحفلات الراقصة التي كانت الجالية الاوربية تقيمها بين آونة وأخرى . انه اتخذ سكناه في دار عبدالجبار الخضيري الكائن على نهر دجلة قريبا من الباب الشرقي — وهو الذي صار في العهد الملكي مقرا لوزارة الشؤون الاجتماعية . وكان مدير البنك العثماني وهو رجل بريطاني يسكن في الدار المجاورة له ، وقد اعتاد جمال بك أن يحضر الحفلات الراقصة التي كان يقيمها مدير البنك فى داره ويراقص زوجته ، وهذا كان من الامور المألوفة بين الاوربيين ولكن البغداديين استنكروه واعتبروه من المخازي التي لا يجوز لوال مسلم أن يرتكبها . وقد كتب أحد البغداديين تعليقاً على صنيع جمال بك في هذا الشأن فقال عنه ما نصه : « اشتهر بالمخازي ، ورقص الدانص مع مدامة مدير البانق العثماني »(٤٠) .

في الفرات الاوسط :

بعد مضى اربعة عشر يوما على وصول الوالي جمال بك الى بغداد أصدر بياناً الى العشائر نشرته جريدة الزوراء حذرهم فيه من العودة الى

---

(٣٩) مصطفى نورالدين الواعظ (المصدر السابق) — ص ٣٩١ ، ٣٩٨ .
(٤٠) عباس العزاوي (المصدر السابق) — ج٨ ص ٢٢٥ .

الغزو، وذكرهم بفتاوى العلماء ، وقال لهم: انهم بحمد الله مسلمون موحدون يعرفون أن النار جزاء من يقتل الناس ويعيث في الارض فسادا ، وطلب منهم الرجوع الى باب الحكومة وعدالتها لحل المنازعات بينهم ، ثم هدد من لا يفعل ذلك منهم بالعقاب الشديد(٤١) .

لم تفهم العشائر ما قاله الوالي في بيانه اذ هي كانت قد عادت الى التنازع والقتال فيما بينها خلال الاشهر القليلة التي سبقت وصوله الى بغداد . وكانت أولى العشائر التي فعلت ذلك هي عشائر الشامية وأبو صخير مما ادى الى انتشار الفوضى في أنحاء المنطقة .

كان عليوي الرخيص رئيس آل شبل محور الفوضى في تلك المنطقة، فقد كان هذا الرجل هارباً أثناء ولاية ناظم باشا فلما سمع بعزله عاد الى المنطقة مستنجدا بعشائر الخزاعل وآل فتلة وآل ابراهيم وآل زياد والجبور وغيرهم ، فأنجدوه وهاجموا أعداءه عشيرة الغزالات وأتباعهم من أهل النخيل ، فوقعت من جراء ذلك معارك فظيعة وقيل ان مزهر الفرعون أبدى فيها قسوة عجيبة حيث حاصر قرية اللهيبات القريبة من الحيرة فأحرق دورها ونهب أموالها ، ثم توجه بعدئذ الى الحيرة نفسها وكانت تسمى « الجعارة » فأحرق جزءاً من سوقها ونهب الحوانيت والدور فيها ، وأزهق ارواحا بريئة كثيرة(٤٢) .

أرسل جمال بك الضابط سليمان عسكري مع قوة عسكرية الى تلك المنطقة(٤٣) . واستطاع هذا الضابط أن يضرب العشائر المتحاربة ضربات شديدة ، ثم ألقى القبض على رؤسائها فزجهم في السجن كان منهم مزهر الفرعون وأخوه مبدر ، وعبدالكاظم الحاج سكر وأخوه عبدالواحد ، ولكنه لم يستطع أن يلقي القبض على رأس الفتنة عليوي الرخيص فاستحوذ على جميع مواشيه وأثاثه وأغنام عشيرته ، وأعطى أراضيه وأراضي عشيرته الى حسن الفرهود رئيس بني زريج(٤٤) .

---

(٤١) المصدر السابق — ج٨ ص ٢١٦ — ٢١٨ .
(٤٢) علي آل بازركان (الوقائع الحقيقية) — بغداد ١٩٥٤ — ص ٣٢ .
(٤٣) عباس العزاوي (المصدر السابق) — ج٨ ص ٢١٩ .
(٤٤) علي آل بازركان (المصدر السابق) — ص ٣٢ — ٣٣ .

وبعد القضاء على تلك الفتنة قرر الوالي جمال بك زيارة الفرات الاوسط في جولة تفتيشية ، فتحرك من بغداد مع حاشية له على الخيول وقد لبس العباءة والعقال . وبعد أن فتش سدة الهندية التي كان العمل يجري فيها توجه الى الحلة ، وعند اقترابه منها لم يجد في استقباله سوى اربعة اشخاص فقط هم : المفتي اسماعيل أفندي الواعظ ، والحاكم صالح أفندي الباچچي ، ومأمور الاملاك المدورة محمود أفندي الشيخ علي ، والقومسير محمود أفندي ، فاشتد غضب الوالي لعدم حضور القائمقام والاهالي لاستقباله . ولما دخل الى البلدة جاءه شوكت بك ، وكان القائمقام بالوكالة، وأخذ يعتذر ويتضرع قائلا : « ايها الباشا ، من الصغير الخطأ ، ومن الكبير العفو ، عبدكم أخطأ وهو مغرور بعفو ولطف دولتكم » . ولكن الوالي لم يقبل اعتذاره بل ظل غاضبا لا يتكلم ، ثم ذهب الى دائرة التلغراف فأبرق الى قائمقام خانقين الحاج نامق أفندي يأمره بأن يحضر حالاً الى الحلة ليتسلم منصب القائمقامية بدلاً من شوكت بك على أن يصل اليها خلال يومين . وكانت تلك مشكلة كبرى للحاج نامق افندي اذ يجب عليه أن يقطع مسافة ثمانية أيام بيومين ، وقد استطاع على أي حال أن يصل الى الحلة في الوقت المحدد له حيث أمضى الوقت كله على ظهر فرس ، وكان يبدل فرسه في كل بلدة يمر بها بين خانقين والحلة .

ولم يمكث الوالي في الحلة ، بل غادرها حالاً الى الجربوعية فالديوانية ، وكان قاضي الديوانية صالح افندي الملي وكيلاً عن المتصرف فيها ، فأقام للوالي حفلة استقبال لم يسبق لها مثيل حيث نصب خيمة فخمة على جدول الرشادية ، وقد جلس فيها الوالي فجاءت العشائر أفواجا تسلم عليه ، كما زينت البلدة بأنواع الزينة وفرشت السجادات الايرانية على الارض من الجسر الى باب السراي وفي داخل السراي أيضا . ومكث الوالي في الديوانية ثلاثة ايام ثم غادرها الى الشامية فأبو صخير فالنجف فكربلاء ، ومن ثم عاد الى بغداد(٤٥) .

---

(٤٥) مصطفى نورالدين الواعظ (المصدر السابق) ـ ص ٢٩٤ ـ ٢٩٧ .

فتوى الجهاد :

في ٣٠ ايلول ١٩١١ وصل الخبر الى بغداد بهجوم ايطاليا على طرابلس الغرب ، فأصدر الوالي جمال بك بيانا الى المسلمين من أهل العراق طلب فيه منهم ان يهبوا لنصرة الدولة في حرب الكافرين • وعلى أثر نشر هذا البيان خرجت المظاهرات في بغداد على شكل مواكب تحمل الرايات والطبول ، وذهب المتظاهرون الى القشلة حيث خرج اليهم الوالي فخطب فيهم بالتركية كما خطب فيهم الزهاوي بالعربية ، ثم ساروا من بعد ذلك في الطرقات وهم يهتفون لنصرة الدولة • ولم تخل تلك المظاهرات من حادث مزعج اذ التقى في باب المعظم موكب باب الشيخ بموكب الحيدرخانه، والظاهر أن احقاداً كانت موجودة بين المحلتين ، فنشب بينهما قتال كان النصر فيه لاهل باب الشيخ[٤٦] •

وانطلق الشعراء من بعد ذلك يتبارون في نظم القصائد للتحريض على الجهاد ومساعدة الدولة العثمانية فيه ، وكان ابرزهم في ذلك الرصافي وعبداللطيف الحلي وأبو المحاسن ومحمد حسين كاشف الغطاء ورضا الشبيبي وأخوه باقر وعلي الشرقي وعبدالعزيز الجواهري وابراهيم منيب الباچچي وعبدالرحمن البناء •

وتألفت لجان خاصة في المدن العراقية لجمع التبرعات منها لجنة في البصرة برئاسة السيد طالب النقيب جمعت آلاف الليرات ، وتطوع الالوف من سكان العراق للمشاركة في القتال ولكنهم لم يذهبوا • وتبرع مبدر الفرعون رئيس آل فتلة وهو في السجن بمبلغ قدره خمسمائة ليرة كما أعلن عن استعداده للمشاركة في الحرب[٤٧] ، وقد كافأه الوالي على ذلك فأطلق سراحه من السجن هو وأقرباؤه من رؤساء آل فتلة •

وأصدر رجال الدين فتاويهم في وجوب بذل النفس والنفيس لنصرة الدولة ، وقد ساهم في اصدار هذه الفتاوي علماء السنة والشيعة جميعاً

---

(٤٦) لويس ماسنيون (لهجة بغداد العربية) ــ ترجمة اكرم فاضل ــ بغداد ١٩٦٢ ــ ص ٨ •

(٤٧) ابراهيم الوائلي (الشعر العراقي وحرب طرابلس) ــ بغداد ١٩٦٤ ــ ص ١١ •

ما عدا واحدا منهم هو السيد كاظم اليزدي • ومما يلفت النظر ان هـذا الرجل عاد فأصدر فتواه حين هاجمت روسيا ايران ، وقد ذكر في فتواه عندئذ ان المسلمين يجب أن يقوموا بأمر الدفاع عن طرابلس الغرب تجاه هجوم ايطاليا ، وعن ايران تجاه هجوم الروس •

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد ان مجلة العلم النجفية كانت قد أشارت في صدر عددها الصادر في ٢٣ تشرين الثاني ١٩١١ الى ان السيد كاظم اليزدي تخلف عن بقية علماء النجف في التوقيع على الفتوى ، ثم عادت المجلة في آخر العدد نفسه فنشرت خبرا بعنوان « بشارة عظمى » نقلت فيه نص الفتوى التي أصدرها اليزدي وعلقت عليه قائلة : « قد سبق منا في صدر هذا العدد ابداء الاسف من تخلف حضرة المومى اليه عن بقية علماء النجف في امضاء صورة منشورهم الخطير في وجوب اتحاد المسلمين ودفاعهم عن طرابلس الغرب • ولكنه دام ظله بعد ما أبلغه حضرة الحر المقدام عزيز بك قائمقام النجف تعديات ايطاليا على طرابلس وتجاوزات الروس والانكليز على الحدود الايرانية أعلن موافقته لحجج الاسلام في وجوب توحيد كلمة أهل التوحيد لدفاع هاتيك الدول الثلاث، ونشر هذه الفتوى التي قدمنا صورتها الجليلة لانظار قرائنا الكرام • فليصدقوا ما قررناه في أعدادنا الماضية وهو أن اعداءنا كلما زادونا اضطهادا ازددنا اتحادا ••• » •

الصراع الحزبي في بغداد :

في ٢٥ كانون الثاني ١٩١٢ حل الاتحاديون مجلس المبعوثين واستصدروا فرمانا باجراء انتخابات جديدة ، وكان الائتلافيون حينذاك قد ألفوا حزبهم المعارض واختاروا السيد مصطفى الواعظ ليكون وكيلا عنهم في تأسيس فرع لحزبهم في بغداد •

غادر السيد مصطفى اسطنبول في ١٩ شباط متوجها الى بغداد ، فوصلها بعد شهر واحد • وعند وصوله دعا السيد عبدالرحمن النقيب والسيد علي الآلوسي ، والشيخ يوسف السويدي ، وعبدالرحمن باشا الحيدري ، الى وليمة غداء في داره في باب الشيخ • وقد اتفق الحاضرون

على معارضة الوالي جمـال بك ومقـاومة « أعابيثه » ، وأقسموا بالله على ذلك[٤٨] .

وأخذ السيد مصطفى الواعظ يعمل على تأسيس فرع لحزب الحريـة والائتلاف ببغداد ، واستأجر له دارا خاصة به وعلق على أحـد جدرانهـا قطعة كتب عليها « الائتلاف خير من الاختلاف » . وقد انضم الى الفـرع الـكثير من الشـباب المتعلـم مـن أمثـال كامل الطبقجلي صاحب جريدة « بين النهرين » ، وحمدي الباچچي ، وشكري الفضلي ، ومحمود نديـم الطبقچلي ، ومحمود أديب ، وعمر نظمي ، وجمال بابان ، وغيرهم . وكـان هذا الفرع مدعوماً من قبل السيد طالب النقيب في البصرة .

حاول الوالي اجتذاب السيد مصطفى الواعظ الى حزب الاتحـاد والترقي ، فزاره في داره ذات مساء وظل يحاوره ويغريه حتى السـاعة الرابعة بعد الغروب ، وتعهد له بتعيينه عضوا في مجلس الاعيان ، فلـم يوفق في اقناعه[٤٩] . وتحول الوالي بعدئذ نحو السيد عبدالرحمن النقيب محاولا اجتذابه ، وكان النجاح حليفه في ذلك ، فقد تعهد للنقيب بجعـل ابنه محي الدين مبعوثا عن بغداد ، وتم الاتفاق بينهما على ذلك ، وانسحب النقيب من الحلف الذي كان بينه وبين زملائه الآخرين[٥٠] .

جرت الانتخابات في ربيع ١٩١٢ ، وكانت انتخابات حامية تختلف عما جرى من قبل ، وشهد العراقيون لاول مرة في حياتهم صراعا حزبيـا بين المرشحين . وقد بذل الوالي جهودا كبيرة في سبيل انجاح المرشـحين الاتحاديين ضد خصومهم ، وكانت النتيجة أن فاز الاتحاديون في جميـع الالوية ما عدا البصرة والعمارة اذ فاز فيهـا الائتلافيون بقـوة السـيد طـالب[٥١] .

يقول السيد اسماعيل الواعظ في وصف تلك الانتخابات : انهـا

---

(٤٨) مصطفى نورالدين الواعظ (المصدر السابق) ــ ص ٢٦١ .
(٤٩) المصدر السابق ــ ص ٣٩٨ .
(٥٠) خالد محسن اسماعيل (المصدر السابق) ــ ص ٤١ .
(٥١) سليمان فيضي (في غمرة النضال) ــ بغداد ١٩٥٢ ــ ص ١٠٢ ــ ١٠٤ .

قد حصل فيها « التلاعب المشين من حرق الاوراق وتزويرها »[٥٢] . ولست أدري هل حصل ذلك حقاً أم أن السيد اسماعيل قال ذلك لان أباه السيد مصطفى فشل في الانتخاب ؟!

وقد أقام الاتحاديون ببغداد حفلة بمناسبة نجاحهم في الانتخاب خطب فيها الوالي فأخذ يعدد مناقب الاتحاديين وأعمالهم في خدمة الدولة العثمانية ، وخطب كذلك فؤاد بك الجبيچي ونوري أفندي البغدادي وجميل صدقي أفندي الزهاوي ، وكان مما قاله الزهاوي في خطبته « انه يعيش اتحاديا ، ويموت اتحاديا . ويلاقي الله بوجه الاتحاديين »[٥٣] . ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن الزهاوي كان قد فاز بالانتخاب مبعوثاً عن لواء المنتفق .

صاحب المنار في بغداد :

في الوقت الذي كانت فيه بغداد مشغولة بالانتخابات وصل اليها السيد رشيد رضا صاحب مجلة « المنار » القاهرية ونزل في ضيافة السيد عبدالرحمن النقيب . والظاهر أن مجيء هذا الرجل الى بغداد في تلك الظروف لم يكن خالياً من بعض المقاصد السياسية . يجب أن لا ننسى ان السيد رشيد كان من الذين انتقدوا الاتحاديين على سياستهم ضد العرب وكتب في ذلك مقالات عديدة ، وقد اصطدم من جراء ذلك مع الشيخ عبدالعزيز شاويش في عام ١٩١١ ، اذ كان الشيخ شاويش يهاجمه في مجلته « الهداية » ويتهمه بأنه متفاهم مع الانكليز ، فيرد عليه السيد رشيد في مجلته « المنار » ويكيل له الصاع صاعين[٥٤] .

وحين وصل السيد رشيد الى بغداد احتفى به أهل بغداد لا سيما الشباب المتعلم من ذوي التحسس القومي ، فطلبوا منه القاء محاضرة عامة وحاولوا تمثيل رواية « وفاء العرب » ليمهدوا بها الى اجتماع الناس من

---

(٥٢) مصطفى نورالدين الواعظ (المصدر السابق) — ص ٥٦٢ .
(٥٣) خالد محسن اسماعيل (المصدر السابق) — ص ٤٢ .
(٥٤) انور الجندي (عبد العزيز جاويش) — القاهرة — ص ١١٢ — ١١٤ .

أجل استماع المحاضرة . ولم يرق ذلك للاتحاديين في بغداد فحركوا عليه رجال الدين والعامة وكانت الذريعة التي اتخذوها ضده هي أنه « سلفي » ينكر قدسية الاولياء. وكان على رأس المحرضين عليه السيد مصطفى الواعظ، وقد ألف في ذلك كتيباً ، ويقال ان السبب فى ذلك هو أن السيد مصطفى بعد أن خسر النيابة أراد أن ينال عضوية المجلس الاداري فأخذ يتقرب الى الوالي عن طريق التشهير بالسيد رشيد رضا[٥٥] . وقد اضطر هذا أن يغادر بغداد دون أن يلقى المحاضرة .

مصير الائتلافيين في بغداد :

قدم جمال بك استقالته من ولاية بغداد على أثر تسلم الائتلافيين الحكم في اسطنبول فى ٢٢ تموز ١٩١٢ . وفى ١٧ آب غادر جمال بك بغداد ، وقد خرج الاتحاديون ومن شايعهم من أهل بغداد لتوديعه ، واجتمعوا فى الساحة القريبة من مقبرة الشيخ جنيد ، فخطب فيهم خطبة مسهبة ختمها بقوله : « قد تظنون أنني استقيل من ولاية بغداد خشية من معاكسة الوزارة لما أريده هنا ، فاذا كان ظنكم هذا فغلطاً ما تظنون ، والواقع اني انما سارعت باستقالتي لاستطيع الذهاب الى الاستانة فهناك أستطيع العمل على اسقاط وزارة الائتلافيين »[٥٦] .

مرت بعد جمال بك فترة استغرقت سنة ونصفه تقريبا تعاقب عليها عدة ولاة ، بالوكالة تارة وبالاصالة تارة أخرى ، كان آخرهم محمد فاضل باشا الداغستاني التي ظل واليا بالوكالة من ١٠ ايلول ١٩١٣ حتى ١٨ كانون الثاني ١٩١٤ . ولم يحدث خلال تلك الفترة ما يستحق الذكر سوى ما حصل فى بغداد من صدى بليغ لمقتل الصدر الاعظم محمود شوكت باشا ، فقد قتل هذا الرجل فى اسطنبول فى ١١ حزيران ١٩١٣ كما ذكرناه فى الفصل الماضى ، وحين وصل الخبر الى بغداد فرح الائتلافيون به فرحا ظاهرا وظنوا أن مقتله سيقصم ظهر الاتحاديين على نحو ما قصم مقتل ناظم باشا قبلئذ

---

(٥٥) خالد محسن اسماعيل (المصدر السابق) — ص ٤٤ — ٤٥ .
(٥٦) المصدر السابق — ص ٤٦

ظهر الأئتلافيين وشتت شملهم •

كان بعض الأئتلافيين في بغداد شباباً أغرارا اذا سمعوا بحادثة ظنوا ان الدنيا انتهت بها فيندفعون في أمر ثم يندمون عليه • فهم لم يكادوا يسمعون بمقتل محمود شوكت باشا حتى أعلنوا اغتباطهم بذلك ، واخذت الموسيقى تصدح في ناديهم • وأرسل أحدهم ، وهو كامل أفندي الطبقجلي، برقيات الى ولي العهد وبعض ذوي المقامات العالية في اسطنبول تتضمن البشرى والتهنئة •

كان الاتحاديون في اسطنبول قد اتخذوا من مقتل محمود شوكت باشا قميص عثمان على نحو ما ذكرناه في الفصل السابق ، وصاروا ينتقمون من خصومهم ويطاردونهم في كل مكان • ولهذا أبرق وزير الداخلية الى الداغستاني الذي كان واليا في بغداد بالوكالة يأمره بالقاء القبض على كامل الطبقجلي ويوسف السويدي وشكري الفضلي ومحمود نديم الطبقچلي ، وتسفيرهم الى اسطنبول لتقديمهم الى المحكمة العسكرية بتهمة اشتراكهم في مقتل الصدر الاعظم محمود شوكت باشا •

كان محمد فاضل باشا الداغستاني يتميز عن غيره من الولاة العثمانيين بأنه يعتبر نفسه بغداديا ، وكان ذا شهامة ونخوة على الطريقة المحلية ، ولهذا كان البغداديون يحبونه ويبالغون في مدحه • فلما جاء الامر اليه في القاء القبض على الأئتلافيين البغداديين هب للتشفع لهم وحمايتهم • فرفع اقتراحا الى اسطنبول يطلب فيه احالتهم الى محكمة عسكرية تقام في بغداد ، فاجيب الى طلبه فيهم ما عدا واحدا منهم هو كامل الطبقچلي ، واضطر الى تسفيره الى اسطنبول ليلاقي جزاءه ، أما الباقون فقد أمضوا في التوقيف عدة ايام ، ثم أطلق سراحهم •

كانت تلك نهاية الأئتلافيين في بغداد ، حيث تفرقوا بعدها أيدي سباء فاعتزل السياسة بعضهم ، وانضم آخرون الى الحزب الغالب ، وهرب محمود نديم الطبقچلي الى البصرة محتمياً بالسيد طالب النقيب •

سدة الهندية الثانية :

ان السدة التي بناها المهندس الفرنسي شونديرفر في عام ١٨٩٠ على نهر الفرات أخذت تتهدم بمرور الايام ، حتى اذا حل عام ١٩٠٥ اصبحت

الحالة في شط الحلة اشد مما كانت عليه قبل انشاء السدة ، وانقطعت المياه في موسم الصيهود عن أراضي الحلة والديوانية والدغارة وصار السكان يهجرونها ، وبدأ التلف يحل ببساتين النخيل[٥٧] .

وفي شهر كانون الاول ١٩٠٨ وصل بغداد المهندس البريطاني المعروف السر وليم ويلكوكس اذ كانت الحكومة العثمانية قد عينته مستشارا للري في العراق[٥٨] . وبعد دراسة الوضع رفع ويلكوكس تقريره الى اسطنبول حيث يقترح فيه بناء سدة ذات ابواب حديدية على بعد ثمانمائة متر من شمال سدة شونديرفر . وقد أخذت الحكومة بهذا الاقتراح وعهدت ببناء السدة الجديدة الى شركة «جاكسون» البريطانية ، وباشرت الشركة بالعمل في شباط من عام ١٩١١ .

بُنيت السدة على اليابسة في الجهة الشرقية من مجرى النهر، واستخدم فيها زهاء ٣٥٠٠ عامل عراقي ، وجرى العمل فيها بدقة عجيبة ويعود الفضل في ذلك بالدرجة الاولى الى الشركة المتعهدة والى المهندس المشرف السر وليم ويلكوكس ، فلولاهما لما كان في الامكان بناء سدة بمثل تلك الضخامة في وضع اداري متفسخ كالوضع الذي كان سائدا في العراق يومذاك .

بلغت تكاليف السدة ربع مليون ليرة ، وهذا مبلغ زهيد يمكن أن نعزو سببه الى رخص أجور العمل من جهة ، والى نزاهة المشرفين على العمل من الجهة الاخرى . وفي ١٢ كانون الاول ١٩١٣ جرى الاحتفال بافتتاح السدة ، فكان احتفالا مهيباً حضره القناصل وكبار الموظفين والاعيان كما حضره الوالي بالوكالة محمد فاضل باشا الداغستاني . والقى المستر هويتلي مندوب الشركة خطابا بالفرنسية ، فأعقبه الداغستاني بخطاب آخر بالتركية. ثم سار المدعوون الى سد التراب الذي أقيم لمنع الماء من الجريان ، فتلي دعاء وذبحت الذبائح ، ثم أمسك الداغستاني بمسحاة أزال بها شيئا من التراب ، واندفع من بعده عشرون عاملا فأزالوا سد التراب كله في خمس

---

(٥٧) احمد سوسة (وادي الفرات) ــ بغداد ١٩٤٥ ــ ج٢ ص ٢٩١ .

(58) Stephen Hamsley Longrigg (op . cit .) — P 68 .

دقائق ، وتدفقت المياه نحو السدة بين زغردة النساء واطلاق الرصاص(٥٩) .

ولاية جاويد باشا :

في ١٨ كانون الثاني ١٩١٤ وصل بغداد الوالي جاويد باشا ، وكان معه عدد من الضباط والموظفين ، فاستقبل استقبالاً حافلاً واطلقت له المدافع .

كان جاويد باشا من كبار الاتحاديين ، وهو مختص بالاقتصاد والشؤون المالية ، وقد تولى وزارة المالية في عهد الدستور مرتين ، ولهذا أثار تعيينه في العراق بعض الاقاويل والمخاوف . وكان قبل وصوله الى بغداد قد هاجمته جريدة « النهضة » لصاحبها مزاحم الباچچي ، وجريدة « المصباح » لصاحبها عبدالحسين الازرى ، وتوسمتا فيه الشر على العراق وأهله .

يبدو أن جاويد باشا كان حريصاً على استيفاء ما بذمة العشائر من أموال أميرية، ولعله أراد بذلك أن يسترجع المبالغ التي أنفقت على سدة الهندية . وقد كان اهتمامه منصبا بالدرجة الاولى على آل فتلة في منطقة أبو صخير والمشخاب ، فقد كانت تلك المنطقة غنية بزراعة الرز وكان جفاف شط الحلة سابقا قد أفادها كثيرا اذ تحول الماء اليها مما جعل عشائرها مرفهة نسبياً .

عين جاويد باشا حامد آفندي السامرائي قائمقاما بالوكالة في أبو صخير ، وكان هذا الرجل معروفا بالصرامة والنزاهة ، ولما تسلم الوظيفة وجد أن مبدر الفرعون والآخرين من رؤساء آل فتلة عليهم ديون أميرية كثيرة ، ثم وصلته « اخبارية » في شأن مبدر الفرعون بوجه خاص تقول انه ينفق على المومسات والراقصات خمسين ليرة في كل ليلة .

قام جاويد باشا بجولة تفتيشية في الفرات الاوسط ، وكانت له سيارة خاصة به وهي أول سيارة شاهدها سكان تلك المنطقة ، فكان سائقها يرسل صفائح البنزين والدهن اللازمة لها أمامه في الطريق . وصادف

---

(٥٩) احمد سوسة (المصدر السابق) ـ ج٢ ص ٣٩٨ ـ ٣٩٩ .

عند وصول جاويد باشا الى كربلا ان كان فيها مبدر الفرعون فارسل السائق معه بعض الصفائح ليحملها الى أبو صخير • وحين وصل مبدر الى أبو صخير دخل على حامد السامرائي ليخبره بقرب وصول الوالي اليها، فالتفت السامرائي اليه غاضبا وقال له: « بمثل هذه الامور والاحوال تأكلون اموال الحكومة وتنالون من أوليائها الاحترام خصوصا من يجهل احوالكم، فاين أموال الحكومة يا مبدر ؟ فاعلم أني لست ممن يموه عليهم ، ولا من يرغب في الاولاد والنساء ، ولا من أهل الارتكاب حتى تأخذوني بيدكم كما هي عادتكم مع مأموري الحكومة • واني لا أدعكم تأكلون قرشا واحدا من أموال الحكومة من هنا فصاعدا » • فخرج مبدر من عند السامرائي والغيظ ظاهر على وجهه •

وعند وصول الوالي الى أبو صخير جاء اليه رؤساء آل فتلة مستغيثين يطلبون منه عزل القائمقام ، فقال لهم : « اعلموا ان هذا القائمقام لا مرتكب فترشوه ، ونحن طلبنا منه تحصيلات الاموال السابقة والحالية ، فان دفعتموها فهو صديقكم والا فاني خولته وأعطيته اليد وأبحت له أن يفعل فيكم ما يشاء بمساعدتي » • ثم ركب الوالي سيارته وغادر البلدة(٦٠) •

قدم حامد السامرائي الى رؤساء آل فتلة انذارا أمده عشرة ايام بأن يوفوا ما بذمتهم من أموال الحكومة السابقة والحالية ، ولم يجد أولئك الرؤساء طريقا أمامهم سوى الثورة واعلان العصيان • وقد استمرت الثورة أربعة أشهر ، ووجهت الحكومة عليهم من البصرة باخرة مجهزة بالمدافع والرشاشات ، وأنزلت بهم الهزيمة ، وصعد حامد السامرائي فوق قلعة مبدر وقال : « يا آل فرعون أسومكم سوء العذاب » ، ثم أمر بهدم القلعة • واستسلم مبدر للحكومة في أبو صخير ، وألقت القبض على أخيه مزهر وابن اخيه سرتيب المزهر ، وعبد الكاظم الحاج سكر واخيه حسن(٦١) ، وسيقوا جميعا الى بغداد فأودعوا السجن فيها • أما عبدالواحد

---

(٦٠) علي آل بازركان (المصدر السابق) — ص ٣٤ — ٣٥ •

(٦١) فريق مزهر آل فرعون (الحقائق الناصعة) — بغداد ١٩٥٢ — ج ١ ص ٣٤ — ٣٥ •

الحاج سكر فقد استطاع الهرب واختفى بين الرعاة[٦٢] • وقام السامرائي عندئذ بعمل يعد الاول من نوعه في تاريخ العراق الحديث ، هو أنه استولى على اراضى الرؤساء وقسمها على أفراد العشيرة ، واستحصل من الوالي على « الشرطنامات » اللازمة لهم • وقد أشغل الافراد بيوت رؤسائهم واستغلوا أراضيهم • ولكن ذلك لم يدم طويلا ، فلما أعلنت الحرب العامه واحتل الانكليز البصرة أطلق الوالي سراح رؤساء آل فتلة وأعاد اليهم آراضيهم • وذهب هؤلاء الى الشعيبة ليشاركوا في « الجهاد في سبيل الله » ! •

---

(٦٢) علي آل بازركان (المصدر السابق) ـ ص ٣٦ •

الفصل السابع

حركة الوعى العربى
واثرها فى العراق

لم يكن للعرب في العصور المتأخرة وعي قومي بالشكل الواضح الذي نشهده في عصرنا ، ذلك لان الوعي الديني هو الذي كان سائدا بينهم وكان المسلمون منهم يعتبرون الاتراك اخوانا لهم في الدين ضمن اطار الدولة العثمانية التي كانت تمثل الخلافة الاسلامية في نظرهم .

لم يظهر الوعي القومي بين العرب الا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وكان اول ظهوره بين المسيحيين الشاميين ، ويعزو ساطع الحصري ذلك الى أسباب منها أنهم كانوا اكثر اتصالا من المسلمين بالدول الغربية ، وأنهم فضلا عن ذلك كانوا يعتبرون الدولة العثمانية غريبة عنهم ومتسلطة عليهم ، ولذا فهم كانوا يختلفون فى هذا المضمار عن اخوانهم المسلمين[١] .

ان اول جهد منظم فى تاريخ الوعي العربي الحديث اتضح فى عام ١٨٧٥ حين الف خمسة شبان مسيحين من الذين درسوا فى الكلية الامريكية «جمعية ثورية سرية» . وقد استطاع هؤلاء الخمسة بمرور الزمن ان يضموا الى جمعيتهم اعضاء من مختلف الطوائف الدينية وان يفتحوا لها فروعاً في دمشق وطرابلس وصيدا ، كما استطاعوا ان يستميلوا اليهم المحفل الماسوني الذي كان قد انشىء منذ عهد قريب وان يشركوه فى اعمالهم[٢] .

---

(١) ساطع الحصري (نشوء الفكرة القومية) ــ بيروت ١٩٥٦ ــ ص ١٧٧ــ١٨٤ .
(٢) جورج انطونيوس (يقظة العرب) ــ ترجمة ناصرالدين الاسد واحسان عباس ــ بيروت ١٩٦٢ ــ ص ١٤٩ ــ ١٥٠ .

وصف فارس نمر وهو أحد المؤسسين لتلك الجمعية كيف نشأت الفكرة في أذهانهم فقال : ان فكرة القومية لم تكن يومذاك قد وجدت طريقها الى وجدان العامة ، وكان ولاء الناس يقوم على أساس ديني طائفي، وكانت الوحدة القومية في مثل تلك الظروف امراً يستحيل قيامه ، غير أن جماعة صغيرة من الشبان معظمهم من المسيحيين كانوا يريدون تحرير لبنان من الحكم التركي فأسسوا الجمعية وراحوا يجتمعون مساءا على الروشة في رأس بيروت للتداول والتشاور ، وكان أشد ما يقلقهم هو شعورهم بأنهم غرباء في الوطن واحتقار الاتراك لهم ، وقد أدركوا أنهم اذا أرادوا بلوغ هدفهم ينبغي لهم أن يتعاونوا مع المسلمين لكي يظهروا كجبهة واحدة أمام الاتراك ، ولم يكن هناك من قاسم مشترك بين المسلمين والمسيحيين سوى « العروبة » • فالعروبة كشعار كان في وسعها أن تثير في نفوس العرب شعورا بالقومية وأن توحد بين المسلمين والمسيحيين الناقمين على الاتراك • وهناك نقطة اخرى في هذا الشأن هو أن بعض الاعضاء البارزين في الجمعية كانوا قد انضموا الى المحافل الماسونية ، فأخذوا يسعون نحو ادخال المسلمين في تلك المحافل لكي يستميلوهم من بعد ذلك الى الجمعية ، وقد انضم في الواقع عدد قليل من المسلمين الى المحافل الماسونية[٣] •

في عهد مدحت باشا :

كان مدحت باشا قد عين والياً في بلاد الشام في عام ١٨٧٨ وقد تميز عهده في تلك البلاد بشيء من اليقظة الفكرية والتحرر على نحو ما تميز في العراق من قبل • وانتهز أعضاء « الجمعية الثورية السرية » تلك الفرصة فنشطوا للعمل في بث دعوتهم بين السكان •

أخذ أعضاء الجمعية يكتبون منشورات فيها تنديد بالحكم التركي واهابة بالعرب ان يثوروا عليه ، ويلصقونها على الجدران في شوارع

---

(٣) زين نور الدين زين (نشوء القومية العربية) ـ بيروت ١٩٦٨ ـ ص ٦٠ ـ ٦١ •

بيروت ليلا . ثم وسعوا نشاطهم بعدئذ فصاروا ينشرون منشوراتهم في دمشق وطرابلس وصيدا علاوة على بيروت . واستمروا على ذلك حتى أواخر ١٨٨٠ . وقد اصيب المسؤولون في اسطنبول والشام بالحيرة والذهول من جراء هذا النشاط السري .

سرت الاشاعات بين الناس ان الوالي مدحت باشا مطلع على سر الجمعية وأنه ان لم يكن مؤسسها الحقيقي فهو على الاقل يسبغ عليها حمايته ، ونسب اليه أنه يريد أن يستقل ببلاد الشام كما استقل محمد علي باشا بمصر قبله . وأرسل السلطان عبدالحميد بعض جواسيسه خفية الى بيروت ، ففتشوا المساكن واعتقلوا بعض الاشخاص المشتبه بهم . ورفع أعيان بيروت الى الحكومة عريضة يعربون فيها عن ولائهم للسلطان واستنكارهم لكل حركة ثورية[٤] . وبعث القنصل البريطاني ببيروت برقية الى حكومته في ٢٨ حزيران ١٨٨٠ هذا نصها : « ظهرت في بيروت منشورات تحض على الثورة . يشك في ان مدحت باشا هو منشئها ومع ذلك فالهدوء يسود البلاد . التفصيلات بالبريد القادم[٥] » .

ولم يمض على ذلك وقت طويل حتى وصل الى دمشق المشير حسين فوزي باشا مندوبا عن السلطان عبدالحميد ، فقابل مدحت باشا ، وبعد ان ابلغه سلام السلطان قال له : انه موفد اليه بمهمة خاصة هي أخذ العهد والميثاق منه على اخلاصه للذات الشاهانية . فسأله مدحت باشا : عن أية حادثة تريد مني اعطاء عهد الاخلاص ، فأجاب المشير : عن عزمكم على قلب ولاية الشام الى ايالة ممتازة وضمها الى لبنان واستقلالكم فيهما . يؤيد ذلك الاحتفال الذي أقمتموه للسر لايارد سفير انكلترة عند زيارته لكم في دمشق » . وبعد ثلاثة أيام من هذه المحاورة صدر الفرمان السلطاني بنقل مدحت باشا الى ولاية أزمير[٦] .

وبعد انتقال مدحت باشا من ولاية الشام تسرب الضعف الى « الجمعية

---

(٤) المصدر السابق ـ ص ٦٤ .
(٥) جورج انطونيوس (المصدر السابق) ـ ص ١٤٩ ـ ١٥٣ .
(٦) صديق الدملوجي (مدحت باشا) ـ بغداد ١٩٥٢ ـ ص ١٥٦ ـ ١٥٧ .

الثورية السرية » وبدأ الانقسام يظهر بين أعضائها • والظاهر ان الاعضاء اختلفوا حول الهدف الاعلى للجمعية ، فكان المسلمون منهم يطلبون الحكم الذاتي ضمن اطار الدولة العثمانية بينما كان المسيحيون يطلبون الاستقلال التام لبلادهم وطرد الاتراك منها • وقد أدى الخلافه بين الاعضاء الى أن تحل الجمعية نفسها وأحرقت أوراقها[٧] •

الشاميون يهاجرون :

على أثر الاحتلال البريطاني لمصر في عام ١٨٨٢ انتقلت حركة الوعي العربي من بلاد الشام الى مصر ، فقد أخذ الكثير من المثقفين الشاميين يهاجرون الى مصر حيث وجدوا فيها من الحرية والازدهار الصحافي ما لم يجدوه في بلادهم ، فنشطوا للعمل هناك وأخذوا يصدرون الصحف والمجلات ويؤلفون الكتب ، فأنتجوا بذلك حركة فكرية لا يستهان بها • انهم أخذوا يستعملون مصطلحات عربية قديمة بعد أن اسبغوا عليها معاني حديثةمثل « الوطن » و « الامة » و « الاستقلال » و «حقوق الانسان »[٨]، وهي من مفاهيم الثورة الفرنسية والحركات القومية الاوربية ، فصارت هذه المصطلحات تنتشر في البلاد العربية منذ ذلك الحين •

يقول المؤرخ وليم ييل : « ان مصر تحت الحكم البريطاني أصبحت ملاذاً للقوميين العرب ، فقد جاء المهاجرون الشاميون الى وادي النيل افواجا حيث كونوا فيه جالية صغيرة مهمة ، ان هؤلاء اللاجئين كانوا نشيطين في عدة مجالات وقد واصلوا فعالياتهم السياسية والثقافية في مصر• وبذا صارت الجالية الشامية في القاهرة مركزا للقومية العربية مهما••»[٩]•

ومما يذكر ان هؤلاء الشاميين المهاجرين الى مصر اتخذوا لهم مقهى خاصاً بهم في القاهرة هو مقهى « سبلنديد بار » مقابل حديقة الازبكية ، فكان الكثير منهم يترددون عليه عصر كل يوم من أمثال رفيق العظم وشبلي

---

(٧) زين نور الدين (المصدر السابق) — ص ٦١ •

(8) Phillip Hitti (History Of Syria) — London 1951 — P 477 .

(9) William Yale (The Near East) — Ann Arbor — P 196

شميل وانطوان الجميل ومحمد رشيد رضا ومحب الدين الخطيب واسكندر عمون وسامي جريديني وسليم سركيس وجميل الرافعي وحقي العظم وغيرهم[١٠] .

وفي أواخر القرن التاسع عشر تأسست أول جمعية سياسية على أيدي هؤلاء المهاجرين هي « جمعية الشورى العثمانية » ، وكان من مؤسسيها رفيق العظم ومحمد رشيد رضا كما ساهم فيها رجال من الاتراك والشركس والارمن ، وكان هدفها مقاومة الاستبداد الحميدي والعمل على اقامة حكومة دستورية في البلاد العثمانية . ويقال ان هذه الجمعية أقلقت السلطان عبدالحميد حتى أنه لم يستطع النوم ثلاث ليال متوالية عند سماعه خبرها ، وسماها « جمعية الشر والفساد » [١١] .

ولم يقتصر الشاميون هجرتهم على مصر فقط بل هاجروا كذلك الى بلاد اخرى كثيرة كفرنسا وسويسرا والامريكتين الشمالية والجنوبية ، وكانوا في كل بلد يحلون فيه يصدرون الصحف الخاصة بهم ويجهرون فيها بنقد السياسة الحميدية وبالدعوة الى القومية العربية ، وكانت تلك الصحفه تصل الى البلاد العثمانية خفية عن طريق البريد الاجنبي وتتداولها بعض الايدي هنا وهناك بعيدا عن عيون الرقباء .

يمكن القول بوجه عام ان الدعوة القومية التي كان الشاميون المهاجرون يسعون لبثها في البلاد العربية لم تلق فيها الا نجاحا محدودا ، اذ كان اكثر العرب متمسكين بالجامعة الاسلامية التي كان السلطان عبدالحميد يدعو اليها . ومن الجدير بالذكر ان عبدالحميد كان يبذل جهده في استمالة العرب واسترضائهم ، وكان لا يشعر بأي تمييز بينهم وبين قومه الاتراك ، أو لعله كان يسير على سياسة التوازن بين القوميتين حيث جعل الباب العالي ومناصب الوزارة بايدي الاتراك بينما جعل قصره وشؤونه الخاصة بأيدي العرب[١٢] .

---

(١٠) احمد عزت الاعظمي (القضية العربية) ـ بغداد ١٩٣٢ ـ ج ٤ ص ١٠٧ .
(١١) زين نور الدين (المصدر السابق) ـ ص ١٩٥ .
(١٢) جورج انطونيوس (المصدر السابق) ـ ص ١٣٩ ـ ١٤٠ .

عقب اعلان الدستور :

في ٥ آب ١٩٠٨ ـ أي بعد اعلان الدستورالعثماني بثلاثةعشر يوماً ـ اجتمع في اسطنبول نفر من كبراء العرب كشكري الحسيني وشفيق المؤيد وندرة مطران وناجي السويدي وحمدي الباجحي وشاكر الآلوسى وعبدالوهاب الآلوسى وعارف المارديني ومحمد المخزومي وعبدالله الحيدري وصادق المؤيد ومحي الدين الجزائري وغيرهم ، فأسسوا جمعية باسم « جمعية الاخاء العربي العثماني » هدفها مساعدة جمعية الاتحاد والترقي على تنفيذ الدستور وتمتين الروابط بين العرب والاتراك .

وبعد أن جرى انتخاب الهيئة الادارية للجمعية قام شاعر بيروتي اسمه عزيز سليم صعب فألقى قصيدة بالمناسبة نقتطف منها الابيات التالية :

دع سعادا وحب دعد وميه	وانظم الشعر في هوى الحرية
نعم حرية بها الترك والا	عراب والروم واليهود سوية
يا بني الترك ان رعيتم أخانا	نحن أولى الورى وأوفى الرعية
نحن منكم وانتم اليوم منا	باجتماع ككتلة درية
يا بني العرب جددوا ما حفظتم	من عهود للراية التركية
وانبذوا الفرق فياللسان وكونوا	واحدا في العبادة الوطنية
فلنقف كلنا بكل وقار	ونحيي العساكر الملية
ولنحيي عبدالحميد بقول	فليعش للحكومة الشورية[١٣]

لم تعش هذه الجمعية طويلا اذ هي انحلت على أثر واقعة ٣١ آذار وخلع عبدالحميد ، ويقال ان الاتحاديين أغلقوا الجمعية لانهم اعتبروا معظم أعضاءها من الرجعيين الذين آزروا الثورة المضادة[١٤] . ولم تمض على ذلك مدة طويلة حتى ظهرت جمعية عربية أخرى بدلا من الجمعية المنحلة ولها ما يشبه هدفها غير أنها كانت مؤلفة من الشباب في الغالب ، وقد أطلق عليها اسم « المنتدي الادبي » .

---

(١٣) احمد عزت الاعظمي (المصدر السابق) ـ بغداد ١٩٣١ ـ ج٢ ص ٩٨ ـ ١٠١ .

(١٤) احمد قدري (مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى) ـ دمشق ١٩٥٦ ـ ص ١٠ .

كان لولب الجمعية الجديدة شاب حقوقي من جبل عامل في الثلاثين من عمره اسمه عبدالكريم الخليل ، وقد استطاع هذا الشاب بنشاطه الذي لا يفتر وقوة شخصيته ان يجمع حوله الكثير من الطلاب العرب الموجودين فى اسطنبول ، وكان عددهم يناهز الثمانمائة ، فصارت دار الجمعية محلا يلتقى فيه هؤلاء الطلاب ويقيمون الحفلات • وقد القى معروف الرصافي في قاعة المنتدى بعض قصائده « العصماء » •

تيار مضاد :

في الوقت الذي كان فيه التآخي بين العرب والاتراك يجري في طريقه على النحو الذي ذكرناه آنفا ، كان هناك تيار آخر يجري على الضد منه ، ذلك أن بعض العرب بدأوا يشعرون بان الاتراك صاروا يتحيزون ضدهم ، وأخذ هذا الشعور ينمو بينهم تدريجيا •

ان الانقلاب العثماني جعل أزمة الحكم كلها في أيدي الاتراك ، ولم يبق للعرب ذلك النفوذ الذي كان لهم في القصر السلطاني ، وهذا أمر لا بد أن يؤدي الى ظهور شيء من التذمر بين العرب • ان أقل بادرة سلبية تبدو من الاتراك ، وان كانت غير مقصودة ، قد تثير فى العرب رد فعل أشد منها ، فيقابلها الاتراك بما هو أشد منه ، وهكذا يتفاقم العداء بين الفريقين شيئاً فشيئاً كما هو شأن أي نزاع ينشأ بين البشر في مثل هذه الظروف •

يحدثنا أحمد قدري وهو عربي كان طالباً في اسطنبول عند الانقلاب العثماني فقال : انه كان يمشي مع صديقه عوني عبدالهادي في احد شوارع اسطنبول عقب اعلان الدستور فشاهد جمهورا غفيرا من الناس وقد صعد ضابط تركي على عربة يخطب فيهم ، وأخذ الضابط يذكر محاسن الدستور ثم انتقل الى التحامل على كبراء العرب من رجال العهد البائد فقال : « الخائن عرب عزت والخائن عرب أبو الهدى » يقصد بذلك عزت باشا العابد وأبو الهدى الصيادي • يقول احمد قدري : « وقد عجبت أيما عجب لهذا التحامل المغرض ، أفلم يكن بين رجال الحكم البائد طائفة كبيرة من الاتراك فلم لم يندد الخطيب بواحد منهم بمثل ما ندد

بالشخصيتين العربيتين ؟ واذا كان يندد بهما لشخصهما فلم يعمد الى ذكر قوميتهما ؟ حقاً لقد هزني شعوري القومي ، وتعاظمتني العزة العربية ، فانطلقت اليه وصديقي عوني عبدالهادي ندفع الجماهير المزدحمة ، حتى اذا وصلنا اليه جابهناه باستنكار مزاعمه وفي ملامحنا الغضب الشديد وفي صوتنا نبرات مثل النار » [١٥] .

وفي تشرين الاول ١٩٠٨ – أي بعد اعلان الدستور بثلاثة أشهر – كتب الكاتب التركي المشهور حسين جاهد في جريدته « طنين » يقول : ان الامة التركية كانت وستظل هي الامة الحاكمة في السلطنة العثمانية ، وان الترك يتمتعون بحقوق وامتيازات سامية بصفتهم فاتحين فلا مجال اذن للاعتراف بحقوق مساوية للعناصر العرقية الاخرى ، وان الدستور العثماني لا يمكن أن يكون في شكله النهائي الا دستورا تركيا[١٦] .

الواقع ان هذه المقالة لم يرض عنها الكثير من زعماء الاتراك وعقلائهم، وانتقدوها بشدة ، ولكنها مع ذلك أثارت النقمة في العرب واعتبروها تمثل وجهة نظر الاتراك كلهم وتكشف عن نواياهم المخفية .

وفي أواخر ١٩٠٩ ازداد شعور النقمة عند العرب على أثر صدور « قانون التنسيقات » وهو القانون الذي اريد به تطهير جهاز الحكومة من الموظفين الفاسدين . فقد أحس العرب أن نصيبهم من التطهير فاق نصيب زملائهم الاتراك ، وأشيع بينهم أن قوائم الموظفين التي قدمت الى لجان التنسيق كانت تحمل رموزا موضوعة بجانب كل اسم منها ، فالموظف العربي يرمز له بحرف (ع) والارمني بحرف (م) . وهذه اشاعة قد لا تكون صحيحة غير أنها تؤدي على أي حال الى زيادة العداء بين العرب والاتراك .

أدى التطهير الى عزل بضعة عشر متصرفا من العرب ، وكان في وزارة الخارجية اثنا عشر موظفا عربيا فلم يبق منهم بعد التطهير سوى واحد[١٧] . ولا حاجة بنا الى القول ان كل موظف يناله التطهير يعتبر

---

(١٥) المصدر السابق – ص ٦ – ٧ .
(١٦) توفيق علي برو (العرب والترك) – القاهرة ١٩٦٠ – ص ٩٥ – ٩٦ .
(١٧) المصدر السابق – ص ٩٦ – ٩٧ .

نفسه بريئاً ولو كان في الحقيقة من اكثر الناس تفسخاً ، فيجأر بالشكوى ويعزو عزله الى تحيز الاتراك ضده ثم يأخذ بصب اللعنات عليهم .

يقول الكاتب المصري محمد لطفي جمعة : انه عندما زار اسطنبول في شتاء عام ١٩١٠ وأوائل عام ١٩١١ لاحظ بوادر التذمر بين العرب ، وقد روى له العرب اخبارا كثيرة عن اضطهاد الترك لهم[١٨] . وفي شهر شباط من عام ١٩١١ وقف شكري العسلي مبعوث دمشق في مجلس المبعوثين وخطب قائلا :

« ايها السادة ، بحثت بالامس في كتاب (السالنامة) ... واستقصيت اسماء الموظفين المنشورة فيه ، فلم أجد بعد البحث الا أسماء قليلة جدا لا تتجاوز عدد أصابع اليد من أبناء العرب الذين هم نصف هذه السلطنة.. فنحن نشترك مع بقية العناصر فى دفع الضرائب والقيام بالتكاليف فهل من العدل أن نقوم بما علينا ولا نعطى ما لنا ... هل من المعقول ان أمة كهذه ليس فيها شبان أكفاء لوظيفة مقيد في دائرة الصدارة أو مميز في قلم الداخلية . ان فى نظارة المالية فقط ١١١ تركيا و١٣ يهوديا و١٠ من الارمن و٤ من الروم ، وليس فيها عربي واحد . ان سبب ذلك هو فساد التصور وخطأ الاجتهاد ولو عمل لذلك قانون عادل لارتفعت الشكوى . وهذا ما نحن نطالب به بلسان الامة العربية وبالنيابة عنها » . وقد قوبل هذا الخطاب بضجيج الاستنكار من قبل نواب الترك واعتبروه نابعاً من نعرة هدامة . وكان العرب أنفسهم قد انقسموا تجاه الخطاب، فمنهم من ارتأى ان فتح قضية الوظائف غير مناسبة لانها تظهر العرب بأنهم يهتمون بالوظائف أكثر من اهتمامهم بالاصلاح العام ، بينما ارتأى آخرون أنه قد آن الاوان لاظهار الحقيقة والافاضة بالشكوى لكي يعود رجال الحكم الى الصواب[١٩] .

وفي تلك الآونة التى كانت فيها بوادر التذمر تنتشر في أوساط العرب

---

(١٨) محمد لطفي جمعة (حياة الشرق) ـ القاهرة ـ ص ٢٢٥ .
(١٩) توفيق علي برو (المصدر السابق) ـ ص ٢٨٥ ـ ٢٨٦ .

نشرت جريدة « اقدام » التركية مقالة عن اليمن جاء فيها : « ان أهـــل اليمن يعبدون المال ، وأنهم في سبيل المال يضحون كل شيء ، حتى اعراض النســاء ... » ..فقامت قيامة العرب الذين كانوا في اسطنبول يومذاك، من ضباط وطلاب ونواب وغيرهم ، وذهبت مظاهرة منهم الى أدارة الجريدة فقذفوها بالاحجار ، وكسروا زجــاج شبابيكها ، وأهانوا صاحبها . ثـم توجه وفد منهم الى الباب العالي ، فأخذ الصدر الاعظم يلطف من حدتهم، ثم أحيل صاحب الجريدة الى المحكمة العرفية فصدر الحكـم بتعطيـل الجــريدة ..

وحين وصل الخبر الى الجرائد في البلاد العربية قامت قيامتها أيضا ، فكتبت احدى الجرائد الشامية تقول مخاطبة صاحب الجريدة : « خسئت لا أب لك ، وما أصدق المثل العربي عليك : رمتني بدائها وانسلت ... وهذه أنساب العرب يتوارثونها كابرا عن كابر فاين نسبك ونسب مـن ينتمي اليك ياصاحب اقدام ؟ ! . » وكتبت جريدة الرقيب البغدادية تقول : « ان الكاتب لابد وأنه يجهل العرب وأحوالهم كـل الجهـل ، ويرى أن ناموسه هو لديه أقـل شيء يمكـن بيعه بأبخس ثمن ... » . وانبرى الشعراء كذلك ينظمون القصائد الشعواء في الرد على صــاحب الجريدة وشــتمه [٢٠] .

الحركة الطورانية ونقيضها :

ان الحركة القومية التركية ــ وهي التي عرفت باسم « الحركـــة الطورانية » ــ كانت قد نشأت بين الاتراك منذ بداية اتصالهم بالحضارة الاوربية الحديثة ، ولكن انصارها كانوا فى العهد الحميدي قليلين جدا ، فلما حدث الانقلاب العثماني أخذ عددهم يزداد تدريجيا . والظاهر أن فريقا من الاتحاديين كانوا يدعمونهم بالمعونة المادية والمعنوية .

وفي ٣ تموز ١٩١١ أسس بعض المتحمسين للدعوة الطورانية جمعية اسمها « ترك أوجاغي » ــ أي الوطن التركي ــ وفتحوا لها فروعاً وأنديــة

(٢٠) احمد عزت الاعظمي (المصدر السابــق) ــ بغـــداد ١٩٣١ ــ ج ١ ص ١٠٥ ــ ١٠٦ .

في مختلف المدن التركية ، وكان هدفها تنبيه الاتراك الى أمجادهم القومية ودراسة تاريخ أبطالهم القدماء كجنكيزخان وأوغوز وهولاكو وتيمورلنك. وكان من رأي أصحاب هذه الدعوة أن هناك أربعين مليون تركي تابعين لروسيا في آسيا الوسطى والقفقاس وهم يؤلفون مع أتراك الدولة العثمانية قومية كبرى لها شأنها ، ولهذا وجب اقامة الدولة على أساس قومي بدلا من قيامها على أساس الدين •

وكان شعار أصحاب هذه الدعوة : « نحن أتراك قبل أن نكون مسلمين » ، وأخذوا يدعون الى ترجمة القرآن الى التركية ، ويحبذون اتخاذ الاسماء الطورانية بدلاً من الاسماء العربية ، كاسم « أوغوز » بدلا من « محمد » ، و « ايشلداق » بدلا من « أنور » • وأخرج كاتب منهم اسمه عبيدالله أفندي كتاباً بعنوان « قوم جديد » أشار فيه الى اسماء الخلفاء الراشدين المكتوبة فى المساجد وقال : « ما هذا الجهل ! ؟ وما هذه الغفلة التى استولت عليكم أيها الناس ؟! تعلقون أسماء خلفاء العرب على جدران جوامعكم وتتركون خلفاء الترك الذين قدستهم الاحاديث النبوية » • وكذلك نظموا أناشيد تركية لكي ينشدها تلاميذ المدارس العسكرية منها نشيد مطلعه كالآتي :

جنكز خانك بايراغي   آنلي شانلي صانلاندي

ومعناه : لقد تموجت رايات جنكيزخان في جو الشرف والمجد •

الواقع ان هذه الدعوة كانت محصورة فى فئة معينة من الاتراك هم اولئك الذين كانوا متأثرين بالثقافة الاوربية ، اما سواد الاتراك فلم يكونوا راضين عنها لان تمسكهم الشديد بالدين الاسلامي يمنعهم من قبول أية دعوة أخرى مناقضة له • وقد نشب بينهم وبين أصحاب الدعوة الطورانية نزاع غير قليل •

ومهما يكن الحال فان الدعوة الطورانية اثارت في الشبان العرب الموجودين فى اسطنبول شيئاً من رد الفعل ، وصارت النعرة القومية تنمو بينهم وتنتشر من جراء ذلك ، وقد ظهر ذلك واضحاً في المدارس العسكرية التي كانت تضم العرب والاتراك ، فكان كل فريق منهم يمجد أبطاله القدامى تحدياً للفريق الآخر • وانتقلوا من بعد ذلك الى المصاولة بالاناشيد

القومية ، فكان الاتراك يبدأون النشيد في مدح جنكيز خان وتيمورلنك، فيجيبهم العرب بمدح صلاح الدين وخالد بن الوليد والزبير بن العوام وطارق بن زياد والعبادلة السبعة[٢١] .

وأخذ بعض شبان العرب في اسطنبول يؤسسون الجمعيات القومية السرية كالجمعية القحطانية ، وجمعية العلم الاخضر، وجمعية اليد السوداء ، كما أسس نفر منهم في باريس جمعية العربية الفتاة .

السيد طالب النقيب :

كان السيد طالب النقيب يسكن آنذاك في اسطنبول باعتباره نائب البصرة في مجلس المبعوثين ، وهو لم يكن على وفاق مع الاتحاديين اذ كان هؤلاء يعتبرونه من أنصار ابى الهدى الصيادي وعارضوا انتخابه عن البصرة ولكنه فرض نفسه في الانتخاب فرضاء وعندما وصل الى اسطنبول بعد انتخابه كان يطمح الى نيل منصب مرموق فيها فلم يوفق، ولهذا صار من أشد الناقمين على الاتحاديين . يقول أحمد عزت الاعظمي في ذلك ما نصه: « قدم السيد طالب بك الى الاستانة وكان أكبر همه أن يشغل احدى الوزارات التي يعتقد أنه أهل لها . فلما تحقق لديه أن ما تحدث به نفسه هو قريب من المحال ، لان الاتحاديين لا يرغبون فيه ولا يميلون اليه ، أخذ في كل ما من شأنه أن يحدث شغبا وجلبة في جو الاستانة. وكان يرتاح كثيرا عندما تذكر الصحف العربية اسمه مقرونا بالاعجاب والاكبار اذ أنه كان من المولهين بحب الذات مغرما به غراما لا مزيد عليه » [٢٢] .

أخذ السيد طالب يجتمع بالمعارضين من الاتراك ويؤيدهم نكاية بالاتحاديين . ولما ظهر «الحزب الحر المعتدل» ــ وهو أول حزب للمعارضة في عهد الدستور ــ انتمى اليه السيد طالب . يروي سليمان فيضي في مذكراته : انه كان فى اسطنبول فى بداية صيف ١٩١١ لاداء امتحان في الحقوق ، فدعاه السيد طالب النقيب الى منزله لتناول طعام الغداء وكان

---

(٢١) محمد لطفي جمعة (المصدر السابق) ــ ص ٢٢٧ .
(٢٢) احمد عزت الاعظمي (المصدر السابق) ــ ج٤ ص ٩٣ .

هناك حاضراً شكري بك العسلي ونفر من أعضاء حزب المعارضة ، وجرى الحديث حول توتر العلاقات بين الترك والعرب وما أبداه الاتحاديون من تعصب للقومية التركية وسعي لتتريك العرب وكيف ان بعض عقلاء الترك ناوأوا هذه الحركة الهدامة . ويعلق سليمان فيضي على ذلك قائلا : « والحقيقة ان هذا الموضوع الخطير كان حديث البلد بأسره في ذلك الوقت ، حتى اني حين زرت المنتدى الادبي في استانبول سمعت أعضاءه وزائريه يتهامسون عن الاخطار المحيقة بالعرب اذا استرسل الاتحاديون في مشروعهم الغاشم . »[٢٣] .

وعندما عاد السيد طالب وسليمان فيضي الى البصرة في شهر تموز ١٩١١ أخذا يسعيان نحو تأسيس فرع للحزب الحر المعتدل فيها . وفي ٦ آب ١٩١١ جرى افتتاح الفرع في مهرجان عظيم حضره الالوف من أهل البصرة ، كان فيهم الوالي وكبار الموظفين والقناصل ، وألقيت فيه الخطب والقصائد الحماسية . ثم تليت برقيات التهنئة والتأييد الواردة من أنحاء العراق ومختلف الاقطار العربية . وصار أعيان البصرة الذين كانوا من حزب الاتحاد والترقي يستقيلون منه وينضمون الى الحزب الجديد ، كما انضم اليه بعض الضباط من أمثال عارف عانة ومحمود أديب وعبدالجليل الشالجي وسعيد المدفعي وسعيد حقي وغيرهم .

وبعد ثلاثة أيام من افتتاح الحزب في البصرة جاء القنصل البريطاني الى دار الحزب واختلى بالسيد طالب في غرفته حيث عرض عليه استعداد بريطانيا لتقديم كل المساعدات الممكنة للحزب ، كما عرض أن يستدعي احدى قطع الاسطول البريطاني للرسو في مياه شط العرب خشية أن تتخذ الحكومة العثمانية اجراءات معادية للحزب . وكان جواب السيد طالب حسبما يدعيه صاحبه سليمان فيضي : ان الحزب ليس بحاجة الى حماية بريطانيا وأنه يعمل لمصلحة العرب وحدهم لا لمصلحة غيرهم[٢٤] .

وأرسل الحزب رسائل الى بعض الاشخاص البارزين في المدن

---

(٢٣) سليمان فيضي (غمرة النضال) ـ بغداد ١٩٥٢ ـ ص ٩٤ .
(٢٤) المصدر السابق ـ ص ٩٧ ـ ٩٨ .

العراقية يدعوهم الى تأسيس فروع له عندهم ، كيوسف السويدي وعيسى الجميل ومحمود نديم الطبقچلي في بغداد ، والسيد علوان الياسري والسيد هادي زوين ومبدر الفرعون في الفرات الاوسط ، ومحمد علي فاضل وداود يوسفاني في الموصل ، وعطية أبو كلل والشيخ جواد الجواهري في النجف ، والسيد طفار في السماوة ، والحاج عباس العلي في الكوت ، والسيد عبدالمطلب في الحلة ، والحاج نجم البدراوي وفائق الخضيري في العمارة ، وعبدالله الفالح السعدون والشيخ خيرالله في المنتفق •

واصدر الحزب جريدة تنطق بلسانه اسمها « الدستور » لصاحبها السيد عبدالوهاب الطباطبائي ، وتبرع الحاج محمود عبدالواحد بنفقات مطبعة حديثة استوردت من أوربا لطبع الجريدة • وقد نالت انتشاراً واسعاً واشترك في تحريرها اكثر الادباء والمثقفين في البصرة •

الائتلافيون والعرب :

في ٨ تشرين الثاني ١٩١١ تأسس في اسطنبول حزب الحرية والائتلاف كما ذكرنا في الفصل الخامس ، وقد أسرع اعضاء الحزب الحر المعتدل فانضموا كلهم الى الحزب الجديد رغبة في توحيد كلمة المعارضة• وفعل السيد طالب مثل ذلك في البصرة حيث بدل اسم حزبه وجعله فرعا لحزب الحرية والائتلاف •

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد ان حزب الحرية والائتلاف أخذ يسعى نحو اجتذاب العرب وسائر الاقوام غير التركية اليه ليدعم بهم موقفه تجاه خصومه الاتحاديين ، ويقال انه صار يكشف للعرب أسرار الاتحاديين وكيف أنهم يريدون تتريك العرب والقضاء على تراثهم القومي•
وكان الحزب بالاضافة الى ذلك يدعو الى مبدأ اللامركزية وهو المبدأ الذي كان العرب يميلون اليه لينالوا به شيئا من الاستقلال الاداري الذي كانوا يطمحون اليه • يقول ساطع الحصري : ان معظم النواب العرب خرجوا من حزب الاتحاد والترقي وانضموا الى حزب الحرية والائتلاف اذ هم كانوا كغيرهم من الاقوام غير التركية في البلاد العثمانية

SS

يميلون الى نظام اللامركزية ويعتبرونه أضمن لتقدم البلاد من جهة ولصيانة حقوقهم القومية من الجهة الاخرى[٢٥] •

يمكن القول على أي حال ان الصراع الحزبي بين الائتلافيين والاتحاديين كان من العوامل الفعالة في زيادة العداء بين العرب والاتراك وفي تنمية الوعي القومي لدى العرب •

طور جديد :

في أواخر عام ١٩١٢ تأسست في مصر جمعية عربية علنية باسم جمعية اللامركزية ، فكان ذلك ايذاناً بانتقال حركة الوعي العربي الى طور جديد وقد أدى الى ظهور نتائج اجتماعية وسياسية ذات أهمية لا يستهان بها •

كان القائمون بأمر تلك الجمعية من الشاميين اللاجئين الى مصر كرفيق العظم ومحمد رشيد رضا وشبلي شميل واسكندر عمون ومحب الدين الخطيب وحقي العظم • وقد نشطت الجمعية للعمل فأخذت تطبع المنشورات القومية المثيرة وترسلها عن طريق البريد الاجنبي الى من تثق بهم في البلاد العثمانية ، وكان هؤلاء يوزعونها بين الناس سرا •

كانت بيروت والبصرة وبغداد أشد المدن العربية تأثراً بدعوة الجمعية، وجرى في كل من هذه المدن الثلاث انتفاضات قومية أذهلت الاتحاديين، كما انعقد موءتمر عربي في باريس كان له صداه البالغ في اسطنبول والبلاد العربيـــة •

ففي بيروت تأسست جمعيـة مماثلة لجمعية اللامركزية المصرية باسم « الجمعية العمومية الاصلاحية » ، وكان القائمون بها نفرا من أعيان بيروت منهم سليم سلام ومختار بيهم والشيخ أحمد طبارة ، وكان من أهدافها الرئيسة المطالبة بادارة لامركزية للبلاد العربية واستقدام خبراء ومستشارين ومفتشين من الاجانب[٢٦] •

---

(٢٥) ساطع الحصري (المصدر السابق) ــ ص ١٩٦ •
(٢٦) زين نور الدين زين (المصدر السابق) ــ ص ٩٨ •

نالت جمعية بيروت في بداية الامر نجاحاً غير قليل لان الحكم كـان آنذاك في أيدي الأئتلافيين ، فلما عاد الاتحاديون الى الحكم في ٢٣ كـانون الثاني ١٩١٣ أخذت الجمعية تتعرض للمضايقات من قبل الحكومة المحليـة. وفي ٩ نيسان ١٩١٣ أصدر والي بيروت الاتحادي ابو بكر حازم بك أمـره بالغاء الجمعية .

أثار الغاء الجمعية ضجة كبرى في بيروت ، فقد صدرت معظم صحف بيروت في اليوم التالي وهي بيضاء ليس فيها سوى قرار الالغاء محاطاً باطار أسود دلالة على الحداد ، وشوهدت كلاب تجري في شوارع بيروت وقـد علقت في رقابها بطاقات تحمل اسم الوالي تحقيراً له . ثم ذهب بعض أعضـاء الجمعية الملغاة الى القنصليتين البريطانية والفرنسية يحتجون لديهما على عمل الوالي ، فقيل لهم ان في امكانهم عقد اجتماعاتهم في قاعة الكلية الامريكية، لأن القاعة تعتبر ارضاً أجنبية ليس للحكومة سلطة عليها . وقـد عقـدت الجمعية جلستها في القاعة المذكورة ، وبعد مناقشات طويلة أثناء الجلسـة حصل الاتفاق بين الحاضرين على القيام باضراب عام في بيروت . وقـد حدث الاضراب فعلاً في يوم السبت ١٢ نيسان ، وأغلقت جميع أسـواق بيروت ، فكان المار فيهـا لا يرى الا بعض الحوانيت الصغيرة فاتحـة أبوابها[٢٧] .

وصدرت الجرائد الممالئة للحكومة كجريدة الرأي العـام وجريدة أبابيل تشتم القائمين بالحركة وتندد بأعمالهم[٢٨] ، كما اتهجت الحكومة سياسة العنف فاعتقلت الزعماء البارزين وعطلت الجرائد ، فادى ذلك الى قيام مظاهرات التأييد في أنحاء مختلفة من بلاد الشام . ولجأت الحكومـة أخيرا الى اتخاذ حـل وسـط حيث أطلقت سـراح المعتقلين وأعلنت ان الاصلاحات المطلوبة سوف تتم[٢٩] .

---

(٢٧) المصدر السابق ــ ص ٩٩ ، ٢١١ .
(٢٨) احمد عزت الاعظمي (المصدر السابق) ــ ج٣ ص ٥٢ .
(٢٩) جورج انطونيوس (المصدر السابق) ــ ص ١٩٠ .

SS

الحركة في البصرة :

كان السيد طالب النقيب في البصرة قد تجاوب مع أحداث بيروت تجاوبا قويا ، فرأيناه يقطع علاقته بالائتلافيين ويجعل حزبه مرتبطا بجمعية اللامركزية المصرية على غرار جمعية بيروت • وفي ٢٨ شباط ١٩١٣ جرى افتتاح حزبه الجديد باسم « الجمعية الاصلاحية في البصرة » •

وفي شهر آذار انعقد مؤتمر عربي في المحمرة حضره السيد طالب والشيخ مبارك الصباح والشيخ خزعل وغيرهم ، فتم الاتفاق بين المؤتمرين على أن كلاً منهم يجب أن يبذل كل ما في طاقته لتحقيق مطاليب العراق في الاستقلال • وانتدبوا الرسل الى كربلا والنجف لبث الدعاية القومية فيهما ، ثم أرسلوا قرار المؤتمر الى زعماء الحركة العربية في بغداد واسطنبول وسوريا ومصر وغيرها[٣٠] •

وفي شهر نيسان توتر الموقف في البصرة الى درجة خطيرة ، فقد رأس السيد طالب وفدا من وجوه البصرة وتوجه به الى الوالي مطالبا بترفيت بعض الضباط الذين ينتمون الى جمعية الاتحاد والترقي بحجة أنهم ينتمون الى جمعية تناوىء العرب ، وألمح السيد طالب في كلامه مع الوالي الى أن العرب قد يلتجئون الى القوة في سبيل تحقيق مطاليبهم• وعندما سمع القنصل البريطاني بما جرى أحس بأن خطرا يوشك ان يحل بالبصرة فأبرق الى حكومته يطلب ارسال سفينة حربية الى البصرة لحماية المصالح البريطانية فيها • وقد وصلت السفينة فعلاً في ٤ أيار ١٩١٣ •

نفد صبر الاتحاديين تجاه السيد طالب وتحدياته لهم ، فعينوا لقيادة الجيش في البصرة رجلاً صارماً شديد العداء للحركة العربية هو فريد بك متصرف المنتفق السابق • وقد وصل هذا الرجل الى البصرة في ٩ أيار وأخذ يدبر خطة للقضاء على السيد طالب وحزبه بالتعاون مع عجيمي السعدون رئيس المنتفق وسالم الخيون رئيس بني أسد • وجاء عجيمي مع رجاله الى الشعيبة القريبة من البصرة واحتلوا قصر النقيب فيها ، ثم جاء

---

(٣٠) فيليب ويلارد آيرلند (العراق) ـ ترجمة جعفر خياط ـ بيروت ١٩٤٩ ـ ص ١٧٨ •

سالم الخيون مع ثلاثين من رجاله المسلحين فاستأجروا دارا كبيرة في البصرة واستقروا فيها ، استعدادا لتنفيذ المؤامرة . وأدرك السيد طالب خطورة موقفه فأرسل الى الشيخ مبارك والشيخ خزعل يستنجد بهما ، فتدفقت اليه الاسلحة منهما بكثرة . وقرر السيد طالب ان يتغدى بخصمه قبل أن يتعشى هذا به .

كان فريد بك قد ذهب في ١٩ حزيران ١٩١٣ الى الفاو في رحلة تفتيشية على الباخرة النهرية « مرمريس » ، وكان في صحبته على الباخرة بديع نوري بك متصرف المنتفق وهو أخو المفكر العربي المعروف ساطع الحصري . وكان المتوقع عودتهما الى البصرة في اليوم التالي . وقد وضع السيد طالب خطة لقتل فريد بك عند نزوله من سلم الباخرة .

وفي صباح اليوم المعين لوصول الباخرة خرج من دار السيد طالب رجل بملابس رثة وهو يحمل فراشاً قذرا على رأسه ، وبعد نصف ساعة خرج رجل مثله ، ثم تلاهما ثالث ورابع ، وكانوا جميعاً يخفون البنادق في أفرشتهم القذرة واجتمعوا في دار قديمة مهجورة تشرف على رصيف العشار . وعند الغروب وصلت الباخرة « مرمريس » الى الرصيف ، ولم يكد فريد بك يهم بالنزول مع صاحبه بديع نوري بك حتى انهال عليهما وابل من الرصاص من قبل أولئك الرجال الاربعة . فسقط الرجلان على الارض ميتين ، وهرب القتلة وهم يطلقون الرصاص حتى اختفوا في البساتين .

اضطربت الحكومة في بغداد واسطنبول لهذا الحادث ، وأوفدت المدعي العام ببغداد نجاتي بك الى البصرة للتحقيق . وعند وصول هذا الرجل بالباخرة الى رصيف العشار لم ينزل اليه اذ هو خاف أن يقتل على يد رجال السيد طالب ، فكتب تقريرا مختصرا اتهم فيه القضاء في البصرة بالتحيز الى جانب السيد طالب ، ثم عاد من يومه الى بغداد . والواقع ان القضاء في البصرة كان متحيزا وقد ذهب من جراء ذلك دم القتيلين هدراً . وأبرق وزير العدلية الى بهاء الدين بك رئيس استئناف البصرة يخبره بأمر فصله من وظيفته ، ولما سأل بهاء الدين بك : الى أين

أذهب ؟ جاءه الجواب : « اذهب الى جهنم ! »[31] .

ارتفعت مكانة السيد طالب بعد هذا الحادث ارتفاعا عظيما ، وذاع صيته وصار يلقب بـ « عميد العراق » ، وأخذ الشعراء يقصدونه ليلقوا بين يديه قصائد المديح وينالوا منه الجوائز ، وكان من بين هؤلاء الشعراء الشيخ كاظم الدجيلي وعبدالرحمن البناء وخيري الهنداوي . وأصبح الموظفون بمختلف درجاتهم ــ من الوالي فنازلاً ــ يخافونه ويتملقونه ، ولم يكن أحد منهم يجرأ أن يعترض عليه أو يرد له طلباً .

الحركة في بغداد :

يقول الدكتور آيرلند : ان القوميين في بغداد كانوا منقسمين الى جماعات أربع ، فكانت جماعة منهم من أشياع السيد طالب ، وكانت جماعة أخرى تنظر الى الشام في الزعامة والعون ، كما كانت جماعة ثالثة تراسل مع مصر ، أما الجماعة الرابعة فقد كونت حزبا بغداديا مستقلا يعتمد بالدرجة الاولى على جهوده ورؤسائه[32] .

يمكن القول على أي حال ان جماعة السيد طالب في بغداد كانت أقوى من الجماعات الاخرى ، اذ هي كانت تستمد التشجيع والمعونة المادية والادبية منه ، وكانت تضم مزاحم الباجچي وحمدي الباجچي ومحمد رضا الشبيبي وباقر الشبيبي وبهجت زينل وعبدالمجيد كنه ورزوق غنام ويوسف عزالدين وابراهيم حلمي وعبدالحميد الشالجي وصبيح نجيب وعاصم الجلبي وتحسين العسكري ومحمود بعقوبة وغيرهم . وقد أسس هؤلاء نادياً ظاهره أدبي وباطنه سياسي اسمه « النادي الوطني العلمي » وطلبوا من السيد طالب أن يتولى رئاسته الفخرية فأبرق اليهم قائلاً : « لا زلت أقدم حياتي لترقي وطني المحبوب وزاد في سروري نهضة الشباب العراقيين بهذا الباب . فمع كمال الممنونية قبلت تكليفكم وأوصيكم بالسعي التام لبلوغ المرام المادي والادبي . وقد أوصيت لكم بثلاثين ليرة تقبضونها من البنك العثماني اعانة لناديكم المحترم وأهدى سلامي الى

---

(٣١) سليمان فيضي (المصدر السابق) ــ ص ١٠٨ ــ ١١٥ .

(٣٢) فيليب ويلارد آيرلند (المصدر السابق) ــ ص ١٧٩

الاخوان » . ولما علم السيد طالب أن دار النادي في بغداد متواضعة أرسل الى مزاحم الباججي برقية يقول فيها : « أجروا لكم محلاً مناسبا مع شرف النادي » [٣٣] .

وفي ربيع ١٩١٣ أخذت الجماعات القومية ببغداد تعمل سوية من أجل توحيد الجهود مع البصرة وبيروت ومصر في تقديم مطاليب مشتركة الى اسطنبول[٣٤] . وكانت الاجتماعات تعقد سرا في دار الشيخ يوسف السويدي ، وكان ابنه ثابت يلهب الحماس بما لديه من ذلاقة لسان[٣٥]. وفي ١٩ تموز وصل سليمان فيضي سرا قادما من البصرة وهو يحمل الكثير من الرسائل والمنشورات[٣٦] . وبدأت المنشورات الآتية من اسطنبول وتلك التي جاءت من البصرة توزع في بغداد بين حين وآخر . وظهرت على الجدران بيانات تناشد العرب ان ينهضوا في وجه « الغاصبين » ويطالبوا بالحكم الذاتي واللامركزية . وحدث في ثكنات الجيش شجار بين الضباط العرب والاتراك كاد يؤدي الى انفجار علني لو لم يتداركه محمد فاضل باشا الداغستاني فيناشد في الفريقين الشرف العسكري .

كانت الحكومة قد علمت في ١٤ حزيران ١٩١٣ بأن رسولاً وصل الى بغداد مبعوثاً من رجال الحركة العربية في بيروت ومصر ، فقامت الشرطة بتفتيش دار السويدي وبعض زعماء الحركة الآخرين واعتقلتهم ثم أفرجت عنهم بعد يومين[٣٧] . وفي ٣ تشرين الاول أصدرت جماعة السيد طالب ببغداد جريدة باسم « النهضة » ، ولم يصدر من الجريدة سوى أحد عشر عدداً ، اذ كانت الحكومة شديدة النقمة عليها ، فأغلقتها وحاولت القاء القبض على صاحبها مزاحم الباججي وعلى محررها ابراهيم

---

(٣٣) خيري امين العمري (شخصيات عراقية) ـ بغداد ١٩٥٥ ـ ج ١ ص ٣٠ ـ ٣١ .
(٣٤) فيليب ويلارد آيرلند (المصدر السابق) ـ ص ١٧٩ .
(٣٥) تحسين العسكري (الثورة العربية الكبرى) ـ بغداد ١٩٣٦ ـ ج١ ص٤٢ .
(٣٦) سليمان فيضي (المصدر السابق) ـ ص ١١٨ .
(٣٧) فيليب ويلارد آيرلند (المصدر السابق) ـ ص ٧٩ ـ ١٨٠ .

حلمي القمر ، غير أنهما تمكنا من الهرب الى البصرة[٣٨] .

وجهة نظر :

يجب ان نذكرهنا ان هذه الحركة العربية التى اتضحت معالمها في القاهرة وبيروت والبصرة وبغداد ــ فى عام ١٩١٣ ــ كانت محصورة تقريبا في نطاق تلك المدن وحدها ، أضف الى ذلك ان الذين يتحسسون بها من سكان تلك المدن كانوا قليلين نسبياً ومعظمهم من الشبان من أولي النشاط السياسى والفكري . أما سواد الناس فى البلاد العربية فكانوا لا يتحسسون بتلك الحركة ، وقد يصح القول أن الكثير منهم كانوا ينظرون اليها نظرة ريب واستنكار ويعتبرونها دسيسة من الكفار لهدم الخلافة الاسلامية .

يروي سليمان فيضي : أنه عندما زار الموصل في أواخر تموز ١٩١٣ ليدعو الى القضية العربية وجد ان المؤمنين بهذه القضية بين أهل الموصل لا يتجاوز عددهم عدد أصابع اليدين ، وهو يفسر ذلك بسببين : احدهما أن النزعة الدينية التي يتميز بها أهل الموصل تقف حائلاً بينهم وبين التمرد على الدولة العثمانية ذات الصيغة الاسلامية المقدسة ، والثاني هو أن سطوة الحكومة الاتحادية كانت فى الموصل يومذاك أقوى مما كانت في غيرها من المدن العراقية ، فقد كان خالد بك مدير البوليس فيها اتحاديا متطرفاً ، ولما جاء سليمان فيضى الى الموصل أحاطه بالجواسيس وأشاع عنه في الاوساط الدينية أنه يبشر بنبذ التقاليد الدينية وعصيان خليفة رسول الله وأنه خطر على الدين والخلافة[٣٩] .

ومن الممكن القول ان اكثر الشعوب العربية ايماناً بقدسية الخلافة العثمانية هو الشعب المصري ، فقد كان المصريون من جراء الاحتلال البريطاني الذي يرزحون تحته ينظرون الى الدولة العثمانية كأنها المنقذة لهم ويعتبرونها موئل قوة الاسلام تجاه اعدائه النصارى . ولما قام اللاجئون الشاميون بتأسيس جمعية اللامركزية فى القاهرة استنكرها

---

(٣٨) سليمان فيضي (المصدر السابق) ــ ص ٨٣ ، ١١٦ .

(٣٩) المصدر السابق ــ ص ١٢١ ــ ١٢٢ .

معظم المصريين وعدوا القائمين بها صنائع وعملاء للانكليز .

ونستطيع أن تتبين هذه النظرة المصرية نحو الحركة العربية فيما كتبه الكاتب المصري المعروف، محمد لطفي جمعة في كتابه « حياة الشرق »، فهو يصف فكرة اللامركزية التي كانت الجمعيات العربية تنادي بها بأنها عادلة في ظاهرها خبيثة في حقيقتها لانها في رأيه تؤدي حتما الى تمزيق الدولة الاسلامية والى انتهاب المستعمرين لاوصالها . وقد انحى هذا الكاتب بالشتم والتقريع على جمعية اللامركزية فوصف مؤسسيها بأنهم كانوا يجلسون فى قهوة « سبلنديد بار » ويتناولون المرتبات من الاموال السرية الفرنسية والبريطانية ، ويقول ان منهاج هذه الجمعية انما انتشر في الاقطار العربية ذلك الانتشار السريع بفعل الدعاية الاستعمارية . ويلخص الكاتب رأيه في الحركة كلها فيقول ما نصه :

« وكان كل فريق من هؤلاء المطالبين بالاصلاح واللامركزية والثورة العربية سواء أكانوا في مصر أو في سوريا أو فى بغداد أو فى البصرة يظهر بمظاهر تخالف الحقيقة فان بذخهم واسرافهم كانا يدلان على اتصالهم بمصادر غنية تنفق الذهب جزافاً ومن غير حساب . فكنت ترى بعض المقيمين في مصر يقتنون الاملاك وليس لديهم مصادر ثروة معروفة ، وتراهم أبداً يعملون في الخفاء وفي غموض يشبه أحوال المتآمرين ، وهم أبداً في انتقال بين ممالك الشرق ، وتراهم اذا كتبوا لم يقصدوا الا الدفاع عن فكرة الاستعمار ولكنهم يحاولون اخفاء فكرتهم ، ولم يتصلوا بأحد من ذوي النفوذ والجاه الا وابتزوا منه الاموال باسم الدين او باسم الاصلاح . وكان أحدهم وهو المقيم فى البصرة يكثر من الاجتماع بخزعل ومبارك الصباح وهما ثعبانان من ثعابين الشرق العتيقة السامة .... »(٤٠) .

المؤتمر العربي بباريس :

كان عدد الجالية العربية بباريس فى عام ١٩١٣ نحو ثلاثمائة معظمهم من الشاميين ، ولم يكن بينهم من العراقيين سوى اثنين هما الطالب توفيق

---

(٤٠) محمد لطفي جمعة (المصدر السابق) — ص ٢٢٩ ، ٢٩٦ ، ٣٤٣ .

السويدي والتاجر سليمان عنبر . وفي شهر آذار من ذلك العام اجتمعت لجنة منهم فقررت عقد مؤتمر للمطالبة بحقوق العرب ، وأرسلت الدعوات الى جمعية اللامركزية في القاهرة ، والجمعية الاصلاحية في بيروت ، والى جميع القائمين بالحركة العربية في الاقطار العربية والامريكتين .

وحين انتشر خبر الدعوة للمؤتمر في الاقطار العربية تحمس لها فريق من العرب وعارضها فريق آخر ، وصارت البرقيات تنهال على اسطنبول من جهة ، وعلى باريس من الجهة الاخرى ــ هذه تؤيد عقد المؤتمر وتلك تعارضه . وكان من بين البرقيات المعارضة للمؤتمر برقية بعث بها الشريف حسين من مكة وصف فيها المؤتمر بأنه خدمة أجنبية وخيانة للوطن العثماني ، وقد نشرت هذه البرقية جريدة « اقدام » الاسطنبولية .

وأرسل السيد طالب النقيب الى باريس برقية يؤيد فيها عقد المؤتمر، كما أرسل جماعة من بغداد برقية يطلبون فيها أن يمثل العراق في المؤتمر توفيق السويدي وقد وقع البرقية مزاحم الباججي ونعمان الاعظمي وشاكر غصيبة وعبدالرحمن البناء وعبداللطيف المدلل ومحي الدين الكيلاني وبهجت زينل ويوسف ضياء ومحمد سعيد الراوي وآخرون . وأبرقت من بغداد برقيات أخرى كثيرة في تأييد المؤتمر ، ودفع أصحابها أجورها ، غير أنها لم ترسل[41] .

كان على رأس المعارضين للمؤتمر أدباء مشهورون من أمثال شكيب أرسلان وعبدالعزيز الثعالبي وعبدالعزيز شاويش ومعروف الرصافي . وكان عبدالعزيز شاويش أشدهم شجبا للمؤتمر واتهاماً له ، فقد أصدر في اسطنبول جريدة باسم « الحق يعلو » دعا فيها الى الالتفاف حول الجامعة الاسلامية ووصف دعاة المؤتمر بأنهم منشقون على الاسلام ممالئون للنصارى . وكان منزل هذا الرجل في اسطنبول بمثابة منتدى سياسي تحت شعار ديني ، فكان يلتقي فيه المعارضون للمؤتمر وخصوم الحركة العربية . ونظم معروف الرصافي قصيدة بائية طويلة شتم فيها القائمين بالحركة العربية في بيروت

---

(٤١) توفيق السويدي (مذكراتي) ــ بيروت ١٩٦٩ ــ ص ٢٥ ــ ٣٠ .

والقاهرة وباريس ووصفهم بأنهم عملاء للافرنج هدفهم هدم الدولة الاسلامية[42] .

واجتمع في دمشق نفر من الاعيان كالشيخ أسعد شقير وعبدالرحمن بك اليوسف ومحمد باشا المخزومي ومحمد فوزي باشا العظم ، وتكلم فيهم عبدالرحمن فأخذ ينتقد الداعين الى المؤتمر قائلاً بأنهم من الغلمان الذين لا يعبرون عن رأي أهل البلاد ، وأنهم مندفعون بأيد أجنبية ، وقذفهم بأحط الشتائم . ثم كتب المجتمعون عريضة بهذا المعنى وطافوا بها في الاسواق والشوارع يأخذون التواقيع عليها ، وسافر محمد المخزومي الى مدن فلسطين لكي يحمل أعيانها على مناهضة المؤتمر[43] .

يقول شكيب أرسلان في مذكراته حول مؤتمر باريس ما نصه : « ... فكنت ساخطاً على عقد المؤتمر ... وكانت وجهة نظري أن مؤتمرا كهذا لا ينبغي ان يعقد فى عاصمة كباريز لها ما لها من المطامح الى سوريا ، ولا يجوز أن يعقد بينما الدولة مشغولة بالحرب البلقانية وقد فقدت قسما عظيماً من السلطنة وسقطت أهميتها العسكرية والسياسية ، وان سقوط أهمية الدولة لا ينحصر ضرره في الترك وحدهم بل يتناول جميع المسلمين.. واتفقت مع عارف بك المارديني والى الشام على الابراق الى الاستانه باستنكاره فأشار الوالي الى الاعيان والعلماء ورؤساء المذاهب والبطاركة والمطارين فأمضوا جميعا برقيات الى الباب العالي بأنهم لا يعرفون هذا المؤتمر ، وتقدمت البرقيات فى هذا المعنى من جميع المدن السورية» [44]..

انعقد المؤتمر أخيرا في ١٨ حزيران ١٩١٣ في القاعة الكبرى للجمعية الجغرافية بشارع سان جرمين في باريس ، وحضره ممثلان عن جمعية اللامركزية المصرية ، وستة ممثلين عن الجمعية الاصلاحية البيروتية ، وثلاثة ممثلين عن المهاجرين فى الولايات المتحدة ، وواحد عن المهاجرين

---

(٤٢) انظر نص القصيدة فى ديوان الرصافي ـ الطبعة السادسة ـ ص ٤٠٢ ـ ٤٠٥ .

(٤٣) توفيق علي برو (المصدر السابق) ـ ص ٥٠٧ ـ ٥٠٨

(٤٤) شكيب ارسلان (سيرة ذاتية) ـ بيروت ١٩٦٩ ـ ١٠٨ ـ ١٠٩ .

في المكسيك ، واثنان عن العراق ، كما حضر المؤتمر عبدالكريم الخليل ممثلا عن الشبيبة العربية في اسطنبول[٤٥] .

يقول توفيق السويدي الذي كان أحد ممثلي العراق في المؤتمر : ان النية كانت متجهة في أول الامر الى تسمية المؤتمر بـ « المؤتمر السوري » وصنعوا الختم له بهذا الاسم غير انه استطاع بعد بذل الجهد الى اقناعهم بتبديل الاسم فصار « المؤتمر العربي الاول » وصنعوا له ختما جديدا .

ويصنف السويدي أعضاء المؤتمر الى ثلاث فئات على النحو التالي :

(١) المسلمون الذين لم يكونوا يريدون الانفصال عن الدولة العثمانية بل كان هدفهم التمتع بالحقوق فيها على قدم المساواة مع الاتراك .

(٢) المسيحيون الذين كانوا حاقدين حقد الاعداء على الاتراك وكانوا متصلين اتصالاً وثيقاً بالدول الاجنبية وبالاخص فرنسا التي كانت لها سياسة توسع واستعمار واضحة في سوريا .

(٣) المذبذبون الذين كانت لهم أهداف عربية من جهة ومطامع مادية من الجهة الاخرى ، ولكنهم كانوا قليلين[٤٦] .

انتخب المؤتمر الشيخ عبدالحميد الزهراوي رئيساً له ، واستمر ستة أيام عقد فيها أربع جلسات كان المتكلمون فيها يبذلون أقصى الجهد للتأكيد على أنهم يريدون الاحتفاظ بوحدة الدولة العثمانية على شرط الاعتراف بحقوق العرب من حيث هم شركاء في الدولة وان يتاح لهم مجال حر في نظام لامركزي للحكم[٤٧] .

المصالحة :

ارتأى الاتحاديون في اسطنبول أن يصالحوا رجال المؤتمر فأرسلوا اليهم أحد زعمائهم مدحت شكري بك ، وقد وصل هذا الرجل الى باريس وفاوضهم ، وبعد أن رأى تقارب وجهات النظر بينه وبينهم عاد الى اسطنبول

---

(٤٥) اللجنة العليا لحزب اللامركزية بمصر (المؤتمر العربي الاول) — القاهرة ١٩١٣ — ص ١٤ — ١٦ .

(٤٦) توفيق السويدي (المصدر السابق) — ص ٢٦ — ٢٧ .

(٤٧) جورج انطونيوس (المصدر السابق) — ص ١٩٢ .

ومعه عبدالكريم الخليل • وفي اسطنبول واصل عبدالكريم المفاوضة مع وزير الداخلية طلعت بك ، وقد انتهت مفاوضتهما الى عقد اتفاقية مكتومة تحتوي على اثنى عشر مادة وهي مذيلة بتوقيعهما •

وفي ٥ آب ١٩١٣ صدر فرمان سلطاني يتضمن شيئاً من محتوى تلك الاتفاقية • وفي الساعة الثالثة من بعد ظهر ذلك اليوم اجتمع عدد كبير من العرب في دار المنتدى الادبي بدعوة من رئيسه عبدالكريم الخليل ، وألفوا وفداً من الشريف علي حيدر باشا وابنيه محي‌الدين ومجيد ، ومعروف أفندي الرصافي ، والشيخ عبدالعزيز شاويش ، وشكري باشا الايوبي ، وبديع بك المؤيد ، ونجيب بك شقير ، وسامي بك العظم ، وابراهيم بك صوصة ، ومحي‌الدين باشا الجزائري ، والمونسنيور شريم ، والدكتور حسين حيدر ، وعبدالكريم أفندي الخليل[٤٨] • وكانت العربات مصطفة في شارع المنتدى فامتطاها أعضاء الوفد وساروا الى الباب العالي لمقابلة الصدر الاعظم سعيد حليم باشا بغية شكره على صدور الفرمان • فالقى الصدر الاعظم خطبة طويلة أعرب فيها عن ارتياحه لزوال سوء التفاهم بين العرب والاتراك ، ثم القى الشيخ عبدالعزيز شاويش خطبة باللغة العربية شكر فيها الصدر الاعظم على عواطفه وقال : ان لا قوة في المستقبل تقدر ان تفرق بين العرب والاتراك • وتقدم عبدالكريم الخليل فالقى كلمة باسم الشبيبة العربية بدأها بتهنئة الحكومة على استعادة أدرنة ثم شكر الحكومة على وعودها باعطاء الحقوق للعرب واشراكهم في أمور الدولة • وفي المساء أقام عبدالكريم وليمة في فندق « طوقاتليان » دعا اليها الوزراء والاعيان والنواب وكبار الموظفين ، وخطب فيهم معلناً سروره بازالة سوء التفاهم بين العرب والاتراك • ونهض وزير الداخلية طلعت بك فقال : انه هو وزملاؤه الوزراء كانوا يخدمون العرب منذ زمن بعيد واستشهد على ذلك بالشريف علي حيدر باشا[٤٩] •

---

(٤٨) احد اعضاء الجمعيات العربية (ثورة العرب) ــ القاهرة ١٩١٦ ــ ص ٨٢ ــ ٨٣ •

(٤٩) احمد عزت الاعظمي (المصدر السابق) ــ ج٣ ص ٨٦ ــ ٨٨ •

وأبرق عبدالكريم الخليل الى باريس يدعو أعضاء المؤتمر للحضور الى اسطنبول ، فجاء منهم ثلاثة هم : سليم سلام ومختار بيهم والشيخ أحمد طبارة . وقد وصلوا الى اسطنبول بالقطار في ١٥ آب ، فجرى لهم في محطة القطار استقبال عظيم . وفي ٢٣ آب حظي الثلاثة بمقابلة السلطان. وفي ٢٧ آب قابلوا ولي العهد ، وفي مساء اليوم نفسه أقامت جمعية الاتحاد والترقي وليمة شائقة للشبيبة العربية دعت اليها الوزراء والكبراء ، وتبودلت فيها الخطب المعلنة عن السرور على نحو ما جرى في وليمة « طوقاتليان » .

وأبرق عبدالكريم الخليل الى الشيخ عبدالحميد الزهراوي يطلب منه الحضور الى اسطنبول ، فقدم الزهراوي في ٢٨ تشرين الاول ١٩١٣ ، فاستقبله في محطة القطار أعيان العرب وشبيبتهم وكان فيهم نيف وسبعون ضابطاً عربياً ، فكان استقبالا حماسياً رائعا . وحين أطل الزهراوي من نافذة القطار هتف المستقبلون : « فليحي الاصلاح ! وليحي زعماء العرب ! ، ولتحي الامة العربية ! » ، وارتجت أرجاء المحطة بالتصفيق والترديد . وعند نزوله من القطار ركب عربة أعدت له ، وركب المستقبلون وراءه رتلاً من العربات لا يقل عدده عن الخمسين عربة ، وساروا حتى وصلوا الى دار المنتدى الادبي .

وفي أواخر ١٩١٣ صدرت الصحف الاتحادية وهي مزينة بصورة الزهراوي والى يمينه رمز للجيش العثماني والى يساره رمز للاسطول وتحته صور صغيرة لانور وطلعت وجمال مع عبارة كتبت بحروف كبيرة هي : « بمثل هؤلاء الابطال يعتز الملك وعلى مثل هذا الاتحاد تشيد الدولة العثمانية مستقبلها العظيم »[٥٠] .

وفي ٤ كانون الثاني ١٩١٤ صدر فرمان بتعيين سبعة من زعماء العرب أعضاء في مجلس الاعيان كان على رأسهم الزهراوي ، ثم جرى تعيين شكري العسلي وعبدالوهاب الانكليزي وأمين التميمي وناجي السويدي في مناصب عالية ، كما أسست ثانويتان عربيتان ، احداهما في دمشق ونيطت ادارتها برفيق التميمي ، والاخرى في بيروت ونيطت ادارتها برستم حيدر .

---

(٥٠) أحد أعضاء الجمعيات العربية (المصدر السابق) ـ ص ٩٢ ـ ٩٩ .

وصار الوزراء وزعماء الاتحاديين يكثرون من زيارة المنتدى الادبي ، ويتوددون الى الشبيبة العربية من أعضائه ، ويخطبون فيه • وحين أقيم في المنتدى احتفال بالمولد النبوي وقف طلعت بك خطيبا وكان من جملة ما قال في خطبته : « اذا فر العرب منا فاننا تتمسك بهم ونلتزمهم ونضمهم الى صدورنا ونصافحهم مصافحة الاخ لاخيه »[٥١] •

وفي الوقت الذي كانت فيه عملية المصالحة تأخذ مجراها في اسطنبول كان طلعت بك يعمل لمثل هذه المصالحة مع السيد طالب في البصرة • وبعد جهود كثيرة بذلت في هذا السبيل تم الاتفاق مع السيد طالب • وفي ٣ شباط ١٩١٤ نشر السيد طالب في الصحف بياناً هذا نصه :

« أعلن مع كمال الفخر الى عموم أهالي الولاية والملحقات بأننا قد اتفقنا للاشتراك في الجهود ، كأننا روح واحدة ، لاجل اعلاء شأن حكومتنا السنية التي قدرت صداقتنا رسمياً ، فلم يبق بيننا وبين الحكومة السنية خلاف بأي صورة كانت ، وقد زال ما كان من سوء التفاهم زوالاً قطعيا وصرنا كلنا كتلة واحدة تعمل على سعادة دولتنا الابدية وتسعى الى محافظة وحدتنا العثمانية بكل قوانا وحتى آخر فرد منا • وللبيان حررت الكيفية وأعلن ذلك في ٧ ربيع الاول ١٣٣٢ ، ٣ شباط ١٩١٤ — نقيب زاده السيد طالب » •

وعلى أثر نشر هذا البيان أرسل طلعت بك وأنور باشا من اسطنبول رسائل شكر الى السيد طالب وجهزاه بجفرة خاصة كي يستطيع الاتصال بهما رأساً بدون وساطة الوالي • ثم جاء الى البصرة وال جديد اسمه سليمان شفيق باشا ولقبه الاهالي بـ « الوالي أبو العباية » لانه عند نزوله من الباخرة كان يلبس عباءة • وقد حرص هذا الوالي على توثيق أواصر الصداقة مع السيد طالب وتلبية مطاليبه[٥٢] •

الناقمون على المصالحة :

ان هذه المصالحة التي جرت بين العرب والاتراك لم يرض عنها بعض

---

(٥١) المصدر السابق — ص ١٠٢ •

(٥٢) سليمان فيضي (المصدر السابق) — ص ١٣١ — ١٣٣

العرب في البلاد العثمانية وخارجها . ففي ١٩ شباط ١٩١٤ أرسلت جمعية الاتحاد السوري في نيويورك رسالة احتجاج الى جمعية اللامركزية في القاهرة وصفت فيه عمل الزهراوي وجماعته بأنه ذر الرماد في أعين البسطاء ، وطلبت من الجمعية فصلهم من عضويتها ، ولكن الجمعية لم توافق على هذا الطلب ، ماعدا واحداً من أعضائها هو حقي العظم فانه أخذ يشنع على الزهراوي ويصفه بأقبح الأوصاف(٥٣) .

وكان عزيز علي المصري في اسطنبول أشد العرب نقمة على المصالحة، وأرسل الى الزهراوي ينذره بالكف عن الدعاية للحكومة ويطلب منه مغادرة اسطنبول والعودة الى موطنه في بلاد الشام . وكان يعاون عزيز علي في ذلك بعض الضباط كجميل المدفعي ويوسف العزاوي وسعيد التكريتي ، وذهب هؤلاء الى الزهراوي يتوعدونه فأخذ هو يبدي موافقته لهم خوفاً(٥٤) .

كتب الزهراوي رسالة الى صديقه محمد رشيد رضا عضو جمعية اللامركزية في القاهرة يشكو اليه فيها من هؤلاء الناقمين عليه ويخص بالذكر منهم الضباط الشبان الذين التفوا حول عزيز علي المصري ، فهو يصفهم في رسالته بأنهم لا تجربة لهم في أمور السياسة بتاتاً ، ويصفه عزيز علي وصفاً غير حميد حيث يقول فيه انه « ناقم اليوم على الحكومة فيشتهي لاجل هذا زعزعة الدولة ونسفها نسفا ، وهو لاجل ذلك ناقم على ائتلافنا مع الحكومة ومضاد له لانه على زعمه يؤخر حركات العرب ، ولا أدري ما هي حركات العرب وأين تسير واين ترسي . وهو يجتهد أن يجمع حوله بعض أولئك الاولاد وينفرهم منا ومن صنيعنا ، ولكن لا ينجح بحوله تعالى . ومن جهة اخرى هو يحافظ على ظاهر الصداقة بيننا ، وقد أردت اختباره فوجدته يجنح الى مصالحة أولياء الامور وحينئذ يرضى عن كل شيء . فانظر يا عزيزي الى الذين يعدون أنفسهم في مصاف رجالنا .. »(٥٥)

---

(٥٣) احمد عزت الاعظمي (المصدر السابق) — ج ٤ ص ١٢ — ١٤ .
(٥٤) تحسين العسكري (المصدر السابق) — ج١ ص ٣٦ — ٣٧
(٥٥) احمد عزت الاعظمي (المصدر السابق) — ج٤ ص ١٨ — ٣٠

ولما تعين الزهراوي عضوا في مجلس الاعيان جاء اليه الضابط العراقي يوسف العزاوي في منزله ، وكان عبدالكريم الخليل حاضرا ، وأخذ يتجادل معهما حول السياسة التي ينتهجانها في مصالحة الاتحاديين ، واشتد غضبه عليهما فأسمعهما كلمات قارصة وذكر لهما ان الاتحاديين سوف يبطشون بهما وبغيرهما من زعماء العرب في أول فرصة تسنح لهم[٥٦]. وكان العزاوي في ذلك كأنه يتنبأ بالمصير المؤلم الذي انتهى اليه الخليل والزهراوي أثناء الحرب الاولى حيث شنقهما جمال باشا فيمن شنق ــ أولهما في بيروت في ٢١ آب ١٩١٥ والثاني في دمشق في ٦ أيار ١٩١٦ ٠

عزيز علي المصري :

كان عزيز علي المصري يومذاك في الخامسة والثلاثين من عمره وفي رتبة « بكباشي » ــ اي مقدم ــ في الجيش العثماني ، وهو مصري من أصل عراقي ، وكان معروفا في مسلكه العسكري بشدة البأس والجرأة ، وكان في حياته العامة صلب الرأي صريحا لا يداري ٠ وقد انضم الى جمعية الاتحاد والترقي قبل اعلان الدستور، وساهم في القضاء على حركة ٣١ آذار، وشارك في حرب طرابلس حيث حصل بينه وبين أنور شيء من التحاسد على نحو ما أشرنا اليه في الفصل الخامس ٠

وكان عزيز علي قد بقي في طرابلس الغرب بعد عقد الصلح مع ايطاليا بغية تنظيم المقاومة المحلية ضد الاحتلال الايطالي ، وعندما عاد الى اسطنبول في صيف ١٩١٣ حصل الخلاف بينه وبين الزهراوي والخليل حول المصالحة مع الاتحاديين ، وقد اتهمه الاتحاديون بان اختلافه معهما نشأ عن الغيرة والحسد ٠ يقول جمال باشا في مذكراته : ان عزيز بك لم يستطع أن يرى نفوذ عبدالكريم الخليل وعبدالحميد الزهراوي يفوق نفوذه في بحث القضية العربية ، فوصلت به الجرأة الى أن أعلن ان العرب لا يقنعون بالاتفاق الذي تم انما يطلبون أن تكون الحكومة ثنائية بينهم وبين الاتراك على نموذج الملكية الثنائية الموجودة بين النمسا والمجر ، ونعت أصحاب

---

(٥٦) تحسين العسكري (المصدر السابق) ــ ص ٣٩ ٠

الاتفاق بأنهم خونة لبلادهم ولسوف يجزون الجزاء العادل فيما بعد لانهم حصلوا على المناصب التي أرادوها وقنعوا بالاصلاحات التافهــة المنــوي ادخالها • ويضيف جمال باشا الى ذلك قائلا : « ولما عين أنور في النهايــة لوزارة الحربية اظلمت الدنيا في عيني عزيز بك ، فانه لم يستطع صبرا على أن يبقى ــ وهو الذي كان زميلاً لانور في المدرسة الحربية وقام بأعمــال نافعة وأظهر قسطا عظيما من الوطنية ــ بكباشياً بسيطاً في هيئة أركان الحرب بينما منافسه صار وزيرا للحربية ، فأدى به ذلك الى استنتاج هذه النتيجة السيئة وهي أن اشتراكه في العمل مع الاتراك لم يعد عليه بالربح أو يكسبه مجدا • اذن : فلتحي الثورة العربية !! »[٥٧] •

وفي ٢٨ تشرين الاول ١٩١٣ أسس عزيز علي جمعية عربية سرية باسم « جمعية العهد » وأخذ يجتذب اليها شبان العرب من ضباط وطلاب ، وكان الضباط العراقيون يؤلفون الاكثرية في هذه الجمعية كنوري السعيد وياسين الهاشمي وجميل المدفعي ومولود مخلص وعلي جودت الايوبي وعبدالله الدليمي وتحسين علي وطه الهاشمي ويوسف العزاوي وســعيد التكريتي وصبيح نجيب وتحسين العسكري ونوري فتاح وعلي رضــا الغزالــي وعبدالغفور البدري

وأصبح منزل عزيز علي في اسطنبول يعج بالحركة اذ كان يلتقى فيــه الشبان العرب لا سيما الضباط منهم ، وأخذ الجواسيس يحومون حولــه ويقدمون عنه التقارير المقلقة • وفي أوائل ١٩١٤ صدر الامر بنقل عزيز علي الى منطقة نائية ، فقدم هو استقالته ، وبذلــك صــار متفرغــا لقيــادة الحركة العربية في اسطنبول •

وفي ٩ شباط ١٩١٤ بينما كان عزيز علي خارجا من فندق طوقاتليان بعد الغداء بادره ثلاثة من رجال الشرطة السريين ودعوه الى مركز الشرطة المركزي وهناك ألقي القبض عليه • وفي ٢٥ آذار سيق عزيز علي الى مجلس تأديب عسكري لمحاكمته سريا عن أمور اتهم بأنه فعلها في طرابلس الغرب •

---

(٥٧) جمال باشا (مذكرات جمال باشا) ــ ترجمة علي احمد شكري ــ بغــداد ١٩٦٣ ــ ص ٧٣ ــ ٧٦ •

وقد أحدث اعتقال عزيز علي هياجاً وضجة في اسطنبول ، وقيل ان مصطفى كمال زميل عزيز علي في حرب طرابلس الغرب أرسل الى أنور باشا برقية احتجاج في هذا الشأن ، وأرسلت الشبيبة العربية في اسطنبول الى كافة الاقطار العربية برقية هذا نصها : « اعتقل عزيز بك بطل بنغازي ، الاستياء عام ، الحالة مؤسفة »[٥٨] . وكان ثابت عبدالنور الموصلي من اكثر الشبيبة العربية حماسا لانقاذ عزيز علي ، فقد كان يتنكر بأزياء مختلفة حذرا من الجواسيس ويطرق أبواب السفارات الاجنبية ، وحدث له مرة أن تنكر في زي قسيس وأخفى وجهه بلحية كثة مستعارة ودخل الى السفارة البريطانية طالبا منها التدخل لانقاذ عزيز علي من الاعتقال باعتبار أنه مصري وأن لبريطانيا الحق في ذلك[٥٩] .

وكان التأثر في مصر شديدا لاعتقال عزيز علي ، وأخذت الصحف المصرية تشن حملات عنيفة على الحكومة العثمانية، وتألفت لجنة برئاسة شيخ الازهر وقصدت المندوب السامي اللورد كتشنر تطلب منه التدخل ، وحث اللورد كتشنر وزارة الخارجية البريطانية على التدخل لانقاذ عزيز علي . وكتبت جريدة التايمس اللندنية أربع مقالات افتتاحية للدفاع عنه . وبذل السفير البريطاني في اسطنبول مساعيه في سبيل ذلك[٦٠] . وأقامت السفارة الفرنسية في اسطنبول مأدبة في دارها كان الغرض منها بحث قضية عزيز علي دعي اليها السفراء والوزراء ، واختلى اثناء المأدبة صحافي فرنسي معروف بجمال باشا وحثه على اقناع صديقه أنور باشا بالعفو عن عزيز علي[٦١] .

وفي ١٥ نيسان ١٩١٤ ذكرت الصحف ان الحكم صدر باعدام عزيز علي وأن السلطان خففه الى السجن خمسة عشر عاما بالاشغال الشاقة . وفي ٢١ نيسان صدر فرمان سلطاني بالعفو عن عزيز علي وأطلق سراحه .

---

(٥٨) توفيق علي برو (المصدر السابق) ـ ص ٥٦٣ .
(٥٩) سليمان فيضي (المصدر السابق) ـ ص ١٥٠ ـ ١٥١ .
(٦٠) جورج انطونيوس (المصدر السابق) ـ ص ١٩٨ .
(٦١) سليمان فيضي (المصدر السابق) ـ ص ١٥١ .

وفي اليوم التالي أبحر عزيز علي الى مصر واستقبل هناك اســـتقبالا حماســـيا [٦٢]

لم يهدأ عزيز علي في مصر ، وليس من طبيعته الهدوء ، فاجتمع الـى الشيخ فؤاد الخطيب وحقي العظم وكان هذا قد استقال من جمعية اللامركزية، وألف هؤلاء الثلاثة فيما بينهم جمعية باسم « الجمعية الثورية العربيـة » هدفها اثارة العرب للانفصال عن الدولة العثمانية والحصول على الاستقلال التـــام •

وأخذ هؤلاء الثلاثة يطبعون المنشورات العنيفة ذات اللهجـة المثيرة ويرسلونها سرا الى بلاد الشام • واستمروا على ذلك حتى بعـد اندلاع الحرب العالمية الاولى ، وقد وقعت نسخ من تلك المنشورات في يد الحكومة فكان ذلك سببا في شنق بعض الذين شنقهم جمال باشا في دمشق وبيروت•

ان أحمد عزت الاعظمي يوجه اللوم الشديد على اولئك الثلاثة لعملهم هذا فهو يقول عنهم : انهم كانوا آمنين في مصر يجلسون على كراسى مقهى « سبلنديد بار » مقابل حديقة الازبكية ، ويمتعون انظارهم بمحاسن اللواتي كن يتهادين في الشارع أمامهم ، غير مدركين عواقب ما تأتي به منشوراتهم من رزايا على رؤوس شباب العرب في البلاد العثمانية[٦٣] • ومما يلفت النظر ان الاعظمي حين يوجه اللوم على أولئك الثلاثة يؤكد أن عزيز علـي لم يكن منهم وأن العضو الثالث كان شخصا آخر لم يذكر هو اسمه ، ولكن القرائن تشير الى أن عزيز علي كان هو نفسه العضو الثالث •

---

(٦٢) جورج انطونيوس (المصدر السابق) ـ ص ١٩٨ ـ ١٩٩

(٦٣) احمد عزت الاعظمي (المصدر السابق) ـ ج ٤ ص ١٠٥ ـ ١١٩ •

الفصل الثامن

بواكير الحضارة الحديثة في العراق

نقصد ببواكير الحضارة الحديثة تلك المخترعات والنظم الاوربية التي أدخلت الى العراق منذ منتصف القرن التاسع عشر . وسنحاول في هذا الفصل دراسة هذه البواكير وما انتجت في المجتمع العراقي من تأثير خلال الفترة التي تنتهي عند اعلان الحرب العالمية الاولى واشتراك الدولة العثمانية فيها .

الباخرة :

كانت الباخرة أول اختراع أوربي جاء الى العراق خلال القرن التاسع عشر ، وكان الوالي رشيد باشا الكوزلكلي أول من فكر في ادخالها الى العراق . ففي عام ١٨٥٥ دعا هذا الوالي جماعة من التجار وعرض عليهم تأليف شركة للملاحة النهرية يكون نصف رأس مالها من الحكومة والنصف الآخر يشترك فيه التجار ، وبعد ذلك أرسل « طلباً » الى معامل انتويرب في بلجيكا لصنع باخرتين[1] . وقد وصلت الباخرتان في عام ١٨٥٨ - أي بعد موت رشيد باشا - فقام بتركيبها رجل يدعى « مسعود بك البلجيكي»[2] ، ولم يكن هذا الرجل بلجيكياً انما لقبه الناس بهذا اللقب لانه سافر الى بلجيكا وتدرب فيها مدة - وكانت هذه عادة الناس في تلك الايام .

كانت البواخر عند أول ورودها موضع دهشة العراقيين الساكنين على

---

(١) ستيفن همسلي لونكريك (اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث) - ترجمة جعفر خياط - بغداد ١٩٦٢ - ٢٧٩ .

(٢) يعقوب سركيس (مباحث عراقية) - بغداد ١٩٥٥ - ج٢ ص ٢٩٤ - ٢٩٥ .

ضفاف الانهار من العشائر وأهل المدن اذ هم لا يكادون يسمعون صفيرها وهي قادمة حتى يخرجوا الى شاطىء النهر لينظروا اليها ويتعجبوا منها ، وقد أطلقوا عليها اسم « الدخانية » أو « مركب الدخان » لما كانوا يشاهدون فيها من فوهات ينبعث منها الدخان .

ومنذ عام ١٨٦٢ كان سير البواخر بين بغداد والبصرة منتظما الى حد ما يجري على مواعيد معينة ، وكانت اجرة الراكب بين هاتين المدينتين ليرة ونصف مع العلم ان الاجرة فى السفن الشراعية كانت لا تزيد على الليرة الواحدة . وقد امتد مؤخرا خط فرعي بين بغداد وسامراء تجرى فيه باخرة مرة كل أسبوع .

كانت تتنافس على نقل الركاب بين البصرة وبغداد شركتان : احداهما بريطانية وهي المعروفة باسم « بيت لنج » والاخرى عثمانية تشرفه عليها الحكومة . وكانت شركة لنج ناجحة ومربحة ، أما الشركة العثمانية فكانت على الرغم من تدعيم الحكومة لها غير مربحة من جراء الادارة السيئة فيها[٣] .

كانت البواخر بوجه عام تواجه مشكلة عويصة عند سيرها في أنهار العراق هي مشكلة ارتطام الباخرة فى الطين عندما تنخفض المياه أثناء الصيهود ، فكان الربان يستعين بالشاقول لمعرفة مدى عمق النهر ولكن ذلك لا يجدي الا قليلا ، فكثيرا ما ترتطم الباخرة على الرغم من ذلك ولا بد عندئذ من تفريغها من الركاب والبضائع من أجل تعويمها ، وقد يشترك فى عملية التعويم احيانا جميع الركاب صغارا وكبارا ، نساءا ورجالا[٤] .

وهناك مشكلة أخرى كانت تجابه البواخر في العراق ، وهي اطلاق الرصاص عليها من قبل العشائر القاطنة على ضفافه النهر . والظاهر أن أبناء العشائر كانوا يعتبرون سير البواخر بالقرب منهم تحديا لهم ، فهم قد اعتادوا أن يفرضوا الاتاوة على القوافل المارة فى منطقة نفوذهم ولم يكن يهون

---

(3) Dahiri (Introduction Of Technology) — Bagdad 1969 — P 100

(٤) ديولافوا (رحلة مدام ديولافوا) ـ ترجمة علي البصري ـ بغداد ١٩٥٨ ـ ص ٣١ .

عليهم أن يروا البواخر تمر بهم دون أن تدفع لهم الاتاوة المتادة .
وكانت هذه المشكلة تؤدي أحيانا الى مشكلة أخرى هي أن العشائر قد تهاجم بواخر بيت لنج فيحتج أصحابها الى الوالي أو يبرقون بشكواهم الى لندن ، وتضطر الحكومة العثمانية عندئذ الى توجيه الحملات التأديبية ضد العشائر المعتدية وكثيرا ما تفشل في ذلك[5] .
نشرت جريدة « الجوائب » الاسطنبولية فى ٢٢ تموز ١٨٨٠ تقول: « ان أربعين رجلا من العشائر فى العمارة أطلقوا النار على باخرة انكليزية لنهبها فقتلوا بحريا وأحد ركابها وضابطا فأرسل قنصل انكلترا فى البصرة برقية الى سفيره باستنبول يخبره بذلك ، فأبلغ السفير الامر الى الباب العالي ، فأرسل الباب العالي برقية مشددا بها الى والي بغداد يأمره بأن يرسل قوة عسكرية ويقبض على اولئك المعتدين » .
وصفت السائحة الفرنسية ديو لافوا حالة البواخر فى العراق عام ١٨٨١ فذكرت : ان بواخر بيت لنج كانت تسير مرة واحدة فى الاسبوع ، وكانت قذرة جدا لان المسافرين فيها كانوا يقومون بأعمال الطبخ والغسل في ممراتها وقاعاتها دون رادع ، أما البواخر العثمانية فكانت تسير في الشهر مرتين ولكن الامور فيها تجرى « حسب مشيئة الشيطان او الترك » اذ هم يتقاضون مبالغ مختلفة من المسافرين بحجج وأسباب واهية ، وهم لا يكتفون بذلك بل يستعينون بأية طريقة لابتزاز المال وان كان في ذلك مايسيء الى الركاب ويضايقهم[6] .
وتروي المدام ديولافوا قصة طريفة في هذا الصدد خلاصتها : أن احدى البواخر العثمانية عندما حل موعد تحركها من البصرة لم يكن فيها من الفحم ما يكفي لوصولها الى بغداد ، وسبب ذلك أن متعهد الفحم كانت له على الحكومة ديون مستحقة وقد رفض أن يجهز الباخرة بالفحم ما لم تدفع الحكومة تلك الديون ، ولكن الباخرة يجب أن تسير في موعدها المقرر وقد صدر اليها الأمر بالتحرك على الرغم من احتجاج ربانها . كان

---

(5): Longrigg (Iraq 1900 To 1950) Oxford 1956 — P . 25 — 26 .

(٦) ديو لافوا (المصدر السابق) ـ ص ٢٧ ـ ٢٨ .

الربان فرنسياً ولم يستطع عصيان الامر الصادر اليه فاضطر أن يستخدم السمسم الذي كان منقولا في الباخرة وقودا لها ، وقد وصل بغداد أخيرا ووجد أنه انفق من السمسم ما تزيد قيمته على ثلاثين ألف فرنك [٧]...

حاولت الحكومة العثمانية في أوائل العهد الدستوري اصلاح شركة البواخر التابعة لها فاتفقت مع بيت لنج على توحيد الشركتين على ان تكون الادارة بريطانية والعلم عثمانيا ، وصدر فرمان سلطاني بذلك ، غير أن المعارضة اعتبرت الاتفاق ضارا بالبلاد وأخذت تشن على الحكومة حملة شعواء في الصحف وفي مجلس المبعوثين . وحين وصل الخبر الى بغداد هاج الناس وماجوا احتجاجا على الاتفاق وكان يحركهم بعض كبار التجار من أصحاب المصالح القائمة وعلى رأسهم عبدالقادر باشا الخضيري. وتجمهر الناس في بغداد حول دائرة التلغراف ، وجلس الخضيري عند آلة التلغراف يرسل البرقيات الاحتجاجية الى اسطنبول على نفقته الخاصة كما جرت عليه العادة في تلك الايام .

وفي ١٤ كانون الاول ١٩٠٩ جرى التصويت على الاتفاق في مجلس المبعوثين ، فوافقت الاكثرية عليه . وفي ١٣ آذار ١٩١٤ بدأت الادارة الجديدة تتسلم البواخر النهرية التي كانت تابعة للشركتين السابقتين من أجل تنظيمها على أساس جديد ، وكان الامل أن يتم لها ذلك في وقت قريب، ولكن القدر لم يمهلها اذ قامت الحرب العالمية الاولى في صيف ذلك العام واستحوذت الحكومة العثمانية على البواخر جميعا بغية استخدامها في الاغراض العسكرية .

التلغراف :

عندما حدثت ثورة الهند في عام ١٨٥٧ شعر الانكليز بالحاجة الماسة الى مد خط تلغرافي يصل لندن بالهند عبر البلاد العثمانية[٨] . فتم الاتفاق بين الدولتين على قيام المهندسين البريطانيين بمد الخطوط التلغرافية بين

---

(٧) المصدر السابق — ص ٢٨ — ٣٠ .

(8) Sarah Searight (The British In The Midde East) — London 1969 — P.127.

تركيا والعراق • وفي أوائل ١٨٦١ نصب أول خط في العراق ما بين الموصل وبغداد ، وفي صيف ذلك العام تحقق الاتصال التلغرافي بين بغداد واسطنبول(٩) •

ثم صارت شبكة الخطوط التلغرافية تتشعب وتمتد في مختلف أنحاء العراق • وأول امتداد لها كان باتجاه البصرة عبر المنتفق ، وأول مخابرة تلغرافية بين بغداد والبصرة جرت في ٢٨ كانون الثاني ١٨٦٥ • ثم امتدت الخطوط الى خانقين باتجاه ايران ، والى كربلا والنجف ، والى الكوت والعمارة وبدرة ومندلي • وما حلت نهاية القرن التاسع عشر حتى كانت الدوائر التلغرافية مفتوحة في جميع البلدان العراقية المهمة •

قابل العراقيون التلغراف بدهشة أشد من تلك التي قابلوا بها البواخر، وقد ذهب الكثير من « عقلائهم » الى عدم التصديق به فليس من المعقول في نظرهم أن يصل الخبر من اسطنبول الى بغداد في لحظة واحدة مع العلم ان المسافر يقطع المسافة بينهما في عشرين يوما أو أكثر • يحكى عن أحد وجهاء كربلا أنه كان في بغداد عندما وصل اليها خط التلغراف لاول مرة ، فلما عاد الوجيه الى كربلاء أخذ يتحدث عن هذا الاختراع العجيب وكيف ان الانسان يستطيع به أن يدق على حديدة في بغداد فيسمع الناس صوتها في اسطنبول ، فظن الناس ان هذا الوجيه قد اعتاد على تعاطي الخمرة في بغداد فصار سكيرا لا يعي ما يقول •

كان استعمال التلغراف في أول أمره مقصورا على المخابرات الحكومية ولم يكن الاهالي يستعملونه الا نادرا ، ثم اعتادوا على استعماله فيما بعد تدريجا • وقد أدرك الاهالي بمرور الزمن أن التلغراف يمكن استعماله في رفع شكاويهم الى الوالي ببغداد ، أو الى السلطان باسطنبول ، ومن هنا صار مأمور التلغراف ذا مركز مرموق في نظرهم ، فهم يسرعون اليه حين يتذمرون من معاملة أحد الموظفين لهم ، وتراهم عندئذ يقفون على رأسه فيدفعون له الاجور المقررة ويطلبون منه ابراق شكواهم الى المراجع المختصة حالا • ومن الطرائف التي يتناقلها أهل النجف أن نفرا من الأهالي أرادوا

---

(٩) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) — ص ٣٠١ •

ابراق شكواهم ضد أحد الموظفين فقدموا الى مأمور التلغراف رشوة لكي يكون دقه على الآلة شديدا ظناً منهم أن الدق الشديد أسرع وصولاً وأشد تأثيرا •

يمكن القول بوجه عام ان التلغراف كان له أثر غير قليل في تدعيم السيطرة الحكومية وفي تغلغلها في المناطق النائية من العراق ، فقد صار في وسع الحكومة حشد القوات العسكرية وتوجيهها ضد المتمردين بسهولة ووقت أقصر • ولهذا كانت العشائر تنظر الى خطوط التلغراف نظرة عداء وريبة ، فهم لا يكادون يعلنون عصيانهم على الحكومة حتى يسرعوا الى تلك الخطوط فيقطعوها ويحطموا أعمدتها ، انهم يحسبونها بمثابة الجاسوس الذي ينقل أخبارهم الى الحكومة • يروي عبدالعزيز القصاب الذي كان قائمقاما في السماوة عام ١٩١٠ أن جماعة من العصاة العشائريين هجموا على محطة التلغراف وكسروا الآلة التي فيها حيث وصفوها بانها « تكرش عليهم »[١٠] ، أي أنها تنقل أخبارهم الى الحكومة وتنم عليهم •

ومن الجدير بالذكر ان خطوط التلغراف في العراق كانت معرضة للانقطاع بين آونة وأخرى ، وذلك بسبب ما اعتاد عليه العراقيون من تحطيم كل شيء يعود للحكومة ونهبه • شوهد أحد المسافرين في عام ١٩١٣ وهو يتسلق عمودا للتلغراف ليقطع أسلاكه وينهبها ، فهي في رأيه تنفع للاستعمال في ربط الاحمال على الدواب[١١] • فهذا الرجل لا يبالي أن يضر بمصالح الحكومة والناس ، ويربك أعمالهم ، من أجل شيء تافه • أو لعله يتعمد ذلك تبعا لما يقول به المثل الدارج : « شعرة من جلد خنزير » • وما زالت هذه العادة موجودة بين الكثيرين منا • انها من بقايا تراثنا البدوي القديم!

العربة :

كانت الحيوانات هي وسيلة السفر البرية السائدة في العراق طيلة العهد العثماني ، ولم تدخل العربة اليه الا مؤخرا وبنطاق محدود جدا •

---

(١٠) عبد العزيز القصاب (من ذكرياتي) ـ بيروت ١٩٦٢ ـ ص ٨٥ •
(١١) حامد البازي (البصرة في الفترة المظلمة) ـ بغداد ١٩٦٩ ـ ص ٩٦ •

وكانت اولى العربات فى العراق هي عربات « الترامواي » التي أسسها الوالي مدحت باشا وهي ذات طابقين تجرها الخيول على سكة من حديد وكانت يومذاك شائعة الاستعمال في اسطنبول وفي بعض المدن الاوربية.

كان مدحت باشا قد لاحظ كثرة الزوار الذين يذهبون الى الكاظمية وهي بلدة شيعية مقدسة تضم مرقد اثنين من الائمة الاثنى عشر وتقع على بعد خمسة أميال الى الشمال من بغداد ، فقرر تأسيس شركة مساهمة تقوم بانشاء سكة « ترامواي » بينها وبين بغداد .

وفي شهر أيار من عام ١٨٧٠ طرحت أسهم الشركة فى الاسواق ، وكانت قيمة السهم الواحد ليرتان ونصف الليرة ، فأقدم بعض الاثرياء والتجار على شرائها بتحريض من مدحت باشا ، وقد ذكرت جريدة الزوراء فى عددها الصادر فى ١١ أيار تقول : ان الاقبال على شراء الاسهم شديد وان الناس مستمرون عليه . والظاهر أن مدحت باشا كان شديد الرغبة في انجاح المشروع فأوعز بكتابة ذلك لتشويق الناس على الشراء .

كان على مدحت باشا أن يختار بين طريقين لانشاء السكة : أحدهما في جانب الرصافة ويمر بالاعظمية ولكنه يحتاج الى جسر من الحديد فوق دجلة ، والآخر فى جانب الكرخ وهو طريق لا يحتاج الى جسر ولكنه كثير الالتواء . وقد استقر رأي مدحت باشا على اختيار الطريق الثاني لقلة نفقاته .

أرسل مدحت باشا الى مصانع بريطانيا يطلب منها المواد والادوات اللازمة ، وسار العمل في المشروع بنجاح لا بأس به ، ويعود الفضل فى ذلك الى همة الوالي وحرصه ودأبه . وعندما اكتمل المشروع وبدأت العربات تجري ذهل الناس لمنظرها ، قيل ان احدى عجائز الكرخ أبدت اذ ذاك دهشتها حيث قالت : « بس على الموت ما يقدرون ! » .

كان رأس السكة في أول الامر يصل الى بداية الدور من الجعيفر، فارتأت الشركة تمديد السكة في داخل الكرخ الى مقربة من الجسر تسهيلاً للركاب . وفي ١٩ ايلول ١٨٧١ نشرت جريدة الزوراء تقول : « قد قر القرار على شراء الدور الواقعة على الطريق الى حد خستةخانة الغرباء الواقعة

في جانب الكرخ وتحويل المركز الى هناك ، وحسبما سمعنا ان الدولة قد أخذت بالشراء ومنذ كم يوم حصلت المباشرة في العمليات. وحيث أن الادوات الموجودة قد تحقق عدم كفايتها الى المحل الذي يمد فيه الخط وأنها محتاجة الى مقدار خمسماية مترو من شطوب الحديد وغيرها فقد أوصي على جلب الادوات المذكورة مع ثمانية عربات للطريق من أوربا ».

كان ربح الشركة في السنة الاولى يربو على العشرين بالمائة من رأس المال[١٢] . وظلت الشركة مطردة النجاح الى أن رفع مدحت باشا استقالته من الولاية وغادر بغداد في عام ١٨٧٢ ، فبدأت الشركة منذ ذلك الحين تسير فى طريق التدهور تدريجا كشان أغلب المشاريع العثمانية . وقد أعطتنا المدام ديولافوا وصفاً لما كانت عليه الشركة من اهمال اثناء زيارتها لبغداد فى عام ١٨٨١ ، فهي تعطي مثلاً واقعياً على ذلك خلاصته : ان بقعة من الارض التي تمر عليها السكة في منتصف الطريق انخسفت ولم تستطع العربات مواصلة السير عليها ، فيضطر الركاب أن ينزلوا عنها ليأتي الحمالون فيدفعوها حتى يعبروا بها البقعة المنخسفة . وقد ذكرت ديولافوا . أن الخسف مر عليه ثمانية عشر شهرا فكان المهندسون يأتون اليه لفحصه ثم يكتبون عنه التقارير ، وتمضى الايام بعد ذلك من غير نتيجة . وقد كان فى الامكان اصلاح تلك البقعة فى ساعة او ساعتين بوساطة اولئك الحمالون أنفسهم ...

وتأتي ديولافوا بمثل آخر على اهمال شركة الترامواي حيث وصف ركوبها هي وزوجها احدى العربات عائدة من الكاظمية ، فقد كان سائق العربة قد أوشك وقت عمله على الانتهاء وهو يريد العودة الى بيته بأقصى سرعة ممكنة ، فأخذ يلهب الخيول بسوطه مما جعل العربة تهتز اهتزازاً شديدا لسرعتها ، وكان فى العربة بعض النساء فارتفع صراخهن ولكن السائق لم يكترث لصراخهن بل اشتد في ضرب الخيول بسوطه . وصادف عند دخول العربة في أزقة الكرخ ان كان هناك عدد من الحمير تحمل سمك

---

(١٢) مدحت باشا (مذكرات مدحت باشا) ـ ترجمة يوسف كمال حتاته القاهرة ـ ص ١٦٨ .

« البز » ذي الحجم الكبير ، فجفلت الحمير وألقت أحمالها علـى الارض وأخذ أصحابها يشتمون السائق بلهجة خشنة ، فأجابهم السائق بشـتائم مثلها • وتبدي ديولافوا أسفها لانها لم تكن تفهم معنى تلـك الشـتائم المتبادلة • وكان بجانبها رجل يحمل كوزا من العسل فأريق شيء من العسل على ملابسها من شدة الاهتزاز ، وأخذ الرجل يلعن الارض والسماء غيظـاً لفقدان بعض عسله دون أن يهتم بما جرى على ملابس السيدة من تلويث • وقد أصيب ركاب آخرون أثناء ذلك بكسور في أيديهم وأرجلهم ، كمـا أصيب خادم القنصلية الفرنسية الذي كان يرافقها برضوض وجروح فـي رأسه وفقئت احدى عينيه • وتضيفه ديولافوا الى ذلك قائلة بان هـــذه الحادثة المؤسفة لم تكن نادرة الوقوع في عربات الترامواي ، ولـكن الذي يبعث على العجب أن احدا لم يرفع صوته بالشكوى من تصرفـات السواق تلك ، والاعجب من ذلك أن هؤلاء السواق لا يعدون أنفسـهم مسؤولين عن تلك الحوادث المؤسفة بل يردونها الى احكام القضاء والقدر وما يريده الله لعباده(١٣) •

ظل العراق عشرين سنة وليس فيه من العربات سوى عربات الترامواي • وفي ١٨٩٠ ظهر نوع من العربات الخشبية يجرها زوج من الخيول مـن غير سكة وقد خصصت لنقل الركاب بين بغداد والاعظمية • وفـي السـنة التالية ظهرت في بغداد عربات مستوردة من أوربا هي عربات « اللاندون » ، وهي انما سميت بهذا الاسم لانها كانت تصنع في بلدة المانية اسمها «لاندو» وقد أضاف العامة عليه النون كما هي عادتهم في مثل هذه الاسماء • وكانت هذه العربات في بداية أمرها خاصة بالوالي وبعض كبار الموظفين والاعيـان يستعملونها في تنقلاتهم داخل بغداد ، ثم عم استعمالها بعدئذ على نحـو ما حدث للسيارات بعد الحرب الاولى •

وفي مفتتح القرن العشرين أسس نفر من أثرياء بغداد وتجارهـا شركة لتسيير العربات بين بغداد وبعض المدن القريبة منها كبعقوبة والحلة وكربلا وسامراء ، وكانت الواحدة من تلك العربات تجرها خيول أربعة تبدل

---

(١٣) ديولافوا (المصدر السابق) ــ ص ٩٠ ــ ١٠٠ •

في المحطات ، فكانت بذلك قادرة على قطع الطريق بين بغداد وكربلاء مثلا خلال نهار واحد . وقد اشتهرت هذه العربات بين العامة باسم « عرباين عارف أغا » اذ كان هذا الرجل أكبر المساهمين فيها ، وسماها بعضهم كذلك « عرباين الكومبانية » . وقد نجحت الشركة في تسيير عرباتها ، وأقبل الناس عليها ، وأصبحت المقاعد في العربات تحجز قبل أيام عديدة لا سيما في موسم الزيارات والاعياد . ولعل من المناسب ان نذكر أن الملا عبود الكرخي كان يدير مكتب الشركة في الكرخ فكان يجلس فيه بعقاله ذي اللفات الاربع ليبيع التذاكر أو يحجز المقاعد .

وفي عام ١٩٠٧ ذهب عبدالرحمن الباجچي ومحمد صالح الشابندر الى اسطنبول واستطاعا أن يحصلا من السلطان على امتياز بتأسيس شركة تراموای بين النجف والكوفة . ويروى عن عبدالرحمن الباجچي أنه عند عودته الى بغداد صرح قائلا: « جئت من اسطنبول بمفتاح الكيمياء » اشارة الى الارباح المتوقعة من تأسيس الشركة[١٤] . وقد تأسست الشركة في ذلك العام وساهم فيها بعض أثرياء النجف كالحاج محسن شلاش ، وصارت العربات من ذوات الطابقين تجري بين الكوفة والنجف على نمط ما كانت تجري بين الكاظمية وبغداد .

وفي ١٩٠٨ وردت الى بغداد من حلب أول سيارة ، فخرج أهل بغداد للتفرج عليها ، وصار بعضهم ينظرون تحتها لكي يكتشفوا الحصان الكامن في بطنها على زعمهم اذ لم يكن من المعقول أن تسير عربة من غير حصان يجرها . وبعد قليل ظهر « الماطور » في نهر دجلة وهو زورق يوضع في وسطه محرك كمحرك السيارة، وقد شجع الوالي نجم‌الدين منلا الاهالي على الاستفادة منه لتأسيس شركة وطنية للنقل النهري[١٥] . ثم أسس تاجر يهودي اسمه « مشعل » خطا لنقل الركاب بين بغداد وبعقوبة يستخدم فيه سيارات طويلة من نوع اللوري ذات مقاعد جانبية . وبلغ مجموع

---

(١٤) عباس العزاوي (تاريخ العراق بين احتلالين) ـ بغداد ١٩٥٦ ـ ج ٨ ص ١٥٥ .

(١٥) المصدر السابق ـ ج ٨ ص ١٧٩ .

السيارات في العراق كله عند اعلان الحرب الاولى أقل من اثنتي عشرة سيارة[16] .

يحكى ان الوالي جاويد باشا عندما ذهب الى النجف بسيارته الخاصة في عام ١٩١٤ طلب من أحد وجهائها أن يركب فيها لتسير به خارج السور ، ولكن الوجيه بعد أن نظر الى السيارة ملياً رفض الركوب فيها بحجة أنه صاحب عيال وهو لا يأمن من شرها على نفسه .

البريد :

لم يكن في العراق في النصف الاول من القرن التاسع عشر خدمات بريدية منظمة ، وكان الناس حين يريدون ارسال مكتوب لهم من بلدة الى اخرى يذهبون الى خانات المسافرين ليتعرفوا فيها الى شخص عازم على السفر الى البلدة التي يقصدونها فيرجونه ايصال مكتوبهم اليها . وقد يتخصص في بعض المدن شخص معين لهذا الغرض فيأتي الناس اليه بمكاتيبهم وهو يجمعها عنده انتظارا لمسافر يحملها معه قربة لوجه الله .

أما الحكومة فكان لها رجال مختصون بنقل بريدها اشتهروا باسم « طاطران » — أي التتر — وكان هؤلاء يركبون الخيول او الجمال السريعة التي تبدل في نقاط معينة أثناء الطريق . وكان للقناصل رجال مختصون بنقل بريدهم على هذا المنوال أيضاً .

تأسست أول خدمة بريدية عامة في العراق في عام ١٨٦٨ ، ولم تكن عثمانية بل كانت تتبع الحكومة الهندية البريطانية ، وكان لها موزعون وصناديق منصوبة في الشوارع وزوارق للنقل ، وقد شملت بخدماتها المدن الواقعة على الانهر والعتبات المقدسة ، وظلت تعمل بانتظام عشر سنوات[17] .

وفي عام ١٨٧٨ اشتركت الدولة العثمانية في الاتفاقية البريدية العالمية التي تم عقدها في باريس ، ومنذ ذلك الحين شرعت الحكومة تفتح دوائر البريد العثمانية في المدن العراقية . وصارت تضع العراقيل تجاه دوائر البريد الهندية حتى قضت عليها اخيرا .

---

(16) Longrigg (op . cit .) — P . 64 .

(١٧) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) — ص ٣٢٤ .

ss

كانت دوائر البريد العثمانية كغيرها من الدوائر الحكومية يسودها التفسخ وسوء التنظيم ، وكثيرا ما كان الموظفون فيها لا يتسلمون مرتباتهم عدة أشهر فيضطرون الى الاعتماد على الرشوة من أجل العيش • وصار الناس يفضلون ارسال مكاتيبهم عن طريق القناصل بدلا من ارسالها بالبريد الحكومي • حدثني أحد المسنين من أهل بغداد : أنه كان يذهب بمكتوبه الى القنصلية البريطانية فيشتري منها طابعا بريطانيا ليلصقه على المكتوب ثم يسلمه الى موظف معين فيها •

ويذكر سليمان البستاني في كتابه «عبرة وذكرى» : ان مكاتب البريد الاجنبية كانت منتشرة في أكثر المواني والمدن المهمة في البلاد العثمانية ، وكانت مأمونة لا يستطيع أحد أن يطلع على ما فيها ، وكان الكثير من الناس يعتمدون عليها في ارسال أموالهم وأسرارهم • وحدث في عام ١٨٩٤ أن اكتشفت احدى السفارات في اسطنبول خيانة بين عمال بريدها وكانوا عثمانيين حيث سلموا رسائل بعض رجال المعارضة الى « المابين » لقاء مبلغ معلوم عن كل رسالة ، فأصدرت السفارة أمرها بان لا يستخدم بعدئذ في بريدها أي عامل عثماني[١٨] •

من الممكن القول ان دوائر البريد العثمانية تحسن وضعها نسبياً في العهد الدستوري ، وسادها شيء من النظام • يصف عبدالكريم العلاف كيف كان البريد يصل الى بغداد في أواخر العهد العثماني فيقول : ان صاحب البريد كان يدخل الى بغداد من باب المعظم ممتطياً جواده وبيده سوط يلوح به فى الهواء ، وأمامه عدد من الخيل تحمل البريد راكضة ، وهو ينادي بصوت عال : « بوستة كلدي » أي جاء البريد • فيسرع الناس بالذهاب الى دائرة البريد الواقعة فى محلة الميدان فيجتمعون فى ساحتها، وهناك يقف الموظف المختص فيقرأ على الناس الاسماء المكتوبة على الرسائل، فيتسلمها من كان حاضرا منهم ، أما الذين لم يستطيعوا الحضور فيذهب اليهم الموزع ويأخذ منهم عشر بارات عن كل رسالة بمثابة «بخشيش»[١٩] •

---

(١٨) سليمان البستاني (عبرة وذكرى) ــ القاهرة ١٩٠٨ ــ ص ٤٩ •

(١٩) عبد الكريم العلاف (بغداد القديمة) ــ بغداد ١٩٦٠ ــ ص ١٥٦ •

المعمل والماكنة :

كان أول معمل حديث أقيم في العراق هو الذي أسسه الوالي رشيد باشا الگوزلگلي في العقد السادس من القرن التاسع عشر . وهو لم يكن في الواقع معملاً بل كان محلا لاصلاح البواخر والآلات المستوردة من الخارج، ويضم تورنة ومقراض ومثقب وما أشبه ، وكان محله في جانب الكرخ من بغداد واسمه « دمير خانة » وسماه أهل بغداد بـ « الحداد خانة » .

وقد طرأ الخلل على هذا المعمل بعد موت رشيد باشا ثم تعطل أخيرا وأهمل . ولما جاء مدحت باشا أمر مسعود بك البلجيكي باعادته الى العمل من جديد . وقام المعمل بخدمات مهمة للجيش حيث اهتم باصلاح البنادق القديمة المعروفة باسم « جاقماقلي » ، والتي كانت متروكة في المخازن وقد أكلها الصدأ ، فحولها الى بنادق من نوع « شيشخان » الصالح للاستعمال[٢٠] .

وفي عام ١٨٦٤ أسس الوالي نامق باشا أول معمل حديث للنسيج في العراق ، وهو الذي أطلق البغداديون عليه اسم « العباخانة » أو « القاطرخانة » ، وبه عرفت المحلة المحيطة به . وكان يدار بالبخار وينتج بعض حاجات الجيش من ألبسة وخيام . وحين جاء مدحت باشا عمل على تطوير المعمل وتوسيعه حتى وصل انتاجه في اليوم الواحد الى ثلاثمائة متر من الاقمشة الصوفية وأربعمائة متر من الاقمشة القطنية السميكة[٢١] .

وقد وجد مدحت باشا الحاجة ماسة الى استيراد معمل للطحن . ذكرت جريدة الزوراء في ١٦ آذار ١٨٧٠ : ان سكان بغداد بلغوا مائة وخمسين ألفاً ، ثم قالت الجريدة : « فالحنطة التي تطحن لمأكولات هذا المقدار من النفوس قد انحصرت أما في الرحى التي تدار بالبغال أو باليد حتى أن أجرة طحن الحنطة تصل الى ثلث ثمن الحنطة وما عدا ذلك فالحنطة

---

(٢٠) عباس العزاوي (المصدر السابق) ـ بغداد ١٩٥٥ ـ ج ٧ ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣ .

(٢١) المصدر السابق ـ ج٧ ص ٢٦٠ .

التي تطحن لاشهر ليست وفق المطلوب بل بعض الطحين يخلط ويفسد وهذا هو من الامور الثابتة بالتجربة فالآن جعلت الحكومة السنية علاوة على الهمة التي بذلتها في حق العموم من استكمال راحة الجميع ، ويمنى أنها قد تشبثت في جلب ماكنة للطحن»[٢٢] .

طلب مدحت باشا من أحد المصانع الفرنسية معملا للطحين بقوة سبعين حصاناً وكان ثمنه ألفي ليرة ، ولكن المعمل تأخر وصوله لانشغال فرنسا بحرب السبعين وهي الحرب التي نشبت بينها وبين المانيا . وحين وصل المعمل أخيرا كان مدحت باشا قد غادر بغداد فترك مهملاً على رصيفه البصرة حتى أكله الصدأ . وقد استطاع أخيرا حسين فوزي باشا قائد الفيلق أن يجلب المعمل المصدوء الى بغداد واتخذ له الابنية اللازمة وجعله يعمل[٢٣] .

ثم كثرت من بعد ذلك مكائن الطحن الاهلية في بغداد وغيرها من المدن العراقية . نشرت جريدة الرقيب البغدادية في ٤ آذار ١٩٠٩ تقول: « في محلة قاضي الحاجات وسوق الشورجة عدة ماكينات تشغل بالغاز للطحن وتهبيش التمن ... وقد تضررت الاهالي من قمقعتها وروائحتها وهزها للأبنية»[٢٤] .

وفي عام ١٨٨١ استوردت ماكنة لصنع الثلج فنصبت في شريعة الميدان ببغداد ، وكان الثلج يصنع فيها على شكل صفائح كالزجاج السميك ويباع الكيلو غرام منه بقرش صاغ[٢٥] . ولم يستطع الاهالي الاستفادة منه الا قليلاً اذ كان معظم انتاجه يذهب الى بيوت القواد وكبار الموظفين فكان هؤلاء يرسلون خدمهم الى المعمل للاتيان بالثلج وكثيرا ما كان الخدم يتعاركون عند باب المعمل من أجل الحصول على المقدار المطلوب من الثلج .

وفي عام ١٨٨٨ استورد ابراهيم حي الهندي معملين للمشروبات الغازية

---

(٢٢) منير بكر التكريتي (الزوراء) ـ بغداد ١٩٦٩ ـ ص ٧ .
(٢٣) عباس العزاوي (المصدر السابق) ـ ج ٧ ص ٢٦٠
(٢٤) عبدالله الفياض (الثورة العراقية الكبرى) ـ بغداد ١٩٦٣ ـ ص ٣٦ .
(٢٥) عبد الكريم العلاف (المصدر السابق) ـ ص ٩٧ .

فنصب أحدهما في البصرة والثاني في العشار • [٢٦] اشتهرت هذه المشروبات باسم هندي « ناملیت » وأخذت تدر أرباحاً غير قليلة مما شجع آخرين على استيراد معامل أخرى لها •

وفي عام ١٨٨٩ كان لشركة لنج مكبسان للصوف يعملان بقوة البخار ويحولان الصوف المحلي الى بالات جاهزة للتصدير ، وكان لشركة اندرو وير كذلك مكبسان مائيان كبيران[٢٧] • وقد كثرت من بعد ذلك مكابس للصوف وعرق السوس في مختلف أنحاء العراق •

وفي أواخر القرن التاسع عشر بدأ بعض أصحاب المزارع والبساتين باستعمال المضخات البخارية لري مزارعهم ، وقد بلغ عدد تلك المضخات فى نهاية القرن اثنى عشر ، ثم أخذ عددها يتضاعف من بعد ذلك [٢٨] •

وفي عام ١٩٠٧ انشأت أول اسالة للماء في بغداد ، وكانت من طراز بسيط جدا حيث نصبت مضخة في شريعة الميدان ومدت منها أنابيب الى البيوت من غير تصفية أو تعقيم ، وكان للاسالة أجرة شهرية مقطوعة قدرها عشرة قروش صاغ لكل بيت[٢٩] ، وكانت الاملاح والوحول تترسب في الانابيب فيكابد الناس منها ما يكابدون •

المطبعة :

ذكر رزوق عيسى أن أول مطبعة أنشئت فى العراق كانت فى الكاظمية لصاحبها المرزا محمد باقر التفليسى ، وهي حجرية ، وقد طبع فيها كتاب « دوحة الوزراء » للشيخ رسول الكركوكلي فى عام ١٨٢١ • وفي رأي يعقوب سركيس أن هذا قول لا نصيب له من الصحة[٣٠] •

وفي عام ١٨٥٦ أنشئت فى العراق مطبعتان حجريتان ، احداهما في كربلا وكان صاحبها ايراني أخذ يطبع فيها بعض الادعية والزيارات والاوراق

---

(٢٦) حامد البازي (المصدر السابق) ــ ص ١٤٢ •

(٢٧) محمد سلمان حسن (التطور الاقتصادي فى العراق) ــ بيروت ــ ج١ ص ٢٨٦ •

(28) Longrigg (op . cit) P : 64 .

(٢٩) عبد الكريم العلاف (المصدر السابق) ــ ص ٧٥ •

(٣٠) يعقوب سركيس (المصدر السابق) ــ ج٢ ص ٢٦٩ ــ ٢٧٠ •

التجارية ، وكذلك طبع فيها مقامات ابي الثناء الآلوسي . والثانية في الموصل للآباء الدومنكيين ، وقد طور الآباء هذه المطبعة فحولوها في عام ١٨٥٩ الى مطبعة حروفية ، ثم صارت المطبعة تملك مسبكاً لصب الحروف وقسماً خاصاً بالتجليد الفني الحديث[٣١] . وظلت هذه المطبعة الدومنكية تعمل أكثر من خمسين سنة فكانت من عوامل النهضة الادبية في شمال العراق[٣٢]، وقد صادرتها الحكومة عند نشوب الحرب العالمية الاولى .

وفي عام ١٨٦١ جلب كامل التبريزي الى بغداد من ايران مطبعة حجرية، وكان خطاطها رجل ايراني اسمه محمد جواد ، وصارت تطبع بعض الكتب منها « سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب » لمحمد أمين السويدي . وفي عام ١٨٦٩ استورد مدحت باشا من باريس مطبعة حروفية آلية لكي يطبع بها جريدة الزوراء ، وكانت هذه أول مطبعة في العراق تدار بالبخار وقد زودت بالاجهزة الحديثة . وعلى أثر افتتاح هذه المطبعة أغلقت مطبعة كامل التبريزي أبوابها ...

وفي عام ١٨٧٥ أسس تحسين باشا والي الموصل مطبعة للولاية وأمر بجلب آلاتها من اسطنبول ، وساهم الآباء الدمنكيون في ادارتها فنياً . وفي عام ١٨٨٤ أسس الحاخام يهوذا بيخور أول مطبعة يهودية في العراق وكان فيها حروف عبرية لطبع الكتب الدينية ، وحروف عربية لطبع الاوراق التجارية . وفي عام ١٨٨٩ أسس محمد علي جلبي زادة أول مطبعة في البصرة لكي يصدر بها جريدة « الفيحاء » .

وفي عام ١٨٩١ أسس ابراهيم باشا في بغداد مطبعة مهمة سميت بمطبعة « دار السلام » ، وقد جرى فيها طبع كتاب « بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب » للسيد محمود شكري الألوسي الذي نال به وساما من ملك السويد . وفي عام ١٩٠٢ أسس الحاخام عزرا دنكور في بغداد مطبعة عدت في حينها من أكبر مطابع العراق ، وكانت تهتم بطبع الكتب

---

(٣١) خليل صابات (تاريخ الطباعة في الشرق العربي) ـ القاهرة ١٩٦٦ ـ ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨ .

(٣٢) روفائيل بطي (الصحافة في العراق) ـ القاهرة ١٩٥٥ ـ ص ١٧ .

اليهودية والاوراق التجارية • وفي عام ١٩٠٧ أسس محمود الشابندر مطبعة باسم « مطبعة الشابندر » وكانت من أكبر مطابع العراق أيضا تدار بمحركين بخاريين وتتمكن من طبع ثلاث آلاف نسخة في الساعة • وفي عهد الدستور أنشئت مطابع أخرى في بغداد وبعض المدن الاخرى، كالنجف والموصل والبصرة، (٣٣) مما لا يتسع المجال للاسهاب فيها •

الجريدة والمجلة :

يقال ان اول جريدة ظهرت في العراق أصدرها داود باشا في عام ١٨١٦ باسم « جرنال العراق » ، فكانت تطبع في مطبعة حجرية باللغتين التركية والعربية وتوزع على قواد الجيش وكبار الموظفين وأعيان بغداد وأشرافها، كما كانت تعلق على جدران دار الحكومة ليطلع عليها الناس • ويقول المؤرخ عبدالرزاق الحسني : انه لم يعثر على نسخة من هذه الجريدة لا في المتحف البريطاني ولا في المؤسسات العثمانية القائمة[٣٤] مما يثير الشك في وجودها •

يرجح في ظني أن « جرنال العراق » ـ على فرض وجودها ـ لم تكن جريدة بالمعنى المتعارف عليه الآن ، وربما كانت بمثابة منشورات دورية أصدرها داود باشا لاطلاع كبار الموظفين والاعيان على ما يريد أن يطلعهم عليه •

وظل العراق من غير جريدة تصدر فيه حتى عام ١٨٦٩ ، وهو العام الذي جاء فيه مدحت باشا الى بغداد والياً • والظاهر أن مدحت باشا كان قد أعد العدة لاصدار جريدة في بغداد قبل مغادرته اسطنبول ، وكان قد استصحب معه الى بغداد أحد الكتاب الاتراك المعروفين لكي يتولى تحرير الجريدة هو أحمد مدحت افندي • وفي ١٥ حزيران من عام ١٨٦٩ ـ أي بعد ستة وأربعين يوماً من وصوله الى بغداد ـ صدر العدد الاول من الجريدة باسم « الزوراء » وهي باللغتين التركية والعربية • والملاحظ

---

(٣٣) خليل صابات (المصدر السابق) ـ ص ٣٠١ ـ ٣٠٥ •

(٣٤) عبد الرزاق الحسني (الصحافة العراقية في ربع قرن) ـ بغداد ١٩٦٩ ـ ص ٣ •

ان تاريخ اليوم المكتوب في صدر العدد الاول منها كان حسب التقويم الشرقي وهو يقل عن التقويم الغربي باثني عشر يوماً .

يمكن القول بأن جريدة الزوراء كان لها بعض الاثر ، وان كان محدودا، في توعية الناس وفي تثقيفهم . والمعروف عن مدحت باشا أنه أطلق لها شيئا من الحرية فأخذت تكتب في مواضيع شتى كالحث على تعليم البنات، والوقاية من الاوبئة ، والاسباب التي أدت الى انحطاط العراق ووسائل ترقيته ، كما احتوت على رسائل من أنحاء العراق . وهذه أمور لابد ان تثير انتباه الناس وتفتح أذهانهم على وجه من الوجوه .

وقد استمر صدور جريدة الزوراء من غير توقف زهاء ثمانية وأربعين عاما ، غير أنها لم تبق على ما كانت عليه في عهد مدحت باشا من حرية في النقد وميل الى التوعية . وقد ساهم في تحريرها كثيرون كان منهم أحمد عزت الفاروقي ، وطه الشواف ، ومحمود شكري الألوسي ، وفهمي المدرس، وعبدالمجيد الشاوي ، وجميل صدقي الزهاوي .

وفي عام ١٨٨٥ ظهرت في الموصل جريدة باسم « الموصل » وهي كانت رسمية كالزوراء . وفي ١٨٨٩ ظهرت في البصرة جريدة باسم « الفيحاء » وكان قد أصدرها موظف بغدادي يسكن البصرة اسمه محمد علي جلبي زاده، وفي عام ١٨٩٥ تحولت هذه الى جريدة رسمية على أثر نقل صاحبها الموظف الى بيروت . وقد عاشت هاتان الجريدتان كالزوراء حتى انتهاء العهد العثماني في العراق .

وفي عام ١٩٠٢ أصدر الآباء الدومنكيون في الموصل مجلة دينية اسمها « اكليل الورد » فكانت أول مجلة تصدر في العراق ، واستمرت على الصدور حتى يوم اعلان الدستور العثماني في عام ١٩٠٨ . وفي عام ١٩٠٥ أصدر الآباء الكرمليون في بغداد مجلتين دينيتين احداهما باللغة العربية بعنوان « زهيرة بغداد » والاخرى باللغة الفرنسية بعنوان « الايمان والعمل » ، وقد استمرت هاتان المجلتان على الصدور ما ينوف على السنة ثم احتجبتا(٣٥) .

---

(٣٥) عبد الرزاق الحسني (تاريخ الصحافة العراقية) ـ بغداد ١٩٥٧ ـ ص٢٥

وعندما أعلن الدستور العثماني في عام ١٩٠٨ حدثت فورة صحافية في العراق تلفت النظر على نحو ما ذكرناه في الفصل السادس • وكانت أول جريدة ظهرت في ذلك العهد هي جريدة « بغداد » التي أصدرها فرع جمعية الاتحاد والترقي ببغداد • وتتابع من بعد ذلك ظهور الجرائد والمجلات على نحو سريع عجيب ، ففي خلال ثلاث سنوات بلغ عدد الجرائد والمجلات التي صدرت نحو سبعين • وفي عام ١٩١١ أصدرت وزارة الداخلية في اسطنبول أمرا قضت فيه أن يلغى امتياز كل جريدة توقفت عن النشر قبل يوم ٥ آذار من تلك السنة ، وبهذا تم الغاء امتياز ثماني وثلاثين جريدة ، ولم يبق في بغداد عندئذ سوى ثلاث جرائد ومجلتين•[٣٦]

من أشهر الجرائد التي صدرت في عهد الدستور جريدة « الرقيب » لصاحبها عبداللطيف ثنيان ، وجريدة « بين النهرين » لصاحبها محمود الطبقجلي ، وجريدة « مصباح الشرق » لصاحبها عبدالحسين الازري ، وجريدة «النهضة» لصاحبها مزاحم الباجچي، وجريدة «الرصافة» لصاحبها السيد صادق الاعرجي ، وغيرها • وكانت مجلة « لغة العرب » التي أصدرها الاب انستانس ماري الكرملي في بغداد ، ومجلة « العلم » التي أصدرها السيد هبة الدين الشهرستاني في النجف، أهم المجلات التي صدرت في عهد الدستور •

كان الاتراك يطلقون على الجريدة اسم « الغازيتا » أو « الغزتة » ، وهي لفظة ايطالية وقد حورها العامة في العراق فجعلوها « قسطة » • ومما يجدر ذكره ان المتزمتين من رجال الدين كانوا ينظرون الى الجريدة نظر استنكار ، وظلوا كذلك حتى عهد متأخر• فقد كانوا يعدون قراءة «القسطة من باب اللهو المكروه شرعاً وهم يرون من الواجب على المسلم أن يقرأ القرآن والادعية وكتب الدين بدلاً من قراءة « القسطة » • ويروى عن أحد علماء بغداد في أواخر العهد العثماني أنه لاحظ ابنه ذات يوم يدخل غرفته ويسدها عليه سداً محكماً ، فداهم الغرفة ليجد ابنه يقرأ الجريدة ، فانهال عليه بالضرب المبرح قائلا له : « لقد خربت بيتي بادخالك الغازيتا » • وقد

---

(٣٦) رفائيل بطي (المصدر السابق) — ص ٢٢ — ٢٣ •

اضطر الابن الى احراق الجريدة خشية العيون والرقباء.[٣٧]

المستشفى :

ان أول مستشفى في العراق هو الذي بناه مدحت باشا على شاطىء دجلة في جانب الكرخ ، وهو كغيره من مباني مدحت باشا استمد طابوقه من سور بغداد ، وقد جمعت له التبرعات من أغنياء بغداد وأعيانها ، وتم افتتاحه فى عام ١٨٧٢ باسم « خسته خانة الغرباء » أي مستشفى الغرباء .

وهذا المستشفى لم يكن فى الواقع مستشفى بالمعنى المتعارف عليه فى أيامنا بل كان أشبه شيء بدار للعجزة . فلم يكن الاهالي فى تلك الايام يستسيغون ايداع مرضاهم فى مستشفى حكومي بل جرت العادة أن يعتنوا بمرضاهم في بيوتهم ، وكانوا يعتقدون ان الحكومة من شأنها قتل المرضى لا علاجهم . ولهذا كان المستشفى الذي بناه مدحت باشا مخصصاً للغرباء الذين ليس لهم أقارب يعتنون بهم في بيوتهم ، ولم يلجأ اليه في الواقع سوى المعوزين والمتسولين والعجزة ، وكان قد خصص فيه جناح خاص للمساجين والمعتوهين والعواهر[٣٨] .

وقد أهمل المستشفى بعد مدحت باشا وقلت المنفعة منه تدريجاً حتى كادت تنعدم ، وأصيبت بنايته بشقوق . وفي عام ١٨٧٩ عمل الوالي عبدالرحمن باشا على اصلاحه وتجهيزه بالادوات والادوية بمقدار ما ساعدته الظروف في تلك الايام . وفي ٦ نيسان من تلك السنة أعيد افتتاحه مجددا وحضر حفلة افتتاحه جمع كبير من الناس [٣٩] . وفي عام ١٨٩٦ قررت الحكومة الاستغناء عنه نهائيا فأعطيت بنايته الى دائرة المعارف وانتقل اليها « المكتب الاعدادي الملكي » .

وكان المستشفى الثاني فى العراق هو الذي أسسه الوالي نامق باشا الصغير في باب المعظم في الموضع الذي أقيمت عليه بناية السجن المركزي

---

(٣٧) منير بكر التكريتي (الصحافة العراقية) ــ بغداد ١٩٦٩ ــ ص ٥٧ .

(٣٨) هاشم الوتري ومعمر الشابندر (تاريخ الطب في العراق) ــ بغداد ١٩٣٩ ــ ص ٥٤ .

(٣٩) عباس العزاوي (المصدر السابق) ــ ج٢ ص ٤٥ .

فيما بعد ، وقد اهتم به نامق باشا اهتماما كبيرا وكأنه أراد أن يجعله خيرا من مستشفى مدحت باشا، فغرس أمامه حديقةواستورد له الادوية والادوات الجراحية من أوربا • وجرى افتتاحه في ٧ نيسان من عـام ١٩٠١ بحضور نامق باشا والمشير وجماعة من الاعيان والعلماء وقرأ فهمي المدرس ـ الذي كان يومذاك محرر جريدة الزوراء ـ الدعاء للسلطان ولوزرائه وللوالي • وقد سمي المستشفى الجديد بـ « مستشفى الغرباء » كذلك •

كانت الهيئة الادارية فى المستشفى الجديد مؤلفة من « سر طبيـب » ـ أي طبيب أول ـ ومدير داخلي وجراح وكحال ومدير وكاتب ووكيـل خرج وطباخ ومعاون طباخ وبستاني وامام للصلاة وعشرين خادما وخادمة ، وكان تحضير الادوية فيه يجري على الطريقة اليونانية العربية • ومما يلفت النظر أن نامق باشا على الرغم من رغبته الشديدة في ترقية المستشفى كـان قد عين لادارته رجلا يدعى محمود خان ، ولم يكن لهذا الرجل من كفـاءة سوى براعته في لعبة الشطرنج[٤٠] •

وقد جرى بعد عزل نامق باشا من ولاية بغداد شيء من الاصـلاح والتغيير في المستشفى ، فتم عزل محمود خان من ادارته وعين فيه الدكتور نظام الدين للرئاسة والامراض الباطنيـة ، والدكتور ذهنـي بك للامراض الجراحية ، والدكتور سامي سليمان لامراض العيون ، كما عين الاوسـطة عباس مساعدا للجراح •

وفي بداية عهد الدستور تقرر نقل هذا المستشفى الى بناية المستشفى الاول الذي بناه مدحت باشا في جانب الكرخ فاستعيدت البناية من دائرة المعارف وتحول اليها المستشفى الجديد • وتم أخيرا تعيين الدكتور محمد كاني بك لادارة المستشفى ، وكان هذا رجلا قديرا وجراحا ماهرا فنفخ فيه روحاً من النظام لا يستهان به • وفي عهد هذا المدير أسندت وظائف التمريض لاول مرة الى النساء حيث قامت بها جماعة من الراهبات الفرنسيات فكن خير عامل لرقي المستشفى وبدأ بهن طور جديد من النظام والترتيب[٤١] •

---

(٤٠) هاشم الوتري ومعمر الشابندر (المصدر السابق) ـ ص ٥٥ •
(٤١) المصدر السابق ـ ص ٥٦ •

وكان المستشفى الثالث في العراق هو مستشفى « المجيدية » ، وقد أقيم في القصر الذي بناه مدحت باشا في بستان النجيبية لضيافة الشاه ناصر الدين • وكان افتتاحه في عام ١٨٩٧ عندما كان الشير رجب باشا والياً بالوكالة ، وقد أضاف هذا الوالي الى القصر غرفاً واسعة في المكان الذي تقوم فيه ردهات المستشفى الآن ، وجعله مستشفى عسكريا وقيل انه سماه بـ « المجيدية » تيمناً باسم السلطان عبدالمجيد والد السلطان عبدالحميد •

وفي ٢٦ آب ١٩١٠ افتتح الوالي ناظم باشا مستشفى يهوديا خارج باب المعظم سمي باسم مؤسسه « مئير الياس » ، وحضر حفلة الافتتاح جمع من الاعيان وكبار الموظفين ، وقد وجهت الدعوة اليهم باسم الحاخام داود پابو • وكان المستشفى واسعا ومجهزا بأحدث الاجهزة واعتبر في حينه أفخم واكثر تنظيما من جميع المستشفيات الحكومية •

الملهى :

لم يكن في العراق حتى نهاية القرن التاسع عشر أي ملهى او مرقص من النمط المتعارف عليه الآن • وفي أوائل القرن العشرين ظهر نوع ساذج من الملاهي في بغداد في بعض المقاهي الواقعة حول ساحة الميدان او قريبا منها • ومما يجدر ذكره أن ساحة الميدان كانت في ذلك الحين بمثابة منتزه عام لاهل بغداد ، فقد غرست فيها في عام ١٨٨٩ حديقة عامة وبني في وسطها حوض يحتوي على نافورة تقذف الماء ،وصار بعض الناس يقصدونها عصر كل يوم للتمشي فيها والتنزه •

كان في الجانب الغربي من ساحة الميدان مقهى يعرف باسم صاحبه سبع ، وكان سبع هذا كما وصفه عبدالكريم العلاف في كتابه « بغداد القديمة » : دمث الاخلاق طيب السريرة يعرف المعوزين من رواد مقهاه فلا يطالبهم بأجور المقهى[٤٢] • ويعتبر هذا الرجل أول مؤسس للملاهي في العراق •

---

(٤٢) عبد الكريم العلاف (المصدر السابق) ــ ص ٥٨ •

كان سبع في أول أمره قد جعل في مقهاه جوقاً موسيقيا محليا من من النوع الذي يسمى بـ « الجالغي البغدادي » وله مغنيان يتناوبان على قراءة المقامات البغدادية ، ثم طور سبع مقهاه فاستحضر له غلماناً يرتدون الملابس النسائية ليرقصوا فيه • وفي عام ١٩٠٧ اشتهر المقهى لوجود غلام وسيم جدا يرقص فيه ، وكان هذا الغلام اسمه نعيم وهو مسيحي من حلب ، وقد افتتن البغداديون به افتتاناً عجيباً • وفي احدى الليالي بينما كان الغلام يرقص في المقهى أطلق عليه أحد عشاقه الرصاص فسقط على الارض مضرجا بدمائه ، فنقل الى مستشفى الغرباء حيث مات ، وكان سبب قتله ان العاشق طلب منه الوصال فأبى هو ذلك[٤٣] • وقد رثاه الرصافي بقصيدة مفعمة بالاسى والحزن ، والمظنون أنه كان من عشاق الغلام •

وعندما أعلن الدستور فى عام ١٩٠٨ ، واطلقت الحرية للناس ، تقدم سبع بمقهاه نحو اللهو خطوة أخرى ، اذ استورد له من حلب راقصة حسناء اسمها « رحلو » ، وصارت هذه الحسناء ترقص عصر كل يوم في المقهى فتخلب بغنجها الابصار وتسبي القلوب !

عرفت رحلو كيف تصطاد الزبائن ، اذ هي لا تكاد تغمز بعينها لأحد منهم حتى يفقد أعصابه ويبذل لها كل ما في جيبه من مال ، وربما اضطر فى اليوم التالي الى بيع داره او أثاث بيته لكي ينال منها غمزة اخرى • وجنت رحلو من ذلك ، كما جنى سبع من ورائها ، مالاً كثيرا •

ان نجاح سبع في مقهاه — او ملهاه — شجع الغير على الاقتداء به ، وكان أول من فعل ذلك حسن صفو صاحب المقهى المعروف بـ « قهوة الشط » التي تقع على النهر في محلة المصبغة قريبا من شارع البنوك الحالي ، فقد أتى بمغنية كان لها صيت عريض يومذاك هي «طيرة المصرية» • وكانت هذه المغنية قد وفدت من مصر على الشيخ خزعل أمير المحمرة فغنت له أغنية سيد درويش « زوروني بالسنة مرة » ، ثم جاءت من هناك الى بغداد ، وصارت تغني في « قهوة الشط » ، فكسفت رحلو بروعة

---

(٤٣) المصدر السابق — ص ١٢١ — ١٢٢ •

غنائها . وصفت جريدة الرقيب البغدادية تهافت الناس على «قهوة الشط» فقالت في عددها الصادر في ١٤ تشرين الاول ١٩٠٩ : « ... أما المراقص وتحشد الناس فيها وتهافتهم عليها فحدث ولا حرج ، حتى أن أوسع محل منها وهو (قهوة الشط) الذي يسع ما ينوف على ٧٠٠ شخص لم يزل بعض الناس يدفع رسم الدخولية ثم يعود على الفور لعدم وجود محل يجلس فيه ... »(٤٤) .

واشتهر آنذاك عزاوي صاحب المقهى المعروف باسمه وكان محل مقهاه في السوق المسقوف المتفرع من ساحة الميدان ، وما زال المحل باقيا وقد اتخذ معرضا لبيع « الموبيليا » والاثاث . وكان عزاوي في أول أمره قد جعل في مقهاه شيئا شبيها بخيال الظل يدعى « قره قوز » بادارة رجل اسمه راشد افندي ، ثم طور مقهاه أخيرا فاستورد له الراقصات على منوال ما فعل سبع والآخرون .

شاع في بلاد الشام وتركيا ومصر أن الراقصة التي تذهب الى العراق تجني ذهبا ، فأخذت الراقصات يفدن الى بغداد بتهافت عجيب ، وأصبحت المقاهي الواقعة في الميدان والسوق المتفرع منه موئلاً لتلك الراقصات يبذلن فيه أفانين الغنج لخداع الزبائن ونهبهم . وقد نظم الرصافي قصيدة يشكو فيها من انهماك الناس في الملاهي .

وفي عام ١٩١٣ قررت بلدية بغداد ان تبني مسرحا حديثا للرقص والغناء ترفيها لاهل بغداد ، فأقامته خارج بغداد في الموضع الذي بنيت عليه بعدئذ المحطة القديمة لقطار كركوك بالقرب من كلية الآداب حاليا ، وقد عملت فيه المغنية بديعة لاطي واختها خانم لاطي . واستمر هذا الملهى حتى قيام الحرب العالمية الاولى ، فتوقف عند ذاك عن العمل وأغلق أبوابه. (٤٥)

تقلصت الملاهي في بغداد خلال الحرب في فترة ما قبل الاحتلال

---

(٤٤) خالد محسن اسماعيل (قلم وزير) ـ بغداد ١٩٧٠ ـ ص ٧٥ .
(٤٥) عبد الكريم العلاف (قيان بغداد) ـ بغداد ١٩٦٩ ـ ص ١٩٦

البريطاني ، ولم يبق فيها سوى ملهى عزاوي الواقع في السوق المسقوف. حدثني محمود حلمي الكتبي عن وضع هذا الملهى، وكان من رواده في تلك الايام ، فقال : ان عزاوي كان يجلس عند مدخل الملهى على كرسي من جريد على منوال ما يجلس أصحاب المقاهي ، وقد وضع أمامه على طاولة صغيرة صحناً من نحاس لجمع النقود . وكانت اجرة الدخول « قران » وهو يعادل أربعة قروش او عشرين فلسا ، ولكنه كان يومذاك ذا قوة شرائية كبيرة .

يجب ان لا يفوتنا في هذا الصدد ذكر السينما ، فان أول دار لها افتتحت في عام ١٩٠٩ في الميدان وكان تهافت الناس عليها شديدا . وقد أشارت الرقيب في حينه الى أن الكثير من الفقراء صاروا ينفقون معظم دخلهم عليها(٤٦) .

المسرحية :

أول من أهتم بالمسرحيات والتمثيل في العراق هم القساوسه النصارى ، وكان غرضهم من ذلك وعظياً حيث ارادوا به تقوية العقيدة في قلوب اتباعهم وتنويرهم بالتعاليم المسيحية ، وكانت مواضيع مسرحياتهم في أول أمرها مستمدة من التوراة والانجيل .

يقول الدكتور عمر الطالب : ان تاريخ ظهور أول مسرحية عراقية هو عام ١٨٨٠ ، ففي ذلك العام ظهر كتاب مطبوع في لبنان بقلم قس موصلي اسمه الاب حنا حبش وهو يحتوي على مسرحيات ثلاث هي : كوميدية آدم وحواء ، وكوميدية يوسف الحسن ، وكوميدية طوبيا . وكان المقصود من هذه المسرحيات أن تمثل في المدارس المسيحية في الموصل . وفي عام ١٨٨٨ مثلت المدرسة الاكليركية في الموصل مسرحية « نبوخذ نصر » ، وكان مؤلفها الخوري هرمز نورسو الكلداني الارديني ، وهي مطبوعة في لبنان أيضا من قبل الكنيسة الكلدانية(٤٧) .

---

(٤٦) عبدالله الفياض (المصدر السابق) ـ ص ٣٦ ـ ٣٧ .

(٤٧) عمر الطالب (المسرحية العربية في العراق) ـ النجف ١٩٧١ ـ ج٢ ص ٦ ـ ٧ ، ٢٥٧ ـ ٢٥٨ .

وفي عام ١٨٩٣ ظهرت مسرحية مترجمة عن الفرنسية باسم « لطيف وخوشابا » بقلم نعوم فتح‌الله سحار ، وهي مطبوعة في دير الآباء الدومنكيين • وتعد هذه المسرحية رائدة الفن المسرحي في العراق ، ولها اهميتها التاريخية في توضيح جذور الادب المسرحي فيه • وقد مثلت على مسرح مدرسة الآباء الدومنكيين في الموصل • وفي ١٨٩٥ ترجم نعوم عن الفرنسية مسرحية أخرى باسم « الامير الاسير » ، ومثلت في المدرسة نفسها(٤٨) •

وتوالت من بعد ذلك ترجمة المسرحيات وتمثيلها في المدارس المسيحية في الموصل ، ثم انتقل أثر ذلك الى بغداد لا سيما بعد اعلان الدستور العثماني • ففي عام ١٩٠٨ مثلت مدرسة السريان الكاثوليك ببغداد مسرحية « شهيد الدستوز مدحت باشا » وهي مترجمة عن التركية، وفي العام نفسه مثلت المدرسة الكلدانية مسرحية « سلسترا » ، وهي مترجمة عن التركية أيضا من تأليف الشاعر التركي المعروف نامق كمال•

واشتد النشاط المسرحي في بغداد خلال الفترة التي سبقت الحرب العالمية الاولى ، غير أنه ظل محصورا في المدارس المسيحية، ولم يبدأ المسلمون فيه آلا بعد الحرب •

وهنا يجب ان لا ننسى ما كان للشيعة من اهتمام في التمثيل في شهر محرم ، ولا سيما في اليوم العاشر منه ، فقد كانوا يمثلون واقعة الحسين وهم على ظهور الخيل في بعض الساحات الواسعة أو صحون المراقد المقدسة • وقد جاء ذلك الى العراق من ايران في أواخر القرن التاسع عشر• وهو في الواقع ليس تمثيلا بالمعنى الحديث ، بل هو نوع من المشاهد الدينية التي يقصد بها اثارة الحزن والبكاء في المتفرجين •

وكان لدى المسلمين في سنوات ما قبل الحرب طراز آخر من التمثيل غير الفني وهو التمثيل الهزلي الذي كان العامة يسمونه « أخباري » • يقول عبدالكريم العلاف : انه كان يشاهد ليلاً في قهوة التبانة في محلة

---

(٤٨) المصدر السابق ـ ص ٦ ـ ٧ ، ٢٦ •

الفضل رجلا هزلياً يدعى « ابن الحجامة » ومعه زميل اسمه « منصور » وهما يقومان بتمثيل فصول مضحكة على جمهور من المتفرجين [٤٩] •

والواقع أن فصل « الاخباري » صار لازماً في جميع المراقص البغدادية حيث تخصص فيه بعض الافراد وهم يقومون به على نمط تهريجي بعد انتهاء فترة الغناء والرقص • وقـد اشتهر في أداء هذا الفصل خلال الحرب الاولى وبعدها رجل كاظمي من أصل ايراني اسمه جعفر القزويني وكان هو يلقب نفسه « جعفر آغا لقلق زاده » • وكان هذا الرجل ذا موهبة هزلية نادرة ولكنه عاش في غير زمانه فضاعت موهبته • وقد أدركه كاتب هذه السطور وشاهد بعض فصوله فأعجب به •

الفونوغراف :

في أوائل القرن العشرين وصل الى بغداد اختراع مذهل صار حديث الناس زمنا طويلا هو الفونوغراف ، وقد أطلقوا عليه اسم « الصندوق الذي يغنـي » •

يحدثنا كامل الجادرجي عن بداية مجيء الفونوغراف الى بغداد وكـان يومذاك صبياً ، وكان خاله مدحـت الدفتري قد اقتنى هذا الجهاز ، فقـال عن خاله : « كان وحده من أفراد الاسرة يملك جهاز الفونوغراف الذي كان جديدا ونادرا جـدا في بغداد • وقد كانت لـديه اسطوانات يعتز بهـا كل الاعتـزاز ، والاسطوانات في ذلك الوقت كانت مصنوعة مـن شمع خاص ، وكان عمل الفونوغراف آنذاك مزدوجاً ، فهو يسجل الصوت ويذيعه • وأذكر أن خالـي ذات يوم طلب الي أن أتكلم ما أريـد أمام مكبـرة الصوت فـي فونوغرافه فارتبكت ولم أعرف ما أصنع • قال لي : غن أو قل ما تريد فهـو يسجل صوتك بالحرف ، واني لأذكر جيدا أني قلت هـذه العبـارة (جتي جاموسة) وبعد لحظة سمعت الآلة تردد صوتي كما هو بالضبط فتملكنـي العجب الشديد • لا أذكر متى كان ذلك بالضبط ولكن الذي أذكره ان هذا الحادث وقع قبل وفاة خالي بمدة لا أحسبها قصيرة ـ وان كان قياس الزمن

---

(٤٩) عبد الكريم العلاف (بغداد القديمة) ـ ص ٦٢

بالنسبة للطفل يختلف عما هو عليه بالنسبة للرجل ـ فاذا فرضنا ان هـذه الحادثة وقعت حوالي ١٩٠٤ فيكون خالي قد استعمل الفرنوغراف فى بغداد بعد شيوعه بمدة قصيرة جدا .. »(٥٠)

كانت اسطوانة الفونوغراف فى تلك الايـام تختلف فـي شكلها عـن الاسطوانة في أيامنا ، اذ هي كانت اسطوانية الشكـل ـ أي على شـكل انبوب واسع قصير ـ ومن هنا جاء اسمها الذي ظل لاصقاً بها حتـى الآن على الرغم من تحولها أخيراً الى شكل قرص . وكان في جهـاز الفونوغراف ابرتان احداهما لتسجيل الصوت وهي مدببة الرأس ، والاخـرى لسمـاع الصوت وهي بيضوية الرأس . فاذا نصبت أبرة التسجيل على الاسـطوانة وهي تدور خرج منها شيء يشـبه النشارة البيضاء . وفـي الجهـاز شيء كالسكين فى مقدوره مسح التسجيل اذا نصب على الاسطوانة أثناء دورانها .

اختص ببيع الفونوغراف تاجر يهودي في خان الباشا الصغير ، أمـا تصليحه فقد اختص به ساعاتي كاظمي كان له دكان فى سوق السراي . وكان ثمن الجهاز الواحد خمساً وعشـرين ليرة ذهبية وهو مبلغ ضخـم بالنسبة لمستوى الاسعار يومذاك ، ولذا لم يتمكن من اقتنـاء الفونوغراف الا بعض الشبان من أبناء الاسر الثرية .

صار الذين اقتنوا الفونوغراف يسجلون فيه الاغاني الشائعة ، ومنهـم من سجل فيه التراتيل الدينية والتعازي الحسينية . وقد ملأ المغني المعروف أحمد زيدان المتوفى في عام ١٩١٢ عدة اسطوانات بالمقامات البغدادية التـي كان يتقنها (٥١) ، وأخذ بعض أصحاب المقاهي يستعملون تلك الاسطوانات في مقاهيهم لجذب الزبائـن .

وأثير فى ذلك الحين سؤال شرعي : هل الفونوغراف حلال أم حـرام ؟ فالمتزمتون من رجال الدين أفتوا بحرمته على نحـو ما أفتوا بحرمة جميـع الامور المستوردة من بلاد الافرنج لانهـا كلها فى نظرهم تؤدي الى هـدم

---

(٥٠) كامل الجادرجي (من أوراق كامل الجادرجي) ـ بـيروت ١٩٧١ ـ ص ٢٤ ـ ٢٥ .

(٥١) جلال الحنفي (المغنون البغداديون) ـ بغداد ١٩٦٤ ـ ص ٣٨ ـ ٣٩

الدين وافساد الاخلاق • أما المتحررون من رجال الدين فكانت فتـواهم أن الفونوغراف اذا استعمل للاغاني فهو حرام ، واذا استعمل للقرآن والتراتيـل الدينية فهو حلال •

حل محـل الفونوغراف قبيل الحرب جهاز من طـراز جـديد يسـمى « الغرامفون » ، وهو يستعمل الاقراص بدلا من الاسطوانات وليس فيـه مقدرة على تسجيل الصوت بل تأتي الاقراص من الخارج وهي مشحونـة بالاغاني • وكان رخيص الثمن سهـل التشغيل فشاع استعماله فى البيـوت والمقاهي • وظهرت عند ذاك شركة تسجيل الاسطوانات ، وقد طلبت الشركة من المغني أحمد زيدان السـفر الى الشام ليسجل هنـاك جملة من المقامات البغدادية ، فطلب المغني أجراً قدره خمسمائة ليرة ذهبية ويقال ان الشركـة وافقت على ذلك غير أنه لم يشأ السفر الى الشام [٥٢] •

المـدرسة :

رأينا المسيحيين أول من اهتـم بتأسيس المطابـع وأنشأوا المجـلات والمسرحيات فى العراق ، ويجب أن نذكر هنا أنهم كذلك أول من اهتم بفتـح المدارس الحديثة فيه • وهذا أمر لا داعـي للاستغراب منـه ، فالمسيحيون العراقيون اتصلوا بالحضارة الاوربية وتأثروا بها قبـل المسلمين بزمن غـير قصير ، ولهذا نجدهم قد سبقوا المسلمين في تبني الـكثير من نظم الحضارة وأفكارهـا •

اولى المدارس الحديثة في العراق هي تلك التى فتحت على يد الآبـاء الدومنكيين فى الموصل ، ولم تقتصر هذه المدرسة على تعليم أبناء الطائفـة المسيحية فقط بل دخلها أيضاً عدد كبير من أبناء المسلمين • والظاهر أن ذلك حفز الحكومة المحلية على فتح مدرسة « أميرية » في الموصل ، وقد تم فتحها في عام ١٨٦١ بسعـي من الحاج فهمي أفنـدي العمـري [٥٣] فكانت أول مدرسة حكومية فى العراق •

---

(٥٢) المصدر السابق ــ ص ٤٠

(٥٣) سليمان صائغ الموصلـي (تاريخ الموصل) ــ القاهـرة ١٩٢٣ ــ ج١ ص ٣٢٣ •

وقد عمل الآباء الكرمليون في بغداد على فتح المدارس الحديثة على نحو ما فعل زملاؤهم الدمنكيون في الموصل • وفي عام ١٨٦٥ فتح اليهود أول مدرسة لهم في بغداد وهي مدرسة « الاليانس » التي كانت تحت اشراف الاتحاد الاسرائيلي الفرنسي •

وحين جاء مدحت باشا الى بغداد والياً في عام ١٨٦٩ فتح فيها ثلاث مدارس هي : مدرسة الصنائع للايتام ، والرشدية الملكية ، والرشدية العسكرية • وكانت المدرسة الرشدية في ذلك العهد تقرب من مستوى المتوسطة غير أنها كانت تقبل التلاميذ الذين تعلموا في الكتاتيب •

وأخذت المدارس الحكومية تتكاثر وتتنوع من بعد مدحت باشا حتى بلغ عددها في أواخر العهد العثماني رقماً لا يستهان به ، ولكن مستوى التدريس فيها كان منحطا الى حد بعيد • فقد كانت المدرسة ذات الصفوف الاربعة لا تضم في بعض الاحيان سوى معلم واحد ، وكان الكثير من المعلمين جهلة وبعضهم من أولى الاخلاق الرديئة [٥٤] • وكان التدريس يجري باللغة التركية، وكثيراً ما كان التلاميذ يتغيبون فلا يحضرون المدرسة الا عندما يأتي زائر أو مفتش، وقد تعجز دائرة المعارف أحياناً عن دفع مرتبات المعلمين شهورا متتابعة•

وعلى العكس من المدارس الحكومية كانت المدارس الاهلية — المسيحية واليهودية — اذ هي كانت منتظمة الى درجة لا بأس بها • وهي لم تكن تتميز عن المدارس الحكومية بانتظامها فقط بل كانت تتميز عنها ايضاً من حيث طابع التعليم فيها ، اذ هي كانت تحرص على أن يتعلم تلاميذها مهنة حرة تنفعهم في الحياة العملية كاتقان اللغات الاوربية وفن المراسلة والمحاسبة ومسك الدفاتر ومباديء القانون والطب والهندسة وما أشبه •

أما تلاميذ المدارس الحكومية فلم يكن طموحهم موجهاً نحو تعلم المهن الحرة • انهم كانوا من أبناء الموظفين في الغالب وهم يرغبون أن يكونوا في المستقبل موظفين كآبائهم ، ولم تكن الوظيفة يومذاك في حاجة الى معرفة علمية دقيقة ، وقد يكفي فيها أن يعرف صاحبها اللغة التركية ويتقن الكتابة

---

(٥٤) فيليب ويلارد آيرلند (العراق) — ترجمة جعفر خياط — بيروت ١٩٤٩ — ص ٨٨ •

فيها ثم يتعالى على العامة بما يتحذلق به من مصطلحات وعبارات محفوظة •

كانت المدارس الحكومية على نوعين عسكرية وملكية أي مدنية ، والواقع أن الدولة العثمانية كانت تهتم بالمدارس العسكرية أكثر من اهتمامها بالمدارس المدنية ، فهي كانت تدرك أن الضابط الجاهل أشد ضرراً بالدولة من الموظف الجاهل ، انه قد يسبب هزيمة جيش أو فقدان بلد ينتج الضرائب أما الموظف الجاهل فهو قد لا يضر الدولة كثيرا ما دامت القوة العسكرية لديها سليمة • يقول ساطع الحصري : أن الدولة العثمانية كانت « دولة عسكرية بكل معنى الكلمة • فشؤون الجيش فيها كانت بمثابة المحور الاساسي لجميع شؤونها • وفساد أمورها بدأ بفساد جيشها • فكان من الطبيعي أن يبدأ اصلاح أمورها أيضا باصلاح جيشها » • [55]

أنشأت الدولة العثمانية مدارس عسكرية ، رشدية واعدادية ، في الولايات التي كانت فيها مراكز للجيوش العثمانية وهي التي كانت تسمى آنذاك بمراكز « الاوردي » • وقد جعلت تلك المدارس داخلية يعيش فيها التلاميذ على حساب الحكومة ، وتعهدت الحكومة بتسفير المتخرجين منهم كل عام الى اسطنبول وبادخالهم في المعاهد العسكرية العالية هناك •

كان نصيب ولاية بغداد من المدارس العسكرية اكبر من نصيب معظم الولايات العثمانية الاخرى ، ولعل ذلك من جراء ضخامة « الاوردي » الموجود فيها وأهميته • وفي عام ١٨٨١ تخرجت في بغداد الدفعة الاولى من تلاميذ الاعدادية العسكرية ، وكان عددهم ثلاثة عشر ، فنقلوا الى اسطنبول عن طريق دير الزور وحلب ، وأدخلوا في « مكتب الحربية » • [56]

ان نقل التلاميذ الى اسطنبول وادخالهم في المعاهد العالية على حساب الحكومة جعل الكثير من الشبان يرغبون في المدارس العسكرية ، لا سيما الفقراء منهم • يحدثنا سليمان فيضي الموصلي أنه عندما أتم في عام ١٨٩٩ السنة الرابعة من المدرسة الاعدادية الملكية قال أحد أقرانه : « لماذا لا نذهب الى بغداد لننخرط في المدرسة العسكرية ؟ » فسرى الهمس بينهم

---

(٥٥) ساطع الحصري (البلاد العربية والدولة العثمانية) — بيروت ١٩٦٠ — ص ٧٣ •

(٥٦) عباس العزاوي (المصدر السابق — ج٨ ص ٦٥ •

في هذا الامر مسرى النار في الهشيم اذ كان كل واحد منهم يحلم « بملابس الضباط الانيقة وبسيوفهم الذهبية وبتلك الانجم اللامعة والازرار المذهبة التي تخطف الابصار » • وقرر عشرة منهم الرحيل الى بغداد للدخول في الاعدادية العسكرية كان منهم علي جودت ومولود مخلص ، وتم لهم ما أرادوا • (٥٧)

يبدو أن الموسرين والاعيان في العراق كانوا يستنكفون أن يدخلوا أبناءهم في المدارس العسكرية الداخلية ، فهم كانوا يفضلون ادخالهم في المدارس الملكية ثم يرسلونهم بعد التخرج الى اسطنبول ليدخلوا على حسابهم معاهد الطب أو الحقوق أو دار المعلمين أو ما أشبه • ولكن هؤلاء كانوا قليلين بالمقارنة الى الذين كانوا يدخلون المدارس العسكرية من ابناء الطبقة التي هي دونهم • يقول ساطع الحصري : « وهذا هو السبب في أن الحكومة العراقية ــ في بدء تكوينها ــ لم تجد بين أبنائها الا عدداً قليلا جداً من خريجي المدارس العالية ، في حين أنها وجدت عدداً كبيراً من خريجي المدرسة الحربية ، ومن يستعرض أسماء رؤساء الوزارات الذين تولوا الحكم ــ بين سنة ١٩٢٣ وسنة ١٩٤١ ــ يجد أن معظمهم كانوا ممن درسوا في المدارس العسكرية » • (٥٨)

المدرسة عند الشيعة :

عندما فتحت المدارس الحديثة في العهد الحميدي لم يدخل الشيعة أبناءهم فيها ، وكان لذلك سببان : أحدهما يعود الى الدولة والآخر يعود الى الشيعة أنفسهم • فقد كانت الدولة لا تحبذ دخول الشيعة الى المدارس لكي لا يطمحوا من بعد ذلك الى الوظائف الحكومية ، وكان الشيعة من جانبهم يحرمون المدارس ويعدونها مفسدة للدين والاخلاق •

كتب كامل الجادرجي في مذكراته يقول : « كانت الطائفة الشيعية تعد في زمن السلطان عبد الحميد ــ وبالحقيقة في زمن الدولة العثمانية ــ أقلية تنظر اليها الدولة بعين العداء ، فلم تفسح لها مجالات التقدم في أية ناحية

---

(٥٧) سليمان فيضي (غمرة النضال) ــ بغداد ١٩٥٢ ــ ص ١٤ ــ ١٥ •
(٥٨) ساطع الحصري (المصدر السابق) ــ ص ٨٦ •

من نواحي الحياة . ومن الامثلة البارزة لذلك أنها كانت لا يقبل لها تلميذ في المدرسة الحربية ، ولا يقبل منها فرد في وظائف الدولة الا ما نـدر وعنـد الضرورة القصوى . وحتى في مدارس الدولة الاعدادية القليلة كانت توضع العراقيل في طريق دخول أبناء هذه الطائفة فيها فأدى ذلك كله بطبيعة الحال الى انعزالها وسلوكها مسلك الاعمال الحرة كالتجارة والصناعـة والزراعـة وما الى ذلك من أعمال لا علاقة لها بالحكومة ، لان الدولة كانت لا تعتبر هذه الطائفة جزءاً منها ، كما كانت الطائفة لا تعتبر نفسها جزءا من الدولة . فكان العداء يستحكم يوماً بعد يوم بينها وبين الدولة ... » . (٥٩)

وعندما أعلن الدستور العثماني في عام ١٩٠٨ حصل شيء من التغير في نظرة الدولة نحو الشيعة وأخذت الحكومة في بعض المدن الشيعية تقسـر الصبيان على دخول المدارس قسراً . يحدثنا الشيخ يوسف كركوش الحلـي عما جرى في عهد الدستور ، وكان هو يومذاك صبياً يتعلم في أحد الكتاتيب المحلية ، فقال : « ... ولكن الجمهور كان يعيش في العقلية السابقة فكـان ينظر الى المدارس نظرة فيها شيء من الاستهجان ، ونحن الناشئة كنا متأثرين بما كنا نسمعه من الجمهور من الاحاديث عن المدارس الحديثة . اني كنت في الكتاب أتعلم القراءة والكتابة ، فعزمت الحكومة المحلية في الحلة أن تكبس الكتاتيب وتسوق طلابها الى مدارسها ، وقامت ثلة من الجندرمة لهذا الغرض فجاء الخبر الينا ونحن في الكتاب ، فذعرنا ولم نقدر على الخـروج من باب الكتاب مخافة أن تقبض علينا الجندرمة ويسـوقونا الى المـدرسة الحديثة ، فتسلقنا سطح الكتاب وقفزنا الى السطوح المجاورة جهلا منا بفائدة المدرسة الحديثة ، بل كنا نتصور أنها خطر على الاخلاق والعقيدة لما وقر في نفوسنا من كلام الجمهور . ان خمول أربعة قرون الـذي ران علـى نفسية الجماهـير لا يزول بسرعة » . (٦٠)

ان أول من فكـر من الشيعة في فتح مـدارس خاصة بهم فـي العهد الحميدي هو الحاج سلمان أبو التمن من تجار بغداد المعروفين ، وكان لهذا

---

(٥٩) كامل الجادرجي (المصدر السابق) ـ ص ٨٦ .

(٦٠) يوسف كركوش الحلـي (تاريـخ الحلـة) ـ النجف ١٩٦٥ ـ ج١ ص ١٦٠ ـ ١٦١ .

قصة طريفة خلاصتها : أن هذا الرجل كان قد استورد من روسيا نوعاً جميلاً متقناً من « السماور » الذي يستخدم لصنع الشاي ، وقد لقي هذا السماور رواجاً كبيراً مما دعا الحـاج سلمان الى استيراد كمية أخرى منـه . وكان للحاج كاتب يهودي فأخفى هذا الكاتب الطلب وتآمر مع أحد التجار اليهود على استيراد السماور لنفسه مما أدى الى خسارة الحاج سلمان . ان هـذه الحادثة نبهت الحاج سلمان وغيره من تجار الشيعة الى ضرورة فتح المدارس الخاصة بهم لتخريج كتاب منهم بدلاً من الاستعانة بالكتاب اليهود .

يروي علي البازركان وكان صديقاً للحاج سلمان : انه عندما حادثـه في ضرورة فتح مدارس شيعية أجابه الحاج : « اسكت يا علي لئـلا يسمعك الناس فيعتبرونك من الكفرة الفجرة » . وصادف عند اعلان الدستور أن جاء الى الكاظمية السيد محمد سعيد الحبوبي ، وهو من علماء النجف المتحررين، فذهب لزيارته الحاج سلمان وبصحبته علي البازركان وطلبا منه الفتوى في أمر المدارس الحديثة هل هي حلال أم حرام . فكان جواب الحبوبي : أنهـا ضرورية للشيعة فضلا عن كونها حلالا . ثم تبنى الحبوبي الفكرة وذهب الى بغداد فنزل في ضيافة الحاج داود والد الحاج سلمان أبو التمن ، وهنـاك دعا اليه وجهاء الشيعة وأخذ يحرضهم على ضرورة فتح المدرسة وجـاء لهم بالادلة العقلية والنقلية في الرد على من يقول بتحريمها .

وفي شهر تشرين الثاني من عام ١٩٠٨ اجتمع لفيف من وجهاء الشيعة وكتبوا عريضة الى الوالي يطلبون فيها الاجازة بفتح مدرسة جعفرية ، وتعهد علي البازركان بتقديم العريضة الى الوالي وباقناعـه بالموافقة عليها . وقـد ذهب البازركان بالعريضة الى القشلة فقابل الوالي واستطاع ان يقنعه بمنـح الاجازة بعد محاورة قصيرة معه ، وتم بذلـك تأسيس أول مدرسة حديثـة للشيعة في العراق باسم « مكتب الترقي الجعفري العثماني » . (٦١)

وفي ٥ نيسان من عام ١٩٠٩ نشرت جريدة الرقيب بياناً موقعاً من جعفر أبو التمن الذي كان يومذاك يتولى وظيفة أمين صندوق المدرسة الجعفرية ، وكان عنوان البيان « جواب الاستفتاء من الجعفريين » وهذا هو نصه :

---

(٦١) علي آل بازركان (الوقائع الحقيقية) ـ بغداد ١٩٥٤ ـ ص ٤٥ ـ ٥٠ .

« جواز دخول أولاد الجعفرية الى المكاتب لتعلم العلـوم والمعـارف والكمالات واللغات المختلفة التي تمس الحاجة الى تعلمها وتقضي الضرورة بعدم جهلها مع التحفظ على القواعد الاسلامية وعقائدهم مما لا ينكـر ولا قائل بعدمه ، ولذا ان أساطين العلماء الاعلام المجتهدين في النجف وكربـلاء دفعاً للشبهة الواقعة في أذهان الجهلة قـد كتبوا لعموم الجعفريـة يحثونهم ويشوقونهم الى تأسيس وتشييد مكاتب كهـذه حاوية للشروط المتقدمـة وذكروا أن ذلك من أفضل الاعمال الخيرية » . (٦٢)

مما يجدر ذكره في هـذا الصدد أن دعاة المشروطية في النجف كانوا من أوائل من دعا الى فتح المدارس الحديثة بيـن الشيعة ، واستطاعوا بعـد اعلان الدستور العثماني أن يفتحوا في النجف مدرستين أهليتين هما المدرسة العلوية والمدرسة المرتضوية . وقد ساعدهم على ذلك الملا كاظـم الخراسانى واثنان او ثلاثة من المجتهدين أمثاله ، وبلغ من تأييد الخراسانى لهم ان أجـاز انفاق الحقوق الشرعية على المدارس التى فتحوها . وقـد اقتـدى بهم بعض وجهاء الكاظمية كالحاج علي أكبر الاهرابي والسيد عيسى المشاط فسعوا الى فتح مدرسة أهلية فيها . وكذلك فعـل بعض وجهاء الحلـة فجمعوا مبلغـاً من المال وأودعوه عند الحاج مصطفى الشهربانلي غير أن نشوب الحرب حالت دون فتح المدرسة ، ولما انتهت الحرب أنفق الحاج مصطفى المبلغ المودع عنده على تعمير مقـام الامام علي فى الحلة بعـد أن حصـل على اذن من أحـد المجتهدين (٦٣) .

تمت الفصول

ويليهـا ملحقان

---

(٦٢) عبدالله الفياض (المصدر السابق) — ص ٨٨ .
(٦٣) يوسف كركوش الحلي (المصدر السابق) — ج١ ص ١٦٠ .

ss

الملحق الاول

السيد جمال الدين الافغاني

ان سيرة الافغاني تلقي ضوءا على طبيعة المرحلة الاجتماعية التى كانت اقطار الشرق الاوسط تمر بها في الثلث الاخير من القرن التاسع عشر . أضف الى ذلك أن الافغاني كانت له صلة لا يستهان بها ببعض أحداث العراق لا سيما قضية سامراء ، ولهذا وجدت من الضروري دراسة هذا الرجل وكشف بعض النواحي الغامضة من حياته ــ تلك النواحي التى تتصل بالعراق على وجه من الوجوه .

والملاحظ بوجه عام أن الافغانى يعد من رجال التاريخ الذين يكتنفهم الغموض ، فتفاصيل نشأته وكثير من أعماله وجولاته لا تزال تحتوي على بعض الاسرار . ومما يزيد فى غموض الافغاني أن معظم الذين كتبوا فى سيرته اتخذوا الاسلوب الخطابي ، فهم في كتاباتهم يصورونه كأنه مخلوق من طينة تختلف عن طينة البشر اذ هو في رأيهم رجل مثالى لا تهمه مصلحته الخاصة وليس له في الدنيا من هدف سوى ايقاظ الشعوب ومقاومة الطغاة . ولا حاجة بنا الى القول ان هذا أسلوب ذهب زمانه ولم يعد يلائم المنهج العلمي الحديث .

ينبغي أن نعترف قبل كل شيء أن الافغاني بشر كسائر الناس ، يخطيء ويصيب ، وقد يميل الى الشهوات ، وتغريه الدنيا بمغرياتها . ومن الواجب علينا أذن ان نسير بدراسة الافغاني في هذا الضوء ، وبذلك نأمل أن تنكشف لنا بعض الاسرار التى تحيط به .

هل هو ايراني :

من اهم الاسرار التي تحيط بحياة الافغاني هو فيما يتصل بأصله ومسقط رأسه ، فقد انقسم المؤرخون في ذلك الى فريقين : أحدهما يذهب الى القول بأن الافغاني ليس أفغانيا بل هو ايراني وأنه ولد في قرية أسدآباد

التي هي من قرى همدان . أما الفريق الثاني فيقول عنه انه أفغاني حقاً وقد ولد في قرية اسعد آباد التي هي من قرى بلدة كنر القريبة من كابل .

اني بعد الدراسة التي قمت بها في هذا الموضوع أميل الى الرأي الاول أي أن الافغاني كان ايرانياً ولم يكن أفغانياً . وقد دفعني الى هذا الرأي قرائن شتى أذكر أهمها فيما يلي :

أولاً : هناك في قرية أسد آباد الايرانية أشخاص كثيرون يدعون أنهم أقرباء السيد جمال الدين ، وتعرف هذه القرية عند أهل القرى المجاورة بـ « قرية السيد جمال الدين » ، ولا تزال الغرفة التي ولد فيها الافغاني باقية على حالها حتى الآن[1] . وأعرف صديقاً كان قد زار قرية أسد آباد قبيل الحرب العالمية الثانية واجتمع بأخت الافغاني فيها . ويعيش في النجف اليوم رجل دين مسن اسمه السيد حسين الحسيني الهمداني وهو يدعي أنه حفيد عم الافغاني ، وقد زرته في أيلول ١٩٦٩ في الدار التي قيل ان الافغاني كان يسكنها عندما كان طالباً في النجف . وليس هناك ما يدل على أن هؤلاء جميعاً يكذبون .

ثانياً : صدر في برلين عام ١٩٢٦ كتاب بالفارسية في سيرة الافغاني بقلم المرزا لطف‌الله خان ، ويدعي المؤلف أنه ابن اخت الافغاني وأنه اجتمع به في طهران عند ذهاب الافغاني اليها في عام ١٨٨٦ ، ويحتوي الكتاب على صورة فوتوغرافية واضحة تجمع الافغاني والمرزا لطف‌الله خان مع زمرة من رجال الدين الايرانيين ، وقد ترجم الكتاب الى العربية في مصر عام ١٩٥٧ ، ومن يقرأ الكتاب يشعر أنه لابد أن يحتوي على شيء من الحقيقة قليلا أو كثيراً اذ من المستبعد أن يختلق المؤلف صلته القريبة بالافغاني على هذه الصورة المكشوفة . واذا كان الافغاني أفغانياً حقاً فلماذا لم يظهر أحد من أقربائه الأفغانيين حتى الآن فيكذب المؤلف أو يتحداه على وجه من الوجوه ؟ !

ثالثاً : كان الافغاني قد زار ايران مرتين بدعوة من الشاه كما سنأتي اليه فيما بعد ، وقد ألح الشاه عليه ذات مرة أن يتولى رئاسة الوزارة فأبى . وهنا يذكر الشيخ عبدالقادر المغربي أنه عند حضوره مجلس الافغاني في

---

(١) محسن الامين (جمال الدين الافغاني) — ص ٧ .

اسطنبول سأله حول هذا الموضوع قائلاً : كيف يدعوك الشاه لأن تكون رئيس وزرائه مع أنك من أهل السنة ؟ فكان جواب الافغاني : ان ذلك كان من الشاه هوساً وجنوناً . ويعلق المغربي على هذا الجواب قائلاً : ان ذلك دليل على ان الافغاني لم يكن ايرانياً ولا شيعياً[٢] . ولست أدري كيف استنتج المغربي هذا المعنى من جواب الافغاني مع ان الافغاني كان يقصد به التهرب من ذكر الحقيقة كما هو ظاهر من القرينة .

رابعاً : عندما اشتد العداء أخيراً بين الشاه والافغاني أخذ أعوان الشاه يشوهون سمعة الافغاني فأشاعوا عنه أنه « بابي » وأنه « غير مختون » ، ولكنهم لم يشيعوا عنه أنه « سني » أو « أفغاني » وكان من السهل عليهم أن يفعلوا ذلك لو كان الافغاني أفغانياً حقاً . ومما يلفت النظر في هذا الشأن أن خصوم الافغاني في اسطنبول كانوا كثيراً ما يتهمونه بالايرانية والتشيع ، وكان من هؤلاء أبو الهدى الصيادي اذ كان يصف الافغاني بـ « المتأفغن » ويقول عنه انه مازندراني من أجلاف الشيعة[٣] .

خامساً : المعروف عن الافغاني أنه كان أثناء تجواله في الاقطار المختلفة يتصل بالايرانيين وقد ينزل في ضيافتهم أحياناً ، فهو عند مروره بقفقاسيا نزل في ضيافة محمد علي خان الكاشاني ، وفي موسكو نزل في ضيافة القنصل الايراني نعمةالله الاصفهاني ، وحينما جاء الى بغداد منفياً نزل في خان عبدالصمد الاصفهاني وهو خان خاص بالايرانيين ، وعند ذهابه الى البصرة كان كثير التردد على السيد توفيق الهمداني يزوره في داره الواقعة على نهر العشار ويأكل عنده « الكليجة » الايرانية .

سادساً : عندما نفي الافغاني من مصر في عام ١٨٧٩ لم يأت لتوديعه في السويس سوى القنصل الايراني أحمد النقاوي ونفر من التجار الايرانيين الساكنين في مصر ، وقدموا له مائة جنيه ليستعين بها في سفره غير أنه رفض قبولها . وهذا أمر يلفت النظر ويثير التساؤل : فما هو السبب الذي جعل

---

(٢) عبد القادر المغربي (جمال الدين الافغاني) ـ القاهرة ١٩٤٨ ـ ص ٨٠ ـ ٨١

(٣) محمد رشيد رضا (تاريخ الاستاذ الامام) ـ القاهرة ١٩٣١ ـ ج١ ص٩٠.

اولئك الايرانيين يفعلون ذلك ان لم تكن لهم مع الافغاني رابطة خاصة .

سابعاً : ان والد الافغاني اسمه « صفدر » وهذا الاسم فارسي مركب من كلمتين هما « صف » و « در » ومعناه ممزق الصفوف ، وهو لقب للامام علي لأنه موصوف بالشجاعة في الحرب حيث كان يمزق الصفوف فيها . أضف الى ذلك أن الافغاني كان له في مصر خادم يتقن الفارسية اسمه « عارف أبو تراب » ، وان أسم « أبو تراب » لايوجد في غير ايران ، وهو من الاسماء التي يتسمى بها الايرانيون دون غيرهم[٤] .

ثامناً : كان الافغاني واسع الالمام بالفلسفة الاسلامية كما يظهر من كتاباته أو أحاديثه التي كان يلقيها على تلاميذه ومريديه ، وقد عد ألبرت حوراني ذلك من القرائن التي يمكن أن يستدل بها على ايرانية الافغاني ، فهو يقول عن الافغاني : « ان كتاباته ومحاضراته أظهرت أنه كان على معرفة وثيقة بالتراث الفلسفي الاسلامي ، ولا سيما فلسفة ابن سينا ، وهذه المعرفة كان من السهل الحصول عليها فى المدارس الشيعية حيث لايزال تراث ابن سينا حياً فيها أكثر مما في المدارس السنية ... »[٥]

تاسعا : نجد فى مقالات « العروة الوثقى » ذكراً لبعض القصص والامثال الشعبية التي يتناقلها الناس في ايران والعراق ، وهي تكاد تكون خاصة بهم ، كقصة هيكل صطخر ، وقصة الزنجي والطفل [٦] . وكذلك نجد فى كتابات الشيخ محمد عبده أقوالاً لبعض علماء الشيعة من العهد الصفوي كالمير باقر الداماد[٧] . فهذه الاقوال لا بد أن الشيخ استمدها من استاذه الافغاني ، ولا بد أن الافغاني استمدها من دراسته الشيعية القديمة .

عاشرا : مما اشتهر به الافغاني في مصر أنه كان يحسن الخطابة باللغة العربية الفصحى ، وقد وصفه جرجي زيدان أنه « كان خطيباً مصقعاً لم يقم

---

(٤) لطف الله خان (جمال الدين الاسدآبادي) ــ ترجمة صادق نشأت وعبد النعيم حسنين ــ القاهرة ١٩٥٧ ــ ص ١١ ، ٢٦ .

(5) Albert Hourani (Arabic Thought ...) — Oxford 1962 — P 108

(٦) جمال الدين الافغاني ومحمد عبده (العروة الوثقى) ــ بيروت ١٩٧٠ ــ ص ٢٦٢ ، ٢٧٦ .

(٧) مصطفى عبد الرازق (محمد عبده) ــ القاهرة ــ ص ٧٠ .

في الشرق أخطب منه » [٨] ، وذكر الدكتور شبلي شميل : « أنه شهد خطبة له في الاسكندرية وكان قريب العهد بمصر فوقف ساعتين يتكلم بلسان عربي فصيح والقاء حسن لكلام مفيد حتى أدهش الناس » [٩] . وهنا نود أن نسأل : هل يمكن لرجل نشأ في بلاد الافغان وتلقى دروسه فيها أن تكون له مثل هذه المقدرة الخطابية باللغة العربية ؟! ان هذه المقدرة الخطابية هي في أرجح الظن من جراء دراسة الافغاني في النجف . وقد رأينا في النجف — وما زلنا نرى — ايرانيين يجيدون التكلم بالفصحى خيراً مما يجيده الكثير من العرب . ويجب أن لا تنسى في هذا الصدد ان الافغاني كان بالرغم من فصاحته العربية تظهر عليه أثناء الحديث لكنة أعجمية واضحة [١٠] ، فهو مثلاً يدخل الألف واللام على بعض الاسماء التي لا يجوز في العربية ادخالها فيها كبغداد وأوربا ، فهو يقول : « البغداد » و « الأوربا » .

تلك هي بعض القرائن التي تؤيد القول بأن الافغاني كان ايرانياً ، وهناك قرائن اخرى سنأتي اليها استطراداً في ثنايا هذا البحث .

نشأة الافغاني :

جاء في رواية المرزا لطف‌الله خان — وهي الرواية التي نعتمدها — ان الافغاني ولد في قرية أسد آباد في عام ١٢٥٤ هـ ، أي عام ١٨٣٨ م، وحين بلغ الثانية عشرة من عمره سافر بصحبة والده السيد صفدر الى العراق لزيارة العتبات المقدسة ، ثم استقر في النجف حيث تركه أبوه فيها لمواصلة الدراسة في مدارسها الدينية وعاد هو الى بلاده [١١] .

وتشير القرائن الى أن الافغاني مكث في النجف بضع عشرة سنة ، باستثناء فترة أمدها سنة وبضعة أشهر سافر فيها الى الهند . ومن الجدير بالذكر أن النجف كانت يومذاك في أوج نهضتها العلمية حيث ازدهرت فيها الدراسات الفلسفية والكلامية والاصولية ، وقد عاش الافغاني في هذا

---

(٨) جرجي زيدان (تراجم مشاهير الشرق) — بيروت — ج٢ ص ٦٠ .
(٩) محمد رشيد رضا (المصدر السابق) — ج١ ص ١٠١ .
(١٠) المصدر السابق — ص ٢٦ ، ٥٥ .
(١١) لطف الله خان (المصدر السابق) — ص ٤٩ — ٥٤ .

الجو الفكري وتشبع ذهنه به ، والمعروف عن الافغاني أنه كان شديد الذكاء قوي الحافظة ميالاً للجدل والتفلسف . يروى عن السيد محمد سعيد الحبوبي الذي كان زميلاً للافغاني في الدراسة أنه قال عنه : « لقد كنا ندرس معاً علم التصوف عند الحاج عباس قولي بالنجف ، وكان الافغاني من حسن البيان بحيث يستطيع ، ان أراد ، أن يصور الحق باطلاً والباطل حقاً ».(١٢)

كانت رحلة الافغاني الى الهند في عام ١٨٥٤ ، وقد درس هناك بعض مباديء العلوم الحديثة ، ويقول سليم العنحوري ان الافغاني درس في الهند علم الاديان وتعمق فيه حتى أفضى به ذلك الى الالحاد والقول بقدم العالم (١٣) . ولا ندري مبلغ ما في هذا القول من صحة لا سيما اذا علمنا أن العنحوري اعتذر عنه فيما بعد وأعلن تكذيبه ، ولكننا مع ذلك نستطيع أن نستشف من هذا القول أن الافغاني ربما مر أثناء رحلته في الهند بمرحلة من التشكيك على منوال ما حدث للغزالي وغيره من المفكرين العظام .

يبدو ان الافغاني بعد عودته من الهند أحدث شيئاً من الضجة والجدال في النجف وانقسم الناس حوله فكان فريق منهم يؤيده ويأخذ بآرائه ، وآخر يخالفه ويتهمه بالزندقة . وقد أشار الى ذلك المرزا لطف الله خان في كتابه ولكنه ذكر أنه حصل قبل سفر الافغاني الى الهند (١٤) ، وهذا أمر يصعب علينا قبوله لان الافغاني كان حينذاك دون الثامنة عشرة من عمره . ويرجح في ظني أن الضجة حدثت حول الافغاني بعد عودته من الهند وبعد أن درس مباديء العلوم الحديثة و « علم الاديان » .

مغامراته في الافغان :

يخيل لي أن الافغاني سئم الحياة في النجف أخيراً ، ولعله لم يجد فيها ما يشبع طموحه فآثر الخروج الى العالم الواسع ليجرب حظه فيه . ففي أواخر ١٨٦٥ غادر الافغاني النجف متوجهاً الى طهران ، وبعد أن مكث في طهران

---

(١٢) قدري قلعجي (جمال الدين الافغاني) ـ بيروت ١٩٥٢ ـ ص ٢٤ .
(١٣) محمد رشيد رضا (المصدر السابق) ـ ص ٤٣ .
(١٤) لطف الله خان (المصدر السابق) ـ ص ٥٤ .

ستة أشــهر غادرها الى خراسان حيث مكث فيها ثلاثة أشهر • ومــن ثم عبر الحدود نحو بلاد الافغــان •

كانت افغانستان فى تلك الايام تمر بفترة عصيبة من الفوضى والتنازع على الحكم ، وكان التنافس على النفوذ فيها شديدا بين بريطانيا وروسيا ، وكانت ايران تساهم فى هذا التنافس اذ كانت تقف الى جانب روسيا ضــد بريطانيا • وعند وصول الافغاني الى افغانستان كان هناك نزاع عنيف بين أميرين من أمرائها هما شير علي خان الموالي لبريطانيا وأخوه محمد أعظم خان الموالي لايران وروسيا •

تزيا الافغاني بزي سيد من رجال الدين وادعى أنه من أشراف بلــدة «كنر» • يروى الشيخ أغا بزرك الطهراني في كتابه « طبقات أعلام الشيعة » نقلا عن أحد وزراء الافغان في تلك الفترة ــ وهو السردار محمــد خــان القزلباشي ــ أنه رأى ذات يوم في مجلس الامير عبدالرحمن خان سيداً من رجال الدين يسمى «السيد جمال الدين» ويزعم أنه من عائلة أفغانيــة معروفة ، فاستنكر السردار ذلك وقال له متحدياً انه يعرف اكثر الاســر والبيوت المعروفة فى الافغان فمن أية اسرة هو ؟! فتمتم السيد وأجــاب بجواب ملفق مفتعل تظهر عليه الحيلة واللباقة ، ثم انصرف من عند الامير خجلا ولم يعد اليه بعد ذلك • (١٥)

مهما يكن الحال فقد استطاع الافغاني ــ حسبما ذكر هو عن نفسه ــ أن يدخل فى حاشية الامير محمد أعظم خان ، وهو عم عبدالرحمن خان ، ثم ارتفعت منزلته عند هذا الامير حتى أحله محل الوزير الاول ، وعظمت ثقة الامير به فكان يلجأ لرأيه فى عظائم الامور وما دونها • (١٦)

لم يمض على ذلك سوى مدة قصيرة حتى انجلت المعركة عن هزيمة محمد أعظم خان وانتصار خصمه شير على خان ، فوجد الافغاني نفسه فــى

---

(١٥) آغا بزرك الطهراني (طبقات اعلام الشيعة) ــ النجف ١٩٥٦ ــ ق ٢ ج١ ص ٦٩٦

(١٦) محمد المخزومي (خاطرات جمال الدين الافغاني الحسيني) ــ بيــروت ١٩٦٥ ــ ص ٨ ــ ٩

موقف حرج جداً لا يدري ما يفعل . يقول الافغاني عن نفسه : انه بقي في كابل بعد هزيمة صاحبه محمد أعظم خان ثلاثة أشهر ، ولم يمسسه شير علي خان بسوء احتراما لنسبه الشريف ، ولكنه خشي أن يكيد به شير علي خان . فاستأذن منه للحج فاذن له بذلك على شرط أن لا يمر ببلاد ايران كي لا يلتقي فيها بمحمد أعظم خان الذي كان قد فر اليها . فارتحل الافغاني الى الهند ، وقد استقبلته حكومة الهند بحفاوة واجلال غير أنها لم تسمح له بطول الاقامة ، فسافر على نفقتها الى السويس ، ومن هناك ذهب الى القاهرة فأقام فيها نحو أربعين يوماً ثم غادرها الى اسطنبول .

الافغاني في اسطنبول :

حين وصل الافغاني الى اسطنبول كان في زي سيد افغاني عليه جبة وكساء وعمامة عجراء ، فاجتذب اليه الانظار ، واستطاع أن يقابل الصدر الاعظم عالي باشا فنال عنده حظوة . وبعد ستة أشهر عينه عالي باشا عضوا في مجلس المعارف الاعلى .

أخذ الافغاني يتعلم اللغة التركية حتى تمكن بعد مدة وجيزة من أن يتكلم بها ويكتب . وفي كانون الاول من ١٨٧٠ ، وكان الشهر رمضان ، أقيمت حفلة في دار الفنون حضرها جمع غفير من الحكام والعلماء والصحافيين، فألقى الافغاني فيها خطاباً تطرق فيه الى ذكر الانبياء والفلاسفة والفرق بينهما، والظاهر أنه استمد رأيه في ذلك من بعض الفلاسفة القدماء كابن رشد وابن سينا ، فأثار عليه بعض رجال الدين الحاضرين لا سيما شيخ الاسلام حسن فهمي افندي وكان هذا يضمر الحقد له . ولم تكد الحفلة تنتهي حتى أخذ شيخ الاسلام يشنع على الافغاني وينسب اليه أنه أهان الانبياء وقال ان النبوة صنعة من الصنائع . وسرعان ما تلاقفه خطباء المساجد هذه التهمة وكأنهم وجدوا فيها موضوعاً يهيجون الناس به فأخذوا يصولون ويجولون من على منابرهم في ثلب الافغاني والتنديد به ، وتناولت الجرائد هذه القضية وأكثرت من القول فيها حيث انقسمت الى فريقين : مع الافغاني وعليه .

ذكر الشيخ عبدالقادر المغربي أن أباه الشيخ مصطفى كان في اسطنبول

حينئذ فكتب رسالة في الرد على الافغاني عنوانها : « عين الصواب في الرد على من قال ان الرسالة والنبوة صنعتان تنالان بالاكتساب » ملأها بالتشنيع على الافغاني ونبزه بالتهمة التي نسبت اليه . ويعتذر الشيخ عبدالقادر عن أبيه فيقول : « وأرجو ألا يكون مؤاخذا لما وقر في نفسه من حسن القصد وسلامة النية » . (١٧)

كان في مقدور الافغاني أن ينحني للعاصفة حتى تمر بسلام ، ولكنه كان كما وصفه الذين خالطوه حاد المزاج يسيطر عليه الغضب أحياناً فيخرجه عن طريق التعقل . ولهذا رأيناه يطالب بمحاكمة شيخ الاسلام ويلح في ذلك مما أدى بالحكومة الى الطلب اليه بمغادرة اسطنبول موقتاً الى أن تهدأ الخواطر ثم يعود اليها متى شاء .

حلوله في مصر :

وصل الافغاني الى القاهرة في ٢٢ اذار ١٨٧١ ، فقابل رئيس الوزارة رياض باشا ونال عنده حظوة كالتي نالها في اسطنبول عند عالي باشا ، وأجرى رياض باشا له مرتباً قدره ألف قرش وهو مرتب كان له شأنه في تلك الايام.

ونال الافغاني كذلك حظوة لدى الخديوي اسماعيل باشا . يقول المؤرخ المصري عبدالرحمن الرافعي : ان رعاية اسماعيل باشا للافغاني أمر لا يعسر فهمه اذا عرفنا أن في اسماعيل جانباً ممدوحاً هو حبه للعلم ورغبته في نشره ورعايته ، وثمة اعتبار آخر لا يفوتنا الالماع اليه ذلك ان اسماعيل باشا كان يحب أن ينافس حكومة اسطنبول في المكانة والنفوذ السياسي فلما جاء الافغاني الى مصر مبعدا من اسطنبول انتهز اسماعيل باشا الفرصة وأراد أن يظهر للناس كيف أن مصر تؤوي العلماء في الوقت الذي كانت فيه اسطنبول تضيق بهم . (١٨)

اننا على أي حال نقف هنا تجاه لغز غامض ولابد لنا من أن نتساءل : كيف استطاع الافغاني أن ينال تلك الحظوة الكبيرة في اسطنبول وفي القاهرة بمجرد وصوله اليهما ؟ نحن نعرف ان العشرات من رجال الادب

(١٧) عبد القادر المغربي (المصدر السابق) — ص ٣٠ — ٣١ .

(١٨) عبد الرحمن الرافعي (جمال الدين الافغاني) — القاهرة — ص١٥ — ١٧.

والعلم يفدون الى تينك المدينتين في كل عام فما هو السبب الذي جعل الافغاني وحده يتميز عنهم جميعاً بمقابلة كبار رجال الدولة ونيل المكانة الرفيعة عندهم ؟ أكان الافغاني يحمل طلسماً أم ماذا ؟!

اتخذ الافغاني محل سكناه في عمارة العنانى بحارة أم الغلام قريباً من المسجد الحسيني وخان الخليلي • وكانت عادته اليومية أن يقضي سحابة نهاره في مسكنه فاذا حل المساء خرج يتوكأ على عصاه ومعه خادمه « عارف أبو تراب » يلازمه كظله ، فيذهب الى مقهى رجل يوناني اسمه « متاتيا » يقع في ميدان العتبة الخضراء تجاه دائرة البريد المركزية[19] ، وهناك يحف به أصحابه فيلقي عليهم أحاديثه الشائقة التي هي خليط من الفلسفة القديمة وبعض مبادىء العلوم الحديثة ، ويناقشهم في شتى المواضيع •

كان الافغاني ذا مقدرة على اجتذاب الاصحاب والمريدين ، ولا سيما من بين صفوف الشباب • وكان الشيخ محمد عبده من أوائل الذين التحقوا بحلقته ، ثم صارت الحلقة تتوسع تدريجياً بمرور الايام •

ولم يطل الامر بالافغاني حتى ظهر تجاهه خصوم من بين شيوخ الازهر ورجال الدين كان على رأسهم الشيخ عليش ، فأخذ هؤلاء يشنون عليه الحملات الشعواء ويزعمون ان الافكار الجديدة التي يدعو اليها تفضي الى زعزعة العقائد الصحيحة وتؤدي الى حرمان النفس من خير الدنيا والآخرة • [20]

سجل ابراهيم الهلباوي ذكرياته عن تلك الفترة فقال : « كنت طالباً في الازهر الشريف لم أتجاوز العام السادس عشر حين نزل السيد جمال الدين مصر وأقبل عليه الادباء والمتنورون يستمعون الى أحاديثه العلمية ويحضرون في مجالسه ودروسه ، وكان الشيخ محمد عبده من هؤلاء الذين أعجبوا بالسيد وتشيعوا له ، فحقدت عليه وصرت أتربص به وباخوانه الدوائر لاني كنت أعتقد كما يعتقد أشياخي الذين تأثرت بهم بان السيد جمال الدين رجل

---

(١٩) لا يزال هذا المقهى في موضعه القديم وهو يسمى الآن « يونيفرسال » ، وقد زاره كاتب هذه السطور منذ عهد قريب .

(٢٠) محمود أبوريه (جمال الدين الافغاني) — القاهرة ١٩٥٨ — ص ٣٨ •

ملحد ونزل مصر ليضل الناس ويجمع حوله شيعة ينشرون الحاده وضلاله ، حتى أصبح قذى في عيني لا أستطيع رؤيته ، وصرت أتوخى أن تقع هنة من السيد جمال الدين أو أحد اتباعه لأشفى بها حقدي عليه » • ثم يذكر الهلباوي كيف أنه عندما التقى بالافغاني أعجب به وانمحت من ذهنه تلك الاوهام التي كان يتلقاها من مشايخه عنه • (٢١)

دخوله في الماسونية :

في أواخر أيار من عام ١٨٧٥ قدم الافغاني طلباً الى المحفل الماسوني فى القاهرة يطلب فيه قبوله عضوا فى المحفل ، ولا تزال ورقة الطلب محفوظة في مكتبة البرلمان الايرانى (٢٢) وهي مكتوبة بخط يد الافغانى نفسه • وهذا هو نصها :

« يقول مدرس العلوم الفلسفية بمصر المحروسة جمال الدين الكابلي الذي مضى من عمره سبعة وثلاثون سنة بأني أرجو من اخوان الصفا ، واستدعي من خلان الوفا ، أعني أرباب المجمع المقدس الماسون ، الذي هو عن الخلل مصون ، أن يمنوا علي ويتفضلوا الي بقبولي في ذلك المجمع المطهر وبادخالى فى سلك المنخرطين فى ذلك المنتدى المفتخر ، ولكم الفضل• »

وقد تم قبول الافغانى فى المحفل الماسوني ، ثم أخذ يرتقى في مراتب الماسونية سريعاً ، حيث نجده في أوائل عام ١٨٧٨ يصل الى مرتبة الرئاسة• وفيما يلي نص الكتاب الذي أرسله اليه « لوج كوكب الشرق » الماسوني يخبره باختياره رئيسا له :

« الى الاخ جمال الدين المحترم — انه لمعلوم لديكم بأن في جلسة ٢٨ الماضي وبأغلبية الآراء صار انتخابكم رئيس محترم لهذا اللوج

---

(٢١) مجلة العربي الكويتية — في عددها الصادر فى كانون الاول ١٩٧١ .

(٢٢) عثر في طهران على الكثير من اوراق الافغاني ورسائله وقد حفظت في جناح خاص في مكتبة البرلمان الايراني . وفي عام ١٩٦٣ نشرت جامعة طهران كتابا يحتوى على تصنيف لتلك الاوراق وصور زنكغرافية لبعضها، وهو كتاب مهم جدا يستطيع القارىء أن يستنتج منه الكثير من القرائن التي تؤيد كون الافغاني ايرانيا وليس افغانيا .

العام ولذا قد نهنئكم ونهني ذواتنا على هذا الحظ العظيم، وعن أمر الرئيس محترم الحالي أدعو أخوتكم للحضور في يوم الجمعة القادم ١١ الجاري الساعة ٢ عربي بعد الغروب الى محفل هذا اللوج لاجل استلامكم القادوم بعد اتمام ما يجب من التكريز الاعتيادي ثم سيصير يوم الخميس ١٠ الجاري الساعة ٦ افرنكي مساء تكريز رئيس محترم لوج كونكورديه . فالرجاء حضوركم في اليوم المذكور للاشتراك في الاشغال وفي الحالتين ملابسكم تكون سوداء ورباط الرقبة والكفوف بيضاء . واقبلوا منا العناق الاخوي . كاتب السر: نقولا سكروج . » (٢٣)

كان دخول الافغاني في الماسونية وارتقاؤه فيها من جملة الاسباب التي رفعت من شأن الافغاني في مصر ووسعت مجال نفوذه في الدوائر الحكومية وأوساط الطبقة العالية . فقد صار الكثير من الماسونيين من مريديه كما دخل الكثير من مريديه في الماسونية . يقول الدكتور سامي عزيز: ان المحفل الماسوني ضم بالاضافة الى الامير ولي العهد نخبة من الصحفيين والكتاب منهم يعقوب بن صنوع وسعد زغلول وأديب اسحق ومحمد عبده والمويلحي وسليم النقاش وابراهيم اللقاني وعلى مظهر والزرقاني والقوني ، هذا الى جانب محمد شريف باشا وبطرس غالي باشا وبعض أعضاء مجلس الشورى وبعض ضباط الجيش . (٢٤)

الافغاني سياسيا :

كانت الحكومة المصرية في تلك الآونة على وشك أن تعلن افلاسها لكثرة الديون الاجنبية المستحقة عليها وعجزها عن الوفاء ، فكان ذلك سبباً لتدخل بريطانيا وفرنسا في ادارة الحكومة المصرية من أجل حماية الدائنين الذين هم من رعاياها ، فظهر من جراء ذلك ما يعرف بـ « الرقابة الثنائية » . وفي عام ١٨٧٨ تشكلت وزارة برئاسة نوبار باشا وفيها وزيران اجنبيان أحدهما بريطاني والآخر فرنسي . فاعتبر المصريون ذلك اهانة لبلادهم

---

(٢٣) اصغر مهدوي وايرج افشار (مجموعة اسناد ومدارك) ـ طهران ١٣٤٢ ف ـ لوحة ١٦ تصوير ٤٠ ، ٤١ .

(٢٤) سامي عزيز (الصحافة المصرية) ـ القاهرة ١٩٦٨ ـ ص ٢٦

وأطلقوا على الوزارة اسم « الوزارة الاوربية » . [٢٥]

والملاحظ ان الخديوي اسماعيل باشا اتخذ موقفا شديدا ضد التدخل الاجنبي فى بلاده وأخذ يشجع الصحفه على مهاجمة ذلك التدخل ويثير الناس عليه ، كما شجع مجلس الشورى على معارضة الوزارة . وبعبارة أخرى : ان اسماعيل باشا أصبح كأنه زعيم شعبي يطالب بالاستقلال والديمقراطية .

ومما يلفت النظر ان الافغاني فى ذلك الوقت بالذات صار سياسيا مع العلم أنه كان قبل ذلك يتجنب الخوض فى السياسة فى احاديثه . وقد أدى هذا التحول فى مسلك الافغاني الى حصول شيء من الخلاف والنفرة بينه وبين أعضاء المحفل الماسوني الذي ينتمى اليه . ذكر محمد المخزومى في كتابه « خاطرات الافغاني » : أن أحد أعضاء المحفل قال له اثناء الاجتماع « ان الماسونية لا دخل لها فى السياسة واننا نخشى على محفلنا هذا من بأس الحكومة وبطشها » ، فنهض الافغانى يرد عليه حيث قال :

« كنت انتظر أن أسمع وأرى فى مصر كل غريبة وعجيبة ، ولكني ما كنت أتخيل أن الجبن يمكنه ان يدخل من بين اسطواناتى المحافل الماسونية .. لاتتم الصورة فى الذهن الا بعد التعريف والوصف ... أما نحن معشر الماسون فيؤلمني اننى للآن ما عرفت لنفسى بصفتى ماسونيا ، ولا لمطلق الماسونية ، تعريفا يجعل لها صورة فى الذهن أو وصفا على من ينخرط في تلك العشيرة . أول ما شوقني للعمل فى بناية الاحرار ـ يقصد الماسون ـ عنوان كبير خطير : حرية ، مساواة ، اخاء ، غرض منفعة الانسان ، سعي وراء دك صروح الظلم ، تشييد معالم العدل المطلق . فحصل لي من كل هذا وصفه للماسونية ... ولكن مع الاسف أرى ان جراثيم الاثرة ، والانانية ، وحب الرئاسة ، والعمل من جماعات بمقتضى أهوائهم ، وخضوعا لشرق عن بعد سحيق ، يعتوره تهديد ووعيد ، وغير ذلك من الامور التى ما تأسست الماسونية الحرة الا لملاشاتها ... » [٢٦] .

---

(٢٥) عبد الرحمن الرافعي (المصدر السابق) ــ ص ٣٩

(٢٦) محمد المخزومي (المصدر السابق) ــ ص ١٨ ــ ١٩ .

وانسحب الافغاني بعد هذا الخطاب من المحفل الماسوني ، وأسرع فأسس محفلاً ماسونياً جديداً برئاسته ، وانضم اليه أصحابه وتلاميذه . والظاهر ان الظروف ساعدت المحفل الجديد على النمو ، وأصبح الافغاني بذلك شخصية سياسية لها وزنها ، فأخذ يكتب في الصحف ويخطب في الجماهير ، ثم شكل حزباً سياسياً باسم « الحزب الوطني الحر » وصار يقابل الوزراء والقناصل ومراسلي الصحف الاجنبية ليحدثهم باسم الحزب ، وقد ترجمت مقتبسات من أقواله في الصحف البريطانية في لندن مما جعل بعض وزراء بريطانيا يهتمون بها ويتناقشون حولها (٢٧) .

هنا يواجهنا سؤال : هل كان الافغاني في نشاطه السياسى هذا واقفاً الى جانب اسماعيل باشا أم الى جانب خصومه ؟

الواقع أن اكثر الذين كتبوا في سيرة الافغاني أشاروا الى أنه وقف ضد اسماعيل باشا وطالب بخلعه ، فقد ذكروا أنه ذهب على رأس وفد لمقابلة وكيل دولة فرنسا ، وطلب منه باسم « الحزب الوطني الحر » أن يساعدهم على خلع اسماعيل باشا بحجة ان فكرة الاصلاح لا يمكن أن تخرج الى حيز التنفيذ ما دام هذا الرجل حاكماً في مصر ، وذكروا أيضا أن الافغاني قابل شريف باشا رئيس الوزارة التي تشكلت حديثاً ونصحه بأن يحمل الى اسماعيل باشا رغبة الناس في تنازله عن العرش . وذكر المستر بلنت ان الافغاني كان يريد قتل اسماعيل باشا وقد اقترح على تلميذه الشيخ محمد عبده أن يقوم باغتياله أثناء مروره بعربته على جسر قصر النيل اذ كان اسماعيل معتاداً أن يمر على ذلك الجسر كل يوم (٢٨) .

يمكن القول على أي حال ان هذه هي احدى النقاط الغامضة من حياة الافغاني فنحن لا نعرف على وجه اليقين أية جهة ارتبط بها الافغاني في تلك الفترة وما هو الهدف الذي كان يقصده فيها . انها نقطة تحتاج الى مزيد من الدراسة ، ويؤسفنا أن نجد معظم المؤرخين يمرون بها مراً خفيفاً دون أن يولوها العناية الكافية .

---

(٢٧) جرجي زيدان (المصدر السابق) ـ ج ٢ ص ٥٦ .
(٢٨) محمود قاسم (جمال الدين الافغاني) ـ القاهرة ـ ص ٤٤ ـ ٤٥ .

SS

في عهد توفيق باشا :

بذلت بريطانيا وفرنسا جهدهما لدى السلطان عبدالحميد في اسطنبول لعزل اسماعيل باشا ، وقد تم لهما ذلك أخيرا . ففي ٢٦ حزيران ١٨٧٩ وصلت من اسطنبول الى القاهرة برقية تنبيء بعزل اسماعيل باشا ونصب ابنه توفيق باشا بدلاً عنه . ويروى أن اسماعيل باشا عندما غادر القاهرة احتشدت الجماهير لتوديعه في محطة القطار ، ولم يتمالك الكثير منهم أنفسهم فانخرطوا في البكاء [٢٩] .

شعر الافغاني في عهد توفيق باشا كأن الدولة المصرية كلها أصبحت طوع يده . فقد كان توفيق باشا ماسونياً وكان علاوة على ذلك محبا للافغاني ومعجباً بأفكاره . وأخذ الافغاني يوجه أعضاء محفله الماسوني نحو العمل الجدي لاصلاح الجهاز الحكومي ، فجعلهم عدة فئات وأناط بكل فئة منهم مراقبة الدوائر في وزارة من الوزارات ، ففئة للحقانية ، وأخرى للمالية ، وثالثة للاشغال ، ورابعة للجهادية . فكانت كل فئة تنظر في شؤون الدوائر الخاصة بها وتتعرف على ما يقع من الظلم ووجوه الاصلاح فيها ، ثم تتصل بالوزير المختص وتبلغه رغباتها في اسلوب حازم صريح .

يقول الدكتور أحمد أمين تعليقاً على ذلك : هكذا اتسعت دائرة نفوذ الافغاني في مصر ، فقد كان في بداية أمره يدرس في حجرة ، ثم انتقل الى قهوة ، وها هو ذا الآن يريد أن يسيطر على الوزارات ومصالح الحكومة بمحفله الماسوني [٣٠] .

نفيه من مصر :

لم يكتف الافغاني بهذا النشاط الذي ذكرناه في اصلاح الجهاز الحكومي بل صار يطالب بالدستور وباقامة النظام النيابي في مصر . وأخذ يخطب في هذا الموضوع ويحرض أعوانه على نشر المقالات فيه .

---

(٢٩) بيير كربيتيس (اسماعيل المفترى عليه) ـ ترجمة فؤاد صروف ـ القاهرة ـ ص ٢٥٧ .

(٣٠) أحمد أمين (زعماء الاصلاح) ـ القاهرة ١٩٤٩ ـ ص ٧٤ .

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد ان الافغاني كان في أول عهده بمصر لا يرى في النظام النيابي خيراً ، وكان يعتقد أن مجلس النواب لا قيمة له ما دام المصريون على ما هم عليه من ضعف اليقظة وقلة الشجاعة . أما الآن فقد بدل رأيه هذا [٣١] وصار يدعو الى النظام النيابي بكل حماس .

نشأ الخلاف بين الافغاني والخديوي الجديد توفيق باشا من جراء هذه المطالبة بالدستور والنظام النيابي . فاستدعاه الخديوي اليه وطلب منه الكف عن القاء الخطب والاحاديث المثيرة وقال له : « انني أحب كل خير للمصريين ، ويسرني أن أرى بلادي وأبناءها في أعلى درجات الرقي والفلاح ، ولكن مع الاسف ان أكثر الشعب خامل ، جاهل ، لا يصلح أن يلقي عليه ما تلقونه من الدروس والاقوال المهيجة ، فيلقون أنفسهم والبلاد في تهلكة » . وقد حاول الافغاني اقناع توفيق باشا بفائدة الحياة النيابية ونظام الشورى ، فلم يوفق في محاولته . وأضمر له توفيق باشا الحقد.[٣٢]

وفي ساعة متأخرة من ليلة ٢٦ آب ١٨٧٩ ، عندما كان الافغاني راجعاً على عادته من مقهاه نحو بيته ، ألقي القبض عليه وحجز في « الضبطية » حتى الصباح . ومن هناك حمل في عربة مقفلة الى محطة القطار ، وسار به القطار تحت المراقبة الشديدة الى السويس ، ثم نقل الى باخرة كانت في طريقها الى الهند .

لم يأت لتوديع الافغاني عند مرسى الباخرة سوى القنصل الايراني ونفر من التجار الايرانيين الذين كانوا يسكنون في بلدة السويس ، وقدم له هؤلاء مبلغ مائة جنيه ليستعين بها في سفره [٣٣] ، فرفض قبول المبلغ وقال لهم : « أنتم الى هذا المال أحوج ، والليث لا يعدم فريسة حيثما ذهب » [٣٤] .

وفي اليوم التالي ذهب بعض رجال « الضبطية » الى منزل الافغاني لتفتيشه ، فأخذوا من كتبه وأوراقه ما شاؤوا ، ثم حشوا الباقي في

---

(٣١) المصدر السابق ـ ص ٧٦ .
(٣٢) محمد المخزومي (المصدر السابق) ـ ص ٢١ .
(٣٣) محمد رشيد رضا (المصدر السابق) ـ ص ٤٨ .
(٣٤) محمد المخزومي (المصدر السابق) ـ ص ٢٤ .

SS

صناديق وأرسلوها بحراً الى ميناء بوشهر الايراني اذ كانوا يظنون أنه ذاهب الى ايران . أما خادمه « عارف أبو تراب » فقد ظل محجوزاً في « الضبطية » بضعة أيام ثم أطلق سراحه ، فسافر الى بيروت .

وفي ٢٨ آب – أي بعد نفي الافغاني بيومين – نشرت جريدة الاهرام بياناً رسمياً ورد اليها من ادارة المطبوعات تنقل فيما يلي نبذة منه :

« قد استقرت الحكومة بأن هناك جمعية سرية من الشبان ذوي البطش مجتمعة على فساد الدين والدنيا رئيسهم يدعى جمال الدين الافغاني مطرود من بلاده .. ثم من الاستانة العلية لما ارتكبه من أمثال هذه المفسدة في ديارنا المصرية .. فالتزمت هذه الحكومة الحازمة أن تتخذ الطرق اللازمة في قطع عرق الفساد فأبعدت ذلك الشخص المفسد من الديار المصرية بأمر ديوان الداخلية ، ووجهته من الطريق السويسي الى الاقطار الحجازية لازالة هذا الفساد من هذه البلاد عبرة للمعتدين ولمن يتجاسر على مثل هذا من المفسدين [٣٥] . »

ويعلق المؤرخ المصري عبد الرحمن الرافعي على نفي الافغاني فيقول :

« ومن المؤلم حقاً أن يتقرر نفي جمال الدين ويصدر مثل هذا البلاغ من حكومة يرأسها الخديو توفيق باشا وهو على ما نعلم من سابق تقديره للسيد ، ومن وزرائها محمود باشا سامي البارودي وزير الاوقاف وقتئذ وقد كان من أصدق مريديه وأنصاره . فتأمل كيف يتنكر الانصار والاصدقاء لاستاذهم ، والى حد يضيع الوفاء بين الناس !! ولا ندري كيف أساغ البارودي نفي السيد جمال الدين واشترك في احتمال تبعته ، واذا لم يكن موافقاً على هذا العمل المنكر فلم لم يستقل من الوزارة احتجاجاً واستنكاراً . لا شك أن موقف البارودي في هذه الحادثة لا يمكن تسويغه او الدفاع عنه باي حال . » [٣٦]

اختلفت الاقوال في تعليل نفي الافغاني من مصر ، فمنهم من ذهب الى ان الخلاف في الرأي بينه وبين توفيق باشا كان هو السبب في نفيه ،

---

(٣٥) محمود ابورية (المصدر السابق) – ص ١١٩ .

(٣٦) عبد الرحمن الرافعي (المصدر السابق) – ص ٤٦ – ٤٧ .

ومنهم من قال بأنه نفيه انما جرى بضغط من المستر فافياني قنصل بريطانيا العام في مصر . وللباحث المصري الدكتور سامي عزيز رأي غريب في هذا الموضوع اذ هو يقول : « ويلاحظ من دراسة تاريخ الافغاني أن الانجليز سكتوا عنه وهو في مصر طالما كان عضواً في الماسونية الانجليزية ولكنه عندما خرج عليها وأنشأ المحفل التابع للشرق الفرنسي وأخذ يهاجم سياسة بريطانيا ، عندئذٍ أشار الانجليز على توفيق بضرورة التخلص منه [٣٧] .. »

الرد على الدهريين :

ذهب الافغاني على اثر نفيه من مصر الى الهند واستقر في مدينة حيدرآباد دكن زهاء ثلاث سنوات . ولا نعرف عن حياة الافغاني في تلك الفترة سوى أنه ألف فيها بالفارسية كتابه « الرد على الدهريين » وهو الكتاب الذي ترجمه الشيخ محمد عبده فيما بعد الى العربية بمساعدة عارف أبو تراب . ولتأليف هذا الكتاب قصة جديرة بالذكر هنا لانها تلقي ضوءاً على وضع المسلمين في الهند حينذاك وموقف الافغاني منه .

كان المسلمون في الهند آنذاك يعانون صراعاً شديداً بين تراثهم الديني القديم وما جاءت به الحضارة الاوربية من مفاهيم ونظم حديثة. والواقع أن المسلمين في جميع أقطارهم كانوا يعانون مثل هذا الصراع ولكن المسلمين في الهند سبقوا غيرهم في ذلك ، وكان الصراع بينهم أشده. وفي القرن التاسع عشر ظهر في الهند مفكر اسلامي حاول أن يوفق بين ذينك التيارين المتصارعين ، واندفع في ذلك بحماس منقطع النظير ، هو السيد أحمد خان . فقد نظر هذا الرجل الى حالة المسلمين في زمانه فوجدهم ــ كما يقول الدكتور أحمد أمين ــ يرزحون تحت وطأة الفقر والجهل والفقر والقلق ، وكان رجال الدين فيهم لا يفهمون من الدين الا رسمه ويريدون أن يخضعوا العالم الواسع لعقليتهم الضيقة فحرموا المدارس الحديثة وكل ما جاءت به الحضارة الاوربية من نظم ، وقد أرسل

---

(٣٧) سامي عزيز (المصدر السابق) ــ ص ٣١٦ .

الهندوس أبناءهم الى تلك المدارس ونالوا الوظائف بينما بقي المسلمون في معزل عن ذلك اذ هم لم يدخلوا المدارس الحكومية ولم يؤسسوا مدارس خاصة بهم (٣٨) .

نهض السيد أحمد خان يدعو المسلمين الى تبني الحضارة الحديثة وعلومها ، وكان من رأيه أن العلوم الحديثة لا تعارض في حقيقتها التعاليم الدينية . (٣٩) وفي عام ١٨٧٥ وضع في بلدة « عليكره » بذرة مدرستها المشهورة ليجعل منها جامعة اسلامية تنشر الثقافة الحديثة بين المسلمين، وقد أحدثت حركة السيد أحمد خان ضجة كبرى في الهند ، فكثر أتباعها كما هاج عليها رجال الدين والعامة .

اطلق خصوم السيد أحمد خان على حركته اسم « النيشرية » وهو نبز لها اذ هو مأخوذ من لفظة « الطبيعة » الانكليزية ، فقد اتهمها الخصوم بأنها تؤمن بالطبيعة وتنكر وجود الله ، واتهموها أيضاً بانها من صنع الانكليز الكفار الذين يريدون بها هدم الاسلام . وتعرضت حياة السيد أحمد خان للخطر من جراء هذه التهم التي ألصقت بحركته ، فقد حاول أحد العوام طعنه بخنجر ذات مرة غير أنه نجا بأعجوبة ، وظل ثابتا جريئاً في دعوته لم يتزحزح عنها ولم يداج فيها (٤٠) ..

وصل الافغاني الى الهند في الوقت الذي كان فيه الصراع على أشده بين أنصار السيد أحمد خان وخصومه ، وكان المتوقع منه أن يقف الى جانب السيد أحمد خان لانه كان مثله يعتقد بأن العلوم الحديثة لا تعارض التعاليم الدينية ، ولكنه لم يفعل ذلك بل فعل الضد منه ، وقد ألف كتابه « الرد على الدهريين » لهذا الغرض فملأه بالتهجم المقذع على السيد أحمد خان وأنصاره وألصق بهم تهمة الالحاد .

كان رأي الافغاني في السيد أحمد وأنصاره أنهم يتظاهرون بمظهر الاسلام نفاقاً بينما هم يضمرون الحقد والغل اذ هم باعوا أنفسهم

---

(٣٨) احمد امين (المصدر السابق) ــ ص ١٢٥ .
(٣٩) جرجي زيدان (المصدر السابق) ــ ج ٢ ص ٦٥ .
(٤٠) احمد امين (المصدر السابق) ــ ص ١٣١ .

للانكليز فاتخذهم هؤلاء أعوانا لكي يفسدوا بهم عقائد المسلمين ولكي يزيلوا منهم الاعتزاز بدينهم فتخمد حميتهم ويتبدد شملهم وبذلك تكون الغلبة للانكليز عليهم .

ولم يقتصر الافغاني تهجمه على انصار السيد أحمد خان فقط بل تهجم كذلك على جميع أصحاب المباديء الحديثة كالداروينيين والاشتراكيين والشيوعيين . والملاحظ أنه لم يكن موضوعياً في أسلوبه بل جرى فيه على الطريقة التقليدية التي لاحظناها في اسلوب أغا رضا الاصفهاني وأمثاله حيث اعتمد فيه على الرنين اللفظي والمبالغة الخطابية . خذ مثلاً نقده لنظرية داروين فهو يقول فيه ما نصه :

« ... وعلى زعم دروين هذا يمكن أن يصير البرغوث فيلا بمرور القرون وكر الدهور وأن ينقلب الفيل برغوثا . فان سئل دروين عن الاشجار القائمة فى غابات الهند ، والنباتات المتولدة فيها من أزمان بعيدة لا يحددها التاريخ الا ظنا ، وأصولها تضرب في بقعة واحدة ، وفروعها تذهب في هواء واحد ، وعروقها تسقى بماء واحد ، فما السبب في اختلاف كل منها عن الآخر في بنيته وأشكال أوراقه ، وطوله وقصره ، وضخامته ورقته ، وزهره وثمره ، وطعمه ورائحته وعمره ، فأي فاعل خارجي أثر فيها حتى خالف بينها مع وحدة المكان والماء والهواء ؟ أظن لا سبيل الى الجواب سوى العجز عنه [٤١] .. »

وحين يتطرق الافغاني الى الاشتراكية والشيوعية يحاول تفنيدهما بمثل هذا الاسلوب الذي حاول به تفنيد نظرية داروين ، فهو يقول عن الاشتراكيين والشيوعيين : « ... انهم زينوا ظواهرها بدعوى أنهم سند الضعفاء والطالبون بحقوق المساكين والفقراء ... الا أن غاية ما يطلبون انما هو رفع الامتيازات الانسانية كافة ، واباحة الكل للكل ، واشراك الكل فى الكل ، وكم سفكوا من دماء ، وكم هدموا من بناء ، وكم خربوا من عمران، وكم أثاروا من فتن، وكم أنهروا من فساد، كل ذلك سعياً في الوصول

---

(٤١) جمال الدين الافغاني (الرد على الدهريين) - ترجمة محمد عبده - القاهرة ١٩٤٧ - ص ٢٢

الى هذه المطالب الخبيثة • وجميعهم على اتفــاق في أن جميع المشتهيــات الموجودة على سطح الارض منحــة من الطبيعة ، وفيض مــن فيوضها ، والاحيـــاء فــي التمــتع بهــا ســواء ، واختصاص فــرد من الانســان بشيء منها دون سائر الافراد بدعة في شرع الطبيعة ، سيئة يجب محوهــا والاراحة منها .. » (٤٢)

ان هذا الاسلوب الذي استعمله الافغاني فى النقد يشبه من بعض الوجوه أسلوب ذلك الامي الذي رسم شكل « الحية » وبارى به خصمه الذي كتب لفظ « الحية » بالحروفه ، فهو أقدر على الغلبة فى نظر العامة ولكنه في الحقيقة كان زائفاً •

وهناك نقطة اخرى جديرة بالذكر هنا ، وهي النقطة التي أثارهــــا الباحث المصري أمين عز الدين • ففي رأي هذا الباحث أن الافغاني كــان غير موفق في توقيت هجومه على الاشتراكيين والشيوعيين، وذلك للاسباب التاليــــة :ــ

اولا ، ان الافغاني نشر كتابه وهجومه على الاشتراكية في أوج قيــام الثورة العرابية التى كانت بحاجة الى دعم الاشتراكيين الاوربيين لهـــا وتأييدهــــم •

ثانيا : ان الافغانى نشر هجومه فى وقت كان فيه الموقف المصــري شبيها بالموقف الفرنسي أثناء ثورة الكوميون ، ففى كلا البلدين تجمعت القوى الوطنية لمواجهة العدو الخارجى من جهة والعدو الداخلى المتمثــل فى القوى الرجعية من الجهة الاخرى •

ثالثاً : ان الافغاني نشر هجومه على الكوميونيين في الوقت الذي كانت فيه تتردد دعاية خبيثة بأن عرابي وحركته لها صلات سرية وعلنيــة بعناصر من كوميون باريس وبعض قادته الذين كانوا لاجئين في مصر • (٤٣)

العروة الوثقى :

خرج الافغانى من الهند فى ١٨٨٢ ، وقيل انه ذهب الى الولايــات

(٤٢) المصدر السابق ــ ص ٦٧

(٤٣) مجلة الاذاعة والتلفزيون القاهرية ــ في عددها الصادر فى ٨ أيار ١٩٧١ •

المتحدة وبقى فيها بضعة أشهر على أمل الحصول على الجنسية الامريكية، ثم عاد الى لندن فى ربيع ١٨٨٣ • (٤٤) ولم يمكث الافغانى فى لندن طويلاً بل غادرها الى باريس واستقر فيها • والملاحظ أنه بدأ في باريس يهاجم بريطانيا والاستعمار البريطانى فى الشرق مهاجمة عنيفة •

استدعى الافغاني اليه تلميذه الشيخ محمد عبده ، وكان هذا منفياً في بيروت على أثر اشتراكه في الثورة العرابية، فتعاون الرجلان على اصدار المجلة التي اشتهر أمرها في العالم الاسلامي فى حينه أي مجلة «العروة الوثقى» •

صدر العدد الاول من المجلة فى ١٣ آذار ١٨٨٤ ، وكان الشيخ محمد عبده هو الذي يحررها بقلمه بينما كانت أفكار المجلة من نتاج الافغاني• وصارت المجلة ترسل بالبريد الى مختلف أقطار العالم الاسلامي ، فكان الناس يجتمعون لقراءتها ويتهادونها فيما بينهم ، ويتناقشون في مواضيعها • (٤٥) ووصل تأثيرها الى العراق ، ويقال ان السيد سلمان الكيلاني كان من المشتركين فيها ببغداد فكان كلما جاء اليه عدد منها واطلع عليه قال : « يوشك أن تقع ثورة من تأثير هذه الجريدة قبل أن يجيء العدد الذي بعد هذا . » (٤٦) وأخذت الصحف الطهرانية تترجم بعض مقالات المجلة الى اللغة الفارسية وتنشرها • (٤٧)

ومما يلفت النظر أن المجلة في الوقت الذي كانت فيه تركز هجومها على الاستعمار البريطاني تكاد تخلو من ذكر الاستعمار الفرنسي والهولندي والروسي ، (٤٨) مع العلم أن الكثير من المسلمين كانوا يرزحون تحت وطأة استعمار تلك الدول • فما هو السبب فى ذلك ؟ ! الله اعلم !

وكانت بريطانيا تنظر الى مجلة « العروة الوثقى » نظرة عداء وخشية، وعملت على منع دخولها فى البلاد الاسلامية الواقعة تحت سيطرتها • ففي

---

(44) Edward Browne (The Persian Revolution) —Cambridge 1910 — P 401 .

(٤٥) قدري قلعجي (المصدر السابق) ـ ص ٦٥ .

(٤٦) عبد المنعم شميس (سفير الله) القاهرة ١٩٦٩ ــ ص ٦٥ .

(٤٧) لطف الله خان (المصدر السابق) ــ ص ٣٠ .

(٤٨) ألبرت جوراني (الفكر العربي فى عصر النهضة) ــ ترجمة كريم عزقول ــ بيروت ــ ص ١٤٣ .

مصر مثلاً نشرت الجريدة الرسمية انذاراً بأن كل من توجد عنده المجلة يغرم مبلغاً يتراوح بين خمسة جنيهات وخمسة وعشرين جنيهاً . وعندما وصل خبر ذلك الى الافغاني بباريس نشر في المجلة مقالاً تهجم به على الانكليز تهجماً مقذعاً . (٤٩)

صدر من مجلة « العروة الوثقى » ثمانية عشر عدداً ، ثم توقفت عن الصدور ، والمظنون أن من أسباب توقفها ما وقع من خلاف بين الافغاني والشيخ محمد عبده حول توجيه سياستها ، فقد بدأ الشيخ محمد عبده يسأم من الاشتغال بالسياسة ويميل الى مثل منهج السيد أحمد خان في مهادنة الاستعمار البريطاني والاتجاه نحو اصلاح الناس عن طريق التعليم والتهذيب ، وقد عرض الشيخ محمد عبده رأيه على الافغاني محاولاً اقناعه به ، فلم ينجح في ذلك ، وكان رد الافغاني عليه : « انما أنت مثبط ! وقد شرعنا في هذا العمل ، ولا بد لنا من المضي فيه مادمنا نرى له منفذاً . » (٥٠) وقد غادر محمد عبده باريس حيث عاد الى بيروت.

ذهابه الى لندن :

كان للافغاني صديق بريطاني اسمه ويلفرد سكاون بلنت ، وكان هذا الرجل أرستقراطياً ثرياً يحب العرب والشرق ، ويعطف على الثورات الوطنية التي قامت في الهند وآيرلندا ومصر . وفي عام ١٨٨٥ استطاع بلنت أن يقنع اللورد راندولف تشرشل الذي تولى يومذاك وزارة شؤون الهند بفائدة استدعاء الافغاني الى لندن للتفاهم معه .

كان بلنت يعتقد ان الافغاني وان كان خصماً لدوداً للاستعمار البريطاني غير أنه في خصومته ليس ذا تعصب أعمى وأنه يرحب بأي اتفاق شريف مع بريطانيا اذا كان ذلك ممكناً . (٥١) وقد كتب بلنت الى الافغاني يدعوه لزيارة لندن ، فلبى الافغاني الدعوة ونزل في ضيافة بلنت.

---

(٤٩) محمد سلام مدكور (جمال الدين الافغاني) ـ القاهرة ١٩٣٧ ـ ص ١٥٠ ـ ١٥١ .

(٥٠) محمود قاسم (المصدر السابق) ـ ص ٦٥ ٦٦ .

(51) Edward Browne (op . cit.) — P 402 .

ثلاثة أشهر ، والتقى هناك باللورد تشرشل وغيره من كبـار الساسـة البريطـانيين .

يبدو أن الافغاني أثناء مكوثه في ضيافة بلنت قد غير رأيه تجـاه بريطانيا ، فهو أصبح يعتقد ـ كما يروي عنه بلنت ـ أن في روسيا خطراً على العالم الاسلامي أشد من خطر بريطانيا ، وهو يرغب في تحقيق تقارب بين بريطانيا والاسلام . (٥٢) ومهما يكن الحال فقـد قررت الحكومـة البريطانية أن يذهب الافغاني مع السر هنري دراموند ولف في بعثـة خاصة الى اسطنبول لمفاوضة السلطان عبدالحميد من أجـل عقـد حلف ضد روسيا مؤلف من بريطانيا وتركيا وايران وافغانستان . وقـد تم الاستعداد لسفر البعثة ، واشتريت بطاقة القطار للافغاني ، غير أن ولف رفض في اللحظة الاخيرة أن يأخذ الافغاني معه في البعثة ، وقـد انزعج الافغاني من ذلك وحنق حنقاً شديداً . (٥٣)

وحدث بعدئذ حادث آخر زاد من حنق الافغاني ، خلاصته : ان اثنين من أصدقاء الافغاني تخاصما بحضوره في منزل بلنت ، وضرب أحدهمـا الآخر بالمظلة على رأسه ، فطلب بلنت منهما أن يخرجا من منزله ، فلمـا خرج الرجلان من المنزل خرج الافغاني وراءهما ، وعند هذا طلب بلنت من الافغاني ان يجد له منزلاً آخر . (٥٤) ان بلنت بعبارة أخرى طـرد الافغاني من منزله .

ظل الافغاني يتسكع في لندن بضعة اسابيع ، ثم استقر رأيه أخيراً ان يذهب الى روسيا ليعمل على عقد حلف بين تركيـا وروسـيا ضـد بريطـانيا .

ذهابه الى ايران :

بينما كان الافغاني في لندن يتأهب للسفر الى روسيا وردت اليـه

(52) Albert Hourani (op . cit .) — P 111 .

(53) Edward Browne (op . cit .) — P . 403

(54) Albert Hourani (op . cit .) — P 111 .

(55) Edward Browne (op . cit .) — P . 403

برقية من الشاه ناصر الدين تدعوه لزيارة طهران ، فلبى الافغاني الدعـوة ولعله اعتزم الذهاب الى روسيا من بعد انتهاء زيارته لطهران .

غادر الافغاني بريطانيا عن طريق البحر ، فوصـل الى بوشهر فـي ٢٠ أيار١٨٨٦، وبعد أن مكث فيها أياماً سافر الى اصفهان. وكان الحاكم العام في أصفهان يومذاك الامير مسعود مرزا ابن الشاه ناصر الدين وهـو الملقب بـ « ظل السلطان » ، والمعروف عن هذا الامير أنه كـان شـديد الطموح يتوق للعرش وقد كوّن لنفسه جيشاً خاصاً به وجمع حوله الانصار والدعاة . (٥٦) وحين وصل الافغاني الى اصفهان أبرق الامير مسعود مرزا الى طهران راجياً السماح للافغاني بالبقاء في ضيافته برهة من الزمن . وقد مكث الافغاني في اصفهان شهراً ونصف شهر ، وجرت بينه وبين الامير محادثات لا نعرف عنها شيئاً ، غير أننا نعرف أن الامير تعهـد للافغـاني بجميع نفقات سفرته المقبلة الى روسيا .

ثم سافر الافغاني بعد هذا الى طهران ، فوصلها في شهر آب ١٨٨٦، ونزل في ضيافة الحاج محمد حسن كومباني أمين دار الضرب ، وقـد التقى هنالك بابن اخته المرزا لطف الله خـان . ويقول الشـيخ مصطفى عبدالرازق عن الافغاني في طهران : « فنال مكانة سامية وتزاحم حولـه الامراء والمجتهدون والكبراء وتمكن من نظم كثير منهـم في سـلك الماسـونية » . (٥٧)

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد أن الافغاني كان منذ وطئت قدماه أرض ايران قد خلع زيه الافغاني الذي اشتهر به في تركيـا ومصر ، وتزيا بزي سيد من علماء الشيعة حيث وضع العمامة السوداء على رأسه ، والعباءة على كتفيه ، والمداس الاصفر في قدميه، ولقب نفسه بـ «الحسيني» اشارة الى أنه من سلالة الامام الحسين بن علي . ومن ينظر الى الصـورة الفوتوغرافية التي أخذت له مع ابن اخته في طهران وهو جالس بين اثنين

---

(56) Ibid — P 74 , 88 , 331

(٥٧) مصطفى عبد الرازق(جمال الدين الافغاني) في مقدمة كتاب (العـروة الوثقى) ـ بيروت ١٩٧٠ ـ ص ٢٥ .

من رجال الدين يكاد لا يميزه عنهما بشيء •

قابل الافغاني الشاه غير مرة ، وقد ذكر المرزا لطف الله خان شيئاً من المحاورة التي جرت بين الافغاني والشاه عند التقائهما للمرة الاولى ننقلها فيما يلي :

قال الشاه مخاطباً الافغاني : « اني مسرور بقبولك الدعوة وتجشمك متاعب السفر الى ايران ، كما اني مسرور بلقائك ، واني اعترفه بشأنك بأي صورة تكون فيها ، كما أني أستطيع أن أفخر على الملوك بقيام فيلسوف مثلك في بلاد ايران استفادوا بنتيجة علمه وفضله وحكمته في البلاد الاجنبية الاخرى ، وان علماء الاجانب وفضلاءهم يعترفون بفضلك وعلمك ومقامك، واني مطلع على تلك الخدمات التي قمت بها نحو الاسلام والمسلمين في مصر والهند وأفغانستان وتركيا والاقطار الاوربية ، والعجب من أنك بمفردك تستطيع القيام بكل هذه الاعمال العظيمة ، ويؤسفني أن تستفيد الشعوب الاجنبية من ثمرات اعمالك ويبقى بنو وطنك محرومين منها ، فقل لي ما الذي يجب أن نعمله لتعمير ايران ورقيها ، وما هي أنجع الوسائل التي نرقى بها ايران ؟ ! »

فأجابه الافغاني قائلاً : « أستطيع أن أفخر بنفسي بأن أرى عاهل ايران قد استيقظ من سباته العميق وأخذ يفكر في تعمير البلاد ورقيها ويثق بي • نعم انني ايراني أسدآبادي ، وان كافة العلوم بحمد الله مخزونة في صدري ؛ فلا تنظر الى وحدتي وصغر جسمي ، فاني أستطيع أن أطمس جبل دماوند هذا بقبضة يدي الصغيرة ، فاينما كنت وأكون لا أبغي الا حفظ الجامعة الاسلامية ورقي المسلمين واستقلال بلادهم ، فبقدر ما أشعر بالنوايا السلطانية الخيرية أبذل ما استطعت الجهد لمؤازرتها وتنفيذها • ان خراب ايران وذل وشقاء الايرانيين التعساء تعود الى الذات السلطانية نفسها » • ثم أخذ الافغاني يظهر للشاه عيوبه ومنها أنه يملك ثمانين زوجة ولكل زوجة كثير من الخدم حيث ينفق عليهم ما يعادل نفقات المملكة • فتأثر الشاه بكلام الافغاني كل التأثير — حسب رواية ابن اخته المرزا لطف الله — وتقبل المقترحات الاصلاحية التي قدمها له وتعهد بتحقيقها ، ثم عرض عليه

بعدئذ منصب رئاسة الوزارة ورئاسة دار الشورى ولكن الافغاني رفض ذلك وقال : « اني لم أطلب ولن أطلب الرئاسة في الدنيا أبداً ولا أبغي ولم أكن أبغي غير تربية المسلمين ورقي الوطن ، ولا أقول الا ما أراه لازماً وجديراً ، فلينظر الشاه وعقلاء البلاد الى ما اقترحه بنظرة صائبة ودقيقة ثم يقروا كل ما يجدوه صالحاً ويأمروا بتنفيذه » . فوافق الشاه على ما قاله الافغاني وأمر بأن يجتمع الوزراء والرؤساء والاعيان والتجار به ويدونوا قانوناً خاصاً بذلك للعمل به . (٥٨)

الواقع ان هذه المحاورة بين الشاه والافغاني حسبما رواها المرزا لطف الله خان يصعب علينا تصديقها لما فيها من مبالغات ومثاليات تزيد عن الحد المعقول . ويخيل لي أن المرزا لطف الله انما نقلها عن لسان خاله الافغاني وأن الافغاني حين تحدث بها اليه كان فرحاً بنفسه فأراد أن يتباهى أمام ابن اخته بجرأته على الشاه فأخذ يطنب في حديثه ويبالغ ويجعل من الحبة قبة ـــ كما هو شأن المتحدثين عن أنفسهم في كثير من الاحيان .

ذهابه الى روسيا :

بعد أن مكث الافغاني في طهران أربعة أشهر وبضعة أيام استأذن من الشاه بالسفر فجاء اليه الاذن من الشاه على شكل رسالة خاصة هذا نصها :

« جناب السيد جمال الدين ان غايتنا تحققت من لقائكم والآن وأنتم تنوون السفر الى أوربا أرى أن ذلك خير ولكي تتذكروا ذاتنا العظيمة دائماً فقد أرسلت اليكم علبة الماسية للسعوط ، ونحن أنفسنا لن ننساكم أبداً » . ولم يكتف الشاه بذلك بل أرسل الصدر الاعظم المرزا علي اصغر خان ليحمل الى الافغاني الرسالة مع علبة السعوط . وقد أهدى الصدر الاعظم الى الافغاني من عنده خاتماً من الماس مع مبلغ من المال قدره ألف تومان ، فرد الافغاني المبلغ وأخذ الخاتم مع علبة السعوط . (٥٩)

---

(٥٨) لطف الله خان (المصدر السابق) ـــ ص ٨٠ ـــ ٨٢ .

(٥٩) المصدر السابق ـــ ص ٨٣ ـــ ٨٤ .

عند وصول الافغاني الى بطرسبرغ كان يسكن فيها رجل ايراني اسمه السيد حسين خان عدالت التبريزي ، وقد صار هذا الرجل صديقاً للافغاني وموضع سره ، ثم كتب بعدئذ مقالاً عنه ننقل جزءاً منه فيما يلي :

« قدم السيد جمال الدين سنة ١٣٠٤ هجرية الى بطرسبرغ (لنينجراد) وكان غالبية الايرانيين يزورونه لما له من الشهرة . وتعرفت به أثناء زيارتي له ، وسرعان ما تحولت تلك المعرفة الى صداقة قوية . ولعل السبب المهم الذي جعله يرغب في صداقتي هو ان السيد كان شديد الميل الى أن لا يتدخل الآخرون في سلوكه ومقاصده . وأما أنا فقد كنت أسير حسب رغبته . وفضلا عن ذلك فانه لم يكن يعرف اللغة الروسية وكان في حاجة الى من يترجم له ، فكنت أقضي كل اوقات فراغي في حضرته . وبلغ انسجامه معي الى درجة أنه كان يشرح لي كل أفكاره وعقائده وأهدافه ... وكان كل غرضه في بادىء الامر هو انقاذ الهند من براثن الانجليز ، وقد أصدر لهذا الغرض جريدة (العروة الوثقى) في باريس ... وبعد أن تعطلت (العروة الوثقى) اعتزم السيد جمال الدين السفر الى بطرسبرغ ... وقد بدأت صداقة السيد مع (كاتكوف) ـ الذي كان من الصحفيين البارزين ، والصديق الحميم لامبراطور روسيا ـ ابان اقامته في باريس . وكانت دعوة (كاتكوف) هذا من الاسباب القوية لسفر السيد الى روسيا . ولكن المنية عاجلت (كاتكوف) حينما وصل السيد الى بلاد الروس ، فاضطر الى العمل وحده في المشروع الذي كان ينوى القيام به هنالك ... وكان أساس خطته الاصلية اعداد العدة لتوحيد البلاد الاسلامية وتخليصها من ربقة الاستعمار البريطاني . وهذا هو السبب لعداء الانجليز الدائم نحوه ، حتى أنهم لم يغفلوا لحظة واحدة عن مراقبة أعماله في بطرسبرغ . فكان السيد في هذه الظروف يعمل على تهيئة الوسائل لاثارة الحرب بين الروس والانجليز حتى تتهيأ الفرصة له للقيام بمهمته . ولكن الروس كانوا غير راغبين في خوض معركة أخرى لانهم كانوا قد انتهوا وشيكاً من حربهم مع العثمانيين فكانت حالتهم المالية في اضطراب شديد . وقد تقابل السيد جمال الدين

ss

عدة مرات مع (زنويف) مدير وزارة الخارجية الروسية ، ولكن المدير المذكور لم يبد أية مساعدة للأخذ بآرائه . وهذا نص عبارة السيد جمال الدين عند مقابلته لزنويف : « كلما أرميه الى الهواء يقع كالقطة فوق الارض أي على يديه ورجليه » . ثم انه أراد أن يقابل الامبراطور بصورة رسمية ... ولكن الامبراطور لم يوافقه على ذلك ورأى أن تكون المقابلة بصورة سرية . ولذلك لم تتسن له الا مقابلة الملكة ، لان مقابلة الامبراطور السرية كانت بلا جدوى . فيئس السيد جمال الدين من تنفيذ خطته في روسيا . وفي أثناء هذه الاحوال اختلت شؤون الامير (ظل السلطان) ولم يستطع ـ نتيجة لذلك ـ أن يمد السيد بالمال ، فأخذ نشاط السيد بالفتور تدريجياً ... » [٦٠]

غادر الافغاني روسيا في عام ١٨٨٩ فقصد باريس لزيارة معرضها الدولي . وصادف أن كان الشاه ناصر الدين يقصد باريس في ذلك الحين أيضاً ، فالتقى الرجلان في مدينة فينا .

كان الشاه قبل هذا قد عقد اتفاقاً مع الانكليز سمح فيه لسفنهم بالملاحة في نهر كارون كما منح لرجل منهم امتيازاً بانشاء بنك بريطاني في ايران باسم «البنك الشاهنشاهي» . وقد أثار ذلك حنق روسيا واستيائها الشديد . والظاهر أن الشاه كان في حاجة الى رجل يبعثه الى روسيا لتهدئة المسؤولين فيها ، وقد وجد هذا الرجل في شخص السيد جمال الدين الافغاني .

يصفه المرزا لطف الله خان ما حدث بين الشاه والافغاني عند التقائهما في فينا ثم يقول : « أمر الشاه أحد حاشيته قائلا له : مد يد العهد وتصافح مع السيد من قبلي . ولكن ذلك السيد العظيم رفض المصافحة مع الرجل قائلا له : ان يد مثلك لا تليق أن تتصافح معي ، لان يدي حرية بأن يصافحها الشاه ، ولا يحق ليد أن تعاهدني الا يد السلطان نفسه . فقدم ناصر الدين شاه يده بنفسه الى السيد ، وأخذ بيد السيد وأعطاه عهداً أكيداً من كل ناحية ، ثم ألقى كل منهما كلمة في لزوم مراعاة العهد وتوثيقه ... » [٦١]

---

(٦٠) المصدر السابق ـ ص ١٥١ ـ ١٥٦

(٦١) المصدر السابق ـ ص ٨٥ ـ ٨٦ .

وسافر الافغاني الى روسيا حيث قابل المسؤولين فيها وقام بالمهمة التي كلفه الشاه بها ، ثم عاد من هناك الى ايران ، فوصل طهران في أواخر ١٨٨٩ ، وكان الشاه وصلها أيضاً فنال الافغاني حظوة لديه كالتي نالها في زيارته الاولى •

ابعاده من ايران :

لم يمض على الافغاني في طهران سوى مدة قصيرة حتى بدأ النفور يظهر بينه وبين الشاه ، وهذا أمر طبيعي فليس في مقدور الشاه أن يتحمل رجلا فخورا كالافغاني ، كما ليس في مقدور الافغاني أن يتحمل ملكاً مستبدا كالشاه ناصر الدين • وسرعان ما استفحلت الكراهية بينهما وأخذ الافغاني على عادته يطلق لسانه في الشاه ويتحدث عن مثالبه واسرافه •

يدعي الافغاني ان السبب الذي أدى الى نشوء النفور بينه وبين الشاه هو أنه كان يدعو الى اقامة الدستور في ايران وقد استنكر الشاه منه ذلك وقال له : « أيصح أن أكون يا حضرة السيد وأنا ملك الملوك كاحد أفراد الفلاحين ؟! » • [٦٢] ويبدو لي ان هذا الخلاف في الرأي بين الرجلين كان نتيجة للنفور بينهما وليس سبباً له ، فقد رأينا الافغاني حين عاش في كنف السلطان عبدالحميد بعد ذلك لم يدع الى اقامة الدستور في تركيا بل أيد السلطان على استبداده ومدحه كثيراً • وهذا يدل على أن الافغاني انما دعا الى اقامة الدستور في ايران تحدياً للشاه ونكاية به ، ولو أنه كان على علاقة حسنة معه لفعل كما فعل مع السلطان عبدالحميد •

ومهما يكن الحال فقد أخذ الافغاني يجهر بنقد الشاه ويثير الشعب عليه ، وقابله أعوان الشاه بالمثل فصاروا يبثون حوله الاشاعات القبيحة ، فتارة يتهمونه بانه « بابي » وتارة أخرى يتهمونه بانه « غير مختون » • فكان الافغاني اينما سار سمع من أفواه بعض العامة لعنات غير مباشرة توجه اليه كقولهم « الا لعنة الله على البابية وأعداء الشاه ! » • [٦٣]

---

(٦٢) محمد المخزومي (المصدر السابق) ـ ص ٣١ ـ ٣٢ •
(٦٣) لطف الله خان (المصدر السابق) ـ ص ٨٩ ـ ٩٠ •

أدرك الافغاني أخيرا ان بقاءه في طهران لا يدعو الى الطمأنينة ، فذهب الى بلدة « الشاه عبدالعظيم » التي تقع على بعد بضعة أميال من جنــــوب طهران ، والتجأ الى المرقد المقدس فيها ، وهناك أعلن عداءه الصريح للشاه وحكومته ، وأخذ يخطب في أهل البلدة والزوار الذين يفدون الى المرقـد ذاكراً لهم المظالم التي تحل بهم ومظاهر التفسخ المحيطة بهم ، ويحرضهم على الثورة • وصار الكثير من الناقمين على الحكومة يأتون اليه ملتجئين معـــه الى المرقد المقدس ؛ فكان ذلك بمثابة تجمع ثوري خطر ضد الشاه • وظـل الافغاني على تلك الحالة زهاء سبعة أشهر •

نفد صبر الشاه فأوعز الى الصدر الاعظم بأن يتخلص من الافغـاني بأية صورة • وفي أوائل ١٨٩١ جاء الى بلدة « الشاه عبدالعظيـم » جلواز معروف بالغلظة اسمه « أغا بالاخان سردار » ، واستعان هـذا بستة رجال من أهل البلدة : فأمسكوا بالافغاني وأخذوه قهراً ، وقيل ان عمامته سقطت من على رأسه أثناء الامساك به ومزقت ثيابه الداخلية • ولم يهب لنجدتـه سوى رجل واحد هو المرزا محمد رضا الكرماني فقد أخذ يصرخ وينـادي « واشريعتاه ! » لكي يثير الناس فلم ينفعه ذلك شيئاً • (٦٤)

سيق الافغاني عن طريق قم وكرمانشاه الى الحدود العراقية ، وكـــان الفصل شتاءاً قارس البرد فلقي الافغاني في سفره عنتاً شـــديداً واعتل بدنه اذ كانت الدواب وسيلة السفر ، وقد تسلمته الشرطة العراقية عنـد الحـدود فجاءت به الى بغـــداد •

حياته في العراق :

نزل الافغاني عند وصوله الى بغداد في خان عبدالصمد الاصفهـــاني الواقع قرب سوق الصفارين ، والمظنون أنه في موضع بناية المصرف المركزي الحالية • وقد مكث الافغاني في بغداد ثلاثة أشهر تقريباً قابل فيها والي بغداد سري باشا والنقيب السيد سلمان الكيلاني وغيرهما • روي لي أحد المسنين من البغادة ان الوالي عند التقائه بالافغاني سأله : هل أنت سني أم شيعي ؟ فأدار الافغاني وجهه تغاضياً عن الجواب •

---

(٦٤) المصدر السابق ــ ص ٩٢ ــ ٩٣ •

ومن الطريف أن نذكر أن الافغاني أثناء مكوثه في بغداد نسخ بخط يده رسالة صغيرة في الكيمياء القديمة ، ولا تزال هذه الرسالة محفوظة في المتحف الخاص به في طهران ، وقد كتب الافغاني في آخرها هذه العبارة : « كتبته بيدي في دار السلام البغداد وأنا الغريب في البلدان الطريد عن الاوطان جمال الدين الحسيني الاستنبولي » ، ثم أعاد الافغاني النظر في العبارة فشطب بالقلم الاحمر فوق كلمتي «البغداد» و«الاستنبولي»، وكتب فوق الكلمة الاولى « الشريف » ؛ وفوق الثانية « الكابلي » . (٦٥) ولا نعلم السبب الذي دفعه الى ذلك .

كانت الحكومة الايرانية قد طلبت من الوالي سري باشا أن يمنع الافغاني من الذهاب الى العتبات المقدسة لكي لا يتصل بعلماء الشيعة فيثيرهم على الشاه . ويزعم الدكتور مهدي البصير أن الوالي ضيق على الافغاني وراقبه مراقبة شديدة بناءاً على الاوامر التى تلقاها من السلطان عبدالحميد . (٦٦) هذا ولكن القرائن تشير الى خلاف ذلك ، فقد تواترت الروايات على أن الافغاني زار الكاظمية والنجف متنكرا ، والمظنون ان الوالي سمح له بذلك بشرط أن يتكتم في جولاته فلا يعرف الجمهور عنها شيئاً .

زار الافغاني الكاظمية ومكث فيها أياماً في دار الملا أحمد اليزدي واتصل به في تلك الدار جماعة كان منهم الحاج علي أوف التبريزي ، والحاج علي مطلب ، والحاج علي اكبر الاهرابي ، فكانوا يجتمعون به سراً في سرداب تحت الارض . (٦٧) والشائع ان الشاعر عبدالمحسن الكاظمي كان من الذين اتصلوا بالافغاني وتأثروا بأفكاره اذ كانت داره ملاصقة للدار التي نزل الافغاني فيها فى الكاظمية .

وحدثني ثقة من أهل النجف أن الافغاني حين زار النجف متنكرا اجتمع بالسيد محمد سعيد الحبوبي الذي كان زميله في الدراسة سابقاً ، وكان

---

(٦٥) اصغر مهدوي وايرج افشار (المصدر السابق) — ص ١٥ .

(٦٦) عبد المحسن القصاب (ذكرى الافغاني في العراق) — بغداد ١٩٤٥ — ص ٨٥ .

(٦٧) حسين علي محفوظ (عراقيات الكاظمي) — بغداد ١٩٦٠ — ص ٧٦ .

اجتماعهما فى الصحن الشريف في الغرفة التي تقع فوق باب القبلة ، وقد طال اجتماعهما منذ صلاة العشاء حتى مطلع الفجر .

وقيل أيضا أن الافغاني زار سامراء وقابل المرزا محمد حسن الشيرازي واختلى به برهة من الوقت . ولا ندري مبلغ هذا القول من الصحة .

ذهابه الى البصرة :

غادر الافغاني بغداد الى البصرة فاحتفى به والي البصرة هدايت باشا كل الاحتفاء وبالغ في تكريمه . وبعد مرور أيام معدودة على وصوله البصرة وردت الى هدايت باشا من اسطنبول برقية سرية تطلب منه أن يتحقق عن نشأة الافغاني وأصله وهل هو ايراني كما يزعم الشاه . والظاهر أن الشاه كان قد كتب بذلك الى السلطان عبدالحميد ليحرضه على الافغاني ويستعديه عليه .

اهتم هدايت باشا بالامر فكلف قاضي البصرة الشيخ عبدالحميد الرافعي بأن يقوم بمهمة التحقيق فيه من غير أن يشعر الافغاني به ، وذهب القاضي الى الافغاني يسائله ويحاوره لعله يستشف من كلامه ما يدل على أصله ، وأدرك الافغاني القصد الخفي من محاورة القاضي له فأخذ يؤكد له أنه أفغاني في أصله وفرعه وليس له أية علاقة بايران ، وأن الشاه انما يشيع ذلك بغية التنكيل به . وقد صدق القاضي بقول الافغاني ، كما صدق الوالي به وأبرق بذلك الى اسطنبول . (٦٨)

يجب أن لا ننسى ان ايران كانت في ذلك الحين في عنفوان ثورتها ضد اتفاقية التنباك . وبينما كان الافغاني في البصرة وصل اليها من شيراز مجتهد ايراني كان من زعماء تلك الثورة اسمه السيد علي اكبر الشيرازي ، فالتقى الافغاني به ، وتعاون الرجلان على كتابة رسالة بليغة موجهة الى المرزا محمد حسن الشيرازي في سامراء يشجبان فيها سياسة الشاه ويذكران مظالمه الكثيرة على الشعب الايراني . (٦٩)

---

(٦٨) عبد القادر المغربي (المصدر السابق) ــ ص ٨٥ ــ ٨٦ .

(٦٩) صادق نشات وعبد النعيم حسنين (المصدر السابق) ــ ص ٩٣ .

كانت الرسالة طويلة جدا وتحتوي على عبارات مهيجة واستصراخ عاطفي ، وقد ذيلها الافغاني بتوقيعه « الحسيني » ، [٧٠] ثم سافر السيد علي أكبر بنفسه الى سامراء لايصالها الى المرزا ، وقد استقبله المرزا بكل تعظيم وتسلم الرسالة منه .

شاع أمر الرسالة في العراق فأخذ الناس يستنسخونها ويتداولونها فيما بينهم في كثير من المدن العراقية ولا سيما في العتبات المقدسة . وكان لها تأثير كبير في النجف ، [٧١] كما وصل تأثيرها الى جبل عامل . يقول الشيخ سليمان الظاهر وهو من علماء جبل عامل : ان نسخة من الرسالة وصلت اليه اذ كان قد أرسلها اليه أحد الاصدقاء من النجف مع وصف للاضطراب العجيب الذي ساد ايران في ذلك الحين . [٧٢]

اعتقد اكثر الذين كتبوا في سيرة الافغاني أن رسالته تلك الى المرزا الشيرازي هي السبب في اصدار المرزا لفتواه المشهورة في تحريم «التنباك» . وهذا رأي لا يخلو من مبالغة ، فالواقع ان المرزا الشيرازي كان قد وصلت اليه علاوة على رسالة الافغاني رسائل كثيرة من مختلف أنحاء ايران وهي كلها تضج بالشكوى من اتفاقية « التنباك » على نحو ما ذكرناه في الفصل الثالث من هذا الجزء . يقول السيد محسن الامين في هذا الصدد ما نصه : « ولكن الحقيقة أن الميرزا الشيرازي أفتى بتحريم تدخين التنباك حينما بلغه اعطاء الامتياز الى الدولة البريطانية قبل أن يرسل له السيد جمال الدين هذا الكتاب ، ولم يكن افتاؤه بتأثير كتاب جمال الدين ، ولو لم يكن له مؤثر ديني من نفسه عظيم لم يؤثر فيه كتاب جمال الدين ، ولكن الناس اعتادوا اذا مالوا الى شخص أن يسندوا كل وقائع العالم اليه . » [٧٣]

ذهابه الى لندن :

طلب الافغاني من اسطنبول اذنا بالسفر الى لندن ، فورد الاذن له

---

(٧٠) انظر نص الرسالة في كتاب « تاريخ الشيخ محمد عبده » للسيد محمد رشيد رضا — المطبوع في القاهرة عام ١٩٣١ — ج١ ص ٥٦ — ٦٢ .

(٧١) محسن الامين (المصدر السابق) — ص ٢٥ .

(٧٢) ف . و . فرنو (يقظة العالم الاسلامي) — ترجمة بهيج شعبان — بيروت — ج٢ ص ٢٠٢ .

(٧٣) محسن الامين (المصدر السابق) — ص ٣٢ .

بذلك . وعندما كان الافغاني يهم بالسفر شعر هدايت باشا بأنه لا يملك من المال ما يكفيه لنفقات سفره ، فتبرع له بمبلغ خمسين ليرة ، كما تبرع له نقيب الاشراف بمائة وخمسين ليرة ، وكذلك تبرع بعض أعيان البصرة بمبالغ اخرى ، حتى بلغ مجموع التبرعات خمسمائة ليرة . (٧٤)

وصل الافغاني الى لندن في خريف ١٨٩١ ، ولم يكد يستقر به المقام فيها حتى شرع يعمل للتشهير بالشاه والطعن فيه . وقد التقى الافغاني في لندن برجل ايراني تربطه واياه روابط الماسونية هو المرزا ملكم خان ، وكان هذا الرجل كالافغاني شديد الحنق على الشاه وقد أصدر جريدة باللغة الفارسية اسمها « القانون » لمهاجمة الشاه ، فتعاون الافغاني معه في تحرير الجريدة وأخذا يملآن صفحاتها بالطعن بالشاه وذكر مثالبه وتحريض الشعب الايراني عليه .

يقول السر برسي سايكس : ان جريدة « القانون » كان لها في ايران تأثير عظيم ، فقد كان ملكم خان ذا اسلوب في الفارسية ممتاز فاثار الايرانيين به الى درجة لم يسبقه اليها أي كاتب آخر ، وصارت الجريدة تهرب الى ايران خفية في بالات البضائع المستوردة ، وقد وضعت الحكومة عقوبات شديدة على كل من توجد لديه نسخة من الجريدة . (٧٥)

وكانت جريدة « القانون » ترسل الى العراق أيضا ، وكان لها قراؤها والمتأثرون بها فيه . فقد كان في العراق كثيرون يعرفون الفارسية خاصة بين طلبة الدين وعلمائه في العتبات المقدسة . ومن الممكن القول ان هذه الجريدة مهدت الجو لحركة « المشروطية » التي حدثت فيما بعد .

وكانت تصدر في لندن علاوة على جريدة « القانون » جريدة أخرى تهاجم الشاه هي جريدة « ضياء الخافقين » ، وكانت تقوم بنشرها شركة بريطانية باللغتين العربية والانكليزية ، فصار الافغاني يكتب فيها بتوقيع « السيد » . وقد كتب فيها ذات يوم مقالا عنيفا استهله بأسماء

---

(٧٤) عبد القادر المغربي (المصدر السابق) — ص ٨٧ .

(75) Percy Sykes (A History Of Persia) — London 1958 — Vol 2 P 398 — 399

كبار المجتهدين في العراق وايران ، فأخذ يدعوهم الى خلع الشاه ، ووصفه بأنه « يستلب حقوق العلماء تدريجيا ويخفض شأنهم ويقلل نفوذ كلمتهم ... حتى خلا له الجو فقهر العباد ، وأباد البلاد ، وتقلب في أطوار الفظائع ، وتجاهر بأنواع الشنائع ، وصرف في أهوائه الدنية، وملاذه البهيمية، ما مصه من دماء الفقراء والمساكين عصرا ، وما نزح من دموع الارامل والايتام قهراً ... » (٧٦)

جاء السفير الايراني الى الافغاني يستعطفه ويقسم عليه « بجده المصطفى » أن يكف عن مهاجمة الشاه ، وعرض عليه أن يطلب ما يشاء مقابل السكوت ، فكان جواب الافغاني عليه : « لا أتمنى الا أن تزهق روح الشاه ويشق بطنه ويوضع في القبور » . (٧٧)

ان الدكتور أحمد أمين يلوم الافغاني على هذا السلوك العنيف الذي سلكه تجاه الشاه ، فهو يقول في ذلك ما نصه : « هذه زلة كبيرة من السيد جمال الدين ، دعاه اليها حدته وحبه للانتقام ، اذ كيف أجاز لنفسه التشهير بحكومة شرقية اسلامية في بلاد أجنبية تتخذ من أقواله حجة للتدخل الذي طالما حاربه في (العروة الوثقى) ، وكيف استباح أن يفضح هذه العيوب، ويغسل هذه الاثواب القذرة على مشهد من كل الناس ؟ لقد كان مدحت باشا في موقف كهذا أنبل من السيد وأكرم ، اذ نفاه (عبدالحميد) ، وأخذه رجاله من دست الوزارة الى السفينة ، لا مال ولا ثياب ولا أهل ، ومع هذا فما وضع قدمه في أوربة حتى أخذ يسعى في دفع الشر عن أمته ، ويتكلم الكلام الكثير في فضل الاتراك على أوربة ، ولا ينطق بكلمة في ذم عبدالحميد الذي عامله معاملة الشاه لجمال الدين . الحق أنها غلطة من غلطات (السيد) دعا اليها حدة مزاجه . » (٧٨)

دعوة السلطان له :

في أواخر عام ١٨٩٢ وصل الى رستم باشا السفير العثماني في لندن

---

(٧٦) محمد رشيد رضا (المصدر السابق) ـ ج١ ص ٦٣ ـ ٦٨ .
(٧٧) عبد القادر المغربي (المصدر السابق) ـ ص ٤٧ .
(٧٨) احمد امين (المصدر السابق) ـ ص ٩٨ ـ ٩٩ .

أمر من السلطان عبدالحميد يأمره بدعوة الافغاني الى اسطنبول ، وقد عرض رستم باشا الدعوة على الافغاني وألح عليه في تلبيتها ، غير أن الافغاني اعتذر عن قبولها قائلا بأنه في شاغل وقتي لاصلاح بلاده . [79] وبعد أيام وصل كتاب من اسطنبول الى رستم باشا يتضمن هذه العبارة : « لا يقبل جلالته لكم عذرا اذا ما أقنعتم جمال الدين بالمجيء الى الاستانة ، ليقابله ثم يعود اذا شاء ، منتظرين اشعاركم برقياً » . فاضطر الافغاني تجاه هذا الالحاح أن يجيب دعوة السلطان ، ورحل الى اسطنبول .

اختلفت أقوال المؤرخين في تعليل هذا الاصرار الذي أبداه السلطان عبدالحميد في دعوة الافغاني . وفيما يلي ننقل باختصار أهم تلك الاقوال :

اولا : ان الشاه ناصر الدين لما أعيته الحيل في استرضاء الافغاني واسكاته كتب الى السلطان عبدالحميد يرجوه استدعاء الافغاني اليه ليجعله تحت مراقبته دفعاً لشره . [80]

ثانيا : ان السلطان عبدالحميد كان يريد ارسال الافغاني الى أوربا في أمر سياسي ثم عدل عن ذلك . [81]

ثالثا : ان السلطان عبدالحميد أراد باستضافته للافغاني أن يظهر أمام الناس أنه يرعى العلم والعلماء من كافة الاقطار الاسلامية ، وذلك من أجل تدعيم فكرة الجامعة الاسلامية التي كان السلطان يسعى اليها . [82]

رابعا : ان السلطان كان يخشى أن ينضم الافغاني الى جمعية « تركيا الفتاة » المعارضة له فيكون قوة كبرى الى قوتهم ، خصوصا وقد كان الافغاني اجتمع في باريس ببعض رجال هذه الجمعية وأطلعوه على خطتهم في اصلاح الدولة العثمانية فراقه مذهبهم وشجعهم على عملهم وسمى جمعيتهم « الجمعية الصالحة » ،وقد بلغ السلطان ذلك عنه فاستدعاه اليه لكي يمنعه من الانضمام اليهم . [83]

---

(٧٩) محمد المخزومي (المصدر السابق) ــ ص ٣٢ .
(٨٠) قدوري قلعجي (المصدر السابق) ــ ص ٨٧ .
(٨١) عبد المنعم شميس (المصدر السابق) ــ ص ٤١ .
(٨٢) عبد الرحمن الرافعي (المصدر السابق) ــ ص ١٣٧ .
(٨٣) أحمد أمين (المصدر السابق) ــ ص ٩٩ .

ان هذه الاسباب التي ذكرها المؤرخون قد تكون كلها أو بعضها ذات اثر في دفع السلطان الى دعوة الافغاني ، ولكني أظن مع ذلك أن هناك سبباً آخر أولى بالذكر من هذه الاسباب ولكن المؤرخين غفلوا عنه ، وهو أن السلطان أراد من دعوة الافغاني اليه أن يجعله وسيطاً بينه وبين علماء الشيعة في العراق وايران بغية اجتذابهم الى الجامعة الاسلامية .

مما يجدر ذكره في هذا الصدد ان العلاقة بين الشيعة والسنيين لم تكن حينذاك على ما يرام من جراء هجرة المرزا الشيرازي الى سامراء على نحو ما بسطناه في الفصل الثالث ، ويخيل لي أن السلطان عبدالحميد كان يبحث عن رجل من الشيعة يستطيع أن يرتق الفتق الذي حدث بين الطائفتين ويجتذب الشيعة الى الجامعة الاسلامية ، وكأنه وجد هذا الرجل أخيراً في شخص الافغاني فدعاه اليه .

وعلى أي حال فقد نال الافغاني عند وصوله الى اسطنبول تكريماً من السلطان عظيما ، فقد أنزله في « المسافرخانة » وهو القصر المخصص لضيوف السلطان والمجاور لحدائق قصر يلدز ، وأجرى له مرتباً شهريا قدره خمس وسبعون ليرة وهو مرتب ضخم لم يكن يناله في تلك الايام الا الأقلون ، ومنحه من « الاسطبل الهمايوني » عربة يجرها جوادان مع سائق ، كما عرض عليه أن يهديه احدى جواريه المشهورات بالجمال غير ان الافغاني رفض قبول هذه الهدية « اللذيذة » .

واتخذ الافغاني في « المسافرخانة » مجلساً خاصاً به ، وصار يرتاد هذا المجلس الكثير من الكبراء والمفكرين والشباب المتعلم ، فكان الافغاني يخلبهم بروعة أحاديثه على نحو ما كان يفعل في قهوة « متاتيا » بالقاهرة . وأخذ الافغاني ينتهز الفرص خلال أحاديثه ليبدي اعجابه بعظمة السلطان وعبقريته السياسية ، وكان من جملة أقواله في هذا الشأن : أن السلطان عبدالحميد لو وزن مع أربعة من نوابغ رجال العصر لرجحهم ذكاءً ودهاءً وسياسة ، وأن الممالك الاسلامية لا تسلم من شراك أوربا الا بالانضواء تحت راية الخليفة الاعظم . (٨٤)

---

(٨٤) محمد المخزومي (المصدر السابق) — ص ٣٤ — ٣٦ .

وكان السلطان من جانبه لا يرد أي طلب أو شفاعة للافغاني . يروي الشيخ عبدالقادر المغربي قصة تدل على مبلغ ما كان للافغاني من جرأة ودالة على السلطان خلاصتها : ان الافغاني طلب من السلطان زيادة مرتب صديق من اصدقائه ورفع رتبته ، فوعده السلطان خيرا ولكنه تباطأ في تحقيق وعده ، فذهب الافغاني لمقابلة السلطان وهو مغتاظ ، ووقف أمام السلطان وقد بدت عليه آثار الانفعال وقال بصوت متهدج : « أمير المؤمنين كسر قلبي . أمير المؤمنين كسرقلبي! » . فلاطفه السلطان وهدأ خاطره، وأمربتنفيذ ماطلب منه . ولما خرج الافغاني من المقابلة ناوله الحاجب كيساً فيه خمسمائة ليرة عثمانية ذهباً[٨٥] .

وحدث ذات يوم في عام ١٨٩٣ أن أقيم في قصر يلدز احتفال فخم حضره السلطان ، وجاء الافغاني يريد الدخول فمنعه أحد الحجاب ، غير أن الافغاني أصر على الدخول محتجاً بكونه من السادة والعلماء وهذا يجعله مساوياً في المنزلة لأي واحد من المدعوين ، وحين علم السلطان بالامر استدعاه اليه وجعله يقف قريباً منه وراء الكرسي الهمايوني ، حتى صار الافغاني عندئذ أقرب الى السلطان من رئيس الخصيان[٨٦] .

ومما يذكر أن الافغاني ظل فترة طويلة بعد وصوله الى اسطنبول مستمراً على ثلب الشاه والتشنيع عليه ، فاستدعاه السلطان اليه وقال له : ان سفير ايران طلب مقابلتي مرتين فلم أسمح له بالمقابلة ، ثم أذنت له في المرة الثالثة ، وطلب مني أن آمرك بالكف عن الشاه وترك التعرض له ، وها أنا ذا أطلب منك تركه والاعراض عنه . فأجابه الافغاني : « انني امتثالاً لأمر مولانا خليفة العصر عفوت الشاه ، عفوت الشاه » . فقال السلطان حينئذ : « يحق لشاه ايران أن يخاف منك خوفاً عظيماً »[٨٧] .

جهوده في التقريب :

اخذ الافغاني منذ حلوله في اسطنبول يعمل على التقريب بين الشيعة

---

(٨٥) عبد القادر المغربي (المصدر السابق) — ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

(86) Edward Browne (op.. cit .) — P 403 .

(٨٧) عبد القادر المغربي (المصدر السابق) — ص ٨٢ .

والسنيين وعلى اجتذاب الشيعة الى الجامعة الاسلامية ، وقد استعان في ذلك بثلاثة ايرانيين كانوا يسكنون اسطنبول آنذاك هـم : المرزا حسن خـان الملقب بـ « خبير الملك » ، والشيخ أحمد روحي الكرماني ، والمرزا عبدالحسين الكرماني . وكان أحد هؤلاء الثلاثة ، وهو الشيخ أحمد روحي ، من أشد الناس حماساً للجامعة الاسلامية بحيث نقش على فص خاتمه هذه العبارة : « داعي اتحاد اسلامم ، أحمد روحي آمده نامم » ، ومعناها : أنا الداعية الى الاتحاد الاسلامي ، أحمد روحي اسمي .[88]

كان الافغاني يجتمع بهؤلاء الثلاثة في قصر السلطان حيث أعدت لهـم قاعة خاصة ، فكانوا يجتمعون فيها والسلطان يراقبهم من وراء سـتار[89]، فيكتبون الرسائل الى علماء الشيعة في العراق وايران يدعونهم فيها الى نبذ الخلاف مع السنيين في قضية الخلافة ، والى الالتفاف حول السلطان عبـد الحميد من أجل تقوية الأمة الاسلامية تجاه الكفار الذين يريدون ابتلاعها .

وصلت رسائل الافغاني الى علماء الشيعة ، والظاهر أنه عرف كيف يخاطبهم ويؤثر في عقولهم لأنه كان واحداً منهم في سالف الايام ، فهو يقول لهم ان الامام علياً صلى وراء عمر ونصحه وعاونه وزوجه بنته ، وهو انما فعل كل ذلك حرصاً على مصلحة الاسلام وتوحيداً لشمله تجاه الكفار ، وهم يجب أن يقتدوا بامامهم فيلتفوا حول السلطان عبدالحميد ويساندوه . ثم ذكر الافغاني لهم كيف أن الامام زين العابدين كان يدعو لنصرة أهل الثغور ومعنى هذا ان الامام كان يدعو الله أن ينصر الجيوش الاموية الموجودة فـي ثغور البلاد الاسلامية لحمايتها من غزو الكفار ، وقد أصبحت الدولة العثمانية اليوم هي حامية الثغور الاسلامية ولهذا يجب عليهم مساعدتها والدعاء لها بالنصر .

تشير بعض القرائن الى أن رسائل الافغاني انتجت ثمرتها في أوسـاط الشيعة . ذكرت جريدة التايمس اللندية في ٣ آب ١٩٠٣ ان فريقاً من علماء الدين البارزين في ايران أخذوا يدعـون الى الاعتراف بخلافـة السـلطان

---

(88) Edward Browne (op . cit .) — P 415

(٨٩) آلما وتلن (عبدالحميد ظل الله على الارض) — ترجمة راسم رشـدي — القاهرة ١٩٥٠ — ص ١٧٥ .

العثماني ، ويفسر براون هذه الدعوة بأنها ربما كانت من نتيجة المساعي التي قام بها الافغاني في التوفيق بين الشيعة وأهل السنة(٩٠) . ويغلب على الظن أن دعوة الافغاني كان لها بعض الاثر في حركة الجهاد التي قام بها علماء الشيعة في العراق خلال الحرب العالمية الاولى ، فالملاحظ ان العلماء عند اعلانهم الجهاد أخذوا ينادون بمبدأ زين العابدين في نصرة أهل الثغور .

وقعت نسخة من تلك الرسائل التي كان الافغاني يرسلها الى علماء الشيعة في يد القنصل الايراني ببغداد ، وأسرع القنصل فأرسلها الى الشاه ناصر الدين مردفاً اياها بكتاب من عنده يقول فيه : ان الافغاني اتفق مع نفر من الرعايا الايرانيين على تسليم ايران الى السلطان العثماني تحت ستار الوحدة الاسلامية وقد جذب الى صفه أغلب العلماء (٩١) . وعندما وصل كتاب القنصل الى الشاه اشتد غضبه وأرسل الى سفيره في اسطنبول يأمره بأن يتخذ كل وسيلة ممكنة لالقاء القبض على الايرانيين الثلاثة الذين تعاونوا مع الافغاني في كتابة الرسائل وتسفيرهم الى ايران .

وأخذ السفير يسعى بكل جهده نحو تسفير اولئك الثلاثة ، واستطاع أخيراً أن يقنع مدير الشرطة محمود باشا ، ويغريه بالوعود والهدايا ، لكي يلقي القبض عليهم بحجة أن لهم ضلعاً في حوادث الارمن الاخيرة . فقام محمود باشا بما أراد منه السفير الايراني ، وأبعد الثلاثة الى طرابزون بغية نقلهم من هنالك الى ايران . وحين علم الافغاني بالامر أسرع الى مقابلة السلطان وقال له : « ان هؤلاء الاشخاص لم يرتكبوا اثماً سوى مشاركتهم اياي في آرائي بشأن الاتحاد الاسلامي . » فأبدى السلطان أسفه ، وأمر بالابراق الى طرابزون لكي يبقى الثلاثة فيها فلا ينقلون الى ايران ، ثم أوعز السلطان الى منيف باشا الذي كان على وشك السفر الى طهران بأن يتشفع لهم عند الشاه .

لم ينجح السلطان في مسعاه لانقاذهم ، فقد حدث حينذاك اغتيال الشاه على يد رجل من أنصار الافغاني ، واضطرت الحكومة العثمانية الى

---

(90) Edward Browne (op . cit .) — P 107 .

(٩١) صادق نشأت وعبد النعيم حسنين (المصدر السابق) — ص ١٠٤ .

تسليمهم الى ايران ، فجرى اعدامهم في تبريز في ١٧ تموز من عام ١٨٩٦ ، ثم سلخت جماجمهم وحشيت تبناً وأرسلت الى طهران(٩٢) .

أثر اغتيال الشــاه :

جرى اغتيال الشاه في الوقت الذي كان يتأهب فيه للاحتفال بالعيــد الخمسيني لحكمه حسب التقويم القمري . ففي ١ أيار ١٨٩٦ بينما كان الشاه يزور مرقــد « الشاه عبدالعظيم » أطلق عليه الرصــاص المرزا محمد رضا الكرماني وهو يصرخ قائلاً : «خذها من يد جمال الدين» ، فقتله ، وقــد ذكرت الصحف البريطانية في حينه أن القاتل كان بابياً غير أن التحقيق الذي قامت به الحكومة الايرانية مع القاتل دل على أنه من أنصار الافغاني وأنــه كان قد اجتمع بالافغاني في اسطنبول وحرضه هــذا على اغتيال الشــاه . واعترف القاتل في التحقيق أن السلطان عبد الحميد كان قد أوعز الى الافغاني بذلك وقال له : « لاتخش شيئاً »(٩٣) .

طلبت الحكومة الايرانية مــن الحكومة العثمانية تســليم الافغــاني اليها ، فرفضت الحكومة العثمانية تسليمه بحجة أنه أفغاني وليس ايرانياً . والظاهر ان الافغاني خشي أن تسلمه الحكومة العثمانية فى نهاية الامــر على نحو ما فعلت بأصحابه الثلاثة ، فذهب الى السفارة البريطانية طالبــا حمايتها ، فقد كانت السفارة البريطانية هي المسؤولة عن الرعايا الافغانيين لعدم وجود سفارة أفغانية في اسطنبول يومذاك . ولما سمع السلطان بأمــر التجائه الى السفارة البريطانية أرسل اليه أحــد حجابه يستعطفه باســم الاسلام ان لا يهين كرامة الخليفة بهذا العمل ، فاستجاب الافغاني لرجــاء السلطان وعدل عن السفر بعد أن كان قد أعد حقائبه . (٩٤)

وظلت الحكومة الايرانية تواصل الحاحها على الحكومة العثمانيــة بتسليم الافغاني اليها ، وأرسلت اليها أخيراً وثيقة موقعة من أهالي أسدآباد يشهدون فيها بان الافغاني هو من أبناء بلدتهم ، وكــان قصــد الحكومــة

---

(92) Edward Browne (op . cit .) — P 415 .

(93) Ibid , P 83 — 92 .

(٩٤) محمود ابورية (المصدر السابق) — ص ١٠٠

الايرانية من هذه الوثيقة أن تثبت بها أن الافغاني من رعاياها ويحق لها أن تطالب بتسليمه اليها . ولكن الحكومة العثمانية لم تكترث بتلك الوثيقة وأصرت على موقفها السابق في عدم تسليم الافغاني الى ايران . (٩٥)

نهاية الافغاني :

ان السلطان عبدالحميد بالرغم من امتناعه عن تسليم الافغاني الى ايران لم يعد يحمل للافغاني ذلك الود الذي كان يحمله له سابقاً . ومن الممكن القول ان العلاقة بينهما أخذت تسوء بمرور الايام .

وقد انتهز أبو الهدى الصيادى الفرصة ، وكان شديد البغض للافغاني، فصار يكيد له عند السلطان ويشنع عليه مما زاد في هبوط مكانة الافغاني في عين السلطان .

وحين علم الناس بفتور العلاقة بين الافغاني والسلطان أخذوا يقللون من ارتيادهم لمجلس الافغاني في قصر الضيافة . يروي بلنت نقلاً عن الشيخ محمد عبده : « ان هبوط مكانة الافغاني عند السلطان جعل أصدقاءه القدامى يتجنبونه ، كما أن زملاءه من نزلاء قصر الضيافة هجروه تدريجاً ، ولما مات الافغاني أخيراً لم يكن عنده سوى خادم واحد مخلص ، وكان هذا الخادم نصرانياً » . (٩٦)

كان موت الافغاني من جراء داء في فكه قيل انه السرطان . وكان الافغاني في بداية الامر يشكو من ألم في أسنانه فأشار عليه الطبيب بقلعها، ولما قلعت أسنانه زاد الالم عليه وحصل التهاب في اللثة . وحين علم السلطان بالامر أرسل الى الافغاني جراحه الخاص اسكندر باشا قنبور زاده ، فأجرى هذا له ثلاث عمليات متتابعة استأصل بها فكه الاسفل وجزءا من لسانه . ويبدو أن هذه العمليات لم تنجح في استئصال السرطان كله ، فظل الافغاني يعاني من الالم الشديد بضعة أشهر حتى لفظ أنفاسه الاخيرة في ٩ آذار ١٨٩٧ .

---

(٩٥) صادق نشأت وعبد النعيم حسنين (المصدر السابق) ــ ص ١١٧ ــ ١١٨ .

(96) Edward Browne (op . cit .) — P 404

لم يكن مع الافغاني في ساعة موته ـ كما أشرنا اليه آنفاً ـ سوى خادم نصراني ، وكان هذا من أقباط مصر اسمه جرجي أفندي كوتجي ، وقد أبدى من الاخلاص للافغاني أمراً عجيباً حيث ظل ملازماً له في محنته لا يفارقه الا في ساعات النوم ، وقيل أنه لم يكن خادماً بل كان صديقاً وقد أنفق على الافغاني من ماله الخاص مائتي ليرة . (٩٧) وهنا لا بد لنا من أن نتساءل عن سر هذا الاخلاص العجيب ! .

عندما تيقن جرجي أفندي من موت الافغاني أرسل الى بعض اصدقائه يخبرهم بموته فلم يحضر منهم سوى اثنين . وجاء رجال الشرطة فاستحوذوا على أوراق الافغاني ومخلفاته ، ثم جيء بأربعة حمالين فحملوا الجنازة وساروا بها الى مقبرة تدعى « شيخلر مزارلغي » أي مقبرة المشايخ ، فدفنوه فيها .

لم يكد خبر وفاة الافغاني ينتشر بين الناس حتى بدأت الاقاويل والاشاعات المختلفة تظهر هنا وهناك حول سبب موته ، وأتخذ خصوم السلطان ذلك وسيلة يشنعون بها عليه ويتهمونه بأن هو الذي أوعز بقتل الافغاني . ومن هنا بدأ اسم الافغاني يدخل في عداد الابطال الشهداء ، وصار الرواة يحوكون حوله الاساطير كما هي عادتهم تجاه كل «بطل شهيد» .

نقل رفاة الافغاني :

ظل قبر الافغاني في اسطنبول مهملا لا يهتم به أحد حتى عام ١٩٢٦ ، ففي ذلك العام جاء الى اسطنبول الامريكي المعروف شارلس كراين ، فشيد على قبر الافغاني تركيبة جميلة من الرخام ، وأحاطها بسور من حديد ، وكتب على أحد وجوهها عبارة تركية هذه ترجمتها : « أنشأ هذا المزار الصديق الحميم للمسلمين في أنحاء العالم ، الخير الامريكاني المستر شارلس كراين سنة ١٩٢٦ . »

وفي عام ١٩٤٤ سعت الحكومة الافغانية لنقل رفاة الافغاني من اسطنبول الى كابل ، وقد تم نقل الرفاة عبر العراق . ففي ١٠ كانون الاول

(٩٧) محمد رشيد رضا (المصدر السابق) ـ ج١ ص ٩١ ـ ٩٢

١٩٤٤ وصل النعش الذي يضم الرفاة الى بغداد من الموصل ، فاستقبل النعش في محطة القطار استقبالا مهيبا ، ثم سير به الى جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني حيث أودع فيه . واجتمع مجلس أمانة العاصمة في تلك المناسبة فقرر تسمية أحد شوارع بغداد باسم الافغاني ، وهو الشارع العريض الذي يمتد من ساحة عنتر في الأعظمية حتى السدة الشرقية الحديثة .

وفي صباح ١٥ كانون الاول جرى في جامع الشيخ عبدالقادر احتفال لتوديع الرفاة خطب فيه طه الراوي وخالد الهاشمي وجلال الحنفي وأحمد زكي الخياط ، وألقى الشاعر محمد مهدي الجواهري قصيدة كان مطلعها :

هويت لنصرة الحق السهادا فلولا الموت لم تطق الرقادا

ثم نقل النعش الى المطار حيث حملته طائرة خاصة الى البصرة ، ومن هناك نقل بحرا الى الهند ، ثم أوصل الى كابل برا . وقد استقبل النعش في كابل استقبالا فخما شارك فيه الملك محمد ظاهر شاه ووزراؤه ، وكان الملك من بين الذين حملوا النعش على أكتافهم ، وتم أخيرا دفن الرفاة في ضريح فخم يتوسط جامعة كابل .

معالم شخصيته :

كان الافغاني ربع القامة أقرب الى القصر ، أسمر اللون مع شيء من الصفرة ، له لمة مسترسلة الى شحمة الاذنين ، مهيبا جذاب الملامح ، مصابا بقصر في نظره فاذا قرأ كتابا أدناه من عينيه ، وقد اتخذ النظارات أخيرا ليستعين بها في القراءة .

ومن مزاياه أنه كان حسن المعاشرة بشوشا كثير الاحتفاء بزائريه على اختلاف طبقاتهم ينهض لاستقبالهم ويخرج لوداعهم ولا يستنكف من زيارة أصغرهم . (٩٨) وكان يبدو دائما مشرق الوجه منبسط الاسارير تبرق عيناه عند الحديث وتنفرج شفتاه عن ابتسامة لطيفة عند سماعه النوادر من جلسائه . (٩٩) وكانت له نظرات قوية التأثير في مخاطبيه وقد

---

(٩٨) جرجي زيدان (المصدر السابق) — ج٢ ص ٨٢ .
(٩٩) عبد القادر المغربي (المصدر السابق) — ص ٤٨

ss

وصفه بعضهم بقوله : « لقد كان لعينيه بريق عجيب كأنه بريق النـــور الشديد في حلك الظلام » . [١٠٠] ولكنه قـد تعتريه أحياناً نزوات مـن الحدة تخرجه عن خط الاعتدال وتبعده عن المصلحة كما أشار اليه تلميذه الشيخ محمد عبده اذ قال : « كثيرا ما هدمت الحدة فيه ما رفعته الفطنة » .

وكان الافغاني يستعمل اللغة الفصحى في أحاديثه مع جلاسه ، واذا كان السامع عامياً تنازل الى مخاطبته باللغة العامية . [١٠١] وكانت عبارته بالرغم من فصاحتها لا تخلو من لكنة خفيفة تدل على أصلـه الاعجمي . وكان يحب الاطالة في الحديث ولكن حديثه غير مملول في الغالب .

وكان الافغاني يفرط في التدخين ، ويفضـل « السيكار » علـى السيكارة الاعتيادية ، وكان لشدة ولعه بالتدخين لا يعتمد على أحد فـي ابتياع « السيكار » له ، فكان يذهب بنفسه الى السوق حيث يختـار منه النوع الافرنجي الجيد ، وكان ينفق في ذلك جزءاً كبيراً من دخلـه . وكان يعتقد أن التدخين يفتح الذهن وأنه هو الذي ساعد الاوربيين علـى ابداع تلك المخترعات العظيمة . والمظنون ان افراط الافغاني في التدخين كان من أهم الاسباب في ظهور السرطان في فكه .

وقد اعتاد الافغاني أن يغير لقبه كلما انتقل من بلد الى آخر ، فقـد رأيناه في مصر وتركيا يلقب نفسه بـ « الافغاني » بينما هو في ايران يلقب نفسه بـ « الحسيني » . ويتضح من أوراقه المحفوظة أنه كان يتخـذ ألقاباً أخرى مثل «الاسطنبولي» و «الكابلي» و «الرومي» و «الطوسي» و «الاسعدآبادي» . والمظنون أنه كان يغير لقبه حسب تغير الظروف أثناء تنقلاته المختلفة ، فكان يتخذ اللقب الذي يظن أنه يقربه الى الناس فـي المحيط الذي يحل فيه .

وكان الافغاني يغير زيه ولباس رأسه مثلما كان يغير لقبه ، فهو فـي ايران يلبس العمامة السوداء التي هي شعار السادة من رجال الدين ، فاذا ذهب الى تركيا ومصر لبس العمامة البيضاء ــ فوق طربوش تارة وبغير

---

(١٠٠) محمود قاسم (المصدر السابق) ــ ص ٨٦ .

(١٠١) محمد المخزومي (المصدر السابق) ــ ص ٤١ .

طربوش تارة أخرى . وقد لبس الطربوش مجرداً في أوربا أحياناً ، (١٠٢)
أما في الحجاز فقد لبس العقال والكوفية . وقيل انه في بعض جولاته
لبس العمامة الخضراء . (١٠٣) ومن يدري فربما لبس القبعة أيضاً .

وكان الافغاني لا يتزمت في سلوكه على نحو ما يفعله أقرانه من أهل العمائم ، فهو عندما كان يسكن القاهرة ذهب مع أصحابه الى مشرب للبيرة في الازبكية ، وكان في المشرب ساقية أوربية حسناء ، فراهن أصحابه على أنه يستطيع أن يبكيها ويضحكها ثم أخذ يتحدث اليها حتى أبكاها وأضحكها كما راهنهم عليه . وعندما سكن في اسطنبول صار يتردد على متنزه « الكاغد خانة » فيذهب الى أكواخ الغجر الموجودة في ناحية منه حيث يخاطبهم ويتحدث اليهم ويقدم لهم « البخشيش » . (١٠٤) ويروي سليم العنحوري ان الافغاني كان يتعاطى القليل من السكونياك . (١٠٥) وحدثني رجل من أهل النجف أن الافغاني شوهد ذات مرة وهو يدخل المبغى العام في عشقباد عند زيارته لها .

والمعروف عن الافغاني أنه لم يتزوج ولم تكن له رغبة في النساء ، وقد سئل عن ذلك ذات مرة فأجاب بما مضمونه أنه لا يريد الزواج لكي لا يكون ذلك عبئاً عليه في أسفاره الكثيرة واشغاله المتنوعة . (١٠٦) ويخيل لي ان هذا تبرير مصطنع من الافغاني وأن له سبباً آخر يخفيه عن الناس ، وربما كان الافغاني ضعيف الشهوة للنساء أو كان عنيناً لا شهوة له على الاطلاق ، لانه لو كان ذا شهوة قوية لما منعه أي مانع من الاتصال بالنساء على صورة من الصور ، وقد رأينا معظم الرجال العظام في التاريخ يتزوجون ويتصلون بالنساء على الرغم من كثرة أشغالهم وأسفارهم .

توجد في مخلفات الافغاني رسائل تدل على أنه كان على اتصال

---

(102) Edward Browne (op . cit .) — P 401 .

(١٠٣) محمود قاسم (المصدر السابق) ــ ص ٩٠ .
(١٠٤) عبد القادر المغربي (المصدر السابق) ــ ص ٣٨ ــ ٤٠ .
(١٠٥) محمد رشيد رضا (المصدر السابق) ــ ج١ ص ٥٢ .
(١٠٦) عبد القادر المغربي (المصدر السابق) ــ ص ٦٤ .

بعض الحسناوات الاوربيات ، ولا سيما امرأة منهم اسمها « كاثي » ، وربما كان عاشقاً لها أو هي كانت عاشقة له . (١٠٧) ولا ندري — على فرض وجود هذا العشق بينهما — هل كان من قبيل الحب الافلاطوني أم كان أعمق من ذلك !؟ .

عقيدته ومذهبه الفكري :

كان الافغاني غير متزمت في عقيدته الدينية على نحو ما كان غير متزمت في سلوكه ، والملاحظ ان أصحابه ومريديه كانوا من أديان وطوائف شتى ، فكان فيهم المسيحي واليهودي والبهائي والازلي والسني و الشيعي والمجوسي والملحد . وتشير بعض القرائن الى أنه في عقيدته الدينية كان متأثراً برأي القطب الصوفي المشهور محي الدين بن عربي الذي كان يعتبر الاديان كلها على اختلاف عقائدها ديناً واحداً أساسه الحب وانما يختلف الناس في ادراك معبودهم تبعاً لتفاوت مداركهم وعقولهم .

وكان الافغاني على الرغم من أصله الشيعي لا يتعصب للتشيع تعصباً أعمى ، ففي الوقت الذي نراه فيه ينتقد أهل السنة على سدهم باب الاجتهاد . (١٠٨) نراه ينتقد الشيعة على عاداتهم في اقامة المآتم الحسينية حيث يضربون أنفسهم بالسلاسل ، (١٠٩) أو في تذهيب المراقد المقدسة والتذلل نحوها . (١١٠)

وكان الافغاني يعتقد ان اثارة قضية الخلافة بعد وفاة النبي أمر يضر المسلمين في الوقت الحاضر ولا ينفعهم ، وهو يتساءل في ذلك قائلا : لو أن أهل السنة وافقوا الشيعة الآن على أحقية علي بالخلافة فهل يستفيد الشيعة من ذلك شيئاً ؟!! أو أن الشيعة وافقوا أهل السنة على أحقية أبي بكر فهل ينتفع أهل السنة ؟!! ويهتف الافغاني بعد ذلك قائلا :

---

(١٠٧) اصغر مهدوي وايرج افشار (المصدر السابق) — تصوير ٢٤٢ .
(١٠٨) محمد المخزومي (المصدر السابق) — ص ١١١ .
(١٠٩) جمال الدين الافغاني (تتمة البيان في تاريخ الافغان) — القاهرة ١٩٠١ — ص ١٥٠ ، ١٦٦ .
(110) Edward Browne (op . cit .) — P 76 — 77 .

« أما آن للمسلمين أن ينتبهوا من هذه الغفلة ؟! ومن هـذا الموت قبل الموت ؟! ... » (١١١)

يقول الشيخ مصطفى عبدالرازق في وصف الافغاني : « والسيد جمال الدين ، من الشيعة كان أم من أهل السنة ، قد تسامى عن كل معاني التعصب لفرقة من فرق المسلمين ، بل هو تسامى عن كل معاني التعصب الضيق الذي يلقي بين الناس احناً وعداوات . » . (١١٢)

وكان الافغاني يميل الى ما يشبه مبدأ النسبية في نظره الى الامور. يقول محمد المخزومي في خاطراته : ان الافغاني كان ذا موهبة خاصة في قوة الاقناع بحيث يستطيع أن يأتي بما يدل على استهجان شيء واستحسانه في آن واحد ، وقد سئل الافغاني عن سر مقدرته هذه فكان جوابه : ان لكل شيء وجهين ، ولكل انسان صفات طيبة وقبيحة ، وأن الحكم على الاشخاص والاشياء انما يختلف باختلاف الظروف واختلاف رغبة الناظر وموقفه ، فاذا نظرنا الى الشخص من جهة المحاسن مدحناه، واذا نظرنا اليه من جهة المساوىء ذممناه . ويذكر الافغاني لتأييد رأيه هذا أمثلة من حياة النبي ، فقد دعي النبي ذات يوم الى طعام رجل فقير ، وكان ادامه الخل ، فقال النبي : « نعم الأدم الخل » تطييباً لقلب الرجل الفقير الذي لا يملك سوى الخل ، ثم دعي النبي في يوم آخر الى طعام رجل موسر وكان ادامه الخل أيضا فقال : «بئس الأدم الخل » . فالنبي اذن قد مدح الخل وذمه حسب اختلاف الظروف . (١١٣)

مذهبه التوفيقي :

عاش الافغاني في عصر كان الصراع في البلاد الاسلامية شديدا بين القديم والجديد ، وكان انصار القديم جامدين لا يريدون أن يتحولوا قيد شعرة عما وجدوا عليه آباءهم ، بينما كان أنصار الجديد مندفعين في تجديدهم بحيث كانوا يستهجنون كل قديم بغض النظر عن محتواه . وجاء

---

(١١١) محمد المخزومي (المصدر السابق) ــ ص ١١٣ ــ ١١٤ .
(١١٢) قدري قلعجي (المصدر السابق) ــ ص ٢٥ .
(١١٣) محمد المخزومي (المصدر السابق) ــ ص ٦٢ ــ ٦٣ .

الافغاني يحمل رسالة فكرية هي التوفيق بين الفريقين •

أحدث الافغاني بمذهبه « التوفيقي » تأثيرا بالغا في عقول الكثير من المسلمين لا سيما ذوي الثقافة الحديثة منهم ، فقد كان هؤلاء يعانون صراعاً نفسياً من جراء ما يرونه في العلوم الحديثة من مخالفة لبعض نصوص القرآن والمأثورات الدينية الاخرى ، فكان من الصعب عليهم أن يشككوا في صحة دينهم من جهة ، كما كان من الصعب عليهم من الجهة الاخرى ان يرفضوا ما جاءت به العلوم الحديثة من مخترعات ونظريات عظيمة• وحين جاء الافغاني اليهم بمذهبه « التوفيقي » وجدوا فيه ضالتهم المنشودة فتهافتوا عليه وشغفوا به •

يحدثنا محمد رشيد رضا عن تأثير المقالات التي قرأها في مجلة العروة الوثقى على تفكيره حين كان شابا ، فيقول : « اتفق لي أن كنت أقلب أوارق والدي رحمه الله ، فرأيت عددين من جريدة (العروة الوثقى) فقرأتهما بشوق ولذة ، ففعلا في نفسي فعل السحر ، فطفقت أبحث عن سائر الاعداد فوجدت بعضها عند والدي ، ووجدت الباقي عند استاذي الشيخ حسين الجسر الطرابلسي ، فاستنسخت الجميع وقرأته المرة بعد المرة ، فانتقلت بذلك الى طريق جديد في فهم الدين الاسلامي ، وهو أنه ليس روحانياً أخرويا فقط ، بل هو دين روحاني جسماني ، أخروي دنيوي ••• وأحدث لي هذا الفهم الجديد في الاسلام رأيا فوق الذي كنت أراه في ارشاد المسلمين ، فقد كان همي قبل ذلك محصورا في تصحيح عقائد المسلمين ، ونهيهم عن المحرمات ، وحثهم على الطاعات ، وتزهيدهم في الدنيا ••• فتعلقت نفسي بعد ذلك بوجوب ارشاد المسلمين عامة الى المدنية ، والمحافظة على ملكهم ، ومباراة الامم العزيزة في العلوم والفنون والصناعات وجميع مقومات الحياة ، فطفقت استعد لذلك استعدادا ، وكنت أبحث عن آثار السيد وآثار الشيخ محمد عبده ، وما قيل فيهما وما كتب عنهما • وكنت أناضل دونهما ، وادافع عنهما بحماسة وشدة حتى لم يعد يتجرأ أحد على الطعن فيهما أمامي ••• » (١١٤)

---

(١١٤) محمد رشيد رضا (المصدر السابق) ـ ج١ ص ٨٤ •

كان الافغاني يشبه في مذهبه « التوفيقي » السيد أحمد خان الهندي، اذ كانا كلاهما يواجهان نفس الصراع بين القديم والحديث ، غير انهما كانا مختلفين في موقفهما تجاه الاستعمار البريطاني . فالسيد أحمد خان كان يميل الى مهادنة الاستعمار وحصر الاهتمام بتعليم المسلمين وتثقيفهم، بينما كان الافغاني يميل الى العنفه والثورة .

ومما يجدر ذكره أن صراعا يشبه الصراع الذي واجهه الافغاني والسيد أحمد خان كان قد حدث قديماً في الاسلام بعد ما ترجمت اليه الفلسفة الاغريقية ، فقد نشب عند ذاك نزاع شديد بين المتفلسفين والمتدينين، أي بين العقليين والنقليين ، واخذ كل فريق منهما يكفر الآخر ويحاول اضطهاده عند المقدرة عليه .

وجاء المفكر الاندلسى المشهور ابن رشد يريد التوفيق بين الفريقين، فكان رأيه ان الفلسفة والدين كلاهما حق ، فهما اذن لا يتعارضان لان الحق لا يعارض الحق ، واذا ظهر اختلاف بينهما فسبب ذلك أن الدين موجه الى العامة بينما الفلسفة موجهة الى الخاصة ، ومعنى هذا انه اختلاف في الاسلوب وليس في المحتوى .

كان ابن رشد يعتقد ان الانبياء والفلاسفة جميعاً يقصدون مصلحة البشر ، وقد عرف الانبياء طبيعة العامة فجاؤوا لهم بالشرائع التى تلائم تفكيرهم ، فالانبياء في رأي ابن رشد يحدثون الناس على قدر عقولهم ، واستشهد في ذلك بقول لعلي بن أبي طالب « حدثوا الناس على قدر عقولهم » . فاذا وجدنا في الدين نصاً يخالفه الفلسفة في ظاهره وجب علينا أن نلجأ الى « التأويل » أي حمل النص على المعنى المجازي وترك المعنى الحرفي الذي هو اشارة ورمز . (١١٥)

حين ندرس أفكار الافغاني نجد رأي ابن رشد واضح الاثر فيها ، يروي محمد المخزومي عنه أنه في أحد مجالسه في اسطنبول تطرق الى ما يقال عن التناقض الموجود بين النصوص القرآنية والآراء العلمية

---

(١١٥) علي الوردي (منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته) ـ القاهرة ١٩٦٢ ـ ص ٢١٥ .

الحديثة فقال ما نصه : « عم الجهل وتفشى الجمود في كثير من المتردين برداء العلماء حتى تخرصوا على القرآن بأنه يخالف الحقائق العلمية الثابتة، والقرآن بريء مما يقولون . أثبت العلم كروية الارض ، ودورانها ، وثبات الشمس دائرة على محورها ، فهذه الحقيقة مع ما يشابهها من الحقائق العلمية لابد أن تتوافق مع القرآن ، والقرآن يجب أن يتجل عن مخالفته للعلم الحقيقي ، وخصوصا في الكليات . فاذا لم نر في القرآن ما يوافق صريح العلم ، والكليات ، اكتفينا بما جاء به من الاشارة ورجعنا الى التأويل ، اذ لا يمكن أن تأتي العلوم والمخترعات في القرآن صريحة واضحة وهي في زمن التنزيل مجهولة من الخلق كامنة في الخفاء لم تخرج لحيز الوجود . ولو جاء القرآن وصرح بالسكة الحديدية ، والبرق وما تفعله الكهربائية من الغرائب ، وغير ذلك، لضلت الناس وأعرضت عنه، وحسبته كذباً . لذلك نراه قد جاء بالاشارة الى كل ما هو حادث اليوم، وما هو ممكن ان يحدث في مستقبل الزمن مع مراعاة عقول الخلق وتقريب الاشياء للاذهان عن طريق نظرهم وقابلية فهمهم . » ثم أخذ الافغاني يورد أمثلة من القرآن يؤيد بها رأيه هذا ، فالتنويم المغناطيسي والتلغراف والطيران وكروية الأرض وما يتنبأ به الفلكيون من اختلاف النظام الشمسي في المستقبل كلها وردت في القرآن عن طريق الرمز والاشارة ، والواجب علينا أن نلجأ الى التأويل لنستخرج المعنى الحقيقي منها وهو المعنى الذي لا يتعارض مع مكتشفات العلم الحديث . (١١٦)

ان هذا المذهب « التوفيقي » الذي اتبعه الافغاني قد تأثر به الكثيرون من بعده ، وكان أول من تأثر به في العراق السيد هبة الدين الشهرستاني، اذ هو أخرج في عام ١٩١١ كتابا عنوانه « الهيئة والاسلام » حاول فيه التدليل على ان جميع النظريات الفلكية الحديثة قد وردت في القرآن أو وردت على لسان النبي والائمة الاثنى عشر .

ونجد هذا المذهب رائجا اليوم في مصر وله اتباعه والمعجبون به ، وقد اصدر اتباعه ــ وما زالوا ــ يصدرون الكتب العديدة يريدون أن

---

(١١٦) محمد المخزومي (المصدر السابق) ــ ص ١٠٠ ــ ١٠٤ .

يبرهنوا بها على أن القرآن يحوي جميع ما جاءت بـه العلوم الحديثـة من مخترعات ونظريات • ولست أعدو الصواب اذا قلت انهم افرطوا فـى هذا الاتجاه افراطا غير مستساغ ، فقد اصبح القرآن في أيديهم كأنه كتاب فلـك وطب وجيولوجيا وكيميـاء وفيـزياء ، وبهـذا خرجـوا عـن الاطار الذي وضعه الافغاني والهدف الذي كان يسعى اليه •

المرزا باقـر البواناتي :

لعل من المستحسن في ختام سيرة الافغاني أن نتحدث بايجاز عـن سيرة رجلين كانت لهما صلة وثيقة به هما : المرزا باقر البواناتي والشيخ محمد عبده • ولنبدأ بالاول منهما •

الواقع ان المرزا باقر رجل غامض كل الغموض ونحن لا نعـرف شيئاً محققاً عن نشأته وبداية أمره • وقـد اختلفت الاقـوال والروايات في ذلك • ففي رواية المرزا لطف الله خان : أنه كان كبير علماء بوشـهر وكان يلقب بـ « يوحنا زمانه » لما عرف به من علم وفضل ، وقد تعـرف بالافغاني عندما مر هذا ببلدة بوشهر في عام ١٨٥٧ على أثر عودته مـن الهنـد ، وأعجب بالافغاني واعتقد بصحـة آرائـه واتبـع نصائحـه وارشاداته • (١١٧)

وجاء في رواية أخرى رواها الشيخ عبدالقـادر المغربي : أن المرزا باقر كان في صغره قد تعلم في مدارس الهند البريطانية وأعلن تنصـره وسمى نفسه « مرزا يوحنا » ، ثم دخل في خدمة الجيش البريطاني عنـد احتلاله بوشهر حيث صار ترجماناً لقائد الجيش ، وكان اثناء ذلك ينظـم القصائد في هجاء النبي محمد ، ولما جاء الافغاني الى بوشهر وسـمع بهجائه للنبي حرض الاهالي على ضربه ، وصار الاهالي يضربونه ضربـاً مبرحاً حتى أنهكوه وسال الـدم من فمه ومنخره وهـو يستغيث بالنبي والحسـين ••• (١١٨)

وللسيد هبة الدين الشهرستاني رأي آخر في المرزا باقر ، اذ قـال

---

(١١٧) صادق نشأت وعبد النعيم حسنين (المصدر السابق) ــ ص ٥٥ •

(١١٨) عبد القادر المغربي (المصدر السابق) ــ ص ٥٤ ــ ٥٥ •

عنه في مجلة «العلم» ما مفاده : ان المـــرزا باقـر كان من كبار فلاسفة ايران الذين قذفتهم الحكومة الاستبدادية الى الخارج ، وكان من طبقة السيد جمال الدين الافغاني وفي عصره • ويروي الشهرستاني عمن يثق به أن المرزا باقر جمع القرآن على ترتيب أزمنة نزوله ابتداءاً من ســورة « العلق » حتى ينتهي الى آخر سورة من القرآن وهي « المائــدة » ، ثم ترجم ذلك كله الى اللغة الانكليزية ، فعظم ذلك على أكثر علمــاء الدين في ايران وتكلموا عليه بما لا يليق به • (١١٩)

هذا هو ما قاله الرواة عن المرزا باقر في بداية أمره ، ثم تمر عليـه بعد ذلك فترة طويلة لا نعرف فيها عنه شيئاً ، حتى اذا حل عام ١٨٧٠ نرى المرزا باقر في بغداد مشتبكا في جدال مع الكاتب التركي احمد مدحـت أفندي الذي كان محررا لجريدة الزوراء ، وكان هــذا الكاتب في ذلــك الوقت ملحدا فأخذ المرزا باقر يحاوره ويناقشه حتى استطاع أن يرجعـه الى الايمان من جديد • (١٢٠)

ورحل المرزا باقر بعدئذ الى بيروت حيث تزوج فيها بأمرأة من اسرة معروفة ـــ هي أسرة آل الخطيب ـــ فرزق منها بنت وولد ، ولا يزال الولد حياً يعيش في بيروت اسمه « محمد الباقر » وأحسب أنه الآن في العقـد العاشر من عمره ، أو لعله قد مات بعد كتابة هذه السطور •

وفي عام ١٨٨٣ سافر المرزا باقر الى باريس ، وكان الافغاني يومذاك فيها يصدر مجلة « العروة الوثقى » ، فذهب المرزا باقر اليه يعرض خدماته عليه وأخبره بأنه تاب وكفر عن ذنبه القديم وصار داعية للاسلام ومبشرا به • وقد كلفه الافغاني بالذهاب الى لندن ليكون مراسلا للمجلة فيهــا يترجم لها من الصحف البريطانية •

صار المرزا باقر في لندن من اكبر الدعاة للاسلام واشدهم حماساً ، فكان يطبع نشرات في الدعوة للاسلام ويقف على أبواب الكنائس ليدس نشراته في أيدي الداخلين والخارجين • (١٢١) واتخذ له مهرا مربع الشكل

---

(١١٩) مجلة العلم النجفية في عددها الصادر في شباط ١٩١١ •
(١٢٠) محمد رشيد رضا (المصدر السابق) ــ ج١ ص ٨١٩ •
(١٢١) عبد القادر المغربي (المصدر السابق) ــ ص ٥٦ •

كتب فيه عبارة « انكسر الصليب » وعبارة «مات الخنزير » ، فكان هـذا المهر بمثابة شعار له يطبعه على صدور رسائله . (١٢٢)

وحين جاء الشيخ محمد عبده الى لندن مبعوثاً من قبل الافغاني لمفاوضة الحكومة البريطانية حول قضية مصر والسودان كان المرزا باقـر مترجمـاً للشيخ في مفاوضاته . والغريب ان المرزا باقر لم يترك التبشير بالاسلام حتى في وقت المفاوضات ، فكان الشيخ يقول له « ليس هـذا وقته » ، ويرجوه أن يؤجل التبشير الى وقت آخر ، ولكن المرزا باقر لم يكن يصغي للرجـاء ...

وحدث ذات يوم أن نظم أحد شعراء الهند قصيدة بليغة فـي مدح الملكة فكتوريا ، فكلفوا المرزا باقر بترجمتها الى اللغة الانكليزية وقـد أتقن المرزا ترجمتها بحيث نالت اعجاب الملكـة فأمرت بمنحـه خمسمائة جنيه ، ولكن المرزا باقر رد المبلغ وقال انه يطلب جائزة أخرى هي دخول الملكة فكتوريا في الاسلام . (١٢٣)

كان المرزا باقر في لندن يسكن غرفة قذرة ضيقة وهو محاط باكـوام من الكتب يعلوها الغبار ، وكان أكثر تلك الكتب باللغة الفارسية والعربية وفي مواضيع دينية ، وكان بعضها باللغة العبرية والانكليزية . وقد زاره المستشرق براون في غرفته هذه ، وأعطانا عنه وصفاً عجيباً اذ قال : انـه لم يشهد في حياته رجلا يعيش في عالم خيالي من صنعه مثل المرزا باقر ، فهو لا يبالي بمصلحته الشخصية ولا براحته ولا يكترث للمال أو بالتقرب من أولى النفوذ ، وكثيرا ما ينفر الناس منه لشدة ما يهاجمهم في أعـز معتقداتهم ، كما ينفر منه أصدقاؤه لكثرة كلامه الذي لا ينقطع ، وهـو قد تحول في عقيدته الدينية من التشيع الى التصوف ، ثم الى المسيحيـة فالالحاد فاليهودية ، وانتهى أخيراً الى انشاء دين خاص به سماه «المسيحية الاسلامية » . انه كان جدلياً شديد الثرثرة بعيدا عن التعقل وغير واقعي

---

(١٢٢) اصغر مهدوي وايرج افشار (المصدر السابق) ــ تصوير ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ .
(١٢٣) محمد رشيد رضا (المصدر السابق) ــ ج١ ص ٨١٨ .

SS

الى أبعد الحدود ولكنه على الرغم من كل ذلك لا يستطيع الانسـان الا أن يحترمه . (١٢٤)

وفي أواخر عام ١٨٨٤ عاد المرزا باقر الى بيروت لابتلاء ابنته بالسل ، وهناك التقى بالشيخ عبده مرة ثانية ، وكذلك التقى بخادم الافغاني القديم عارف أبو تراب ، فاتفق الثلاثة على انشاء جمعية باسم « جمعية التأليف والتقريب » هدفها التقريب بين الاديان السماوية الثلاثة أي الاسـلام والنصرانية واليهودية ، والـدعوة الى نبـذ التعصب في الدين ، وتأليف الكتب التي تصور الاديان الثلاثة بروح الانصاف والمحبة ، والتعاون على ازالة الضغط الاوربي على الشرق ، وتعريفه الافرنج بحقيقة الاسـلام . وقد انتمى الى هذه الجمعية عدد من المفكرين الايرانيين والاتراك والهنود والانكليز واليهود كالقس اسحق تيلر في لندن ، والوزير مؤيد الملك فـي طهران ، وحسن خان مستشار السفارة الايرانية في اسطنبول ، والمستر لينتر مفتش المدارس في الهند .

كان المرزا باقر والقس تيلر من أشد الاعضاء حماسا في العمل لهـذه الجمعية بالقول والكتابة ، ويقال ان الشيخ محمد عبده أرسل هو وجماعة من علماء الشام رسالة الى القس تيلر في موضوع التقريب الذي كـان القس يعمل له في لندن ، فلما علم السلطان عبدالحميد بالامر كلف سفيره في لندن بالتحقيق فيه والتعـرف على أسماء موقعي الرسالة . وعندمـا حصل السلطان على الاسماء أوعز بنفيهم ... (١٢٥)

مهما يكن الحال فقد تم ابعاد المرزا باقر فعلا ، وذهب الى ايران حيث مات فيها في عام ١٨٩٠ أو بعده بقليل . أما الشيخ محمد عبده فله قصـة أخرى سنأتي اليها فيما يلي :

الشيخ محمد عبده :

ولد الشيخ محمد عبده عام ١٨٤٩ في قرية صغيرة من قرى الوجـه البحري من أب فلاح ، ونشأ كما ينشأ أبناء الفلاحين حافيا عاري الرأس

---

(124) Edward Browne (A Year Among The Persians) — Cambridge 1927 P 13 — 14 .

(١٢٥) قدري قلعجي (محمد عبده) — بيروت ١٩٤٨ — ص ٦٣ — ٦٥ .

يجزي في الازقة ويلعب في التراب ويسبح في الترع • (١٢٦) وحين بلغ الثالثة عشرة أرسله أبوه الى المسجد الاحمدي في طنطا ليتعلم تجويد القرآن ومباديء العلوم الدينية ، وفي عام ١٨٦٦ التحق بجامع الازهر وبقي فيه اثنتي عشرة سنة •

كان الشيخ محمد عبده من أوائل الذين اتصلوا بالافغاني وتتلمذوا عليه ، وهو يحدثنا في مذكراته عن بداية اتصاله بالافغاني فيقول : انه بعد أن حضر حلقات الازهر ثلاث سنوات سئم الدروس المعتادة فيها وصارت نفسه تطلب شيئاً جديدا وتميل الى العلوم العقلية ، ثم ذهب لحضور درس الشيخ حسن الطويل الذي كان معروفاً في الازهر بعلم المنطق فلم يجد فيه ما يشفي غليله ، وفي ذات يوم جاءه أحد الشاميين من المجاورين في الازهر يخبره بأن عالماً أفغانياً عظيماً جاء الى مصر وهو يقيم في خان الخليلي — وكان يقصد بذلك السيد جمال الدين الافغاني — فذهب محمد عبده مع الشيخ حسن الطويل الى حيث يسكن الافغاني فوجدوه يتناول عشاءه ، وبعد القيام بما تقتضيه آداب المجاملة طفق الافغاني يسألهما عن بعض آيات القرآن وما قاله المفسرون والمتصوفة فيها ، ثم أخذ يفسرها لهما تفسيراً جعل محمد عبده يمتلىء قلبه اعجاباً بالافغاني وشغفاً به • (١٢٧) ومنذ ذلك الحين أصبح محمد عبده من تلاميذ الافغاني المختصين به •

ظل محمد عبده ملازماً للافغاني حتى يوم نفيه من مصر في عام ١٨٧٩• وعندما قامت الثورة العرابية في عام ١٨٨٢ اشترك محمد عبده فيها ، فلما أخفقت الثورة واحتل الجيش البريطاني مصر ألقي القبض عليه وأودع في السجن ثلاثة أشهر ، ثم حكمت المحكمة عليه بالنفي ثلاث سنوات يقضيها خارج البلاد •

كان قد حكم بالنفي مع الشيخ محمد عبده على أشخاص آخرين كابراهيم اللقاني وحسن الشمسي ، وهم كانوا مثله من تلاميذ الافغاني

---

(١٢٦) مصطفى عبد الرزاق (محمد عبده) — القاهرة ١٩٤٦ — ص ١٧ .
(١٢٧) محمد رشيد رضا (المصدر السابق) — ج١ ص ٦٥ — ٦٦ .

ومن الماسونيين أيضاً ، فذهبوا الى بيروت ، وهناك احتفى بهم الماسونيون اللبنانيون وساعدوهم ، يقول شاهين مكاريوس في كتابه « فضائل الماسونية » ما نصه :

« وقد ظهرت الماسونية في سورية في مظهر الاخلاص والمحبة أثناء الحوادث العرابية سنة ١٨٨٢ ، فان الاخوان المصريين والمهاجرين الذين جاؤوا الى سورية قابلهم اخوانهم بالترحيب العظيم ودعوهم الى محافلهم ومنازلهم ، وكان الافاضل الشيخ محمد عبده وابراهيم بك اللقاني وحسن بك الشمسي وجماعة المرحوم السيد جمال الدين الافغاني وغيرهم يحضرون معنا محفل لبنان ويخطبون فيشنفون أسماع السوريين بخطبهم النفيسة وأحاديثهم الطلية ، ونال الاستاذ الشيخ محمد عبده رتبة البلح والصدف من المندوب الاميركي الذي حضر الى محفل لبنان ، وكنا وقتئذ من العاملين في المحفل ... » (١٢٨)

لم يمكث الشيخ محمد عبده في بيروت سوى سنة واحدة ، ثم استدعاه الافغاني الى باريس لاصدار مجلة « العروة الوثقى » على نحو ما ذكرناه سابقا . يقول المستر بلنت : ان الشيخ محمد عبده لم يمض على اقامته في باريس شهران حتى أصبح « أوربياً متفرنساً » ، فترك عادة حلق الرأس حلقا تاما على طريقة المشايخ ، وأطال شعر رأسه ولحيته حتى صار مظهره يحاكي مظهر الفنانين الاوربيين . (١٢٩)

وبعد أن توقفت مجلة « العروة الوثقى » عن الصدور ، عاد الشيخ الى بيروت واستقر فيها . وقد شرح هناك « نهج البلاغة » ، كما ترجم كتاب الافغاني « الرد على الدهريين » من الفارسية الى العربية وذلك بمساعدة خادم الافغاني عارف أبو تراب .

صار الشيخ يلقي الدروس في الجامع الكبير أو في جامع الباشورة ، كما كان يقضي اكثر أمسياته في بيت الحاج محي‌الدين حمادة رئيس بلدية بيروت ، ثم تزوج بعد وفاة زوجته القديمة امرأة بيروتية هي ابنة

---

(١٢٨) شاهين مكاريوس (فضائل الماسونية) _ القاهرة ١٨٩٩ _ ص ١٢٢ .
(١٢٩) قدري قلعجي (المصدر السابق) _ ص ٥٢ .

ss

أخي الحاج محي الدين. وقد أعجب أهل بيروت بالشيخ محمد عبده وأقبلوا على مجلس سمره وحلقة درسه اقبالا لم تشهد بيروت له مثيلا من قبل. يقول شكيب أرسلان وهو من رواد مجلسه : « ان مجلس الشيخ كان يضم علماءالسنة ومجتهدي الشيعة وعقال الدروز ، والى جانبهم أساقفة النصارى وأحبارهم من كل فريق ، كما كان يضم بعض الملحدين أحيانا ، اذ وجد فيه الجميع مرجعاً عاماً لسعة عقله وعلو ادراكه واحاطة نظره » . (١٣٠) وقد كان عباس أفندي رئيس البهائيين من رواد مجلسه كذلك .

كان أصدقاء الشيخ محمد عبده في مصر يسعون لاصدار العفو عنه والسماح له بالعودة الى مصر ، ولكن الخديوي توفيق باشا كان يكرهه ولم يقبل باصدار العفو عنه الا بضغط من الانكليز . (١٣١) وقد عين الشيخ عند عودته قاضيا ، ثم ارتقى في عام ١٨٩٠ الى منصب مستشار في محكمة الاستئناف ، وظل في هذا المنصب تسع سنوات ، ثم صار أخيرا المفتي الأكبر للديار المصرية .

ترك الشيخ السياسة وطلقها ثلاثاً ، وقال في ذلك كلمته المشهورة وهي : « اعوذ بالله من السياسة ، ومن لفظ السياسة ، ومن معنى السياسة ، ومن كل حرف يلفظ من كلمة السياسة ، ومن كل خيال يخطر ببالي عن السياسة ، ومن كل أرض تذكر فيها السياسة ، ومن كل شخص يتكلم أو يتعلم أو يجن أو يعقل في السياسة ، ومن ساس ويسوس ، وسائس ومسوس » . (١٣٢)

ويروي تلميذه محمد رشيد رضا : أن الشيخ عند عودته الى مصر ترك الماسونية أيضاً فقد دعاه الماسونيون الى محافلهم فلم يجبهم ، وأهدوا اليه وساماً فلم يقبله ، ولما سئل في ذلك أجاب : « ان عملها في البلاد التي وجدت فيها العمل قد انتهى وهو مقاومة الملوك والبابوات » . وقال

(١٣٠) المصدر السابق — ص ٥٧ — ٥٨ .
(١٣١) أحمد أمين (محمد عبده) — القاهرة ١٩٦٠ — ص ٦٠
(١٣٢) قدري قلعجي (المصدر السابق) — ص ٧٠ — ٧١ .

التلميذه محمد رشيد رضا : « ان دخوله فيها كان لغرض سياسي اجتماعي وأنه تركها من سنين فلن يعود اليها » [١٣٣] .

انهمك الشيخ محمد عبده في المرحلة الاخيرة من حياته بأمرين : اولهما تنقية الدين الاسلامي من الشوائب التي طرأت عليه ، والثاني تقريب المسلمين من الحضارة الحديثة ليستفيدوا منها علميا وصناعيا وتجاريا وسياسيا . [١٣٤] وكان الشيخ مثل استاذه الافغاني يتبع منهج ابن رشد في أمر التوفيق بين المعقول والمنقول . فهو يقول في هذا الشأن : « فانا معشر المسلمين نعلم على القطع انه لا يؤدي النظر البرهاني الى مخالفة ما ورد به الشرع فان الحق لا يضاد الحق بل يوافقه ويشهد له » . ويقول أيضاً : « ونحن نقطع قطعاً ان كل ما أدى اليه البرهان وخالفه ظاهر الشرع ان ذلك الظاهر يقبل التأويل على قانون التأويل العربي » . [١٣٥]

وقد أدى هذا المنهج « الرشدي » بالشيخ محمد عبده الى تحليل الكثير من الامور الحضارية الحديثة التي أعتاد رجال الدين على تحريمها . فرجال الدين ينظرون الى تلك الامور نظرة شكلية بحتة دون اهتمام بمحتواها وحقيقتها ، أما الشيخ فكان اهتمامه بمحتوى الامور اكثر من اهتمامه بالشكليات والنصوص .

خذ البنوك مثلا فرجال الدين يحرمونها باعتبارها ربا استنادا الى التعريف الشكلي للربا ، أما الشيخ فيعتبر البنوك وسيطة بين المالكين للمال من جهة والقادرين على استثمار المال من الجهة الاخرى ، أي أنها كالسمسار الذي يتوسط في ايجار الدور بين مالكيها ومستأجريها ، وهي تأخذ على ذلك أجرة بنسبة المبلغ كالسمسار . ان البنوك في نظر الشيخ محمد عبده اذن لا تتعاطى الربا أو تستغل المعوزين على منوال ما كان المرابون يفعلونه في ايام الجاهلية ، بل هي تقوم بوظيفة اقتصادية ضرورية، ولولاها لما وصل الاقتصاد الحديث الى هذا النمو العجيب .

سئل الشيخ محمد عبده ذات يوم عن الحديث النبوي القائل بحرمة

---

(١٣٣) مجلة المنار القاهرية — المجلد الثامن — ص ٤٠٢

(١٣٤) جرجي زيدان (بناة النهضة العربية) — القاهرة — ص ٨٤ .

(١٣٥) مصطفى عبدالرازق (المصدر السابق) — ص ٧٢ — ٧٣ .

التصوير وهو : « أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون » ، فأجاب الشيخ : ان هذا الحديث قيل في أيام الجاهلية عندما كانت الصور تتخذ للتبرك والعبادة ، فلما زالت عادة التبرك والعبادة زالت الحرمة معها • وكان الشيخ في احدى سفراته قد مر باحدى المدن المصرية فأقبل عليه أعيانها يسلمون عليه وكان من بينهم رجال المحكمة الشرعية ، وأخذ أحدهم يحدثه عن دخول الكثير من أهل مدينتهم في الاسلام ولهذا فهو مشغول مع زملائه بأمر تعليم المسلمين الجدد أركان الدين ، وذكر مثلا تعليمهم كيف يغسلون وجوههم في الوضوء وما هي حدود الوجه وأين يبدأ واين ينتهي • فقال له الشيخ محمد عبده : « سبحان الله ياسي الشيخ ! قل له : يغسل وجهه • كل انسان يعرف حدود وجهه من غير حاجة الى مساح ! » (١٣٦) •

وفي يوم آخر ورد الى الشيخ محمد عبده استفتاء شرعي حول لبس القبة ، وكان الاستفتاء قد جاء من مسلم يسكن الترنسفال في جنوب افريقيا ، فأجاب الشيخ في ذلك ما نصه : « أما لبس البرنيطة اذا لم يقصد فاعله الخروج عن الاسلام والدخول في دين غيره فلا يعد كفرا ، واذا كان اللبس لحاجة من حجب الشمس أو دفع مضرة أو دفع مكروه أو تيسير مصلحة لم يكره ذلك » (١٣٧) •

أحدث الشيخ محمد عبده بآرائه هذه ضجة كبرى في مصر ، وانقسم الناس حوله بين مؤيدين ومعارضين • فالمؤيدون يعتبرونه اماماً من جملة الذين يبعثهم الله على رأس كل مائة سنة لتجديد الاسلام حسبما ورد في الحديث الشريف ، أما المعارضون فاعتبروه الدجال الذي يظهر في آخر الزمان •

ومن الجدير بالذكر أن الشيخ محمد عبده كان وثيق الصلة بالمندوب السامي البريطاني في مصر اللورد كرومر • ويدافع أنصار الشيخ عنه في هذا الشأن قائلين : انه كان يتصل بالانكليز ليستعين بهم على

---

(١٣٦) قدري قلعجي (المصدر السابق) ـ ص ١٢٠ ـ ١٢١

(١٣٧) احمد امين (المصدر السابق) ـ ص ٨١ •

القيام بمشاريعه الاصلاحية • وقد سئل الشيخ ذات مرة في موضوع الاستعانة بالاجانب فكان جوابه : « قد قامت الادلة من الكتاب والسنة وعمل السلف على جواز الاستعانة بغير المؤمنين وغير الصالحين على ما فيه خير ومنفعة للمسلمين ••• فعلى دعاة الخير أن يجدوا في دعوتهم ، وأن يمضوا على طريقتهم ، ولا يحزنهم شتم الشاتمين ، ولا يغيظهم لوم اللائمين، فالله كفيل لهم بالنصر اذا اعتصموا بالحق والصبر » • (١٣٨)

في عام ١٨٩٢ مات توفيق باشا فحل محله على عرش الخديوية ابنه عباس الثاني • وكان هذا الخديوي الجديد يومذاك في الثامنة عشرة من عمره وهو يختلف عن أبيه من بعض النواحي ولا سيما من حيث سياسته تجاه الانكليز •

كان توفيق موالياً للانكليز ومنسجماً مع اللورد كرومر ، أما ابنه عباس فكان يضمر العداء لهم وأخذ يجمع الانصار حوله لمقاومتهم • ولهذا انشق رجال الفكر والسياسة في مصر الى فريقين متصارعين : فريق الخديوي وفريق اللورد كرومر •

كان فريق الخديوي يدعون الى مكافحة الاحتلال البريطاني والى الالتفاف حول السلطان عبدالحميد وتأييد الجامعة الاسلامية ، وكان أشهرهم في ذلك شاب نابغ اسمه مصطفى كامل • فقد احتضن الخديوي عباس هذا الشاب ومنحه لقب « باشا » وأيده بالمعونة المادية والمعنوية • وقد أسس مصطفى كامل حزباً شعبياً باسم « الحزب الوطني » كما أصدر جريدة له باسم « اللواء » ، وصار يواصل الخطابة والكتابة بنشاط لا يفتر ، فأحدث في الرأي العام المصري تأثيراً قوياً واسع النطاق •

أما الفريق الآخر فكان رأيه أن جلاء الانكليز عن مصر لا يتم الا عن طريق استنارة الشعب وفهمه لحقوقه وواجباته ، فالشعب الجاهل يساعد الاعداء على نفسه ؛ ولهذا يجب الاهتمام بتعليم الشعب وتثقيفه قبل الشروع بمحاربة الاستعمار • وكان من أهم رجال هذا الفريق الشيخ محمد عبده وسعد زغلول ولطفي السيد ، وقد تابعهم على هذا الرأي الكثير

---

١٣٨) المصدر السابق ـ ص ٦٤ ـ ٦٧ •

من المتعلمين والباشوات وأصحاب الاطيان •

وأصبح الصراع بين هذين الفريقين ــ أو الحزبين ــ شديدا أشغل الناس خلال بضع عشرة سنة ، وصارت جهود الشيخ محمد عبده في الاصلاح الديني موضع تهمة في نظر خصومه حيث اتهموه بانه متآمر مع الانكليز لهدم الاسلام • وأخذ الحزب الوطني وعلى رأسه مصطفى كامل يحاربه ويرميه بالمروق من الوطنية • صارت التقارير تكتب ضده الى اسطنبول ، فلما زار الشيخ محمد عبده اسطنبول استقبل فيها استقبالا سيئا ، واتخذت التدابير لاهانته لولا لطف الله • (١٣٩)

وعندما انتشرت فتوى الشيخ في تجويز لبس القبعة اتخذ خصومه تلك ذريعة للتشنيع عليه ، وانبرت جريدة اللواء وبعض الجرائد الاخرى تهيج العامة عليه • وعمد بعضها الى تشويه سمعته وشتم عرضه ، ولفقوا عليه صورة فتوغرافية تمثله وهو يخاصر فتاة افرنجية وكلبها يعبث بأطراف جبته • (١٤٠)

وفي عام ١٩٠٥ أصيب الشيخ محمد عبده بالسرطان ، ومات في ١١ تموز من العام نفسه ، وقد جرى لجنازته تشييع عظيم • وكان الخديوي يومذاك متغيبا عن مصر ، فلما عاد اليها غضب على الذين شاركوا في جنازته وقال فيهم موبخا : « ألم يعتقدوا ما كان عليه المفتي من العداء والمعاكسة للدين وأهله وأنصاره ••• » (١٤١)

---

(١٣٩) المصدر السابق ــ ص ٧٩ ــ ٨٠

(١٤٠) عباس محمود العقاد (محمد عبده) ــ القاهرة ١٩٦٣ ــ ص ٢٤٣ •

(١٤١) قدري قلعجي (المصدر السابق) ــ ص ١١٦ •

الملحق الثاني

ما هي الماسونية

جاء ذكر الماسونية في عدة مواضع من هذا الجزء ، ولعل القارىء قد تساءل عند مروره بها : ما هي الماسونية ؟!

الواقع ان الماسونية من المواضيع التي يكتنفها الغموض ، فقد حرص أصحابها على كتمان أسرارها ، وقد صدرت عنها باللغة العربية مؤلفات كثيرة ولكن معظمها كتبت بروح غير علمية اذ هي مليئة بالسباب المقذع وقذف التهم بلا حساب ، وقد ضاعت الحقيقة من جراء ذلك • فالقارىء الذي يقرأ تلك المؤلفات لا يستطيع أن يتبين الحقائق من بين هذا الركام الهائل من الشتائم والتهم • ومن المؤسف أن نجد الكثيرين من كتابنا لم يتعلموا بعد أسلوب البحث العلمي الحديث ، فاذا كتب أحدهم في أي موضوع اتخذ موقف الخطيب المتحمس وأخذ يصب اللعنات أو ينشد المدائح حسبما يملي عليه الاتجاه العاطفي المسيطر عليه •

اني عند دراستي للماسونية اعتمدت في الدرجة الاولى على مصدرين: أولهما ما كتبه الباحثون العلميون عنها ، والثاني ما كتبه الماسونيون أنفسهم • وقد ساعدتني الظروف في الحصول على بعض الكتب الماسونية من باعة الكتب القديمة في القاهرة والاسكندرية ، ولا سيما تلك التي كتبها الماسوني المعروف شاهين مكاريوس • والواقع ان هذا الرجل قد كشف من خلال مدحه للماسونية عن الكثير من خفاياها •

ان شاهين مكاريوس كان من أوائل اللبنانيين الذين دخلوا الماسونية في الثلث الاخير من القرن التاسع عشر ، ثم هاجر الى مصر وساهم في الماسونية هناك وأصدر مجلة « اللطائف » كما أصدر عدة كتب في الماسونية • وقد استطعت الحصول على خمسة من تلك الكتب فكانت خير معوان لي في هذه الدراسة •

لست أدعي اني نجحت في هذه الرسالة نجاحاً وافياً ، فلا تزال هناك

بعض النقاط في الماسونية لم أتمكن من معرفة كنهها على وجـه اليقين .
وجل ما استطيع قوله في هذا الشأن هو أني لم أتحيز في الدراسة الـى
جانب الماسونية أو ضدها ، وهذه طريقة قد لا يرضى عنها بعض القـراء
لانهم اعتادوا على الاسلوب الخطابي فيما يقرأون ، ونرجو أن يقـل
عدد هؤلاء القراء بمرور الايام ، فنحن لا نتوقع مـن أنفسنا أن نسـير
في سبيل الحضارة الحديثة ما لم نتبع أساليبها .

عندما صدر الجزء الثاني من الكتاب في العام الماضي أشاع بعض
الناس أني قبضت من البهائيين خمسة عشر ألف دينـار لقـاء ما كتبت
فيه من فصل عن « قرة العين » ، ولست أدري ما هو المبلغ الذي سـوف
أقبضه من الماسونيين لقاء هذا الملحق ؟! .

كيف بدات الماسونية :

الماسونية مأخوذة من لفظة « ماسون » الانكليزية التي تعني البنـاء
أو المعمار ، ويضاف اليها عادة لفظة أخرى هي « فري » أي حر ، ومـن
هنا جاء اسم الماسونية في أوساط العامة اذ هم يسمون الشخص الماسوني
« فرمسوني » ، وقد يلفظه بعضهم « فرمصولي » .

والماسونية انما سميت بهذا الاسم لان جذورها تمتد الى نقابات البنائين
القديمة . وقد اختلف المؤرخون حول الزمن الذي ظهرت فيـه جـذور
الماسونية قديماً ، فالماسونيون يرجعون أصل الماسونية الى نقابة البنائين
الذين بنوا هيكل سليمان في عام ١٠١٢ قبل الميلاد ، وبعضهم يرجعه الى
ما هو أقدم من ذلك ، ولكن التحقيق العلمي لا يؤيدهم في ذلك . ويذهب
اكثر الباحثين الآن الى أن الماسونية يرجع أصلها الى النقابات التي ظهرت
في بريطانيا منذ القرن الثاني عشر على أثر الفتح النورماني . فقد حدثت
في بريطانيا آنذاك فورة في تشييد الكنائس والاديرة ، حتى قيـل أن
خمسمائة كنيسة بنيت فيها خلال عشرين سنة . [1]

---

(1) Pick And Knight (Pocket History Of Freemasonry) — London
1963 — P 16 — 17 .

يجب أن لاننسى ان تشييد الابنية الضخمة يحتاج الى حذق كبير ومعرفة دقيقة بالحساب والهندسة والمثلثات وبعض العلوم الاخرى ، وقد اعتاد أهل المهن قديما على كتمان معلوماتهم اذ هم يسمونها « سر المهنة » ولا يبوحون بها الا للمبتدىء الذي يدخل تحت رعايتهم وهو عادة من أبنائهم . وهذا هو ما كانت تفعله نقابات البنائين في بريطانيا أثناء فورة البناء تلك ، فقد كان أعضاؤها مسيحيين مخلصين ولايقبلون عضواً جديداً الا بعد أن يحلفه بالتوراة على أنه سيكون مخلصاً لاخوانه من أعضاء النقابة ، وأن يتقن عمله ، وأن يحافظ على الاسرار . [٢]

وكان للنقابات القديمة علاوة على ذلك رموز واشارات سرية يتعارف الاعضاء بها فيما بينهم . فهم كانوا يتنقلون من مكان الى آخر حسب مواقع الابنية التي يعملون في تشييدها ، وهم لذلك كانوا في حاجة الى ما يتعارفون به لئلا يدخل بينهم غريب يفسد عليهم أمرهم . [٣]

يعتبر يوم ٢٤ حزيران من عام ١٧١٧ ذا أهمية كبيرة في تاريخ الماسونية لانه اليوم الذي انتقلت فيه الماسونية من طورها القديم الى طور جديد . ففي ذلك اليوم اجتمع في لندن نفرٌ من الماسونيين القدماء وقرروا تأسيس جمعية جديدة تختلف في أهدافها وطبيعة أعضائها عن النقابات القديمة التي كانوا ينتمون اليها . وبهذا نشأت الماسونية بشكلها الحديث .

كانت الماسونية القديمة تضم في نقاباتها البنائين فقط ، أما الماسونية الحديثة فهي تضم في محافلها كل من يريد الانتماء اليها بغض النظر عن مهنته على شرط أن يكون محترماً في مجتمعه وذا تفكير متنور . ويعزو هانكنز هذا التحول في الماسونية الى سببين : أولهما تضاؤل بناء الكنائس الضخمة ، والثاني نمو الافكار الانسانية والديمقراطية الحديثة . [٤]

---

(2) Hankins (Masonry) In The Encyclopedia Of Social Sciences — 1967

(3) Knoop And Jones (Introduction To Freemasonry) — Manchester 1937 — P 38 .

(4) Hankins (op . cit)

ومما يلفت النظر أن الماسونية الحديثة حافظت على الكثير من طقوس النقابات القديمة ورموزها ، فنجد شعارها مؤلفاً من البركال والزاوية القائمة ، كما نجد فيها رموزاً أخرى مستمدة من مهنة البناء كالشاقول والمالج والقدوم والازميل والذراع والمثلث والمئزر . وينظر الماسونيون الآن الى هيكل سليمان نظرة احترام يشبه التقديس باعتباره أول بناء فخم أقيم لعبادة الله الذي يسمونه « مهندس الكون الأعظم » . وهم يحترمون كذلك رجلا من أهل صور القديمة اسمه « حيرام أبي » ، فقد كان هذا الرجل يتقن صنعة النحاس وقد استخدمه سليمان في زخرفة هيكله كما ورد في التوراة . ولهذا يطلق الماسونيون على أنفسهم كنية « أبناء الارملة » أشارة الى حيرام الذي وصفته التوراة بأنه كان ابن ارملة . (٥)

الماسونية والدين :

لم يمض على تأسيس الماسونية الحديثة في لندن سوى سنوات قليلة حتى كانت محافلها منتشرة في أكثر المدن الكبيرة في بريطانيا والقارة الاوربية ، ثم أخذت من بعد ذلك تنتشر في مختلف بقاع العالم .

يعلل بعض الباحثين سرعة انتشار الماسونية في العالم بأنها كانت بمثابة رد فعل للنزاع العنيف الذي كان سائدا بين الناس آنذاك من جراء اختلافهم في العقيدة والدين ، وهذا هو الذي جعل المحافل الماسونية تقبل في عضويتها كل متدين يغض النظر عن محتويات دينه حيث نجد فيها المسيحي واليهودي والمسلم والمجوسي والبوذي والكونفوشيوسي والبراهمي والبهائي وغيرهم .

تقوم فلسفة الماسونية على أن الاديان كلها متفقة على الايمان بوجود الله وبخلود الروح ، ولهذا فالماسونية تكتفي من العضو أن يكون مؤمناً بهذين الامرين ، وتترك له بعد ذلك حرية العبادة والعقيدة كما يشاء .

---

(5) Hawkins (Concise Cyclopedia Of Freemasonry) — London 1922 — P 10 — 11 , 225 ,

وقد يصح القول ان الماسونية كانت بمثابة دعوة للتآخي بين الاديان ، ومن هنا جاءت مبادؤها الثلاثة المشهورة : « الحرية والاخاء والمساواة » .

ورد في الدستور الاول الذي وضعه جيمس أندرسن للماسونية الحديثة في عام ١٧٢٣ قوله : ان الماسونية القديمة كانت تلزم أعضاءها على اعتناق دين البلد الذي تعمل فيه ، أما الآن فقد رؤي حضهم على اعتناق ذلك الدين الذي يتفق عليهجميع الناس تاركين آراءهم الخاصة جانباً، أعني أن يكون المرء فاضلا صادقا ذا عفة وشرف ، ولهذا صارت الماسونية مهدا للاتحاد وسبيلا لبث الصداقة الخالصة بين الناس . (٦)

وجاء في كتاب «الآداب الماسونية » ما نصه : «والماسونية تنور العقل وترشد الخاطر وتقلل التعصب ، فهي مع تشديدها على كل عضو باتباع شرائط دينه ، ومع امتناعها عن قبول الذين لم يعرفوا التدين ، تفرض على أعضائها التواد بغض النظر عن اختلاف المذهب ، وتمنعهم من المناظرة في الامورالمذهبية التي توجبالضغائن وتولد التعصب وهو آفةالعمران.. وهذه أكبر نعمة من نعم الماسونية جادت بها على البلدان التي دخلتها ، والادلة عليها ظاهرة فحيث تقوى الماسونية يضعف التحزب وتقوى الآداب ، وحيث لا توجد الماسونية يعم الجهل والانقسام ويكثر الشقاق بين الانام . » (٧)

وجاء في كتاب « الحقائق الاصلية في تاريخ الماسونية العملية » كذلك : « والماسونية منتشرة انتشارا يحسدها عليه أعظم الاديان الموجودة التي أمتدت في أربعة أقطار المعمور ، لان تلك تفرق في العالم بين الشعوب فمن عابد صنم وكافر وجاحد ومبدع ومخالف ، بينما نرى الماسونية فاتحة ذراعيها لقبول أولادها داعية اياهم اخوة ... فالماسونية تصلح ما فسد من عقائد الاديان بتعليمها المحبة والتواثق على السراء والضراء ... » (٨)

لا حاجة بنا الى القول ان هذه الدعوة الى التآخي بين الاديان

---

(٦) محمد عبد الله عنان (تاريخ الجمعيات السرية) ـ القاهرة ١٩٥٤ـ ص٩٦.
(٧) شاهين مكاريوس (الآداب الماسونية) ـ القاهرة ١٨٩٥ ـ ص ٥٤ ـ ٥٥.
(٨) شاهين مكاريوس (الحقائق الاصلية) ـ القاهرة ١٨٩٧ ـ ص ١٧ .

لابد أن تغضب رجال الدين • والواقع ان القساوسة ولا سيما الكاثوليك منهم اعتبروا الماسونية كأنها دعوة الى نبذ المسيحية ومن هنا بدأت الظنون والشبهات تحوم حول الماسونية في كل مكان ذهبت اليه • ومما ساعد على انتشار تلك الشبهات حول الماسونية ما كان لها من أسرار واشارات خاصة لا تبوح بها لأحد ، فصار خصومها يتهمونها بأنها تعقد اجتماعاتها مع ابليس وتستخدم السحر وتشتغل بالكيمياء •

وفي ٢٧ نيسان من عام ١٧٣٨ — أي بعد تأسيس الماسونية الحديثة بواحد وعشرين عاما — أصدر البابا كلمنت الثاني عشر بيانا أعلن فيه تحريمها واعتبر كل من ينتمي اليها مرتدا عن دينه • وهذا هو نص البيان:

« ان الانباء العمومية قد أفادتنا أنه تألفت بعض الجمعيات السرية تحت اسم فريماسون أو بنائين أحرار أو أسماء أخرى شبيهة بهذا تختلف باختلاف اللغات ، وأن هذه الجمعيات تزيد كل يوم انتشارا وعدوى ، ومن خواصها أنها تضم اليها رجالا من كل الاديان والشيع يتظاهرون خارجاً بالآداب الطبيعية وهم يرتبطون بينهم بروابط الاسرار الغامضة على مقتضى ما سنوه لهم من السنن ، فنراهم يقسمون على التوراة وتحت طائلة أشد العقابات بأنهم يسكتون أبدا عن اعمال جمعيتهم ، على أن الاثم مهما اختفى لابد أن ينكشف يوماً • وهذا ما جرى لتلك الجمعيات التي بلغ العموم شيء من أعمالها السيئة ، فحرك في قلوبهم الريب في صحة نياتها ، وتحقق العقلاء أن الانضمام اليها دليل على خبث الداخل فيه وعلى فساده • وحسبنا شاهدا على أن اجتماعاتها الخفية هي للشر لا للخير أنها تبغض النور • وقد ازداد اشمئزاز الناس العقلاء من هذه الجمعيات الى حد أوجب حمل كل الدول على معاكستها وتشتيت شملها• واذا فكرنا في الاضرار الجسيمة التي تنجم عن هذه الجمعيات السرية رأينا منها ما يوجب القلق سواء كان لسلام الممالك او لخلاص النفوس • ومن ثم بعد أخذ رأي اخوتنا الكرادلة وبعلمنا التام وبقوة سلطتنا الرسولية حكمنا وقضينا بأن هذه الشركات والجماعات المعروفة باسم الفريماسون وبأي اسم كان مثله يجب رذلها ونفيها • وبناء عليه نرذلها

نحن ونشجبها بقوة هذا المنشور الذي نريد أن يكون مفعوله مخلدا .
والحالة هذه نخطر بحكم الطاعة المقدسة على كل المؤمنين وعلى كل فـرد من أفرادهم من أي مرتبة أو حالة كانوا ، من اكليريكيين أو علمانيين ، من قانونيين أو غير قانونيين ، أن ينشئوا جمعيات ماسونية أو ينشـروها أو يساعدوها أو يقبلوها في بيوتهم او يدخلوا فيها او يحضروا حفلاتها ، وذلك تحت طائلة الحرم يسقط فيه المؤمن بذات الفعل ودون تنبيه خاص ، ونحفظ لنا ولخلفائنا الحل من هذا الخطأ ولا نسمح لاحد أن يحل عنه دون رخصتنا اللهم الا في ساعة الموت » . (٩)

كان هذا البيان البابوي ايذانا بنشـوب الصـراع الشـديد بين الماسونية والكاثوليكية . فقد بدأت الحكومات الكاثوليكية وخاصة فـي أسبانيا والبرتغال تطارد الماسونيين وتضطهدهم ، كما صـار الماسونيون من جانبهم يعلنون ثلب البابا ويحاربون المذهب الكاثوليكي بكل شدة .

بـين المحافظـة والتجديد :

يقدر عدد المحافل الماسونية في العالم ــ حسبما ورد فـي دائـرة المعارف الدولية لعام ١٩٦٤ ــ باثنـين وثلاثين ألف محفل ، ويقدر عـدد أعضائها ما بين الخمسة والستة ملايين . (١٠)

وليس للماسونية مركز عالمي عام لكن لها محافل رئيسية مستقلة بعضها عن بعض ، ولكل محفل رئيسي محافل اعتيادية تابعة له ، ويسمى المحفل الرئيسى « المحفل الاكبر » أو « الشرق السامي » أو « المجلس السامي » أو غير ذلك من الاسماء حسب اصطلاح المؤسسين لـه ، واذا أسس مثـل هذا المحفل في أحد الاقطار وجب الحصول على اعتراف المحافل الرئيسية من الاقطار الاخرى .

وللماسونية درجات أساسية ثلاث موجودة في كل المحافل تقريبـا

---

(٩) لويس شيخو (السر المصون في شيعة الفرمسون) ــ بغداد ١٩٦٦ ــ ص ١٧٠ ــ ١٧١ .

(10) Gosnell (Masonry) in The Encyclopedia International -- 1964

وهي : المبتديء والزميل والاستاذ ، وهي مأخوذة من مراتب البنائين القدماء . ثم أضيفت بعدئذ درجات أخرى عالية وهي تختلف باختلاف الطرائق المتبعة ، كالدرجة الثامنة عشر والثالثة والثلاثين في الطريقة الاسكتلندية القديمة المقبولة ، ودرجة النخل والصدف في الطريقة الامريكية ، والدرجة السادسة والتسعين في الطريقة المنفيسية ، ودرجة العقد الملوكي وفارس الهيكل والاستاذ المختار في طريقة يورك الخ ...

واذا أريد تأسيس محفل اعتيادي في مكان ما وجب اجتماع سبعة ماسونيين أو أكثر من درجة استاذ أو أعلا منها ، فيطلبون الاذن لهم بالتأسيس من المحفل الرئيسي في قطرهم اذا كان موجودا ، أو من محفل رئيسي في قطر آخر . وحين يتم تأسيس المحفل يجوز له قبول أعضاء جدد فيه حسب الاصول المتعارف عليها .

يمكن تصنيف الماسونية في العالم الى فئتين متمايزتين : محافظة ومجددة . فالماسونية المحافظة هي المنتشرة في بريطانيا واسكندنافيا والمانيا والولايات المتحدة ، وهي تدعو الى طاعة الحكومة والانسجام مع النظام القائم . أما الماسونية المجددة فهي المنتشرة في فرنسا وأوربا الجنوبية وامريكا اللاتينية ، وهي تدعو الى محاربة التسلط الديني والاستبداد السياسي .

يعزو الدكتور روسك الفرق بين الفئتين الى ما يحيط بكل منهما من ظروف سياسية واجتماعية مختلفة ، فالفئة الاولى من الماسونية تعيش في بلاد يسودها النظام الحر نسبياً وليس فيها صراع عنيف بين الكاثوليك والبروتستان ، ولهذا فهي لا تجد في نفسها حافزاً للتدخل في امور الدين والسياسة . أما الفئة الثانية فهي تعيش في بلاد تختلف عن تلك في أوضاعها الدينية والسياسية ، ولهذا فهي أصبحت ذات نزعة ثورية تجاه الاوضاع السائدة في بلادها قليلا او كثيرا . (١١)

والملاحظ ان الماسونية المحافظة ذات مكانة محترمة في المجتمع الذي تعيش فيه ، وهي مكشوفة لا تتكتم الا في حدود معينة ، بينما

---

(11) Roucek (Social Control) — New York 1947 — P 800 .

الماسونية المجددة تميل الى التكتم بوجه عام وينظر اليها الناس بعين الريبة والاتهـــــام .

حين ندرس عظماء الرجال في البلاد التي تنتشر فيها الماسونية المحافظة نجد عددا غير قليل منهم ماسونيين . عثرت في أحـد المراجع الماسونية الانكليزية على قائمة باسماء العظماء الذين هم ماسونيون . (١٢) أذكـر فيما يلي بعضهم :

الملوك : أوسكار الاول ، شارلس الخامس عشر ، أوسكار الثـاني (السويد والنرويج) ، غوستاف الخامس (السويد) ، فردريك السابع ، فردريك الثامن (الدانمارك) ، اسـكندر الاول (روسيا) ، فردريـك الكبير ، فردريك وليم الثالث (بروسيا) ، القيصر فردريك (المانيـا) ، ليوبولد الاول (بلجيكا) ، جورج الرابع ، وليـم الرابع ، ادوارد السابع ، ادوارد الثامن ، جورج السادس (بريطانيا) .

رؤساء الولايات المتحدة : واشنطن ، مـونرو ، جاكسن ، بولـك ، بوكانين ، أندرو جونسن ، غارفيلد ، ماكنلي ، ثيودور روزفلت ، هاردنج ، كولدج ، ترومن .

القواد : نابليون ، ولنجتون ، نلسن ، كتشنر ، برشنج ، ماكارثر .

الكتاب : فولتير ، غوته ، دويل ، وايلد ، كبلنج ، توين .

المشاهير : بيتهوفن ، موزارت ، ميرابو ، مازيني ، غاريبالدي ، فورد ، أغا خان الثالث ، تشرشل ، فلمنج ، كيبل ، لندبرغ .

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن الماسونية ذات أهمية اجتماعية كبيرة في الولايات المتحدة ، وعدد الماسونيين فيها يفوق عددهم في أي قطر آخر في العالم ، ولهم في كل ولاية محفل رئيسي خاص بها حيـث يتبعه عدد كبير من المحـافل الاعتيادية . يقـول الدكتور روسـك : ان الماسونية تمثل الطبقة العالية في المجتمعات المحلية في الولايات المتحدة ، فالعضوية فيها تدل على المكانة المحترمة والنفوذ ، ولهذا فان نفوذ الشخص قد يزداد بانتمائه الى الماسونية ، وهو يعتمد على اخوانه الماسونيين فـي

(12) Pick And Knight (op . cit .) — P 290 — 292

الملمات . ويضيف الدكتور روسك الى ذلك قائلا : ان الماسونية في أعمالها الخيرية تقصر نفعها على أعضائها وعائلاتهم فقط ، ولذا فهي تختلف عن بعض الجمعيات الاخرى التي تحاول بأعمالها الخيرية معونة المعوزين عموماً كجمعية الروتاري مثلاً . (١٣)

الاشـارة والاسـرار :

العضو في أي محفل ماسوني يستطيع أن يطلب المساعدة من جميع الماسونيين في العالم ، وهناك اشارة سرية يتعارفون بها في أي مكان يتلاقون فيه ، وهي على انواع فمنها ما هو خاص بالمصافحة ، وآخر للاستغاثة من بعيد ، وثالث للتعارف من قريب ، والمظنون أنها تتبدل بين حين وآخر لكي لا يكتشفها الغريب فيستفيد منها .

حدثني صديق كان يدرس في مصر قبل أربعين سنة فقال انه ذهب الى المفوضية المصرية ببغداد في ذلك الحين ليحصل منها على سمة الدخول الى مصر ، ولم يكد يدخل الى غرفة الموظف المختص حتى نهض اليه الموظف مرحباً وأبدى همة في انجاز معاملته ، ثم أخذ بيده وذهب به الى غرفة مجاورة خالية وسأله : متى دخلت في الماسونية ؟ وقد تعجب الصديق من سؤاله هذا لانه لم يكن ماسونياً ولم يفكر أن يدخل الماسونية في يوم من الايام . وقد تبين له اخيراً أنه عند دخوله الى غرفة الموظف كان قد أبدى الاشارة الماسونية عن طريق الصدفة ومن غير قصد ، ولهذا ظن الموظف أنه ماسوني . وقد سألت الصديق عن ماهية تلك الاشارة التي أبداها فقال انه لا يعرفها ولا يدري كيف قام بها انما هي جاءت من تلقاء نفسها اعتباطاً .

وقد حدث لي شخصياً أني كنت في احدى الحفلات منذ سنوات ، فتقدم مني رجل لا أعرفه وصافحني ثم وضع ابهامه اثناء المصافحة في باطن كفي وأخذ يحركه بطريقة أثارت انتباهي ولكني لم أدرك مغزاها في حينها ، ثم بدا لي بعدئذ أنها ربما كانت اشارة ماسونية . وحدث لي

(13) Roucek (op . cit .) — P 302

مرة أخرى أن صافحني رجل فأمسك بابهامي الايمن وضم راحة كفه حوله وأخذ يخرج الابهام ويدخله على طريقة الميل والمكحلة • وربما كانت هذه نوعاً آخر من الاشارة الماسونية ـ والله أعلم !

والمعروف أن للماسونية اسراراً أخرى علاوة على الاشارة السرية الخاصة بهم • ولا أكتم القاريء أني حاولت التعرف على تلك الاسرار فلم أوفق ، وكل ما حصلت عليه منها هو ما يذكره الخصوم عنها وهي حصيلة لا يوثق بها طبعاً ، فمن طبيعة الخصوم أنهم يبالغون في نقل المعلومات وقد يختلقونها اختلاقاً •

نشرت مجلة « القوات المسلحة » القاهرية في عددها الصادر في الاول من حزيران ١٩٦٤ تحقيقاً صحفياً كانت قد أجرته مع الفقيه المعروف الشيخ محمد أبو زهرة ، فقد كان هذا الرجل ماسونياً ثم خرج منها في عام ١٩٥١، وقد وجهت المجلة اليه بضعة أسئلة وكان أهم ما ورد في أجوبته للمجلة قوله : « استلفت نظري هيكل لآدمي كان موضوعاً في مدخل المحفل ، وقيل لي أنه لاحد الاعضاء وقد تبرع به بعد موته لكي يوضع في المحفل دليلاً على اخلاصه للماسونية حتى بعد موته ، كما أحسست أيضاً أن هناك أموراً لا يعلمها كل الاعضاء بل بعضهم فقط ، كما أحسست أنني كنت مراقباً لدرجة أنه لايسمح لي بدخول كل حجرات المحفل ، بل كانت اقامتي محدودة في غرفة واحدة فقط ••• واعتراني الشك منذ اليوم الاول ولاحظت ان هناك تيارات خفية أما من ناحية المباديء أو من الاشخاص ••• »

يخيل لي أن رؤساء المحفل انما منعوا الشيخ أبو زهرة من الاطلاع على كل أسرارهم لانه كان عضواً مبتدئاً ، والمظنون أن العضو كلما ارتفع في الدرجات الماسونية زاد اطلاعه على اسرارها • وهذا أمر شهدناه لدى طائفة الشيعة الاسماعيلية عندما كانت تضطلع بدعوة سرية لمحاربة الخلافة العباسية ، فقد كان لتلك الدعوة سبع درجات وكلما ارتفع العضو في درجته انكشفت له أسرار من فلسفة الدعوة لم يكن يعرفها من قبل ، حتى

اذا وصل العضو الى الدرجة الاخيرة انكشفت له جميع الاسرار • (١٤)
وليس من المستبعد ان تكون الماسونية قد اقتبست هذا التنظيم من الاسماعيلية قديماً عن طريق الفرسان العائدين من الحروب الصليبية •

وهناك صيغة لليمين يحلف بها العضو عند انتمائه للماسونية ، وهذه الصيغة تختلف باختلاف الطرائق المتبعة ، نذكر فيما يلي نموذجاً منها هو :
« أنا فلان أقسم بالله الرحيم مهندس الكون الاعظم في حضرة هذا المحفل الموقر وأتعهد أمام الحاضرين أني أصون وأكتم الاسرار الماسونية التي تباح لي ولا أبوح بشيء منها ، وأقسم أيضاً أني لا أكتب هذه الاسرار ولا أطبعها ولا أدل عليها وأن أمنع بكل قدرتي من يريد أن يفعل ذلك كي لا تكشف أسرارنا لغير أبناء عشيرتنا ، وأقسم بشرفي بلا مواربة أني أحافظ على قسمي هذا وأتودد الى اخواني وأعضاء محفلي وأساعدهم وأعاونهم في احتياجاتهم وأواضب على الحضور في جلسات المحفل بقدر استطاعتي وأحافظ على طاعة قانون المحفل الاكبر • وان حنثت في يميني أكن مستحقاً قطع عنقي واستئصال لساني والقاء جثتي لطيور السما ولحيتان البحر • واني راض بأن جثتي تعلق في محفل ماسوني لاضحى عبرة للداخلين من بعدي ثم تحرق ويذر رمادها في الهواء » • (١٥)

وهنا قد يواجهنا سؤال : لماذا هذا الحرص الشديد من الماسونية على كتمان أسرارها ؟ يجيب شاهين مكاريوس على ذلك بقوله : « ولذلك أسباب كثيرة اهمها أن الماسونية تأسست في أيام الظلم والاضطهاد ، وكان أعضاؤها يخافون من أهل الفساد والاستبداد اذا هم صرحوا بنواياهم على التكاتف لترقية المظلومين واعانة الادباء على نشر المبادىء الحرة بين العالمين ، فجعلوا أمورهم سرية ، ونحن ورثنا عنهم هذه الغايات الشريفة والتعاليم السامية ، فوجب علينا أن نقتفي آثارهم فيها ، ونكتم الأسرار التي كتموها ••• وليس استتار الامور الماسونية شيئاً جديداً في الوجود فقد جرى على ذلك أشهر الحكماء والفلاسفة من أيام القدم

---

(١٤) علي الوردي (منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته) — القاهرة ١٩٦٢ — ص ٢٠٤ — ٢٠٦
(١٥) لويس شيخو (المصدر السابق) — ص ٦٧ — ٦٨ •

اذ كانوا يعلمون الحقائق ويكتمونها في صدورهم فلا يلقونها الا للمستحق على الطريقة الماسونية الحالية ، وذلك خوفاً على الحقيقة من اضطهاد الجاهلين ، وصوناً لها من العبث اذا تناقلتها أفواه المتشدقين ... » (١٦)

ومما يجدر ذكره أن خصوم الماسونية يتهمونها بأنها تغتال العضو الذي يبوح بأسرارها ، ويروون في ذلك قصصاً عجيبة ، ولكن الماسونيين يبرئون أنفسهم من مثل هذه التهمة ويعتبرونها من اختلاق الخصوم .

وعلى أي حال فقد حدثت في الولايات المتحدة عام ١٨٢٦ حادثة لها مغزاها في هذا الشأن خلاصتها أن رجلاً اسمه وليم مورغان كان قد أطلع على أسرار الماسونية واتفق مع أحد الصحفيين على كشف تلك الاسرار ، وقد بذل الماسونيون بعض الجهود لاسكاته من غير جدوى. (١٧) وبعد قليل قبضت الشرطة عليه بتهمة السرقة ، فمكث في الحبس ليلة واحدة ثم نقل الى قلعة نياغارا وحبس هناك بضعة أيام ، ثم اختفى أثره بعدئذ ولم يعرف عنه شيء . (١٨) وصارت هذه الحادثة ذريعة بأيدي خصوم الماسونية في الولايات المتحدة فشنوا عليها حملات شعواء ، وهاجموا بعض قاعاتها وأغلقوا الكثير من محافلها ، واستمروا على ذلك عشر سنوات . (١٩)

ان المؤرخين الماسونيين حين يذكرون هذه الحادثة يحاولون تبرئة الماسونية من تهمة قتل الرجل ولكنهم مع ذلك لا يستطيعون أن يأتوا بما يكشف الغموض عنها . والذي يرجح في الظن ان الماسونية كان لها ضلع في الحادثة على وجه من الوجوه .

الماسونية وبريطانيا :

ان العلاقة بين الماسونية وبريطانيا أقوى مما هي بينها وبين أية دولة

---

(١٦) شاهين مكاريوس (الآداب الماسونية) — ص ٣٩ .

(17) Pick And Knight (op . cit .) — P 235 .

(18) Hawkins (op . cit .) — P 159 .

(19) Pick And Knight (op . cit .) — P 236

SS

أخرى . رأينا سابقاً كيف أن الماسونية نشأت في بريطانيا ومنها انتشرت الى بقية أقطار العالم ، والواقع ان الماسونية لم تلق في بريطانيا أي منع أو اضطهاد على نحو ما لقيت في الكثير من البلاد الاخرى ، وعندما أصدر البرلمان البريطاني في عام ١٧٩٨ قراره بمنع الجمعيات السرية استثنى منها الجمعية الماسونية . (٢٠) وقد دخل في الماسونية خمسة من ملوك بريطانيا هم : جورج الرابع ، ووليم الرابع ، وادوارد السابع ، وادوارد الثامن ، وجورج السادس . وقد دخل في الماسونية أيضاً زوج الملكة الحالية .

يمكن القول ان بريطانيا أفادت الماسونية كمثل ما استفادت منها ، فقد كان البريطانيون ينشرون الماسونية في كل مكان ذهبوا اليه تجاراً أو مستعمرين أو فاتحين ، وقد استطاعوا في الوقت نفسه أن يجعلوا لهم بوساطة الماسونية كثيراً من الاصدقاء والانصار في البلاد التي ذهبوا اليها .

في عام ١٨٨٥ ألقى الجنرال ولسلي ـ وهو القائد البريطاني الذي فتح مصر وقضى على ثورة عرابي في عام ١٨٨٢ ـ كلمة في محفل ماسوني في ليفربول قال فيها : « اني سافرت في معظم الامصار ، وجبت الاقطار ، وعانيت الشدائد والاهوال ، وقاسيت كل مر في القتال ، وبليت بمر الدهر كما حظيت بحلوه ، وتقدمت والحمد لله في مدارج الفخر والرئاسة ... وها أنا اقول أمامكم اليوم قولاً لا ريب في صحته هو أني استسهلت الصعب وسخرت بالاهوال في كل البلاد لاني حيث توجهت كنت ألقى لي اخواناً من الماسون يرحبون بي ويساعدونني على ما أريد ، ولست ارتاب في أن نجاحي كان لاني أستاذ في الماسونية » . (٢١)

ويعتز الماسونيون بالملك ادوارد السابع بوجه خاص ، ويقدرونه كل التقدير ، لانه كان شديد الحب للماسونية وقد بذل كل جهده في سبيل ترقيتها ونشرها في أنحاء الامبراطورية البريطانية التي كانت في عهده لا تغيب الشمس عنها .

---

(20) Roucek (op . cit .) — P 301

(٢١) شاهين مكاريوس (المصدر السابق) ـ ص ٦١

دخل هذا الرجل في الماسونية عام ١٨٧٠ وكان يومذاك ولي عهد أمه الملكة فكتوريا . وبعد أربع سنوات من دخوله الماسونية انتخب استاذاً أعظم للماسونية ، وقد جرت حفلة تنصيبه في قاعة « ألبرت » المشهورة في لندن ، وكانت حفلة عظيمة اذ اجتمع فيها من الماسونيين عدد لم يجتمع مثله في التاريخ . (٢٢)

وفي ١٣ حزيران ١٨٨٧ جرى الاحتفال في لندن بالعيد الخمسيني لجلوس الملكة فكتوريا على العرش ، وانتهز الماسونيون الفرصة فأرسلوا مندوبين عنهم الى لندن ، وكان عددهم يزيد على سبعة آلاف ماسوني يمثلون ألفاً وسبعمائة محفل من شتى أنحاء العالم . وقد أعدوا احتفالا خاصاً بهم في قاعة فسيحة بمدينة لندن حضروها بملابسهم الماسونية وجلسوا حسب درجاتهم . وقام ولي العهد فألقى كلمة أعرب فيها عن سروره الزائد بهذا الاحتفال ، ثم قال : « اني افتخر بكوني من ذرية ملوك ساعدوا الماسونية منذ عهد قديم ونشطوها لعلمهم أن مبادءها صادقة، وأعمالها وان خفيت على بعض الناس مآلها كلها الى خير الانسانية » . وبعد أن انتهى من كلمته نهض سكرتير الحفلة الكولونيل كلارك فألقى كلمة بالنيابة عن المحافل الماسونية خلاصتها أن الماسونيين في جميع الاقطار التابعة لبريطانيا يعربون عن اخلاصهم للحكومة وحبهم لشخص الملكة ، ويطلبون من مهندس الكون الاعظم أن يطيل بقاءها وأيام حكمها . ثم قام اللورد كارنافون راجياً أن تحظى تلك الكلمة بالقبول وأشار الى مساعدة العائلة المالكة الانكليزية للماسونية وقال : « ان هذه الجمعية ترأس عليها سبعة عشر أميراً من بيت الملك في أوقات مختلفة ، وان جلالة الملكة فكتوريا هي ابنة ماسوني ، وأن أكثر أعضاء عائلتها الشريفة ماسونيون » . وقام اللورد لاتوم فأيد رأي اللورد كارنافون بأن تحظى الكلمة بالقبول ، وعند هذا أجمع الحاضرون على قبولها ، وعزفت الموسيقى بالسلام الملكي ، ثم وقف الجميع وصفقوا ثلاث مرات للملكة ، وعزفت الموسيقى مرة أخرى .

---

(22) Pick And Knight (op . cit .) — P 130 .

وفي ٢٢ حزيران ١٨٩٧ جرى احتفال آخر في لندن بمناسبة **العيد** الستيني للملكة فكتوريا حضره ثمانية آلاف ماسوني ، وقدموا **للملكة** عريضة تهنئة . وكان سكرتير الاحتفال دوق كنوت الابن الثاني للملكة ، فلما انتهى الحاضرون من توقيع العريضة أخذ الدوق القلم الفضي الذي وقعوا به واحتفظ به وقال : « هذا أعظم قلم كتب كتابة ماسونية في تاريخ البشرية وسأحفظه أثرا خالدا لهذا الاجتماع » ، فصفق الحاضرون « حتى كادت أساسات البناء تتزعزع » . ثم تواردت الرسائل والبرقيات من الماسونيين في مختلف أرجاء الارض بالتهنئة للملكة . (٢٣)

وفي عام ١٩٠١ ماتت الملكة فكتوريا فخلفها على العرش ولي عهدها. وقد اضطر الملك الجديد أن يستقيل من منصب « الاستاذ الاعظم » للماسونية ، فاختير أخوه دوق كنوت بدلا عنه ، أما هو فقد **أصبح** « حامياً » للماسونية . وقد استمر دوق كنوت رئيساً للماسونية ثمانية وثلاثين عاما ، ويعتبر عهده أعظم عهود الماسونية اذ هي ازدهرت فيه ونجحت نجاحاً عظيماً . وحين اضطر هذا الدوق أن يستقيل من الرئاسة لسبب صحي في عام ١٩٣٩ اختير دوق كنت في مكانه . وظلت الرئاسة الماسونية حتى الآن يتعاقب عليها أمراء العائلة المالكة البريطانية واحدا بعد الآخر . (٢٤)

الطقوس الماسونية :

للماسونية طقوس عجيبة يحرصون على القيام بها عند تأسيس محفل من محافلهم ، أو عند قبول عضو جديد فيه أو ترقيته أو موته . وهذه الطقوس تختلف باختلاف الطرائق المتبعة انما هي في الاساس واحدة .

وتجري الطقوس بشكل تمثيلي حيث يقوم الاعضاء بتمثيل الادوار فيها حسب درجاتهم ومناصبهم . والى القاري نموذجاً منها أنقله عن أحد

---

(٢٣) شاهين مكاريوس (فضائل الماسونية) ــ القاهرة ١٨٩٩ ــ ص ٢٠٣ ــ ٢٠٥ .

(24) Pick And Knight (op . cit .) — P 130 — 185 .

المراجع الماسونية [٢٥] وهو خاص بترقية أحد الاعضاء الى الدرجة الثامنة عشرة حسب الطريقة المتبعة في المجلس السامي المصري لعام ١٩٢٦ .

يتم اعداد ثلاث غرف في المحفل احداهما سوداء والثانية حمراء والثالثة تحضيرية مع فرش الارض ووضع الاستار والرموز فيها حسبما يقتضيه دستور الطريقة ، ويقوم بالادوار فيها الرئيس ويلقب بـ « كلي الحكمة » ، والمحافظان الاول والثاني ، والامراء ، والخبير ، وحارس الحصن ، وفارس البلاغة ، وروفائيل ، بالاضافة الى طالب الترقية . وعند افتتاح الحفلة يعلن الرئيس اسم الطالب فينسحب الامراء الى الغرفة السوداء حيث يلبسون ملابس سوداء ومئزر أسود ، وعلى أثر ذلك يسمع طرق على الباب ، فتجرى المحاورة على النمط التالي :

المحافظ الثاني : انذار خطر أيها الاخ كلي الحكمة .

الرئيس : ايها المحافظان الاول والثاني انظرا من الذي اتي ليزعجنا ؟

المحافظ الثاني : (يذهب الى الباب ويستفهم من الخبير عن الطارق) ممن هذا الانذار ؟

الخبير : هذا فارس الشرق والغرب المستحق سلمني طلباً وعرض على الأخ كلي الحكمة ، وهو الآن يلتمس الدخول للحصول على الرد .

المحافظ الثاني : انتظر حتى أخبر كلي الحكمة (يتوجه نحو الرئيس) فارس الشرق والغرب المستحق قدم التماساً لك أيها الاخ كلي الحكمة بواسطة الخبير ، وهو الآن يلتمس الدخول ليستلم الجواب .

الرئيس : قل للاخ الخبير أن يقوده الى هنا .

الخبير : (يدخل مع الطالب ويقفان في الغرب) ايها الاخ كلي الحكمة اقدم لك الاخ « فلان » .

الرئيس : من أنت ومن تكون ؟

الطالب : ولدت شريفاً ومن قبيلة جوداه .

الرئيس : ما هي رتبتك ؟

الطالب : فارس الشرق والغرب .

---

(٢٥) عبد المجيد يونس (الدرجة الثامنة عشر ـ درجة الفرسان الحكماء) ـ القاهرة ١٩٢٦ ـ ص ٢١ ـ ٤٨ .

ss

الرئيس : اعطني الكلمة (يأخذ الكلمة ويستفهم عن عمر الطالب ثم يواصل كلامه) لقد قبل المقام التماسك ، ولكن مع اعجابنا بجدك وشجاعتك وثقتنا بأمانتك وحسن سيرك نأسف بأنك أتيت الينا في وقت نحن محاطون فيه بالاكدار والاحزان العميقة ، فترى دلائل الرعب على وجوهنا ، لان الارض تزلزلت ، والصخور تشققت ، وحجاب المحراب تمزق الى شطرين (يُسمع صوت ناقوس وتزاح الستائر التي أمام المذبح الى الجوانب) وقد خيم الظلام ، فقد هدمت مذابحنا ، وانسكب من الحجر المكعب دماء وماء ، فخسف النجم الساطـع ، وضرب راعينا ، وفقدت الكلمة (سكوت وموسيقى بطيئة) ومع ذلك فقد أحسنت بوصولك في ساعة الخطر هذه ، لانه بما أنك برهنت بأنك فارس شجاع باسل فنحن نثق بأنك ستساعدنا في مساعينا لتعوض خسارتنا ونسترد الكلمة ، وفي هـذه الحالة فقط تتمكن من انالتك هذا الترقي الذي ترغب فيه باخلاص •

الطالب : اني أعد بأمانة بأن أساعدكم في أعمالكم وأن أطيع كـل ما تأمرونني به •

الرئيس : اذن ايها الفارس المستحق اني أشير عليك بأن تسافر ثلاثة وثلاثين يوماً ، أحد عشر يوماً الى الشمال ، وأحد عشر يوماً الى الجنوب، وأحد عشر يوماً الى الغرب ، عائدا الي من الشرق بكل ما تتحصل عليـه من المعلومات أثناء سفرك ، واني ألفت نظرك بنوع خاص الى جمال عهدنا الجديد السامي ولكي تتمكن من تقديره حق قدره دعنا نسـأل الله أن يمنحنا المعونة وحسن الختام (يتلو صلاة ثم يواصل كلامه) ان الاخ الخبير سيقودك الى عامود الحكمة في الشمال ، ثم الى عامود الجمال في الجنوب، ثم الى عامود القوة في الغرب ، فاذهب بسلام (تنطلق موسيقى رهيبـة بينما يسير الطالب في سفره وراء الخبير ، وفي كل مرة يمر بها أمام المحراب ينحني ، وعند وصوله الى الاعمدة في الدورة الثالثة والخامسة والسابعة يأخـذ الحروف ألف وراء وميم الموضوعة هنـاك واحـدا بعد الآخر ، ثم يقف في الغرب) •

الخبير : ايها الاخ كلي الحكمة أقدم لك فارس الشـرق والغـرب هذا الذي أتم سفر الثلاثة والثلاثين يوما المفروضة عليه •

الرئيس : ما الذي حصلت عليه أثناء سفرك .

الخبير : لقد بحثنا في الداخل وحول الاعمدة ، في الشمال والجنوب والغرب ، عن الكلمة المفقودة ، ولكننا لم نفز الا بالحصول على الحروف، التي تتشرف بتقديمها اليك .

الرئيس : (يتسلم الحروف) اني أهنئك على النجاح الذي وفقت اليه في سياحاتك . هذه الحروف الاولى من أسماء الفضائل التي نرجو أنك بمساعدتها تتوفق الى اكتشاف الكلمة المفقودة . ولكن قبل أن أزيدك أيضاحاً يجب عليك أن تقسم قسماً رهيباً بانك تحفظ أسرار ورموز هـذه الدرجة وأعمال مقامنا الخفية حفظاً تاما ، فهل أنت مستعد لاداء هذا القسم العظيم (يجيبه الطالب بكلمة نعم) اذن تقدم واركع أمام المحراب وضع يدك اليمنى على الكتاب الكريم بينما تجعل اليد اليسرى تقاطع اليمنى ، واذكر اسمك بالكامل واتبعني فيما أقول (يتلو القسم) أرجوك أن تختتم هذا القسم بتقبيل الكتاب الكريم سبع مرات (يفعل الطالب ذلك) انهض ايها الفارس (ينهض الطالب ويعود الى الغرب) أرى من الواجب أن أعلمك أن السبعة دوائر التي سافرت حولها تمثل الازمنـة الستة لخلق العـالم التي أوجدها الخالق سبحانه وتعالى في ستة أيام ثم استوى على العرش . لقد هنأتك من قبل على عودتك السعيدة من أسـفارك ، وعلـى وجدانك الحروف الاولية لا سيما الثلاث مبادىء الاولية لنظامنا أي درجتنا وهـي ألف وراء وميم ، والتي بمساعدتها ــ وليس في ذلك شك ان شاء الله ــ ستنجح تماماً في الوصول الى نهاية غرض جميع أبحاثنا ، وهي تلك الكلمة التي يجب أن يتوقف عليها خلاصنا الابدي ، لان الايمان هو مادة الأشياء التي نأملها ، وهو الثقة بالاشياء التي لا نراها . ولان الرجاء لا يخجل ، ولان المحبة تتحمل كثيرا وهي شفوقة لا تحسد ولا تفاخر بنفسها ولا تطلب لنفسها ولا تغضب بسهولة ولا تفكر بالسيئات ولا تسـر بالاثم ولـكن تسر بالحق وتحتمل كل شيء وتصدق كـل شيء وترجو كل شيء ، المحبـة لا تسقط ابدا فلنصلي (يتلو فارس البلاغة الصلاة) يمكن للطالب الآن أن يذهب ويستعد بالتأمل فيمـا أوحى به الكتاب الكريم بالتمرين علـى الايمان والرجاء .

عند هذا يخرج الطالب ثم يدخل مرة أخرى ليمثل دور المسافر الباحث عن الكلمة المفقودة ، وبذا ينتهي القسم الاول من الطقوس • أما القسم الثاني فيبدأ بموكب مؤلف من جميع الاعضاء مرتبين حسب درجاتهم، ويدور الموكب في الغرفة السوداء بينما تعزف الموسيقى ألحاناً رهيبة ، والكل ينحنون كلما مروا بالمحراب • ثم يدخلون بعدئذ في الغرفة الحمراء ما عدا الخبير والطالب فان حارس الحصن يمنعهما من الدخول ويطلب منهما اعطاء الكلمة ، وتجرى المحاورة التالية :

الخبير : لا يمكننا ، كلانا مسافران للبحث عن الكلمة المفقودة آملين أن نتحصل عليها بالمثابرة على الايمان والرجاء والمحبة ومساعدة الاله الحي القيوم •

حارس الحصن: ان مظهر ملابسكما لا يتفق مع الخشوع الذي يجب ان يكون فيه أولئك الذين يرغبون في استرداد الكلمة المفقودة • ارجعا وارتديا ثياب الخضوع لأتمكن من ارسال روفائيل لاحضاركما •

يعود الطالب والخبير الى الغرفة التحضيرية حيث يوضع على رأس الطالب شاش أسود ويجرد من الجواهر والملابس الماسونية كلها ، وفي الوقت نفسه يسمع صوت قرقعة ويخفت النور وتوضع على الارض عظام وجماجم مع قليل من الملح ، وتعزف موسيقى بطيئة ، وينسحب الخبير ليترك الطالب وحده • وبعد قليل يأتي اليه روفائيل •

روفائيل : اني آت لأقودك تحت الظلام من وادي الموت الى قصر النعيم • فيجب أن تقاسي في بادىء الامر أخطارا ومصاعبا وأهوالا ، لكن تشدد وتمسك بالفضائل التي تحصلت عليها • فالايمان سيساعدك اذا ما يئست ، والرجاء سيشجعك في طريقك ، والمحبة ستلهمك الصواب عند كل امتحان • وبعد أن تكون قد سافرت في وحدة الظلام لتصل الى دار النعيم فاقترب مني واتبعني • (تعزف الموسيقى نغمة حزن ثم تتغير النغمة شيئاً فشيئاً الى دور فيه شيء من السرور ، بينما روفائيل يأخذ الطالب الى الغرفة الحمراء ويضعه في الغرب ثم يخاطب الرئيس) ايها الاخ الكلي الحكمة اني أحضر معي هذا الفارس الباسل الذي سافر وسط الاخطار والمصاعب ووادي ظل الموت باحثاً عن الكلمة المفقودة ،

وبما أنه حصن نفسه بتمسكه بالثلاث صفات الاصلية وهي الايمان والرجاء والمحبة فهو يتوسل الآن أن يكافأ على جليل أعماله •

الرئيس : يا أخ روفائيل نحن لا نشك فى أن هذا الفارس الباسل المشمول بمساعدتك القوية يستحق كل امتياز وسأطلب منه الآن أن يرقى السلم الذي يقوده من الظلام الى المجد والكمال • وعلى كل حال دعني أولا أسألك كيف أتيت الى هنا ؟

روفائيل : بين ظلام ومصاعب وأخطار •

الرئيس : بم تشجعت ؟

روفائيل : بقوة الايمان والرجاء والمحبة •

الرئيس : ماذا تأمل الحصول عليه ؟

روفائيل : الكلمة المفقودة •

الرئيس : لقد فعلت خيرا فكن على تمام الاستعداد لتصعد على السلم السري الذي يقودك الى درجة الكمال والنصر ، ويمكنك أن تتقدم وتقف عند كل درجة وتجيب على أسئلتي كما يفعل مرشدك الذي سيمدك بارشاداته ، والاله الحي القيوم يساعدك (تستمر المحاورة على شكل سؤال وجواب عند صعود كل درجة من درجات السلم حتى يصل الطالب الى الدرجة السابعة) ايها الفارس الباسل لقد نجحت في وجود الكلمة المفقودة بمساعدة الايمان والرجاء والمحبة (ينزع عن رأسه الشاش الاسود) لقد وجدت بالايمان وردة شارون وأصبحت قادرا على ادراك من لا يتركك ، ولقد تحصلت بالرجاء على البركات السماوية التى تسليك في حالات اليأس والخطر وتعلمك وقت الضيق وكيف تتمسك بالصبر حتى يأتي الله بالفرج والمحبة ، كللت بكل فضيلة • والآن خذ الحروف الاولية لاسماء الكلمات الاربعة الاخيرة لسياحتك وضعها معاً تجد اسماً هو الكلمة • والآن ايها الفارس المستحق بما أنك قد وجدت الكلمة فاني أسأل فارس البلاغة أن يضعها في المكان المخصص لها •

وهنا يضع فارس البلاغة الحروف فوق الحجر المكعب على المذبح، ويجثو الجميع على ركبهم بينما هم يشيرون بأصابعهم الى الحروف ، ثم يقومون ويعطون العلامة السرية التي لا يعرفها سوى الماسونيين فقط

وهي « العبـ ••• » • ويقترب الطالب من الشرق فيركع ، ويضع الرئيس السيف على كتفه الايمن ويمنحه رتبة الحوصل والنسر ، وأمير من أمراء الصليب الوردي ، ثم يقدم له وردة ترمز الى وردة شارون ، ثم يعطيه علامات هذه الدرجة وأولاها علامة « العبـ ••• » • وبعد محاورات وطقوس أخرى تتم الحفلة حيث ينطق فارس البلاغة بالكلمة « ••• » ويأمر الرئيس : « عودوا الى أماكنكم أيها الامراء » •

دوافع الانتماء :

عندما نرى كثرة انتشار الماسونية في العالم لابد أن نسأل : ما هو السبب الذي جعل الناس ينتمون اليها بهذه الكثرة ؟ يقول شاهين مكاريوس : ان الدوافع التى تدفع الناس الى دخول الماسونية مختلفة أهمها ثلاثة هي : (١) حب الاطلاع على الاسرار الماسونية ، (٢) الرغبة في الحصول على المساعدة التي تقدمها الماسونية لمن ينتمي اليها ، (٣) الاعجاب بالماسونية ومبادئها • وفي رأي شاهين ان الذين يدخلون الماسونية من أجل الاطلاع على أسرارها أو نيل مساعدتها قليلون ، أما الذين يدخلونها بدافع الحب لها والاعجاب بمبادئها فهم الاكثرون ، وهو يصفهم بقوله : « هم الفريق الاعظم والحمد لله من الماسون ، وهم الركن الاكبر للبناء الفخيم الذي أسسه لنا الاجداد العظام في العصور الخالية » • [٢٦]

حين ندرس هذا القول في ضوء ما نعرفه عن الطبيعة البشرية يصعب علينا الموافقة عليه ، فالواقع أن اكثر الذين يدخلون الماسونية هم من الذين يطمعون أن ينالوا منها المساعدة أو المنفعة على وجه من الوجوه ، أما الاعجاب بها وبمبادئها فيأتي في الدرجة الثانية • ولست أقول هذا في شأن دخول الماسونية فقط بل هو يصدق على كل عمل يقوم به الانسان في الغالب • فمن طبيعة البشر بوجه عام أنهم يركضون وراء مصالحهم المادية أو المعنوية ثم يتظاهرون بأنهم انما فعلوا ذلك حباً بالمبادىء السامية

---

(٢٦) شاهين مكاريوس (الآداب الماسونية) ـ ص ٨٠ ـ ٨٤ •

والمثل العليا • لا أنكر وجود بعض الافراد الذين يعشقون المبادىء السامية ويضحون بمصالحهم في سبيلها ، ولكن هؤلاء قليلون جـدا ، اما اكثـر الناس فهم مثلي ومثلك من الذين يقولون ما لا يفعلون •

يحدثنا شاهين مكاريوس نفسه عن السبب الذي حدا به الى دخول الماسونية فيقول : « لما كان عمري ثماني عشرة سنة كنت مقيما في مدينة بيروت بسورية ومستخدما في مطبعة الامريكان ••• وكان رئيسي فـي عملي الخواجه صموئيل هلك الاميركي وهو ماسوني ، وكان يكرهني لان تربيتي لم تكن توافق تربيته ، فقلت في نفسي : لعلي اذا دخلت الماسونية أستفيد منها وأتمكن من ارضائه ••• وقدمت طلبي بواسـطة الدكتور غريبلي ومكثت انتظر نحو نصف سنة وأنا أسأل ولم يجبني أحد ، وبعـد مضي سنة من طلبي الاول أجابوني بالرفض ، فتكدرت كدرا لا مزيـد عليه ، واستقصيت عن السبب فعلمت ان صغر سني كان السبب الاكبـر لرفض طلبي ، فعزمت على تجديد الطلب وقدمته ثانية ، وبعد مضي نحـو شهرين من تقديمه أخبرني الخواجة ابراهيم غبريل أن استعد للدخـول ، فدفعت أربع عشرة ليرة فرنسوية رسوم تكريس وترقية للدرجتين الثانية والثالثة وثمن وليمة بسيطة ••• » (٢٧)

أستطيع أن أقول ان الماسونية لو لم تكن تؤدي لاعضائها بعض المنافع لما انتمى اليها الا القليل من الناس ، ولربما ماتت بعد ولادتها بزمن قصير •

ان الماسونية كانت منذ بداية أمرها ـــ وما زالت حتى الآن ـــ تحرص على أن تضم في محافلها أشخاصا من ذوي النفوذ أو الثروة أو المكـانة العالية في المجتمع ، وهذا أمر يؤدي بطبيعته الى اغراء الكثير من النـاس الى الانتماء اليها • ان الانسان يميل عادة الى الدخول في زمرة طبقة أعلا من طبقته ، وهذا في رأيي هو مفتاح السحر الذي امتلكتـه الماسـونية وجعلت الناس يتهافتون عليها •

ان صغار الناس يجدون في الماسونية مجالا للتقرب مـن الـكبار ونيل صداقتهم ، أما الكبار أنفسهم فهم قد يجدون في الماسونية مجـالا

---

(٢٧) شاهين مكاريوس (فضائل الماسونية) ـــ ص ١١٧ ـــ ١١٨ •

لتكثير أنصارهم ودعاتهم بين الجمهور • وهكذا تكون المنفعة متبادلة بين صغار الناس وكبارهم عن طريق الماسونية •

ان الماسونيين يطلقون على انفسهم اسم « العشيرة » ويقصدون بذلك أنهم كافراد العشيرة في ولائهم بعضهم لبعض وفي تضامنهم في السراء والضراء • وكل واحد منهم يعتبر الآخر أخاً له ويناديه « يا اخي » ، واذا ذهب أحدهم الى اخ له في الماسونية وأبدى له الاشارة السرية فالمفروض في هذا الاخ أن ينهض لمساعدته بأقصى جهده •

ورد في كتاب « الدستور الماسوني العام للطريقة الاورشليمية » ما نصه : « ••• وعلى كل ماسوني أن ينتبه ويمتحن من يتعرف به ، حتى متى تحقق صدق أخويته يكرمه ويعينه ، واذا احتاج الى عمل يساعده لنيله ويرشده ويوصي به الآخرين ليتمكن من توظيفه في المحل المناسب له ، وعليه أن يبذل جهد طاقته لمساعدته ، واذا كان صاحب عمل عليه أن يفضل أخاه على من سواه من الفقراء والمعوزين » • (٢٨)

ويذكر شاهين مكاريوس : أنه عندما كان في مصر جاء اليه أحد المواطنين فأبدى له الاشارة الماسونية وأخذ يستنجد به لانه محكوم عليه بالعزل من الوظيفة وبالسجن ستة أشهر ، وأنه بريء مظلوم ، فكتب شاهين رسالة ماسونية الى رئيس الموظف يرجوه فيها أن يسمح له بمقابلته ، وبعد الاصرار على الرئيس سمح بمقابلة الموظف وعفا عنه وقال له « أصلح سيرتك وسريرتك وأنا أعيدك الى أحسن من وظيفتك » • ويعلق شاهين على ذلك قائلا : « وهكذا كانت الماسونية واسطة لانقاذ ذلك الرجل من السجن وحفظت كرامته وكرامة عائلته ، ويشهد الله انني لم أدعه يخسر قرشاً واحدا ولم آخذ منه شيئاً • وعاد الرجل الى أهله قرير العين طيب الخاطر • » • ثم يضيف شاهين الى ذلك قائلا : « أما الرجل الذي سعيت له هذا السعي وخدمته هذه الخدمة فما عدت رأيته من زمن مديد ، ولم يشكرني على صنيعي معه ، وقد استغربت عمله ولما سألت عنه علمت عنه أنه « فلان » وهو من محفل الشمس في مصر التابع للمجلس

---

(٢٨) شاهين مكاريوس (الدستور الماسوني العام) ــ القاهرة ١٩٠٧ ــ ص ١٠ •

الاعلى الفرنسوي ، وهذا المحفل غير معروف الآن رسميا لدى المحفل الاكبر الوطني المصري » . [٢٩]

في الغربة والحرب :

من أهم المنافع التي يجنيها الماسوني من انتمائه اليها هي مساعدة اخوانه له في السفر والغربة . فالمحافل الماسونية منتشرة في مختلف أنحاء الارض ، ويستطيع الفرد الماسوني أن يطلب المعونة منهم عند حاجته اليها في أي مكان يذهب اليه . فهو اذا كان في بلدة لا يعرف فيها أحدا ذهب الى الاماكن العامة التي يرتادها الناس عادة كالمتنزهات والملاهي ودور السينما والمسارح والمعابد ، وأخذ يبدي الاشارة الماسونية ، وحين يلمح اشارته أحد الماسونيين يسرع اليه ليسأله عن حاجته ويحاول مساعدته جهد امكانه .

يقول شاهين مكاريوس في كتابه « الآداب الماسونية » : « لا يخفى ان هذه الجمعية الشريفة أكثر امتدادا على وجه البسيطة من غيرها ، ولذلك يغلط الاخوة المتغربون الذي يخفون أنفسهم عن اخوتهم لانهم يخسرون معاضدتهم . وطريقة التعرف بين الاخ وأخيه معروفة بين الماسون من أول استنارتهم بنورها . فمن جملة المساعدات التي تقدمها الماسونية لبنيها المتغربين في جهات بعيدة التوصية بهم لمن تعرفه من أعضائها في تلك الجهات ، ولذلك وجب على كل ماسوني حقيقي يحافظ على شرف الماسونية ويحفظ عهودها أن يقابل اخوته مقابلة الصديق الصادق والاخ الامين ولا يتستر على مكاشفهم اذا راعوا الاصول في التعرف ولزموا خطة الآداب والفضائل . وعندنا ان العلامة الماسونية لا ينبغي أن تعطي الا مع الاحترام اللائق وفي وقت اللزوم ، والماسوني الحر لا ينبغي أن يسكت عن مجاوبة اخوته اذا كان فيه شرف نفس ولكنه يعذر اذا جهل ما يبدونه له من الاشارات ... » . [٣٠]

---

(٢٩) شاهين مكاريوس (فضائل الماسونية) ـ ص ١٨٧ ـ ١٨٨ .
(٣٠) شاهين مكاريوس (الآداب الماسونية) ـ ص ٥٨ ـ ٥٩ .

ss

ويذكر شاهين في كتابه « فضائـل الماسونية » أمثلـة عـديدة على مساعدة الماسونيين بعضهم لبعض في الغربة . ننقل فيما يلي بعض تلـك الامثلة باختصار لكي يأخذ القارىء صورة واضحة عن طبيعة الماسونيـة والمنفعة التى يجنيها اعضاؤها منها :

(١) رجل ماسوني من أهل الشام سافر الى باريس للتجارة وضارب في البورصة فأفلس فيها ، وقد تملكه الحزن واليأس حتى كاد يرمي بنفسه في نهر السين ، ثم اهتدى أخيرا الى محفل ماسوني فدخل عليهم مستنجدا، وقد رحب به الاعضاء وبذلوا الجهد لمساعدته حيث عينوه في عمل تجاري براتب شهري قدره ثلاثمائة فرنك .

(٢) ماسوني آخر من أهل الشام اسمه الخواجة نقولا منسي سـافر الى باريس للنزهة ولشراء بعض البضائع ، وفي أحد الايام تاه في الشوارع ولم يكن يعرف الفرنسية فلجأ الى الاشارة الماسونية وأخذ يدخل المخازن مشيرا بها ، فتعرف عليه ماسوني فرنسي وأسرع لمساعدته حيث ذهب بـه الى شارع المغاربة ، وهناك تعرف عليه ماسونيون آخرون وعادوا به الـى الفندق ، وصاروا يزورونه مرة بعد مرة ، وعاونوه في مصالحه ، ودعوه الى محفلهم ، وأكرموه كل الاكرام .

(٣) أحد رؤساء جمهورية المكسيك السابقين وهو المدعو دياز كان فى بداية أمره ضابطاً ثائرا وقد هرب من بلاده والتجأ الى مدينة نيوأورليانز، وهناك ضاقت به الدنيا وكان ماسونياً فوضع الاشارة الماسـونية علـى صدره وأخذ يمشي في شوارع المدينة وكان ذلك في شهر تموز من عام ١٨٧٦ ، فتعرف عليه ماسوني يعمـل محاسبا في باخرة وساعـده علـى العودة سراً الى بلاده . وقد صار الضابط الهارب فيمـا بعـد رئيسـا للجمهورية ، وبحث عن منقذه الماسوني فعينه قنصلا عاما في باريس ...

(٤) رجل أمريكي اسمه جورج كاروثر كان راكباً قطاراً في ٢٤ ايلول ١٨٦٤ ، فهاجمت القطار عصابـة من اللصوص برئاسـة اللص المشهـور بيل أندرسن ، وأوقف اللصوص القطار فأنزلوا الركاب منه ثم أخـذوا يستحوذون على ما عندهم ويقتلونهم . ولما وصل الدور الى جورج كاروثر

استغاث بالاشارة الماسونية ، فأسرع اليه رئيس العصابة وأنقذه كما أنقذ الذين يأتي دورهم بعده وكانوا ثلاثة عشر شخصا ...

(٥) كان أحد الماسونيين الامريكيين مسافرا في ليلة شديدة المطر حالكة الظلام ، فاعترضه لص وصوب نحوه بندقيته وقال له : «أما مالك وأما روحك » . وأخذ الرجل يتوسل باللص دون جدوى ، واقترب اللص منه وأمسك بعنقه ، ولما يئس الرجل من النجاة تلفظ بكلمة الاستغاثة الماسونية ، ولم يكد اللص يسمع الكلمة منه حتى رمى البندقية من يده وضم الرجل الى صدره قائلا له : «ايها الاخ اغفر ذنبي » ...

(٦) كان أحد المبشرين الامريكيين واسمه لورنزو داو يتجول في تركيا سائحا ، ولما وصل الى أزمير أصابته حمى شديدة ألزمته الفراش مدة طويلة حتى نفد ما معه من الدراهم ، وحين خف مرضه خرج يتجول في شوارع المدينة ، وصار يبدي الاشارة الماسونية عساه يجد ماسونيا ينقذه، فاقترب منه شاب تبدو عليه هيئة الوقار ورحب به وأخذه الى بيته حيث قام بضيافته وتمريضه حتى تم شفاؤه ، ثم دفع عنه أجور الفندق التي كانت متبقية عليه ، وزوده بما يكفيه للعودة الى بلاده . (٣١)

ويذكر شاهين قصصا اخرى من هذا القبيل جرت أثناء الحروب ننقل منها اثنتين لاهميتهما . فالاولى منها حدثت في مدريد في عام ١٨٠٥ اثناء الاحتلال الفرنسي لاسبانيا ، وخلاصتها ان ضابطا فرنسيا اسمه جيرارد أخذ اجازة من فرقته التي كانت معسكرة خارج مدريد وذهب للتجول في المدينة ، وصادفه عندئذ أن نشبت ثورة في المدينة ضد الفرنسيين ، فأحاط الثوار بالضابط يريدون قتله ، ولكنه أبدى اشارة الاستغاثة الماسونية فهرع اليه ضابط بريطاني وأخفاه في اصطبل قريب وأعطاه قليلا من الويسكي لانعاشه ، ثم جاء له بملابس اسبانية فألبسه اياها ورافقه في شوارع المدينة حتى أوصله الى مقربة من المعسكر الفرنسي . وعند توديعه قال له : « ايها الاخ أنا ضابط انكليزي واسمي هنري سيتن ، ولم

---

(٣١) شاهين مكاريوس (فضائل الماسونية) ــ ص ٥ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٥٣ ، ٦٥ ، ١٥٠ .

تزل الحرب قائمة بيننا وبين فرنسا على قدم وساق ، فاذا قدرت على مساعدة أبناء وطني فأرجو منك أن لا تتأخر عن ذلك ، واذكر اسم اخيك هنري سيتن » .

والقصة الاخرى حدثت لقائد بلجيكي في معركة واترلو في عام ١٨١٥ ، فقد لمح هذا القائد أخاً ماسونيا في صفوف الاعداء وهو على وشك أن يقتل فأسرع اليه مخترقاً جنود العدو وأسره وجاء به الى صفوفه، وبعد أن انتهت المعركة أطلق سراحه مكرماً معززا . ويعلق شاهين على ذلك قائلا : « أما الخطر الذي عرض القائد نفسه له فهو اولا خطر القتل بين عساكر العدو ، وثانياً خطر التهمة بالخيانة ، فان جيشه توهم فيه الخيانة لما انقض على صفوف الاعداء ، ولكن المحبة الاخوية التي تتأصل في قلب الاخ الماسوني تنفي من مخيلته الخوف وتربي فيه الشجاعة والشهامة » . (٣٢)

وقد قرأت في كتاب انكليزي قصتين من هذا النوع حدثتا في البلاد العربية ، احداهما في فلسطين والاخرى في طرابلس الغرب . فالقصة الاولى حدثت أثناء الحرب العالمية الاولى حين تحطمت طائرة بريطانية ونجا الطيار، فقد أبدى الطيار الاشارة الماسونية فأسرع اليه ضابط تركي وأنقذ حياته.

أما القصة الثانية فقد جرت في عام ١٧٩٥ حين أسرت سفينة طرابلسية في البحر الابيض المتوسط سفينة امريكية. وأخذ الطرابلسيون يستخدمون ربان السفينة المأسورة وبحارتها في أعمال العبيد ، ولكن الربان ابدى الاشارة الماسونية ، فأسرع اليه ضابط طرابلسي كان قد انتمى الى الماسونية في فرنسا ، وقدم له وسائل الراحة ثم سعى لاطلاق سراحه . (٣٣)

بين الغرب والشرق :

الواقع ان الماسونية كانت من العوامل التي ساعدت في التقريب

---

(٣٢) المصدر السابق ــ ص ١٣ ــ ١٠٤ ، ٦٨ .

(33) Pick And Knight (op . cit .) — P 202 — 203 , 213 .

بين الشرقيين والغربيين ولا سيما في البلاد الاسلامية التي كان أهلها ينظرون الى الافرنج بعين الريبة • وقد أشار الى هذا الموضوع محمد سعيد المراغي ــ وهو ماسوني مصري ــ في كتاب له صدر في عام ١٩١٠ حيث قال ما نصه :

« لا ننكر أن الماسونية منذ ظهرت في الشرق لطفت من حدته ، وذهبت بشدته وقضت على عصبيته ، فقد خدمت بذلك مدنية الغرب وسهلت لاقوامها أسباب الاختلاط بالشرقيين والاستفادة من أقطار الشرق الذهبية • وكل ذلك لا فضل فيه الا للماسونية التي أنبتت حياة الحرية في بلاد قلتها من زمن بعيد ، وغرست أغراس الاخاء في أقطار وممالك تضن به على غير أبناء الجنس والمذهب والدين ، وبذرت بذور المساواة في أرض تجهلها لتأصل الفروق بين الاشخاص في كل شيء ، فالقوى فيها متأله يستضعف الضعيف ويستعبده ويستبد فيه ، والغني يسترق الفقير ويستخدمه في مرافقه ويعايشه معايشة الانسان للحيوان الاعجم أي لفصيلة البهم والانعام • ولهذا كان الشرق مثار مخاوف الغرب ، يرهب الاختلاط بأهله كل غربي ، ويخشى من نتائج الهجرة اليه كل متمدن ، ولكن جاءت الماسونية فأزالت كل تلك المخاوف ، وقضت على أسبابها ، وذهبت بشرورها ، وجلبت السرور الاجتماعي ، وجمعت بين أبناء الانسانية ، وحببت بين الاجناس والعناصر ، وأحيت شعار التواد والاخاء بين بني الآدمية الموقرة » •

ثم يضيف محمد سعيد المراغي الى ذلك قائلاً : ان المبشرين الاوربيين جاؤوا الى الشرق وبذلوا فيه الملايين من الذهب والفضة ، كما وجهوا اليه الاساطيل والجيوش واستخدموا المواهب ، فلم يحظوا منه بطائل • ثم جاءت الماسونية أخيرا فنجحت من حيث فشل المبشرون ، اذ هي تمكنت من تلطيف حدة العصبيات وأطفأت لهيب الاحقاد القومية ، فخدمت بذلك الانسانية أجل خدمة ••• (٣٤)

---

(٣٤) محمد سعيد المراغي (ما هي الماسونية وما هو الماسوني) ــ القاهرة ١٩١٠ ــ ص ٢٧ ــ ٢٨ •

وقد احتـوت المصادر الماسونية على الكثير من القصص في هـذا الموضوع أي موضوع التقريب بين الغربيين والشرقيين . ننقل منهـا قصة واحدة ذكرها شاهين مكاريوس اذ هي تصور لنا الموضوع بوضوح. قال شاهين : انه كان في عام ١٨٨٩ راكبـا الباخرة مع جماعة من اخـوانه الماسونيين حيث كانوا مسافرين من بيروت الى الاسكندرية ، فرأى بيـن ركاب الباخرة رجلا بريطانيا كبير الجسم مهيباً ، فأبدى لـه الاشـارة الماسونية ، ولم يكد الرجل يلمح الاشارة حتى هب واقفاً وصاح باللغـة الانكليزية « برذر » أي أخي ، ثم تقدم من شاهين وعانقه أمام الحاضرين ، فعرفه شاهين بالاخوان الماسونيين ، وفرح الرجل بذلك فرحاً عظيما وقال : « نحن الآن محفل أخوي في وسط البحر » ، ثم نادى خـادم الباخـرة فأحضر من فاخر المشروبات لجميع الاخوان وشرب نخبهم ونخب الرابطة الاخوية التي ربطت قلوبهم ، وأخبرهم أنه من الاغنياء وقد ساح حـول الارض مرتين وهذه هي الثالثة وأنه حيثما توجه وجد اخوان الماسونيـة على تمام الصفاء . ووعد الجماعة بأنه سيزور محافلهم في مصر عنـد وصوله اليها . وقد زارهم فعلا ... (٣٥)

ان هذه القصة تصور لنا كيفه أن الماسونيين يشعرون بالاخاء بغض النظر عن الفروق الدينية أو القومية بينهم . وهذا أمر قد يستحسنه بعض الناس بينما يستنكره آخرون حسب الزاوية التي ينظرون منهـا اليـه ، فالمتمسك بدينه أو المعتز بقوميته لا يستسيغ الماسونية لانها في نظـره تعمل على هدم الرابطة التي تربطه مع أبناء دينه او قومه .

يمكن القول بوجه عام ان الماسونية هي نوع من الولاء يناقض أي ولاء آخر يشعر به الانسان ، وهذا كان من أهم الاسباب التي جعلت الماسونية مغضوبا عليها من قبل اكثر الناس .

من ادواء الماسونية :

كل مؤسـسة بشرية مهما كانت لابـد أن تعتورهـا بعض الادواء

---

(٣٥) شاهين مكاريوس (المصدر السابق) — ص ٦٠ .

والمشاكل ، ولابد أن يظهر بين المنتمين اليها من يسيء اليها أو يستغلها لمصلحته الخاصة • وليست الماسونية بدعاً في ذلك فقد ظهر فيها الكثير من الادواء والمشاكل التي انتقدها الماسونيون أنفسهم فضلا عن الخصوم•

ولا يخفى أن أدواء الماسونية تختلف باختلاف المجتمع الذي تعيش فيه • وعند دراستي للماسونية في البلاد العربية وجدت أنها مصابة بنفس الادواء التي أصيبت بها المؤسسات العربية الاخرى من جراء القيم الاجتماعية السائدة في هذه البلاد كقيم الوساطة والمحسوبية والرشوة واستغلال النفوذ والتنافس على الرئاسة •

أول تلك الادواء هو فيما يخص قبول العضو الجديد في المحفل الماسوني ، فقد جرت العادة في الغرب أن الماسونية لا تقبل في محافلها عضوا جديدا الا بعد تحقيق وتدقيق اذ هي لا تريد ان يكون بين اعضائها من هو عالة عليها أو يجلب لها العار • أما في البلاد العربية فقد تساهلت بعض المحافل في أمر القبول الى درجة أصبح الكثير من المقبولين فيها غير لائقين بها •

من أصول الماسونية أنه أذا أراد شخص دخول أحد محافلها وجب أن يزكيه اثنان من أعضاء المحفل القدامى • وهنا يشكو شاهين مكاريوس من تهاون بعض الاعضاء عند تزكية طالب الدخول حيث يقول : « ومعلوم أن الامر في الغالب يتوقف على الاخين الذين يزكيان الطالب فان شهدا به شهادة حسنة قبل والا رفض • ويتفق كثيرا أن طالب الدخول لا يعرف من أعضاء المحفل غير واحد فيجتهد هذا العضو في ادخال صديقه ويقنع غيره بحسن صفاته فيضع الاخ الثاني ختمه على الشهادة وهو لا يعلم الطالب ولا يعرف عنه الا ما سمعه من صديقه الاول • ولطالما عادت هذه العادة بالاضرار الوخيمة وكانت سبباً في دخول الذين لا يستحقون من الماسونية غير الطرد ، وهو أمر ننبه الاخوان اليه ونرجوهم البحث التام عن كل أجنبي قبل مساعدته على الدخول في مصاف الاحرار » •

ويتذمر شاهين مكاريوس من بعض الماسونيين الذين يريدون تكثير أعضاء محافلهم بغض النظر عن صفاتهم وأخلاقهم ، فهو يقول في ذلك :

« ولطالما أخطأ الاخوان مثل هذا الخطأ من فرط غيرتهم وميلهم الى توسيع نطاق الماسونية وتكثير عدد أعضائها او من رغبتهم في نفع بعض معارفهم وأصدقائهم وادخالهم ضمن العشيرة الماسونية ، فساعدوا على قبول البعض ممن ظهر عدم نفعه أو ممن صار عالة على الماسونية ... وعليه فنحن نشدد التنبيه والتحذير على الاخوان أن يتأنوا ويترووا ويدققوا في البحث عن صفات الذين يطلبون الدخول عن يدهم حتى لا يكثر عدد الذين لا يستحقون شرف العد في مصاف الماسون والذين تعدهم الماسونية عارا عليها . ويسوءنا أن أمثال هؤلاء يعدون بالعشرات أو المئات في بعض البلدان ... وليعلم هؤلاء الاخوان أن الماسونية ليست في حاجة الى تكثير أفرادها ... » (٣٦)

ان الماسونية في بلاد الغرب تعتبر بمثابة تأمين ضد الحاجة ، والمفروض في الماسوني هناك أنه لا يطلب المساعدة من اخوانه الا عند الضرورة القصوى ، فاذا لج في طلب المساعدات منهم مرة بعد مرة احتقروه وربما طردوه من المحفل باعتباره غير لائق أن يكون ماسونيا . ورد في منشور صادر من « **الشرق السامي الفرنسي** » **في ٢ حزيران ١٩١٠ ما نصه :** « يحذر المجلس العام المحافل الماسونية من قبول طلاب جدد يستهدفون رواج تجارة أو منفعة خاصة من وراء انضمامهم الى الماسونية » . (٣٧)

أما في البلاد العربية فالكثير من الذين يدخلون الماسونية انما يطمعون أن ينالوا عن طريقها بعض المكاسب في التجارة او المقاولات او الوظيفة . يروي الكاتب الفلسطيني عجاج نهويض قصة رجل من أهل القدس كان يملك مطبعة في عهد الاحتلال البريطاني ، وقد انتمى الى الماسونية ثم أخذ يشكو منها حيث قال : « يا أخي ما العمل ؟ قالوا لي اعمل ماسونياً وانجح . فعملت ماسونياً وصار لي سنوات وأنا ماسوني لكني ما استطعت بعد أن آخذ أي مناقصة طباعية من مناقصات الحكومة .

---

(٣٦) شاهين مكاريوس (الآداب الماسونية) ــ ص ٧٥ ــ ٧٦ ــ ٨٥
(٣٧) فورستيه (هذه هي الماسونية) ــ ترجمة بهيج شعبان ــ بيروت ١٩٥٥ ــ ص ١١٣

واذا كان بيننا يهودي فاليهودي يكسح الجميع . وابني الثاني عمل ماسونياً ، لكن بقينا في شغلنا كالسابق » . (٣٨)

وهناك داء آخر ابتليت به الماسونية العربية وهو الداء الذي يظهر على بعض الأعضاء عند وصولهم الى الدرجات العليا ، فتراهم قد غروا بأنفسهم ونسوا اخوانهم . يقول شاهين : « ان البعض من الاعضاء يجتهدون حتى يصلوا الى نقطة معلومة فيها فاذا نالوها فترت همتهم وظنوا أنهم اكتفوا من الماسونية ، أو أن الماسونية اكتفت منهم ، وما كانت هذه شيمة أصحاب الحزم والعزم ولا قامت الامور العظيمة في الماسونية وغيرها بمثل هؤلاء الاعضاء ... » . ويقول شاهين أيضاً : « ويسوءنا أن نرى بعض اخواننا متى تسنموا ذروة المنصب ينسون ما يلاقيه اخوانهم الصغار من التعب والنصب ، وقد يصمون آذانهم عن اجابة ندائهم ، ويغضون الطرف عنهم كأنهم لا يعرفونهم ، بل قد ينفرون منهم كما ينفر الظليم ، ويأول بهم الامر الى نكران الماسونية ... ونعرف أخاً كان نتظلم من رئيسه ، وكان رئيسه ماسونياً ولكنه لم يراع حقوق الاخوة ، وما زال يعامل أخاه معاملة الرئيس للمرؤوس حتى سئمت نفسه وعيل صبره فشكا أمره الى رئيس المحفل ، فدعا ذلك الرئيس وكلمه الاعضاء في شأن أخيهم وأخيه ، ولكنه أصر على معاملته بالقسوة . ثم اتفق أن ذلك الاخ ارتقى الى وظيفة أعلى من وظيفته ، ونظر الى رئيسه فرآه في حالة يرثى لها ، اذ كان قد عزل من منصبه ، فرثى له ونسي ما لقيه منه وحركته الاريحية الماسونية على مساعدته ، فساعده مساعدة يعز نظيرها وصار من أخلص أصدقائه » . (٣٩)

يبدو لي ان الاعضاء الكبار في الماسونية العربية انما صاروا مغرورين لا يهتمون بمساعدة الصغار لان الصغار أنفسهم صاروا لجوجين في طلب المساعدة . فالمسألة اذن تفاعلية وقد ينطبق عليها مصداق الحديث القائل: « كيفما تكونوا يولى عليكم » .

---

(٣٨) جريدة البلد البغدادية في عددها الصادر في ١٩ نيسان ١٩٦٧ .
(٣٩) شاهين مكاريوس (المصدر السابق) — ص ٦٨ — ٦٩ ، ٧٧ .

يروي شاهين مكاريوس قصة لها دلالتها في هذا الصدد ، فهو يقول : انه عندما كان سكرتيرا لمحفل لبنان عام ١٨٨١ وردت اليه رسالة من أحد الاخوان الماسونيين في بلدة حاصبيا يشكو اليه من تحامل القائمقام عليه ، فأسرع شاهين لمساعدته وركب عربة الخيل الى دمشق ، وكان أثناء ركوبه في العربة يبدي الاشارة الماسونية أملاً أن يجد بين ركاب العربة من يساعده عند وصوله الى دمشق ، فلم يستجب لاشارته أحد مع العلم ان واحدا من الركاب كان ماسونياً ولكنه تجاهل الاشارة . وعند وصول العربة الى دمشق وجد شاهين في استقباله جماعة من الماسونيين اذ كان أحد الاخوان في بيروت قد أخبرهم بذلك برقيا . وقد مكث شاهين في دمشق خمسة عشر يوما حيث قام بضيافته الاخوان وأكرموه ، واستطاع هو بمعونتهم مساعدة الاخ الذي استغاث به من حاصبيا . وصادف أنه ذهب ذات يوم الى الحمام مع اثنين من اخوانه ، فشاهد هناك الماسوني الذي تجاهل الاشارة فى العربة ، وقد أبدى هذا له التحية الماسونية . فتقدم منه أحد الاخوين وأخذ يعاتبه على ما فعل وقال له : « ... عار عليك أن يعرفك أخ استاذ ماسوني بنفسه وأنت تبتعد عنه ، فما هذا شان الكرام ، ولما عرفت باكرامنا لاخينا العزيز جئت تعرفه بنفسك وأنت عار من الثياب . فاحذر أن تعود الى مثل هذا الامر القبيح » . (٤٠)

الملاحظ ان شاهين حين ذكر هذه القصة أشار الى أن الرجل كان متزوجاً حديثاً وكانت زوجته معه في العربة ، ويبدو لي أن الرجل كان ذاهباً الى دمشق لقضاء شهر العسل فيها ، ولهذا تجاهل الاشارة الماسونية الموجهة اليه اذ هو لم يشأ أن يشغله أحد أثناء ذلك الشهر اللذيذ . ولقد كان المفروض في شاهين أن يراعي وضع الرجل فلا يطلب المساعدة منه . ان اللوم اذن يمكن القاؤه على شاهين بمقدار ما يلقى على الرجل .

وللماسونية العربية أدواء اخرى ذكرها خصومها من أجل ثلبها والتهجم عليها ، نذكر منها ما أشار اليه الاب لويس شيخو حيث قال

---

(٤٠) شاهين مكاريوس (فضائل الماسونية) ــ ص ٣٤ ــ ٣٦ .

ان أحد الماسونيين اللبنانيين أرسل اليه رسالة يشكو فيهـا اثنين مـن رؤساء محفله ، فكل واحد منهما يتاجر ببيع الدرجة الثامنة عشرة الى من يطلبها لقاء ست ليرات ، فهما يمنحانها بعد يوم واحد من منح الدرجة الثالثة مع العلم أن الترقية بين الدرجتين تقتضي مرور اثنين وثلاثين شهراً حسب الدساتير الماسونية .

ويذكر الاب شيخو رسالة أخرى وردته من ماسوني آخر يشكو فيها من استغلال رؤساء المحفل له ولغيره من الاعضاء الصغار . وهذا هو بعض ما ورد في الرسالة : « سيدي أنا ماسوني وانغشيت كمـا انغش غيري فوجدت نفسي متعوباً منها لكنني لا أقدر اتظاهر خوفا من الانتقام ، وقد كتبت هذه الاسطر وقلبي يرجفه . وما يمكنني أن أقوله أن المنفعة فـي جمعية الماسون للذوات وبعض الافراد ، أمـا نحن فكآلـة بين أيديهـم ليدركوا منا مآربهم أو كجند تحت يد ملـك ظالـم . واذا أراد هؤلاء الذوات والمتقدمون في الماسونية الحصول على شيء نالوه بمساعدة بعضهم واتفقوا لنوال غاياتهم من مال الصندوق وستروا على بعضهم واغتنوا على ظهر الحمير مثلنا . فترى محفل صنين أفلس وأكلوا مال الصندوق وأجرة المحل . وهكذا بقية الرؤساء يصرفون مال الجمعية ويتنعمون مع عيالهم ونحن لا نعرف بشيء سوى (حضرة الاخ) ولسـان حالهـم يقـول : يكثر الله الحمير لكي نربح على ظهرهم الوظائف ... » .(٤١)

الماسونية في مصر :

يقال ان بداية دخول الماسونية الى مصر كانت أثناء الاحتلال الفرنسي في نهاية القرن الثامن عشر ، فقد أسس الجنرال كليبر محفلاً ماسـونياً سماه « محفل ايزيس » ودخله بعض المصريين ، غير أنه أغلق على أثـر مقتل كليبر في ١٤ حزيران ١٨٠٠ .

وفي عام ١٨٣٠ أسس بعض الايطاليـين الساكنين في الاسكندريـة محفلاً تابعاً للمحفل الأكبر الاسكتلندي ، ثم صارت المحافل من بعـد

---

(٤١) لويس شيخو (المصدر السابق) — ص ٣١٠ .

ذلك تؤسس واحدا بعد الآخر ولكن أكثر المنتمين اليها كانوا من الاجانب • وظل الامر كذلك الى أن تولى اسماعيل باشا عرش مصر في عام ١٨٦٣ ، ففي عهده ازدهرت الماسونية ودخلها الكثير من علماء مصر وأعيانها • يقول جرجي زيدان : « وفي عهده تأسست المحافل الماسونية الوطنية ، وبحمايته تعزز شأن الجمعية الماسونية في مصر وانتشرت مبادؤها حتى انتظم في سلكها نجله المغفور له الخديوي السابق ــ يقصد توفيق باشا ــ وجماعة من أمراء البلاد ووجهائها » • (٤٢)

وفي ٨ أيار ١٨٧٦ تأسس المحفل الاكبر الوطني المصري على الطريقة الاسكتلندية القديمة المقبولة ، واعترفت به المحافل الكبرى في العالم ، ومنح سلطة اعطاء الدرجات العالية للاعضاء كما منح سلطة تكريس المحافل الاعتيادية التابعة له ، وانتخب الاخ زولا رئيساً أعظم له •

وفي عام ١٨٨٧ قرر المحفل الاكبر المصري انتخاب الخديوي توفيق باشا استاذا أعظم له ، فذهب وفد منهم الى القصر وعرضوا على الخديوي اختيارهم له رئيساً حيث قالوا له : انه اذا لم يشد أزرهم آل أمر الماسونية الوطنية الى الاضمحلال • وتقدم أحدهم بقصيدة طويلة في مدح الخديوي أشار فيها الى المبادىء الثلاثة التي تدعو اليها الماسونية وهي الحرية والاخاء والمساواة • وهذه هي الابيات الاولى منها :

الحر يدرك بالتوفيق ما طلبا ... وبالمساواة كل يبلغ الاربا
وبالاخاء رخاء العيش مقترن ... تربو رباه اذا عهد الاخاء ربا
وما المساواة الا العدل وهو على ... مصربتوفيق مدتروحه طنبا(٤٣)

فاستجاب الخديوي لرجائهم ورضي بأن يكون الاستاذ الاعظم لهم ، غير أنه اعتذر عن الحضور في اجتماعاتهم لكثرة أشغاله وكلف ناظر الحقانية حسين فوزي باشا لينوب عنه في الرئاسة • وفي عام ١٨٩٠ طلب الخديوي منهم أن يعفوه من الرئاسة ليتولاها غيره من أبناء الشعب

---

(٤٢) جرجي زيدان (تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر) ــ بيروت ــ ج ١ ص ٧٤ •

(٤٣) شاهين مكاريوس (الآداب الماسونية) ــ ص ١٩٨ •

تشجيعاً لهم • وفي ٩ كانون الثاني ١٨٩١ اجتمع أعضاء المحفل الاكبر وانتخبوا ادريس بك راغب رئيساً أعظم لهم ، ثم جعلوا الخديوي رئيس شرف مؤبداً • وحين بلغ الخديوي ذلك أعلن سروره وأهدى الى المحفل الاكبر مائة جنيه تنشيطاً له على أعماله الخيرية • وأرسلت المحافل الكبرى في العالم الى المحفل المصري تهانيها بما حصل •

كان ادريس بك راغب قد ورث من أبيه ثروة طائلة ، وكان متحمساً للماسونية مخلصا لها ، فأنفق الكثير من ثروته عليها • وقد نمت الماسونية فى عهد رئاسته لها ، وكثرت محافلها حتى صار عددها أربعة وخمسين محفلاً• يقول شاهين مكاريوس عنه : « وقد أجمعت القلوب على حبه واعلاء منزلته ، وبعد صيته في الآفاق ، فتواردت عليه مدائح الشعراء من كل صوب حتى لو طبعت كلها لملأت مجلدات من الكتب ••• » (٤٤)

دامت رئاسة ادريس بك ثلاثين سنة ، والظاهر أن نجاحه في ترقية الماسونية أدى الى ظهور بعض المنافسين له والمتمردين عليه من بين الاعضاء، وهذا هو من جملة الادواء التي ابتليت بها الماسونية في البلاد العربية • ذكر محمد سعيد المراغي في كتابه الصادر عام ١٩١٠ ما نصه :

« قضت قوانين الماسونية أن لا يوجد محفلان أعظمان او شرقان عظيمان في مملكة واحدة الا بشروط لا تتوفر بمصر والشرق أبداً • ولا يوجد منذ نيف وثلاثين سنة محفل أكبر أو شرق أعظم منتظم خلاف المحفل الاكبر الوطني المصري الذي يرأسه عطوفة الاخ الكلي الاحترام الاستاذ الاعظم (ادريس راغب بك) فهو المحفل الشرعي الذي لا تقوم قائمة لغيره بغير اذن منه ، وهو صاحب السلطة الشرعية ولم يؤسس في مصر محفل وطني شرقي سواه • نعم خرج عليه بعض الافراد لغايات في صدورهم ، واستأنسوا بأوهام كبرت في قلوبهم ، وأعلنوا عن أنفسهم أنهم أسسوا محفلا أعظم سموه بالمحفل الاكبر الاورشليمي منذ ثلاث سنوات ، ولم يوفقوا الى استمداد سلطة شرعية من (المحفل الاكبر الوطني المصري) ، لانهم سلكوا سبيل التهاون في حقوق العشيرة ، واكثروا من

---

(٤٤) شاهين مكاريوس (الحقائق الاصلية) ــ ص • ي ــ د •

فئات من الطبقة الاخيرة والحثالة من الناس ، وظنوا أنهم بذلك يخدعون بعض المحافل الكبرى في (الغرب) فتعترف بهم ، وكثيرا ما حاولوا خداع محافل أمريكا وغيرها فلم يجدوا الى ذلك سبيلا . ولقد دعاهم (المحفل الاكبر الوطني المصري) كثيرا الى الهدى ، ونصحهم ليتركوا الوسواس، ولايشوشوا على أذهان العامة ، فكبر عليهم الرجوع الى الحق ، وهو فضيلة عظمى . فوجب علينا أن نحذر الناس من الاغترار بهم ، والاعتماد على أوهامهم ، وكفى أن يعلم الناس كافة حقيقة مزاعم اولئك المغرورين الذين خدعوا أنفسهم وغرروا بها » . (٤٥)

ونشرت جريدة « المقطم » القاهرية في ٢ كانون الاول ١٩١٠ تقول : « احتج عطوفة ادريس راغب الاستاذ الاعظم للمحافل المصرية على دولة البرنس عزيز حسن لانشائه محفلا ماسونيا » . وفي منتصفه شهر نيسان من عام ١٩١١ نشرت جريدة « الاهرام » ما يشير الى وجود خصام شديد حول ميزانية المحفل الاكبر المصري بين أمناء سره ورؤساء بعض المحافل التابعة له . ويبدو أن الخصام تجاوز جدران المحفل الى الخارج . (٤٦)

وفي عام ١٩٢٢ بلغ الخصام أشده بين اعضاء المحفل الاكبر ، وكان سببه موضوع الرئاسة . فقد رغب اكثر الاعضاء أن يكون ولي العهد الامير محمد علي استاذا اعظم بدلا من أدريس بك . ولم يرض ادريس بك بذلك طبعا وتابعه بعض الاعضاء . وحين عقد المحفل الاكبر جلسته في ٢٨ ايلول ظهر الانشقاق حول هذا الموضوع بين الاعضاء واضحا ، فقد انسحب ادريس بك من الجلسة هو ونائبه وسبعة عشر عضوا معه ، ويقال انه أخذ معه عند انسحابه الختم الاكبر وبعض السجلات المهمة . وعند هذا قرر الباقون من الاعضاء أن يقوموا بالانتخاب لمنصب الاستاذ الاعظم الذي شغر بانسحاب ادريس بك . ولما تم الانتخاب فاز به الامير محمد علي حيث حصل على ١٨٢ صوتا بينما حصل ادريس بك على ثلاثة أصوات فقط ، وكانت هناك ثلاثة أوراق بيضاء . ولم يوافق ادريس بك

---

(٤٥) محمد سعيد المراغي (المصدر السابق) ـ ص ٣٨ ـ ٣٩ .
(٤٦) لويس شيخو (المصدر السابق) ـ ص ٣٠٥ ـ ٦ .

على تنائج الانتخاب واعتبره باطلا ، وأقام عدة دعاوى في المحاكم ، فكان قرار المحاكم في غير صالحه • وقد اعترفت المحافل الكبرى في الكثير من أقطار العالم بشرعية ما حصل • [٤٧]

ان انتخاب الامير محمد علي رئيسا للماسونية المصرية زاد من مكانتها الاجتماعية في نظر الناس ، وقد كان هذا الامير بالرغم من اعتزازه بنفسه وبأسرته يتواضع للماسونيين على اختلاف طبقاتهم • يقول أحد الماسونيين المصريين في ذلك : « كان ولي العهد الامير محمد علي يجانسنا نحن أفراد الطبقات الفقيرة ويتناول معنا الطعام ويحثنا على ضرورة التمسك بآداب وأوامر العشيرة ، وكان الوصول الى قصر محمد علي من المستحيلات لغيرنا كما هو معلوم » • [٤٨]

كان للماسونية في مصر مجلة تنشر أخبارها وتشيد بها هي مجلة « اللطائف » لصاحبها شاهين مكاريوس ، وكانت بداية صدور هذه المجلة فى عام ١٨٨٦ واستمرت على الصدور خمسا وعشرين سنة حتى توقفت عنه في عام ١٩١٠ على أثر موت صاحبها • وفي عام ١٩١٥ أصدر اسكندر ابن شاهين مكاريوس مجلة « اللطائف المصورة » التي استمرت على الصدور بضع عشرة سنة وكانت كسابقتها مليئة بأخبار الماسونية والاشادة بذكرها •

وفي عام ١٩٤٢ صدرت مجلة ماسونية ثالثة لصاحبها حسين شفيق المصري عنوانها « الايام » ، وكان مندوبها في العراق عبدالمهدي الفائق ، وعندي نسخة من عدد منها صادر في ١ شباط ١٩٤٤ أنقل منه الخبر التالي كنموذج لنشاط الماسونية في مصر حينذاك :

« غادر الاخ الكلي الاحترام السكرتير الاعظم محمد بك رفعت القاهرة صباح الجمعة ٢٨ يناير سنة ١٩٤٤ على متن طائرة الى الاسكندرية لحضور حفلة تثبيت محفل باراثينون ، وقد كان في استقبال سعادته

---

(٤٧) المحفل الاكبر الوطني المصري (تقرير الاعمال لعام ١٩٢٧) ـ القاهرة ١٩٢٧ ـ ص ١٠٠ ـ ١٠٣ •

(٤٨) ابو صادق (الماسونية بلا قناع) ـ بغداد ١٩٦٧ ـ ص ١٤٩ •

بالمطار الكثير من اخوان الاسكندرية الافاضل ممن يقدرون مآثره وتضحياته في سبيل الماسونية • وفي المساء عقب حفلة التثبيت أقيمت حفلة ساهرة لمناسبة تشريفه حضرة الاخ كلي الاحترام السكرتير الاعظم• تبودلت فيها الكلمات الطيبة حول ما أداه ويؤديه سعادته من جليل الخدمات للانسانية ثم عاد بسلامة الله صباح يوم السبت على متن طائرة أيضا حيث كان في توديعه جمهرة كبيرة من الاخوان • أدام الله حياته الغالية وجعله ذخرا وملاذا للانسانية » •

يمكن القول بوجه عام ان الماسونية في مصر تختلف من حيث مكانتها الاجتماعية عنها في البلاد العربية الاخرى • فهي كانت ذات مقام محترم في نظر الناس وقد انتمى اليها الكثير من الامراء والباشوات ورجال الدين • وكان سعد زغلول من المنتمين اليها ، وظل كذلك حتى آخر يوم من حياته ، دون أن يؤثر ذلك في زعامته الشعبية • وقد ظلت الماسونية في مصر تتمتع بهذه المكانة المحترمة حتى عام ١٩٦٤ عندما أصدرت الحكومة المصرية أمرها باغلاق المحافل الماسونية ــ كما سنأتي اليه في خاتمة هذا الملحق •

الماسونية في الشام :

نعني بالشام المنطقة التي تضم الآن سوريا ولبنان وفلسطين والاردن، وتتميز هذه المنطقة بتنوع الطوائف الدينية فيها وتنازعها وماجر ذلك من تغلغل لنفوذ الدول الاجنبية فيها •

ان أول محفل ماسوني أنشىء في بلاد الشام كان في بيروت عام ١٨٦٢ واسمه « محفل فلسطين » وهو تابع للمحفل الاكبر الاسكتلندي ، وكان مؤسسه القنصل البريطاني العام في الشام المستر ألدرج ، وقد انتمى اليه بعض الاعيان على الرغم من أن رسوم الدخول فيه كانت زهاء ثلاثين ليرة عثمانية • ومن الطرائف التي تروى عنه أن الحاج حسين بيهم عندما تم قبوله فيه وطلبوا منه حسب العادة أن يحلف اليمين على القرآن بأن لا يخون الجمعية ولا يبوح بأسرارها اعتذر قائلاً انه لم يتوضأ ، فسمحوا له بالوضوء في غرفة ثانية ، ثم ادى بعدئذ يمين الامانة أمام السدة.

الماسونية . (٤٩)

تضاءل شأن محفل فلسطين على أثر عودة المستر ألدرج الى بلاده في عام ١٨٦٨ ، غير أن محفلا جديدا أنشىء في العام التالي باسم « محفل لبنان » وكان تابعا للشرق السامي الفرنسي ، وقد انتمى اليه الكثير من أعضاء محفل فلسطين الآنف الذكر كما انتمى اليه آخرون من غيرهم . وكان معظم أعضاء هذا المحفل من الروم والبروتستان والمسلمين واليهود، ولم يدخله من الموارنة والارمن الا قليل . وكان رسم الدخول فيه اثنتي عشرة ليرة عثمانية . (٥٠)

وقد اعتزت الماسونية الشامية بدخول الامير عبدالقادر الجزائري فيها ، وكان دخوله في عام ١٨٦٤ عندما كان مارا بالاسكندرية في طريق عودته من الحج حيث انتمى الى محفل الاهرام ، وحين رجع الى دمشق أسس فيها محفلا تابعا للمحفل الاكبر الايطالي باسم « محفل سوريا » . وقد أخذت الماسونية من بعد ذلك تنتشر وتتكاثر في بلاد الشام شيئا فشيئا .

وفي عام ١٨٩١ استطاع شاهين مكاريوس أن يحصل على رخصة من المحفل الاكبر المصري لتأسيس محفل تابع له في بيروت باسم « محفل فينيقية » وعندما تم تأسيس المحفل ألقى شاهين مكاريوس أرجوزة طويلة نقتطف فيما يلي بعض أبياتها :

باسمك يا مهندس الاكوان ... ويا مفيض الجود للانسان
أرشدتنا الى طريق الحق ... طريق أرباب الحجى والصدق
أعني بهذا عصبة الماسون ... من عرفت بسرها المصون
قد نظمت بسلكها الملوكا ... وأحسنت بسيرها السلوكا
في كل صقع بل بكل ناد ... أبناؤها كثيرة التعداد
تلقاهم على اختلاف المذهب ... كأنهم من نفس أم وأب
فكلهم لبعضهم أعوان ... لا بينهم غل ولا أضغان

---

(٤٩) شاهين مكاريوس (فضائل الماسونية) ـ ص ١٢٨ ـ ١٢٩ .
(٥٠) جرجي زيدان (تاريخ الماسونية العام) ـ القاهرة ١٨٨٩ ـ ص ١٩٦ .

مأذم جهلاً هذه الطريقة الا قبيح الخلق والخليقة
وطغمة رامت لها الأضرارا فاكتسبت بفعلها الصغارا
تريد تقويض صروح فضلنا مع أن صنعة البنا من شغلنا
ومن يكن أس بناه التقوى عليه أيدي الاعتدا لا تقوى
فاتحدوا يا اخوتي اتحادا يفت من جمع العدا الاعضادا
وابسطوا الأكف بالدعاء الى مفيض الجود والعطاء
بأن يقي سلطاننا العثماني من غير الايام والازمان
مليكنا عبدالحميد الغازي منقذنا من ربقة الاعواز
لا زال ماضي الحد في أعدائه والنصر معقوداً على لوائه (٥١)

ان هذه الارجوزة لم تنفع المحفل شيئاً وربما أضرت به ، فقد صدر أمر السلطان عبدالحميد في أواخر صيفه ١٨٩٢ باغلاق المحفل مما اضطر اعضاؤه الى عقد اجتماعهم في المغاور والكهوف خارج بيروت حذراً من الجواسيس . وقد كتب الاعضاء الى المحفل الاكبر المصري يسألونه : ماذا يفعلون ؟ فأجابهم المحفل الاكبر يأمرهم بأن يوقفوا اجتماعاتهم ويطيعوا أمر الحكومة ريثما تمر هذه السحابة ويقتنع السلطان عبدالحميد باخلاص الماسونيين لسدته الملوكية . (٥٢)

ومما يلفت النظر ان السلطان عبدالحميد لم يغلق المحافل الماسونية الاخرى في بلاد الشام ، بل اكتفى باغلاق « محفل فينيقية » وحده . والظاهر أنه كان يرتاب من هذا المحفل بوجه خاص لعلاقته بالمحفل الاكبر المصري ، وكأنه كان يخشى من تغلغل النفوذ البريطاني عن طريقه الى بلاد الشام .

مهما كان الحال فان انتشار المحافل الماسونية في بلاد الشام أدى الى ظهور صراع شديد بين أتباعها وأعدائها ، فقد كان من ألد أعدائها رجال الدين من مختلف الطوائف وعلى رأسهم اليسوعيون ، وأخذ هؤلاء يشوهون سمعة الماسونية ويلصقون بها شتى التهم .

---

(٥١) شاهين مكاريوس (الآداب الماسونية) ـ ص ٢٠٧ ـ ٢٠٩ .
(٥٢) شاهين مكاريوس (فضائل الماسونية) ـ ص ٦٢ ـ ٦٣ .

ان أول كتاب صدر في الشام ضد الماسونية كان بقلم رجل دين شيعي اسمه الحاج عزالدين محمد بن علي الشامي العاملي ، وكان صدور الكتاب فى عام ١٨٧٢ بعنوان « كشف الظنون عن حال الفرمسون » ، وقد أتى المؤلف فيه بمختلف الادلة العقلية والنقلية التي هي في رأيه تصد العاقل عن الدخول في الماسونية ، فهو يقول مثلا : « ان هذا البيت لا يمنع أحدا من أهل الملل لنحلته ، وأكثر أهله في الهند مجوس خارجون عن الملل الثلاث . وحيث صح ذلك ، وكان هذا البيت مما يدخله الملحد والموحد ، فكيف تدخله أيها المسلم اذا لم يظهر لك منه الا الاخوية وهي لا تجوز في مذهبك وقد قال ربك جل وعلا على لسان نبيك : ما جعل بينك وبين الذين عاديتهم منهم مودة ... » (٥٣)

ثم توالى بعد ذلك صدور الكتب في ذم الماسونية والصد عنها ، وكان أهم تلك الكتب وأشهرها كتاب « السر المصون في شيعة الفرمسون » الصادر في بيروت في عام ١٩١١ بقلم الاب لويس شيخو اليسوعي . وهو كتاب شديد اللهجة في ثلب الماسونية وكيل التهم لها .

يقول جرجي زيدان ــ وهو ماسوني من أصل لبناني ــ في كتابه « تاريخ الماسونية العام » : « وأشد مقاومي الماسونية في سورية جماعة الجزويت وقد أنشأوا لهذا الغرض وغيره جريدة دينية في بيروت دعوها جريدة البشير وموضوعها مقاومة كل المذاهب والاديان الا المذهب الكاثوليكي ، والايقاع بكل الجماعات الا جماعة الجزويت ... وتأمل بما أقيم في طريق الماسونية من مثل هذه العقبات التى تخور لها الهمم وتكره من أجلها الأعمال. أما العامة فلا تسأل عما غرس في اذهانهم من الكره والاحتقار لجماعة الماسون حتى أصبح اسمهم مرادفاً لادنى صفات الاحتقار عندهم ، فكانوا اذا أرادوا المبالغة في وصف أحد الكفرة والمنافقين لا يجدون أنسب من قولهم : فارماسون كافر منافق مختلس وما شاكل ... » (٥٤)

---

(٥٣) لويس شيخو (المصدر السابق) ــ ص ١٩٧ ــ ١٩٨ .
(٥٤) جرجي زيدان (المصدر السابق) ــ ص ١٩٦ ــ ١٩٨ .

SS

وقد ذكر شاهين مكاريوس مثل هذا في كتابه « فضائل الماسونية » حيث قال : « وكان الشائع عن الماسونيــة في سورية أنهـا جمعية كفـر لا تعترف بوجود الخالق جل وعلا ، وأنها من أكبر العوامل على ازالــة الديــن ، ومن دخلها مهمـا كان صالحاً يصـير شريرا ولا يعود يمكنـه الخروج منها ، وان من يبوح بأسرارها تعرفه حالاً فتأتي بصورة من رسمه وتطعنها بحربة فيموت صاحبها ، وكانوا يروون أن فلانا مات على هــذه الصورة ، وآخر على صورة ثانية ، فانهم سحروه فمات ، وكانوا يتهمونها بالعرافة والتنجيم وكل نوع من المنكـر • وسمعت الخواجه فارس تويني الذي كان بمطبعة الاميركان يتظلم مرة من سوء المعاملة فيقول : لو كنـت مجوسياً أو ماسونيا ما كانوا يعاملونني هذه المعاملة • وسمعت آخر يشتم خصمه أقبح الشتائم ولم يغضب الى أن قال له : يا ابن الفرمسوني ، فقـام وأمسك به وصار ينادي : ياناس اشهدوا، يشتمني ويقول ياابن الفرمسوني، انت فرمسوني وكل أهلك فرمسون ... » (٥٥)

يبدو أن هذه الحالة قد تغيرت الى النقيض منها على أثر الانقــلاب العثماني في عام ١٩٠٨ • فقد أخذ الماسونيون يرفعون رؤوسهم فخـارا زاعمين أنهم هم الذين قاموا بالانقلاب وأن الدولة أصبحت في يدهم ، وصار الكثير من الناس يتزلفون اليهم كما هي عادتهم في مثل هــذه الظروف • يقول عجاج نويهض وهو قد أدرك ذلك العهد : « ان الحـال في المملكة العثمانية تغيرت بسرعة شديدة من يوم أعلن الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ فانتشرت الماسونية في أرجاء المملكة انتشارا واسعا ، وفتح الباب على مصراعيه ، وأصبح العربي ــ مسلماً كان أم مسيحياً ــ اذا انتمى الى الماسونية يتباهى ويعتز ويتمايل تمايل الطاووس ، هذا اذا كان من عامة الناس ، أما اذا كان من الخاصة فانه يروح ويجيء موهما الناس أن عنـده مفاتيح القدرة السحرية وأن له اخوانا يساعدون أخاهم في كل نائبــة وينجدونه في أعماله ، وعندما كانت تجري الانتخابات العامة للبرلـمـان

(٥٥) شاهين مكاريوس (المصدر السابق) ــ ص ١٢٠ •

العثماني ... كانت الماسونية هي العامل الخفي الاول ... ». (٥٦)

وكان من شأن هذا الانتعاش الذي أصاب الماسونية في عهد الدستور ان زادت حدة العداء بينها وبين رجال الدين ، وبهذا انقسم الناس في بعض المدن والقرى اللبنانية الى فريقين متطاحنين ، فريق مع الماسونية وفريق مع القساوسة .

كتب نعوم لبكي في جريدة « المهاجر » في ٣ حزيران ١٩١٠ مبدياً أسفه من هذا التطاحن بين الفريقين ، وذاكرا ما ينتج عنه من عواقب وخيمة حسب رأيه ، فهو يقول : « كلما قويت شوكة الماسونية في لبنان يضعف النفوذ الاكليريكي ، ومتى سقطت هيبة الاكليروس تنحل شيئاً فشيئاً وحدة الموارنة لان الرؤساء هم واسطة عقدها ، ولا بد لليد التي تقبض على زمام هذه الوحدة من قوة أويفلت . ومتى انحلت وحدة الموارنة بضعف اليد التي تقبض على زمامها تنحل ايضا الرابطة التي بين الموارنة وفرنسا ، لان الاكليروس الماروني هو الصلة بينهما ، ويقل لذلك نفوذ الفرنسويين في سورية . هي خطة من أرادوا الكيد للنفوذ الفرنسوي ... فانت ترى من ذلك وهو صفحة صغيرة من صفحات كبيرة أن الماسونية الحاضرة غير التي أردنا انتشارها في لبنان ، لذلك ندمنا على أننا ساعدنا هذه الماسونية ونعلن للناس أننا كفرنا بها ... » . (٥٧)

مرت على الماسونية الشامية أثناء الحرب العالمية الاولى فترة خمود حيث قل في تلك الفترة نشاطها الى الحد الاقصى ، غير انها عادت الى النشاط من جديد بعد انتهاء الحرب ، وربما ازدادت آنذاك نشاطا بتشجيع من الانكليز والفرنسيين . يقول عجاج نويهض عن تلك الايام : « صارت الماسونية سلعة يقتنيها كل راغب بأرخص ثمن حتى وصلت الى القرى وبهرت عيون الطبقة العامة » . (٥٨)

وفي عام ١٩٣٩ اجتمع كبار الماسونيين الشاميين فأسسوا محفلا أكبر

---

(٥٦) جريدة البلد البغدادية في عددها الصادر في ١٩ نيسان ١٩٦٧ .

(٥٧) لويس شيخو (المصدر السابق) ـ ص ٣١٦ ـ ٣١٧ .

(٥٨) جريدة البلد البغدادية في عددها الصادر في ١٩ نيسان ١٩٦٧ .

ليجمع شمل المحافل الشامية ، وانتخبوا عطا الايوبي استاذا أعظم له .
وقد اعترفت المحافل الكبرى في العالم بهذا المحفل غير أنه توقف عن العمل بعد فترة قصيرة من تأسيسه من جراء اندلاع الحرب العالمية الثانية.
وفي عام ١٩٥٠ انعقد مؤتمر ماسوني حضره مندوبون من البلاد العربية وقرروا احياء المحفل الاكبر من جديد . (٥٩)

الماسونية في العراق :

ليس لدينا معلومات مضبوطة عن نشاط الماسونية في العراق في العهد العثماني ، وكل ما نعرفه في هذا الصدد هو أن الشيخ خزعل أمير المحمرة كان ماسونياً نشيطاً وقد نال من الماسونية أوسمة لقاء خدماته لها . (٦٠) وليس من المستبعد أنه ساعد على تأسيس المحافل الماسونية في العراق وأدخل فيها بعض المتصلين به من اعيان العراق وأدبائه . ولا ننسى أن الشيخ خزعل كانت له صلات كثيرة في العراق ولا سيما في البصرة والفرات الاوسط .

وقد ازدهرت الماسونية في العراق عقب انتهاء الحرب العالمية الاولى بتشجيع من بعض المسؤولين البريطانيين . عثرت في مصدر ماسوني انكليزي على هذه العبارة : « أخبرنا الاخ جي . في . كولز أن الماسونية ازدهرت في العراق منذ نهاية الحرب العالمية الاولى حتى قيام اسرائيل ، وعند ذلك تعطلت موقتا ، ثم انتعشت من جديد حتى قيام الجمهورية العراقية » . (٦١)

ويرجح في ظني أن البصرة كان لها القدح المعلى في الماسونية قبل غيرها من المدن العراقية ، ويمكن ان نعزو سبب ذلك الى كونها ميناءاً لها اتصال بالاجانب منذ زمان بعيد بالاضافة الى وقوعها تحت

---

(٥٩) عبد الحليم الياس الخوري (الماسونية ذلك العالم المجهول) ـ بيروت ١٩٥٤ ـ ص ٥٨ ـ ٥٩ .

(٦٠) مصطفى عبد القادر النجار (التاريخ السياسي لامارة عربستان العربية) ـ القاهرة ١٩٧١ ـ ص ١٠٨

(61) Pick And Knight (op . cit .) — P 214 :

تأثير الشيخ خزعل . نشرت بعض الصحف العراقية في ١٢ كانون الاول ١٩٢٥ خبرا مفاده : ان المحافل الماسونية في البصرة احتفلت بوضع الحجر الاساسي لبناء المحفل الماسوني الواقع على طريق النهر ، وقد افتتح المحفل المستر مور مبيناً أن المحافل الماسونية في البصرة قد تأسست سنة ١٨٣٩ وهي تضم الآن ما يقارب السبعمائة عضو . (٦٢)

وفي عام ١٩٢٦ حدثت حادثة في البصرة لها دلالتها في هذا الشأن خلاصتها : أن رجلا كاثوليكيا من الطائفة الكلدانية كان ماسونيا من أعضاء محفل « صدق الوفاء » التابع للمحفل الاكبر المصري ، ولما مات هذا الرجل رفض القساوسة اجراء المراسيم الدينية له ومنعوا من دفنه في الكنيسة الكاثوليكية مع العلم أنه كان قد ساهم في بنائها من ماله الخاص. وقد أثار الماسونيون في البصرة وبغداد ضجة حول هذه القضية وكتبوا المقالات في الصحف التابعة لهم هاجموا بها القساوسة الكاثوليكيين .

ففي ١٥ كانون الاول ١٩٢٦ نشر عبدالرحمن أفندي الهاشمي في جريدته « الاخاء » مقالا بعنوان « فلتحي المباديء الحرة وليعش الماسون في مشارق الارض ومغاربها » ندد فيه بعمل القساوسة وانتقدهم انتقادا لاذعا . وفي ٢٣ من الشهر نفسه نشرت جريدة « العراق » البغدادية مقالا بعنوان « الانتقام من الميت » قالت فيه : « ليس أمتناع المطران الرئيس من اجراء المراسيم المعتادة هو الذي يؤلم القلوب بل العذر الذي بنى عليه تمنعه وهو كون الميت ماسونيا » . ثم أخذت الجريدة تصف المرحوم بأنه كان مشهوراً بالتقوى والمواظبة على الصلاة واداء الفروض الدينية التي تفرضها الكنيسة الكاثوليكية ، وأنه بقدر ما كان مخلصا في دينه كان حريصا على تنفيذ المباديء الماسونية .

وفي اليوم التالي ـ أي في ٢٤ كانون الاول ١٩٢٦ ـ نشرت جريدة « الاوقات العراقية » مقالا بالانكليزية في الموضوع نفسه بعنوان « سبيلك رحمة ومودة » . وبعد أربعة أيام نشرت الجريدة نفسها مقالا بالعربية

---

(٦٢) جريدة البلد البغدادية في عددها الصادر في ١٢ كانون الاول ١٩٦٥ .

بتوقيع « ماسوني » هدد فيه القساوسه بقوله : « وهل تعلمون أنكم بعملكم هذا تجعلون منتسبي الجمعية الماسونية مضطرين الى أن يفتشوا عن الحقائق الواردة في الاناجيل الشريفة ويقايسوها بالاعمال الاخيرة » . (٦٣)

مرت الماسونية العراقية في الثلاثينيات وما بعدها بمرحلة سادها التكتم الشديد ، وأصبح الشخص الماسوني لا يعلن عن ماسونيته أمام الناس وربما أنكرها . ويبدو ان السبب في ذلك هو استفحال الدعاية النازية ثم الدعاية الشيوعية في العراق آنذاك . والمعروف عن النازية والشيوعية أنهما متفقتان على احتقار الماسونية ومحاربتها ، فالنازية تعتبر الماسونية صنيعة النفوذ البريطاني والفرنسي بينما الشيوعية تعتبرها منظمة برجوازية .

لقد صار من الصعب الحصول على معلومات يوثق بها عن المحافل الماسونية في العراق وعن عدد اعضائها ، وقد انتشرت بين الناس احيانا قوائم بأسماء الماسونيين في العراق ، واني احتفظ بواحدة منها ، ولكني لا أشعر بالثقة فيها . والمظنون أن بعض الناس اتخذوا من تلك القوائم وسيلة للـ ـد بخصومهم ، فهم يحشرون أسماء الخصوم في القائمة وينشرونها ، وعند هذا يحلف هؤلاء المساكين بأغلظ الايمان أنهم ليسوا ماسونيين فلا يصدقهم الناس .

نشرت جريدة « العرب » البغدادية في ٢٩ آب ١٩٦٤ خبرا قالت فيه : انها علمت من مصادر خاصة أن عدد المحافل الماسونية في الوقت الحاضر يبلغ ثمانية عشر محفلا ، وان ثلاثة أو أربعة منها في البصرة . ولا أدري الى أي مدى يمكن الاعتماد على هذا الخبر .

زرت منذ عهد قريب الدار التى كانت مقرا للماسونية في بغداد سابقاً ، وهي تقع في الكرادة الشرقية ، فلاحظت فيها ما يدل على وجود ثلاثة محافل في بغداد هي : (١) محفل بغداد رقم ٤٠٢٢ ، (٢) محفل العراق رقم ٤٤٧١ ، (٣) محفل دار السلام رقم ٥٢٧٧ . وهناك

---

(٦٣) أبو صادق (المصدر السابق) ـ ص ١٩٢ ـ ٢٢٢ .

اشارة الى شيء رابع اسمه « فصل بغداد » لست أدري ما هو المقصود منه.
وقد وجدت على جدران قاعة المقر أسماء رؤساء المحافل منذ عام ١٩١٩ حتى عام ١٩٥٧ ، وأكثرهم بريطانيون والقليل منهم عراقيون .

وقد لفت نظري في قاعة المقر قطعة من المرمر موضوعة في أسفل أحد العمودين القائمين قرب المدخل السري للقاعة ، وقد كتب عليها بالانكليزية ما ترجمته : « هذا الحجر الاساسي لقاعة بغداد الماسونية وضع من قبل صاحب الفخامة المندوب السامي السر هنري دوبس ، وعاونه الاخ المحترم الكولونيل جون چاپلوارد في ٢٥ تموز ١٩٢٥ » . ورأيت في جهة أخرى من العمود قطعة ثانية مكتوب عليها : « هذا الحجر أعيد وضعه من قبل الاخ الفائق الاحترام السر جون چاپلوارد المفتش الاعظم للعراق في ٣٠ تموز ١٩٤٠ » .

في عام ١٩٥٨ عندما قامت ثورة الرابع عشر من تموز أسرعت الحكومة العراقية فاغلقت المحافل الماسونية في كافة انحاء البلاد ، فكانت بذلك أول حكومة عربية تفعل ذلك . وقد جرى ذكر للماسونية في المحكمة العسكرية العليا الخاصة أثناء محاكمة الدكتور محمد فاضل الجمالي وعبدالجبار فهمي . تنقل فيما يلي الحوار الذي جرى بين الجمالي ورئيس المحكمة في موضوع الماسونية لكي يطلع القاريء فيه على مبلغ اختلاف وجهة النظر بين اتباعها وخصومها :

الرئيس : فسروا لنا أن الماسونية جمعية انسانية خيرية ، وسميها ما شئت .

المتهم : سيدي أنا لا أعرف .

الرئيس (مقاطعا) : ألم تكن جمعية صهيونية يهودية استعمارية ؟

المتهم : كلا . العفو .

الرئيس : ما هي ؟ تحت التاج البريطاني .

المتهم : الماسونية حسب ما أفهمها جمعية سرية ذات رموز تستهدف العلاقات الانسانية والخدمة الاجتماعية بدون أن تمس دين الرجل أو عقيدته السياسية ، وكل بلد اليوم ، مثلا مصر ترون أن عندهم محفل

أعظم وعندهم محافل مصرية .

الرئيس : وعلامته المثلثات المتقاطعة ، ألم تكن صهيونية ؟

المتهم : فيها رموز مختلفة من الاديان المختلفة .

الرئيس : رمز يهودي ؟

المتهم : العفو .

الرئيس : أي صهيوني ، أي استعماري ؟

المتهم : كلا . اليوم مثلا اذا ذهبتم الى أي بلد ، الى تركيا ، ليس هناك استعمار ، المفروض أنها ليس جمعية استعمارية ، جمعية وأغراضها فقط تجمع الجماعة الذين يجتمعون ويكونوا بينهم أخوة وتعاون اجتماعي.

الرئيس : هل يصح وأنت الرجل الوطني المخلص الفاضل الشريف أن تنتسب الى جمعية لم تكن وطنية سواء كانت عراقية أو غيرها من الاقطار الاخرى .

المتهم : سيدي اسمحوا لي ، الماسونية تؤسس وطنية في أي بلده اليوم مثلا العرب يستطيعون أن يكون محفل لهم.ولا يقبلوا اليه ابن بلد آخر .

الرئيس : هل يحتاج لها الشعب العراقي ؟

المتهم : سيدي هذا موضوع شخصى . اليوم أنا أقرأ المجلة الفلانية ، أو الجريدة الفلانية ، ليس ضروريا أن يحتاج الشعب العراقي المجلة الفلانية .

الرئيس : هل يقرأ مجلة البدائع ؟ هل يجوز لشاب متثقف قراءة مجلة البدائع ؟ هل تباح القراءة لكل كتاب كان ؟ الكتاب شبيه القارىء. الكتاب خير جليس .

وهنا قام المدعي العام فقرأ رسالة وصلته قبل قليل يدعي صاحبها أنه كان ماسونيا وخرج منها وهو اليوم يريد فضح اسرارها ، ثم اخذ يصفه الماسونية فقال انها تعمل في خدمة التاج البريطاني ، وان شروط القبول فيها التحرر والكفر بالدين والشرف والقومية ، وان العضو يقسم اليمين بالسلاح الذي يختاره وهو ملزم بتنفيذ الامر المفروض عليه

حتى التضحية بدينه وعرضه وقوميته ، وان الحكومة البريطانية تمد الماسونية في جميع أنحاء العالم بالمال والنفوذ والدسيسة ، وترقي الاعضاء الى مناصب الدولة التي يعيشون فيها لكي تفعل ما تشاء بوساطتهم ، وكثيرا ما نسمع عن حكام استقالوا عندما عجزوا عن انقاذ أخيهم الماسوني من التجريم • وقد أشار صاحب الرسالة الى أنه لم يذكر اسمه الصريح لانه يخاف من اغتيال الماسونيين له •

المتهم : سيدي هذه والحقيقة على طرفي نقيض • هذه رسالة كاتبها لا يعرف شيء عن الماسونية مطلقاً • اولا الماسونية لا علاقها لها ••

الرئيس (مقاطعا) : لا يزال لك أمل في انقاذك من قبل الماسونية • هذا الشعب العراقي ومحكمته لا يمكن لاي سلطة أن تؤثر عليه • المحكمة حرة • والشعب العراقى حر (تصفيق من الحاضرين) • اننا لا نخاف من أية قوة في العالم في سبيل خدمة وطننا وشعبنا • ان دمائنا رخيصة في سبيل شرفنا • شرفنا الوطني والانساني (تصفيق من الحاضرين) •

المتهم : سيدي الماسونية حولها كتب ومؤلفات كثيرة • أولا الماسونية ليس لها علاقة بالبريطانيين ، خاصة كل بلد له ماسونيته • النقطة الاخرى أن لا يدخل الماسونية من لا يؤمن بالشرف والعرف • وكذلك القسم وما أشبه الذي ذكره ليس له ضمنا الحقيقة • ان هذا واجبي أن أقوله للتسجيل فقط • فما ورد في هذه الرسالة سيدي باطل من أساسه •••(٦٤)

الخاتمة :

في شهر نيسان من عام ١٩٦٤ أصدرت الحكومة المصرية أمرها باغلاق جميع المحافل الماسونية في مصر • وفي ١ أيار صدرت مجلة « القوات المسلحة » القاهرية وهي تحتوي على تحقيق صحفي مثير عن الماسونية بالعناوين التالية : « نصر صحفي ــ القوات المسلحة تدخل الغرفة السوداء في المحفل الماسوني ــ هياكل عظيمة ــ توابيت للموتى ــ

---

(٦٤) وزارة الدفاع (محاكمات المحكمة العسكرية العليا الخاصة) ــ بغداد ١٩٥٩ ــ ج٣ ص ١١٩١ ــ ١١٩٤ •

أول صور تنشر في العالم لطرق الارهاب الماسوني » •

وفي ٣ حزيران نشرت مجلة « آخر ساعة » القاهرية تحقيقاً آخر عن الماسونية ذكرت فيه الاسباب التي حدت بالحكومة المصرية الى اغلاق محافلها وقالت مانصه : « عندما طلبت الجمعيات الماسونية بالجمهورية العربية المتحدة تسجيل تنظيماتهم بوزارة الشؤون الاجتماعية طلب منهم المسؤولون تطبيق قانون الجمعيات عليهم ، وهذا القانون يحتم خضوع كل الجمعيات داخل الجمهورية لاشراف وزارة الشؤون الاجتماعية ويكون للمسؤولين في الوزارة حق التفتيش على أعمال الجمعية للتأكد من عدم مخالفتها القانون • ورفضت الجمعيات الماسونية ذلك ، لانه يتعارض مع السرية التامة التي تعيش فيها ، فقررت الحكومة الغاء الجمعيات الماسونية في مصر » •

وقد علقت مجلة « آخر ساعة » على ذلك قائلة : « ولم يكن هذا هو السبب الوحيد لالغاء الجمعيات الماسونية ، ان أمن الدولة وسلامتها اقتضيتا الغاء هذه الجمعيات أيضا • فقد قررت الصهيونية استغلال المحافل الماسونية في جميع أنحاء العالم لمزاولة نشاطها نظرا لضمان سرية ما يجري في داخل هذه المحافل ••• يكفي أن تعرف أنه في احد الاجتماعات لقيادة الحركة الصهيونية العالمية الذي عقد في جنيف منذ ثماني سنوات تم اتخاذ القرار السري انه على جميع المنظمات الصهيونية في جميع أنحاء العالم ، وفي الدول المعادية لاسرائيل بصفة خاصة ، التسلل الى الجمعيات الماسونية ومزاولة نشاطهم والاندماج بهم واستغلال السرية المفروضة على كل طقوسها لمصلحة الاغراض الصهيونية العالمية »

ولكي لا يقع الماسونيون كلهم في موضع التهمة أعلن أنور أحمد مدير منطقة القاهرة للشؤون الاجتماعية ــ وهو الرجل الذي أمر بحل الجمعيات الماسونية ــ فقال : « ان كثيرا من أعضاء هذه الجمعيات مواطنون صالحون شرفاء الا انهم لا يدركون الخطوره التي قد تعود على الدولة من جمعياتهم، اذ أن السرية التامة التي تفرضها الجمعيات الماسونية على نشاطها تكون فرصة مواتية لتسلل العناصر المعادية للدولة •• وكما رأينا فان الصهيونية

لم تفتها الفرصة وقررت استغلالها » .

ومهما كان الحال فقد كان لقرار الحكومة المصرية في اغلاق المحافل الماسونية صدى قوى في الرأي العام في مصر والبلاد العربية الاخرى، وأخذ الكثير من الماسونيين يخرجون منها أو يعلنون براءتهم منها .

ان أهم أثر للقرار المصري ظهر في الاردن ، فقد أصدر الماسونيون هنالك بياناً نشروه في الصحف ، وهو بيان طويل نكتفي بالاشارة الى بعض النقاط المهمة منه . يعترف البيان بأن الصهيونية استغلت الماسونية العالمية استغلالاً مجرماً في أبشع صورة عرفتها الانسانية ، ولكن البيان يعود فيقول ان العرب لا يجوز لهم أن يخرجوا من الماسونية ويتركوا الصهيونية حرة تعمل فيها ما تشاء . ان من واجبهم الديني والقومي أن لا يتركوا هذا الميدان خالياً من صوت العرب الداوي حتى لا ينفرد الصهاينة في بث دعايتهم المضللة فيه بشتى وسائل الاغراء والنفوذ . ولهذا قرر الماسونيون الأردنيين أن يؤسسوا منظمة ماسونية خاصة باسم « الحركة الماسونية العربية » هدفها التعاون مع المحافل الماسونية المتعاطفة معهم في مختلف أنحاء العالم من أجل انصاف عرب فلسطين واطلاع العالم على مأساة اللاجئين . وكان هذا البيان موقعاً من قبل « القطب الاعظم » عبد المجيد مرتضى ، و « السكرتير الاعظم » الدكتور سليمان البستاني .

وعلى أثر نشر هذا البيان أصدر المفتي العام في الاردن فتوى طويلة جوابا على استفتاء ورد اليه عن الحكم الشرعي في الماسونية . والملاحظ أن هذه أول فتوى دينية صدرت في الاسلام عن الماسونية اذ لم يكن قد صدر قبلها أية فتوى صريحة في هذا الموضوع . ننقل فيما يلي جزءا من هذه الفتوى :

« ان الذي يغلب على الظن ان الماسونية من بدع اليهود ... ومن الدليل على أن هذه الجمعية من بدع اليهود ما فيها من شارات يهودية كمثل نجمة سليمان وان اليهود هم الذين يقومون بها ويتولونها ويروجونها ... وان مما يريب في هذه الماسونية شدة كتمان مبادئها واخفاء مذاهبها ومداخلها ومخارجها حتى لا يظهر دعاتها من أمرها الا ما يكون بمنزلة

الطعم الذي يكون في الفخ للصيد وهو انها دعوة انسانية وفيها للداخل نفع كبير وخير كثير ، وانه ان لم يكن موظفا فسيوظف ، وان كان موظفا فسيرفع الى أعلا المراتب واكبر المناصب وهلم جرا ... ونحن لا نرى أنه يسوغ لنا أن نفتي في شيء لا نعرف كنهه ولا ندري حقيقته ، والذي نفتي به من مبادىء هذه الجمعية ما نقطع به وهو تقديم الاخوة الماسونية على الاخوة الدينية والاخوة القومية ، وهذا في حقيقته ومآله هو تقديم للماسونية على الدين ، وهذا عند التأمل كفر ... وان مبدأ الماسونية هذا الذي يقوم على تقديم الاخوة الماسونية يضمن الموالاة للاخوان اليهود ، والموالاة هي النصرة وأن يكون كل واحد من الموالين بمنزلة الاب من الابن ، وقد كانت الموالاة عند العرب تقدم على القرابة ، وقد نهى الله تعالى عن تولي اليهود الذين هم أعداء ... واذا استفتانا أحد أنه هل يجوز ان يدخل الماسونية فان فتوانا أنه لا يجوز لان مبادىء الماسونية مجهولة وليس مما يجوز أن نبيح الدخول فيما يريب ولا تعلم حقيقته وهذا ما يقضي به الحديث الذي يعد من قواعد الاسلام وهو (دع ما يريبك الى مالا يريبك) ، بل هذا ما يقضي به العقل أيضا لانه لو سألك سائل عن طريق لا تعرفه هل يسلكه ، فانه لا يجوز لك أن تشير عليه بسلوكه لان في ذلك شيئا من التغرير وهذه فتوانا فيما نقطع به ...»(٦٥)

ان هذا الذي حدث في الاردن ، والذي حدث في مصر قبله ، كان له أثره في سوريا ولبنان . ففي ٩ آب ١٩٦٥ أصدرت الحكومة السورية أمرها باغلاق المحافل الماسونية وأندية الروتاري في بلادها ، وأنذرت كل من يقوم بنشاط فيهما بسوقه الى المحاكم العسكرية المختصة بتهمة الانتماء الى جمعيات سرية ذات طابع دولي . أما في لبنان فقد كان الاثر مختلفا تبعا لطبيعة التركيب الاجتماعي والسياسى الذي يتميز به لبنان عن غيره من البلاد العربية .

المعروف في لبنان أن بعض كبار السياسيين والاثرياء هم ماسونيون ،

---

(٦٥) مجلة الشريعة (اسرار الحركة الماسونية) ـ عمان ١٩٦٤ ـ ص ٣٣ ، ٤٠ ـ ٥٤ .

وكان المقرر ان يعقد في بيروت في العشرة الاخيرة من شهر آب عام ١٩٦٥ مؤتمر ماسوني عالمي يحضره زهاء ألفي ماسوني يمثلون المحافل الكبرى من جميع أنحاء العالم . ولكن الحكومة اللبنانية أصدرت في اللحظة الاخيرة قرارا بالغاء عقد المؤتمر ، وأعلن أديب الفرزلي نائب رئيس مجلس النواب وهو قطب ماسوني يقول : انه هو الذي طلب من الحكومة اللبنانية الغاء عقد المؤتمر خوفاً من بعض الماسونيين الصهاينة أن يتسللوا الى لبنان عن طريقه . (٦٦)

اضطر المحفل الاكبر اللبناني تجاههذا القرار أن يدعو عدداً من أقطاب الماسونية في العالم لزيارة بيروت ، وقد وصل هؤلاء الى بيروت في أواسط آب ، فاستقبلهم أديب الفرزلي وذهب بصحبتهم الى السراي حيث زاروا رئيس الوزراء رشيد كرامي ...

يبدو أن ضغط الرأي العام دفع الحكومة اللبنانية أخيرا الى اغلاق المحافل الماسونية على منوال ما فعلت الحكومة السورية والحكومة المصرية قبلها ، ولكن هذا الاغلاق على أي حال لم يكن جديا ، فقد ظلت المحافل الماسونية في لبنان تعقد اجتماعاتها دون أن تتدخل السلطة في أمرها . وفي ١٩ كانون الثاني ١٩٧٢ ذكرت وكالة الانباء الفرنسية خبرا مفاده أن صائب سلام رئيس وزراء لبنان أصدر قرارا بالغاء جميع اجراءات المنع التي اتخذتها الوزارات السابقة ضد الماسونية ، وينص هذا القرار على « أن مجلس الموقرين اللبنانيين من الدرجة الثالثة والثلاثين، واللجنة الماسونية العليا للدرجات العليا في لبنان ، قد أصبح مصرحاً لهما اعتبارا من الآن بممارسة نشاطهما طبقاً للمادة السادسة من قانون المنظمات » . (٦٧)

---

(٦٦) ابو صادق (المصدر السابق) ــ ص ١٧٤ .

(٦٧) جريدة الثورة البغدادية في عددها الصادر في ٢٠ كانون الثاني ١٩٧٢ .

SS

الفهرس

حول الاخطاء المطبعية

وقعت في هذا الجزء بعض الاخطاء المطبعية على الرغم من شـــدة العناية بالتصحيح ، وهي أخطاء نأمل أن يفطن لها القارىء ويصححها بنفسه.

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ١٢٠ لسنة ١٩٧٢

SOCIAL ASPECTS Of IRAQI MODERN HISTORY

by

Dr. **ALI WARDI**
EMERITUS PROFESSOR OF SOCIOLOGY
IN THE UNIVERSITY OF BAGHDAD

VOLUME TWO

SECOND EDITION

انتظروا الجزء الرابع

وهو يبحث في المعارك الحربية التي وقعت في العراق
خلال الحرب العالمية الاولى وما أدت اليه
من أحداث اجتماعية تدل على طبيعة تكوين
الشخصية العراقية .